كلمة الوزارة

الإصرار على الانتصار

محمد الأحمد
وزير الثقافة

يسعدني ويشرّفني أنْ أفتتحَ هذا المهرجان الثقافي، الذي يعقد أوَّل مرة في درعا بعد الانتصارات التي حققها ويحققها جيشنا الباسل في تحرير كل بقعة من وطننا الغالي من فلول العصابات الإرهابية المسلّحة وداعميها ومموليها.

لقد كنتم، يا أهل درعا الكرام، أوَّل من عانى من جرائم الإرهاب التكفيري، وأوَّل من تصدّى له ووقف في وجهه. ما زال هذا الإرهاب يطل برأسه بين حين وآخر كي يثبت أنه ما يزال موجوداً، ولكنه في حقيقة لا يفعل سوى أنه يؤكد يأسه وعجزه عن الانتصار على عزيمة شعبنا العظيم وتصميمه على سحق كل فلول الفكر الظلامي وذيوله.

❀ كلمة السيّد وزير الثقافة في حفل افتتاح مِهْرجان درعا الثّقافي، ٢٢آب ٢٠١٩م.

إن درعا، بأرضها الصلبة وسهولها الخضراء وأبنائها المعطائين الأباة الميامين لَتُشَكّل قبساً مضيئاً من التاريخ السوري الممتد في أعماق الزمان، ونفحة عطرة من الثقافة السوريّة الموغلة في أمداء الماضي وعمقه المدهش. لقد كانت وستظل تقف وقفة الفارس الشامخ الغيور على أرضه وعرضه وعزة بلاده. وكانت وستظل رافعة أساسية من روافع صمودنا الشعبي وبسالتنا الوطنية.

أيُّها الإخوة

يقال: إنّ الثقافة تحتاج إلى الهدوء والطمأنينة، كي يكتب الأدباء أدبهم وينظم الشعراء قصائدهم ويؤلف الملحنون موسيقاهم، بعيداً عن أزيز الرصاص ودوي المدافع. هذا صحيح إلى حد، ولكن سورية خرقت هذه القاعدة وأبطلتها. ففي زمن الحرب الكونيّة المدمِّرة على بلدنا، وظروف الحصار الدولي الخانق علينا، لم تتوقف وزارة الثقافة عن أداء أعمالها ونشاطاتها، بل ضاعفت من هذه الأعمال والنشاطات. فمنذ بداية الحرب أصرَّ السوريون بكبرياء وشموخ على أن يعيشوا حياتهم باعتيادية، دون أن يرضخوا لإيقاع الحرب ووقْعها الثقيل، متكيّفين مع الصعاب، ومع تبعات الحصار الجائر، فقد كان هذا عهدهم دائماً في المحن والنكبات، أي أنْ يحوّلوا آلامهم إلى قصائد وأغانٍ ولوحات تبهر الآذان والعيون برقتها وجمالها.

وهذا بحد ذاته إصرارٌ على الانتصار، ورفض للانكسار والهزيمة، وقد تجاوز شعبنا بذلك حدود المستحيل!.. وكان لهذا الصمود الأسطوري مردودُه الملوس في التأثير في الرأي العام العربي والعالمي وتحويله لمصلحة سورية ممزوجاً بالإعجاب والتقدير.

كل هذا كان ممكناً بفضل قلعتنا المنيعة الراسخة التي تحمي الحمى، وتدافع عن حقولنا وبيوتنا وشوارعنا وأولادنا، وأعني بها جيشنا العربي السوريّ البطل وجنوده البواسل.

لهذا اسمحوا لي أنْ أتوجَّه إليهم بالشكر والامتنان على ما بذلوه ويبذلونه من أجل الذود عن أرض الوطن، وأن أتوجه بتحية إكبار وإجلال إلى شهداء جيشنا العظيم الذين ارتقوا وهم يدافعون عن الكرامة السوريّة.

واسمحوا لي أيضاً أن أتوجّه بالشكر إلى كلِّ فريق العاملين في محافظة درعا وفرع الحزب، وفي مقدمتهم السيد حسين الرفاعي أمين الفرع والسيد محمد خالد الهنوس المحافظ، على ما قدموه من عون وتسهيلات من أجل إنجاح هذا المهرجان.

وأتقدَّم بالشكر أيضاً إلى كل أدباء وفناني ومثقفي محافظة درعا الذين كان لإسهاماتهم المبدعة كل الفضل في تحقيق هذا المهرجان.

والشكر الأوّل والأخير لصانع انتصاراتنا وصمودنا السيد الرئيس بشار الأسد قائد قواتنا المسلحة الظافرة ورئيس دولتنا الباسلة الصامدة، الذي كلما زادت شدة الحرب زاد اهتمامه بالشأن الثقافي السوري، وازدادت متابعته لكل تفصيل من تفاصيل حياتنا الفكرية والفنية، لأنه يعرف أن سرَّ قوة سوريّة عبر كل العهود والعصور هو في ثقافتها وإرثها الحضاري.

كلمة العدد

حالات جمالية

ناظم مهنا
رئيس التحرير

«اللغة تمرض في كلّ مكان وتطور الجنس البشري بأكمله يعاني من وطأة هذا المرض»
نيتشه

١- الانتحال

في لسان العرب، مادة «نَحَلَ» تفيد في أحد معانيها واستخداماتها معنى العطية والهبة والإيثار... وهذا ما أردته من هذه الوقفة مع الانتحال، الذي اصطلح على أن انتحال القول أو الشعر يعني نسبهما إلى غير القائل الحقيقي. وقضية انتحال الشعر قديمة، ذكرها الرواة القدماء وعلى رأسهم ابن سلام الجمحي في «طبقات فحول الشعراء»، وصارت قضية كبرى في العصر الحديث، بعد أن أثارها الدكتور طه حسين الذي ارتاب وشكك بحقيقة الشعر (الجاهلي) وردّ عليه خصومه بحماسٍ ناقدين، ناقضين، مسفهين، مدافعين عن شعرهم الذي له مرتبة التقديس في عقولنا ووجداننا، وهذا الدفاع مسوّغ وأخلاقي، كما أن خلخلة اليقين التي أحدثها العميد، كانت مسوَّغة ومتساوقة مع وقع العصر الحديث.

ما أقدّمه هنا، هو رأي شخصي لا أكثر، عن أهمية الانتحال، بصرف النظر عن التقييم الأخلاقي، بوصفه، أي الانتحال، ضرباً من الكذب، والكذب مذموم دائماً... وأستخدم، هنا، مرادفاً حديثاً لكلمة الانتحال، هو مفردة (التحويل)، أي تحويل الكلام من قائل إلى آخر لما أعتقد أنها تتضمن تكثيفاً للمكان وللزمان. هذا النوع من التحويل قام به أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع بدهاء وبراعة لكنه حوصر وأحبط في أرضه، ولم يتح له أن يشكل ظاهرة كاملة لأسباب يضيق المكان عن الخوض فيها.

في رأيي، واستناداً إلى مقولة للشاعر أيسدور دوكاس (لوترايامون) الذي وجد فيه السرياليون جذرهم، يقول: «الانتحال ضرورة، إنه جزء من التقدم» وبناء عليه، كان الانتحال في الشعر العربي ضرورة عقلية، وعملية تحويل واعية لإحداث تقدم نحو الأمام، وبناء منظومة شعرية ذات قواعد راسخة، عند قوم الشعر والنظم ديدنهم ومأثرتهم العظمى، مع أخذ المآرب النفعية للمنتحلين، أو رواة الشعر بعد عصر التدوين بالحسبان.

عملية التحويل هذه، قام بها مغامرون يستحقون أن نطلق عليهم فرسان ثقافة أشداء، من أشهرهم: خلف الأحمر، وحمّاد الراوية، وحمّاد عجرد، وآخرون... لم يبالِ هؤلاء الفرسان بما قد يوصمون به، ولم ينسبوا هذا الشعر لأنفسهم، ولم يسعوا بذلك إلى مجد شخصي في الشعر، لقد آثروا أن ينسبوه أو يمنحوه إلى آخرين، لأنهم يقومون بخلقِ منظومة عليها أن تتقدم، إنه حَدَثٌ سبّاق، وحداثة رائدة، وكما تعلمون، كثر يقولون اليوم إن التاريخ أيضاً منحول، وهذا لا يثير حفيظتنا نحن العرب، كما مع الشعر، إذ نتمتع بحساسية فائقة نحو الشعر.

فعل التحويل هذا، فعل انبعاث وانبثاق وابتكار، ومقدرة، ومن الإنصاف ألا ننظر إلى الأحمر والحمادَيْن وباقي المحولين على أنهم مجرّد كذبة منتفعين عابثين بالحقيقة بل مغامرون وصناع ثقافة، لم تكبلهم الحقيقة الصورية، لأنهم يدركون أنهم يصنعون حقيقة جديدة، سيكون لها أثر ووقع كبير عبر العصور، على الرغم من أن الثقافة الرسمية منذ البداية ميزت بين الرواة الثقة، والواضعين المنتحلين. وأنا أفترض أنه تحويل واع وواقعي، وعبر هذا التحويل وصل لنا وللعالم هذا الشعر العظيم، وتأسست منظومة جديدةً للشعر العربي، وتأسس معها نظام لغوي وثقافي جديد، إنها عملية إحياء لا مثيل لها في الثقافة العربية منذ عصر التدوين. لقد أدرك هؤلاء العباقرة أن معرفة من القائل الحقيقي على أهمية ذلك،

ليست هي الأهم، بل الأهم هو القول بحد ذاته، ويكون أكثر قوة وفاعلية إذا نسب القول إلى شخص ذي قوة اعتبارية. وهكذا أنشأ لنا المنتحلون المغامرون المعرفيون، والمجازفون بالحقيقة النسبية وبسمعتهم أيضاً، حديقةً متنوعة من الشعراء ومن ضروب الشعر، وكثيراً من الأساطير والحكايات المؤثرة أو المؤسسة للوعي البشري، يضاف إليها حكايات ألف ليلة وليلة، التي لا يُعرَف مبدعوها!

ونحن لا نسلم أن شعرنا (الجاهلي) منحول كلّه، لكن، في شعرنا العربي قصائد كثيرة ذات قيمة رائعة، يقودنا التحليل إلى التشكيك في حقيقة نسبتها، لكنها موجودة، منها، على سبيل المثال لا الحصر، القصائد المنسوبة إلى شعراء من الأقوام البائدة، وإلى الجن وإلى شعراء أضيفت إليهم أبيات أو نسبت لهم قصائد كاملة. وإذا أقررنا مع طه حسين، الذي بالغ إلى حد التطرف بالانتحال، أن الشعر الذي سبق الإسلام، وأطلقوا عليه صفة الشعر الجاهلي، منحول كلّه أو جلّه، إلا أن حقيقة الأمر، بين أيدينا، اليوم، منظومة شعرية متكاملة ومؤثرة، بل مؤسسة للعقل العربي، اسمها الشعر (الجاهلي)، وشخصياً، لا أحبذ هذه التسمية.

إذن، الرواة العظماء (المنتحلون) بوعي درامي، أنشؤوا لنا، عبر عملية استرجاع، وانبثاق وتزامن منظومةً حكائية لا يمكن التفريط بها، بطلُها الشعر والشعراء المختلقون أو الحقيقيون. هذا الوعي الدرامي العظيم لم ينل قطّ ما يستحق من التقدير والاعتراف بالفضل، هؤلاء الروائيون المتقدمون، وهبوا عقولهم للأفق القادم، وكانوا متقدمين على عصرهم.

٢- المغادرة والوصول

يتحدث الشاعر بول فاليري عن الإثارة الخاصة التي يلمسها الإنسان منذ الصبا، عند رؤية المغادرة وعند الوصول، يظهر ذلك جلياً عند سكان السواحل البحرية الذين يشاهدون السفن وهي تبتعد أو تقترب. وفاليري فرنسي من سكان البحر المتوسط، وله كتاب عن «حساسية البحر المتوسط».

حركة المغادرة أكثر إيحائية، إذ إننا ننظر إلى السفن المغادرة، وهي تبتعد أو تقترب على أنها ستذهب إلى مكان ما أو أنها قادمة من ميناء آخر، هذه الحركة جالبة لتصورات

وتداعيات ذهنية متدفقة. الإحساس بانفصال الأشياء، والإحساس بالإقلاع وبالوصول، هي من بين الأحاسيس التي تؤثر، وقد تشكل بؤرة تأثير، وإثارة انفعالات وأخيلة وتداعيات في النفس، وهذا محرض للشعر. يقول فاليري: «عندما كنت طالباً كانت مدرستي الإعدادية فوق جبل يطلُّ على البحر، كنت أرى هذه المغادرات وتحركات السفن التي كانت تتباعد في اتجاه الأفق، كان يمكن لكل هذا أن ينقلني إلى استعداد أكبر لعقلية الشعر...».

يمكننا اختزال الأمر تأويلياً بالقول: المغادرة والانطلاق هي القول، يقابله الوصول الذي يوازي الصمت، وبين الكلام والصمت مساحة واسعة من التداعيات الجمالية التي يمكن أن تنتج شعراً أو نثراً أو لوحة أو موسيقا.

٣- الانفجار الإيقاعي

التعبير لبول فاليري أيضاً، وهو عند الشعراء، يكون حين ينتاب الشاعر، في أثناء صناعة القصيدة، إحساسٌ بأنه منتج للإيقاع، وقد يكون هذا الإحساس نقطة انطلاق في إنتاج القصيدة. وبول فاليري يشبه شاعرنا «أبا تمام»، كلاهما يرى الشعر صناعة عقلية، ترفدها الأحاسيس والمشاعر بنقطة انطلاق محرضة.

٤- وحدة التأثير في القصيدة

يرى إدغار آلان بو أن الجمال هو الميدان الشرعي الوحيد للشعر، ويجب أن يتوافر في القصيدة وحدة تأثير مركزية، وأن قدراً معيناً من الزمن ضروري لإنشاء تأثير معين... عامل التأثير ضروري في الاستجابة للقصيدة في نظر بو. وكان بو من دعاة القصائد القصيرة، ومن المعروف أن قصيدته الشهيرة «الغراب» من القصائد غير القصيرة، ويقول حول ذلك: «إن ما ندعوه قصيدة طويلة، ليست في العمق إلا سلسلة قصائد قصيرة، أي قصائد ذات تأثيرات شعرية قصيرة».

❁ ❁ ❁

نحن والحداثة

أسعد طرابيه

كتب ميشيل فوكو نصاً حول ما الحداثة، يقول فيه: الحداثة منظومة فكرية قائمة على مجموعة قيم مثل: (سيادة العقلانية، والفكر العلمي، والفردانية، والحرية، والنزعة النقدية). ولها إسقاطات تاريخية ومؤسسية. ومن جوفها تولّدت ظواهر الثورة الصناعية والثورة العلمية وفلسفة الأنوار والثورات الإنكليزية والفرنسية والأمريكية ثم الوحدات القومية الأوروبية والديمقراطية والعلمانية. للحداثة تاريخ تراكمي، بدأت منذ القرن السادس عشر وتطاولت زمنياً حتى القرن التاسع عشر ويمكن رصد سبع محطات:

١- **النهضة**: بدأت من إيطاليا وعمت في أجزاء كثيرة من أوروبا، بدأت أدبية وفنية وأحدثت طفرة في الحساسيات الجمالية من موسيقا ورسم وزخرفة ومعمار وبناء جسور وكنائس.

٢- حدث في القرن السادس عشر حدثٌ كبيرٌ، ألَا وهو **الإصلاح الديني** الذي يعدّ حركة تجديد أُعيد خلاله قراءة النص المقدس، وفيه شقّان:

أ- شق ديني يتصل بالمجددين البروتستانت وجدلهم حول الرواية البابوية للمسيحية. وقد تُوج هذا الجدل بصرخة مارتن لوثر القائلة: على كل مؤمن أن يحمل إنجيله بيديه ويتجه إلى الله مباشرة، قاصداً نقد تصور الكنيسة الوحيد عن الله، ذلك التصور الذي خدم مصالح السلطة الكهنوتية.

ب- شق سياسي يعبِّر عن الاحتجاج على النظام الكنسي وتحكّمه في المجالين الديني والسياسي.

خاضت أوروبا حرباً دامت مئة عام، انتهت بتقاسم النفوذ الديني: البروتستانتية في الشمال، والكاثوليكية في الجنوب والغرب، والأرثوذكسية في الشرق. دشّنت حركة الإصلاح الديني تاريخاً جديداً من التحرر العقلي في قراءة النص الديني بمعزل عن وصاية السلطة الدينية وفتحت باب الاجتهاد على مصراعيه.

٣- **الثورة الزراعية ثم الثورة الصناعية** في إنكلترا ثم في مجموع أوروبا: دمرت الثورة في إطارها التراكمي نظم الإنتاج التقليدية وما رافقها من نظم فكرية، وولدت حساسيات ورؤى جديدة للعالم غير الرؤى السحرية التي ارتبطت بالاقتصادات التقليدية.

٤- **الثورة العلمية** في القرنين السابع عشر والثامن عشر في الفلك والفيزياء على يد كوبرنيكوس وغاليليو، ثم توّجت مع نيوتن الذي مهد لصناعة الآلة البخارية، كما أن هذه الثورة العلمية لم تجند نتائجها في تطوير البنى الإنتاجية والتقدم الاقتصادي في أوروبا فحسب، وإنما أشاعت الروح العلمية والتجريبية في التفكير الأوروبي.

٥- **فلسفة الأنوار**: إطارها التاريخي في القرن الثامن عشر، إذ بدأت أوروبا تشهد هيمنة ثقافية جديدة للمجتمع المديني، وهذه الثقافة لم تعد حكراً على المفكرين والفلاسفة، وإنما انتقلت لمجالَيّ التعبير الرمزي (الأدب والموسيقا).

انتشلت فلسفة الأنوار أوروبا من التقليد الأعمى، وفتحت آفاق التعدد، وهيأت العقول لقبول الاختلاف، فإن فلسفة الأنوار هي رد فعل عنيف على السقوط في الخطيئة الأصلية وعلى اللاهوت وعلى لوثر وكالفن.

٦- **الثورة السياسية**: دشنتها الثورة الإنكليزية والدستور الأمريكي والثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م)، هذه الثورات أنهت التحالف بين الإقطاع والكنيسة، وأنهت الملكيات المطلقة، وأفسحت المجال أمام تشكيل الدولة الحديثة أي الدولة القومية، وفك الارتباط بين الكنيسة والدولة، والانتصار الحاسم لفكرة العلمانية، بالإضافة إلى تكريس النظام الديمقراطي لأنه بقي مهدداً طوال القرن الثامن عشر.

٧- **الثورة التقنية**: وهي مبكرة بدأت في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، وتعاقبت بطفرات كبيرة.

ولــدت الحداثة في رحم أوروبا، ولكن منشأها الأوروبي لا يعني عدم تعميمها فقد زحفت إمَّا بالغزو الاستعماري وإمّا بالمثاقفة، واصطدمت بها الشعوب إما اصطدام المغلوب والانكفاء إلى الماضي والوقوف على الأطلال كالعرب، وإمَّا اصطداماً إيجابياً كاليابان.

الحداثــة إذن حركة تاريخية متنوعة متعددة مختلفة، جوهرهــا الديمقراطية والعلمانية وحداثة الفكر. وهي غير قابلة للاستنساخ في مجتمعات ذات خبرات مختلفة.

١- لا توجــد ديمقراطية واحدة في الغــرب وإنما ديمقراطيات: نظــام برلماني، ونظام رئاسي، وملكية برلمانية، ونظام يقر بالأقليات مثل سويسرا، ونظام المواطنة مثل فرنسا.

٢- والعلمانية في الغرب علمانيات:

- علمانية تقصي الدين عن السياسة والاجتماع، إذ يُمنع تدريس الدين في المدارس مثل: (العلمانية اليعقوبية الفرنسية، والعلمانية البلشفية، والعلمانية الكمالية التركية).

- علمانية تسمح لأتباع الديانات الأخرى أن يُنشئوا مدارس وبرامج دراسية لتعليم الدين، كما في ألمانيا وبريطانيا وأمريكا.

- علمانيــة تقصــي الزمن الديني من مظاهــر الدولة، ودول يترأس فيهــا رئيس الدولة الكنيسة الأنغليكانية مثل ملكة بريطانيا.

٣- حداثــة الفكر: يوجد مدرستان في الغرب العقلانيــة والتجريبية، فالأسس المعرفية التــي تقوم عليها المدرسة التجريبية تختلف عن الأسس التي تقوم عليها المدرسة العقلانية. كمــا أن الأسس المعرفية للعقلانية ليست واحدة. فعقلانية القرن السابع عشر غير عقلانية القــرن الثامن عشر غير عقلانية القرن التاســع عشر. أحياناً يلتقي التجريبي بالعقلاني في فلسفــة واحــدة كما التقيا في الوضعية المنطقية والتقيا في العلــم في أزمة الميكرو فيزياء وأزمــة الهندسة اللا إقليدية. إن فلسفة ما بعد الحداثة لحظة نقدية في تاريخ الفكر الغربي ولحظة فكرية مشروعة وطبيعية في سياق مجتمعاتها التي أنجزت حداثتها.

يجري الجدل بين مدرستين:

١- مدرسة تعدُّ (ما بعد الحداثة) تشكّل قطيعة مع تراث الحداثة، وهي تمثل الرأي الغالب.

٢- ومدرســة تقول: إن ما بعد الحداثة جــزء من الحداثة، فالحداثة لم تستنفدْ ممكناتها بعــد على حد قــول الفيلسوف الألماني هابرماســ. إذ يعدُّ (ما بعــد الحداثة) لحظة تفكر

الحداثة بنفسها، تعيد النظر في مشكلاتها في يقينياتها، فقد حاد العقل عن خطه العقلاني وتحول إلى أداة قمع. والديمقراطية حادت عن خطها وتحولت لديكتاتورية.

قال **جون ستيوارت مل**: الديمقراطية تشريع لنظام تسود فيه ديكتاتورية الأغلبية وكان ذلك في القرن التاسع عشر. يعدُّ نقد الحداثة تقليداً عاشت عليه الثقافة الغربية، فها هو كانط ينقد العقل ويبين حدوده، ويوجه هيغل نقداً حاداً لفلسفة الأنوار، ويوجه فيورباخ نقداً حاداً للمسيحية والدين، وينقد ماركس النظام الرأسمالي ويفضح عيوبه، كما يعري فرويد الشعور والوعي ويصدمنا بحقيقة أن اللاوعي هو المحرك الحقيقي للسلوك. يستقيم نقد الحداثة هناك لأنها أنجزت أوروبيّاً بالإضافة إلى أنّها لحظة حقيقية لا تنفصل عن مشكلات عصرها. ولا يستقيم أن ننقدها هنا لأنها لم تنجز عربياً فنحن لا نستطيع أن ننقد ما لا نملك.

مرتكزات ما بعد الحداثة

١- **التقويض**: فضح الأيديولوجيات السائدة باستخدام لغة الاختلاف والتناقض.

٢- **التشكيك**: التشكيك بالمعارف اليقينية، وانتقاد المؤسسات المالكة للخطاب والقوة.

٣- **العدمية**: تسود الفلسفات العدمية والعبثية التي تنشر الشكوى والفوضى بالمجتمع.

٤- **التفكك والانسجام**: تفكيك ما هو منظم ومتعارف عليه، وتوجيه نقد حاد لفكرة الكلية.

٥- **هيمنة الصورة**: أصبحت الصورة محركاً أساسياً للمعرفة بعد تطور وسائل الإعلام.

٦- **الانفتاح** وسيلة للنقاش والتفاهم والتسامح والتفاعل.

٧- **التناص**: لم يعد النص بريئاً فكل نص يتداخل ويتفاعل مع النصوص الأخرى.

٨- **الدلالات القائمة**: دلالات النصوص غير محددة بدقة والدعوة إلى التخلص من المعايير والقواعد.

طرح السؤال: لماذا تخلّف المسلمون؟ منذ أكثر من مئة سنة، والأغرب من ذلك أنهم لا يطرحون السؤال الآن: لماذا هم متخلفون؟ حتى إنهم لا يعترفون بذلك على الرغم من أنهم يعيشون أسوأ مما كانوا عليه. بعد أن انهزمت البلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر أمام الدول الرأسمالية. طرح المفكرون المسلمون السؤال التراجيدي: لماذا تخلَّف المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ وقد تناولوا هذه الإشكالية الحضارية بحساب نقدي عميق. اكتشف الرحالة المسلمون (النهضة الأولى)، أن المسلمين تخلَّفوا لأنهم تخلَّوا عن العقل والعلم.

هـــذا ما أوضحه الطهطاوي في كتابه (تلخيص الإبريز في أخبار باريز)، فالتقليد هو السائد لدينـــا، والعقل لا يبتكـــر طرائق جديدة للحياة، وتدبير الشأن العـــام، وتقصير بادٍ للعيان في تحديث هياكل الدولة والجيش، وأبعد ما نكون عن بناء إدارة عصرية.

بعـــث الإمبراطـــور الياباني بين عامي (١٨٩٠-١٩٠٠) مجموعة مـــن الطلبة للغرب، فعاد الطلبة بعد رحلاتهم في أوروبا إلى اليابان وقالوا للإمبراطور: لكي نغيّر اليابان يجب أن نبني نظاماً تربوياً معاصراً، وقرر الإمبراطور وضعَ الهياكل العصرية في اليابان، وخاض حرباً ضد الساموراي وقوى التقليد لكي يفرض التحديث. حدّث ماوتسي يونغ العقل الصيني من خلال تجربته العميقة والمتمثلـــة بالثورة الثقافية التي راح ضحيتها ثلاثة ملايين شهيد حتى وُضِعَ كونفوشيوســـ على الرف، أي أصبح جزءاً من الماضي. أما في المغرب جاء الطلبة من أوروبا وكـــان حلمهم كبيراً ولكن سرعان ما أخفق مشروعهم بسبـــب الفقهاء، بالنهاية أخفق مشروع تحديـــث المغرب من الداخل، بوضع المغاربة أنفسهم دستـــوراً جديداً وإعادة تحديث هياكل الدولة وإرساء تعليم نظامي عصري.

حاصـــرت القبائل العاصمة، وطالبت بخلع السلطان عبد الحفيظ، ووقّعَ السلطان معاهدة حمايـــة مع فرنسا وأدخل الجيوش الفرنسيـــة لمواجهة القبائل المتمردة. فالحماية الفرنسية قامت بما لم يستطع أبناء المغرب القيام به.

يـــؤرخ الكواكبي في طبائـــع الاستبداد لوعي المسلمين في القـــرن التاسع عشر في كتابه «طبائـــع الاستبداد». يعكس ذلك الوعي تخلّفاً سياسياً كبيراً، وقبول الاستبداد على أنه قانون الحياة. علاوة على ذلك، هياكل الدولة مترهلة، وأساليب الإنتاج بدائية، والجيش غير نظامي وغير محدث بدليل الهزائم العسكرية المتوالية، والدعوة للجهاد لا تتم إلا بالمساجد، واقتصاد متخلف بسبب هيمنة اقتصاد الريع، وسوق تجاري غير منظم واستبداد سياسي يتجلّى بفرض ضرائب مجحفة، واحتقار المرأة ونفيها من الفضاء العام، فليس لها الحق بتولي المناصب في الدولة، بالإضافة إلى التخلّفَيْن الفكري والثقافي اللذين يتمظهران بشيوع الخرافة والشعوذة، وعبـــادة الأضرحة، وزيارة المقابر، والإيمان بالغيبيات، والقضاء والقدر. كما أن مفهوم العلم مقتصـــر على العلوم الشرعية الدينية فحســـب، فالرياضيات والطب والطبيعيات علوم زائدة عن الحاجـــة. فصل المسلمون منذ القرن الرابع للهجرة، أي العاشر ميلادي، بين نسقين من العلـــوم، نسق العلوم الشرعية ونسق العلوم العقلية، وعـــدَّ الفقهاء العلوم الشرعية نافعة.

وجاء هذا على لسان ابن تيمية عندما قال: العلم ما قام الدليل عليه والنافع ما جاء به الرسول. أما العلوم الأخرى ليست نافعة وقد هُجِرَت.

هذه العلوم والثورات العلمية هي التي كانت أساس نهضة الغرب، وكان لظهور الطبقة الوسطى في أوروبا دورٌ في إنهاء التعليم الكنسي، وتحرير الناس من سلطة رجال الدين الكهنوت. أما في بلاد المسلمين عُظّم نسق العلوم الشرعية وأغلق نسق العلوم العقلية، فقد عدَّ الفكر الإسلامي الفقهي العقل نسبياً وبما أنه كذلك فلا بد أن يكون تابعاً للنص الديني المطلق، فمهمته تطبيق النصوص الدينية، فأصبح العقل محدود القيمة لأنه لا يكتشف ذاته خارج حدود الدين. دعا ابن رشد المسلمين منذ ثمانمئة عام إلى ضرورة أن يتنبهوا لخطئهم الفادح في عدم قدرتهم على رؤية الحقيقة القائلة إنّ القرآن يدعو إلى إعمال العقل بالمعنى البرهاني. وعلى أثر هذه الدعوة أُحرِقَت كتب ابن رشد، لأن العقل الفقهي كان مستحكماً في وعي العامة. كما أن الدولة الموحدية كانت دولة استبدادية وغرق المسلمون في ظلمات التخلف إلى أن أفاقوا على مدافع نابليون.

ما الذي حدث بعد النهضة الأولى؟

بعد أن خرج الاستعمار وتأسست دولة مركزية سرعان ما أقيمت على تراث الماضي وإحياء كل الأيديولوجيات الماضوية إذ حُصِّن التخلف بآليات تقليدانية بوصف التحديث مظهراً استعمارياً، ولكن أُدخِل التحديث المادي والتكنولوجيا الحديثة للحفاظ على آلية الاستبداد، وفي الوقت نفسه بقيت هذه الدول داعية إلى الحفاظ على بنية الوعي التقليدي. لذلك يُعدُّ الفصل بين التكنولوجيا وأسسها الفلسفية والعلمية محصلة للفوات والتأخر التاريخي. هُدر ألف مليار دولار بسبب الفساد المالي للحكام في بلدان شمال إفريقيا والشرق الأوسط أي ما يعادل (٣٣٪) من الناتج القومي لهذه البلدان في المدة التي تفصلنا عن الاستقلال، وكان لهذا الهدر انعكاسات اجتماعية خطيرة، إذ وصلت نسبة البطالة إلى (٣٠٪)، ومئة مليون مواطن تحت خط الفقر، وانهيار البنية التحتية للاقتصاد. اكتُشِفَ البترول في شبه الجزيرة العربية في أرض البداوة مما مكّنها أن تدخل العصر، فبدأت هذه البلدان تسوق بداوتها (عولمة البداوة) وتسوق عقيدتها الوهابية فتنفق المليارات لتروّج تخلفها. ظهرت تيارات متشددة دينياً وممولة، رفعت شعار الإسلام هو الحل مثل حركة الإخوان المسلمين عام (١٩٢٨م) في مصر، وأدت حركتهم إلى تخريب مشروع زعماء الإصلاح الأفغاني وعبده، فبدلاً من أن

يعترفوا بتخلفهم ويدركوا السبب الحقيقي لتقدّم الغرب - العلم والعقل وحقوق الإنسان. راحوا يروّجون فكرة أن الغرب منحل قبيح، ونحن المسلمين أفضل من الجميع لمجرد أننا مسلمون ونحن وإن كنا متخلفين فنحن الأفضل. إن شعوب العالم المتقدّم عندما تصطدم بعقبة تمضي إلى الأمام، أما الشعوب العربية عندما تصطدم بعقبة تعود إلى الماضي، وهذا معنى الإسلام هو الحل ولكن ما كنا عليه أنظمة استبدادية.

تخلف المسلمون لأنهم لم يستطيعوا الفصل بين السياسة والدين وقدسوا الحاكم لأنه يحكم باسم الله وكل نقد له هو خروج عن الدين، ومن ثمَّ أُيِّد نسق العلاقات القائم لأنه نسق مقدس، وهكذا استحكمت بالشعوب أسباب العبودية حتى أصبحت العبودية وعياً باطنياً، وأصبح الفرد سهل الاستعباد والانقياد لأنه متصالح مع أنّه عبد.

من أكبر أسباب تخلف المسلمين مفهوم الإجماع لأنه عُدَّ إجماع أمة ومن ثمَّ إجماعاً أبدياً على الرغم من أن الإجماع هو إجماع مرحلة، بالمقابل كُفِّر المبدع الفرد ونُبِذَ وقُتِلَ أحياناً. لأن الاختلاف هو الشر المطلق بنظر الفقهاء، مع العلم أن الصراع هو محرك التاريخ. إن الحرية الوحيدة التي يعترف بها الفقهاء هي الحرية المحدودة بتقاليد الجماعة، أما الحرية بالمعنى المعاصر هي حرية المواطن (حرية الفكر والاختيار دون إيذاء الآخرين). نحن بحاجة إلى ترسانة قانونية تعترف بالإنسان المواطن من خلال دستور عصري يضمن حقوق الجميع، ويحدد واجباتهم.

نتائج

١- كسبنا من العصرنة شهوة الربح والاستهلال، ولم نكسب تقديس العمل والإنتاج.

٢- تعلمنا أنانية البرجوازي، وعجزنا عن الاندماج والمواطنة.

٣- التأخر والفوات التاريخي جعل اليمين يخون وطنه ويعلو فوقه ويصادر عليه. وأحياناً يبيعه، أما اليمين في البنى المتقدمة عقلاني مندمج بوطنه.

٤- التقليدي يهرب منا، والمعاصر يسحقنا ويتخطّانا.

٥- حطم مارتن لوثر الديكتاتورية الروحية للكنيسة، وحرر كوبرنيكوس العلم الطبيعي من قيود اللاهوت، كما حرر ميكافيلي السياسة من الوهم. ماذا أنجز العرب لكي يبنوا تاريخهم المعاصر الخاص؟

٦- تبنـــى السياسة الحديثة على المصلحة القوميـــة وليس العقيدة الدينية، والتمييز بين الحقيقي والمعتقد أي الذهاب إلى الأشياء مباشرة دون تخيلها. هل بنى العرب سياستهم على مبدأ سيادة الأمة؟

٧- فـــي مجتمعاتنا المتأخرة أقليـــة راكبة على شعوبها تعطل تحديـــث السياسة وتعرقل دمقرطتهـــا، وتعرقل تحول الفرد إلى مواطن. فالأفراد رعايـــا والشعور بالرعوية إزاء الدولة هو الشعور السائد، ثم إن الفرد القطيع يتخذ من حالة الرفض طابع العزوف والانطواء وفي حالة القبول التأييد لا المشاركة.

٨- تبدأ الدولة العصرية بتحديث السياسة والثقافة، إذ تُحدّث السياسة بالديمقراطية، وتُحدث الثقافة بالعلمانية وما زلنا ندور في فلك النهضة المُجهضة التي لم تنجز حتى اليوم.

٩- مـــا زالت السياسة شأناً من شـــؤون الحاكم -ظل الله على الأرض- وهو المرجع الذي أوكل إليه الأمر والحكم.

١٠- تعرقـــل الرواسب ما قبل القومية اندماج الأمة، وهذا ما انعكس على النخبة العربية المحافظة التي لا تملك وعياً كونياً وغالباً تملك وعياً مغرباً عن حاجات الواقع.

١١- إن الأقليات المهيمنة ليست متأخرة أيديولوجياً فحسب كذلك منظورها ماضوي وليس مستقبليّاً، وهي منفلتة من الرقابة والرأي العام، وهذا الأمر يفاقم التأخر.

١٢- فـــي الصين قاوموا الخارجي من بوابة المستقبل، أما العرب فإنهم يقاومون الخارج من بوابة الماضي. إن استعادة الفلاح لبقرته المسروقة لا يعني تعلمه القراءة والكتابة.

١٣- بعد خروج الاستعمار سيطرت أنظمة الاستبداد الشرقي المحدث المنبعث من جوف التاريخ.

١٤- إنَّ الصراعات تنحط لصراعات عامودية فئوية عشائرية طائفية تبدد طاقات الأمة، أي إنّها أمة ذات وعي مللي.

١٥- يرتكـــز البنيان الأيديولوجي للبلدان العربية على فكر إيماني دوغماتي، لذلك تفتقر مجتمعاتنا العربية للبنى التعددية.

١٦- لـــم تتشكـــل طبقة برجوازية سياسيـــة ذات حدود واضحـــة وذات برامج ومنطلقات سياسية وأيديولوجية معادية للمجتمع التقليدي. ويعود السبب إلى نمو الاقتصاد الكولونيالي ثم الاقتصاد البرجوازي الطرفي لتابع.

١٧- عدم تشكل نخبة عربية تنجز مهمات الثورة البرجوازية «الحداثة» دون برجوازية لأن البرجوازيات العربية تابعة، والتابع لا ينجز على مستوى التاريخ.

١٨- توهم العرب أنَّ استيراد التقنية سيؤدي إلى الحداثة، حداثة منسجمة مع مجتمع تقليدي مثقل بنفايات الغرب ما قبل البرجوازي.

١٩- لم يُدرَك ثقل الماضي في الحاضر لذلك لم يحدث تقدمٌ تاريخيٌ. فالفكر العربي فكر معتقدي إيماني يؤكد دون مناقشة، يرفض الشكية، ويعتمد التأويل الذي يفسر كل الأمور دفعة واحدة بعلّة خفية.

٢٠- التأخر العربي جعل العقل العربي برميلاً بلا قعر لا يجمع ولا يراكم. فالزمن تكراري متوقف عند نقطة الصفر.

٢١- إن التقنية تفصّل على قد مشيخة الخليج، وهذا التفصيل لن يستر التأخر الأيديولوجي والسياسي والاجتماعي.

٢٢- إن مجال الحداثة المصلحة العامة التي تتعين خارج الشعور، أما مجال الأصالة فهو الشعور الذي يعتني بالموسيقا والأدب. فأصالة الإنكليزي مرتبطة بشكسبير مع الأخذ في الحسبان أن بريطانيا تتربع على عرش الحداثة. فالعربي يرتبط بتراثه بألف ليلة وليلة وبرسالة الغفران، وهذا الارتباط لا يتناقض مع ممارسته الحداثة في حياته اليومية. أن نعيش الحداثة لا يعني أن ننفصل عن ذاتنا وهويتنا.

٢٣- يجب أن تنجز قطيعة معرفية مع التراث لنعود إليه بعد أن ننجز حداثتنا.

٢٤- إن التحديث الاستعماري المحدود جداً تقلّص مع ظاهرة تربيف المدن ومن ثمّ تربيف الحياة السياسية.

٢٥- إن الوعي النخبوي العربي بقي معلقاً على السطح السياسي، وتصالح مع عمارة المجتمع التقليدي. إن جُلّ ما نفعله هو تحديث التقليد.

٢٦- طلبت أمريكا عام (١٨٥٤م) من اليابان أن تفتح مرافئها للتجارة وقد فُتحت. وفي عام (١٨٦٤م) وإثر ذريعة إطلاق مدفعية يابانية على زورق أمريكي عام (١٨٦٣م)، تُسحق اليابان بضربة عسكرية مع تدخل عسكري غربي، إلا أن اليابان لم تطلق شأن العرب حكم قيمة على نفسها وعلى الغرب «الغرب لا أخلاقي مثلاً». بل اعترفت اليابان بعقلانية التفوق الغربي واستحقاقها المصير الذي آلت إليه وذهبت لتفتش بلا لف أو دوران عن السر الذي

جعل الغرب قادراً على سحقها. لذلك لم تقف على الإطلاق بل باشرت عصر أنوارها متأخرة نصف قرن عن مصر آنذاك، وأدركت أن تفوق أوروبا سياسي واقتصادي وتقني. بكلام آخر، ضغطُ الخارج حملَ اليابان على تغيير العمارة اليابانية التقليدية، أما ضغط الآخر حمل العرب على الانكفاء إلى الماضي الكرامة. إن تقدم الغرب أوقعنا في صدمة نرجسية ولم يكن أمامنا إلا أن نبتلع جرحنا النرجسي وننطوي على ذواتنا.

المراجع

(١)- ياسين الحافظ، اللاعقلانية في السياسة العربية، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.
(٢)- YouTube، د. أحمد عصيد.
(٣)- YouTube، د. عبد الآلة بلقزيز.
(٤)- YouTube، د. عبدالله العروي
(٥)- YouTube، د. جورج طرابيشي.
(٦)- YouTube، الباحثون السوريون.

الهجرة
وأثرها على الدول المُضيفة، ودول المصدر

د. قحطان السيوفي

- هل هجرة العقول، نوع سلبي من أنواع التبادل العلمي بين الدول، يتسم بالتدفق في اتجاه واحد؟
- الهجرة اصطياد الغرب للعقول... سياسة الدول المتقدمة لسرقة الأدمغة العربية.
- الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا تحصل على (٧٥٪) من المهاجرين العرب.
- الهجرة تؤجج الشعبوية والعنصرية في الغرب.
- الخسائر المادية والفنية لهجرة الأدمغة والكفاءات العربية قدرت بنحو بليوني دولار سنوياً.
- أكبر نسبة مهاجرين للأدمغة في العالم من سكان المنطقة العربية، بنسبة تقدر (٥٠٪).

تعريف

تعدُّ الهجرة من أقدم أشكال تنويع المخاطر والحماية الاجتماعية بالنسبة إلى الأفراد والأسر.

الآثار الجانبية للعولمة تسببت في ظهور موجة حادة من الهجوم السياسي المضاد للهجرة، وهذه الأخيرة أصبحت محط الاهتمام في أوروبا مع تصاعد مشكلة المهاجرين من أوروبا الشرقية، وطوفان الهجرة الجديدة من الشرق الأوسط وإفريقيا.

اصطلاحاً: تُعرف الهجرة بأنها ظاهرة اجتماعية تتمثل بانتقال البشر من مكان إلى آخر، بقصد استقرار الفرد، أو الجماعات. ترتبط الهجرة غير الشرعية على وجه التحديد بالضغوط البيئية والتفكك في قواعد الروابط الاجتماعية.

تنوّعت الهجرات على امتداد الزمن، واختلاف الأقوام، والدُّول، منها ما كان فرديّاً، ومنها ما كان جماعيّاً، إذ اختلفت مُسبّباتها، وغاياتها، وتُعدُّ ظاهرة هجرة الكفاءات، والأدمغة إحدى هذه الهجرات، وهي ظاهرة تجمع بين القِدم، والحداثة؛ وقد بدأت الكتابة عنها من منتصف القرن المنصرم، وحتى وقتنا الحاليّ. كما أنّها ظاهرة تحتلّ أهمّية بالغة؛ لتأثيرها في التطوُّر الاقتصادي، والتنمية، والسكّان، وما إلى ذلك، إضافة إلى أنّ أهمّيتها تنبعُ من الكفاءات العِلميّة المُتخصِّصة التي تُفقَد بشكل مُتزايِد، ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الظاهرة تشّكل واحدة من أبرز المشكلات في الدُّول النامية، وهي من مظاهر الخلل فيها؛ حيث إنّها تُعَدُّ عائقاً للتنمية، والتطوُّر يشمل أهمّ عنصر في تكوينها.

أنواع الهجرة

تصنيفها القائم بناءً على الحدود السياسية: الهجرة الداخلية، والهجرة الدولية.

ما يهمنا هنا الهجرة الدولية التي يتجاوز فيها المهاجر الحدود السياسية لبلده الأصلي خارجاً إلى بلد أجنبي. وإلى جانب الهجرة الطوعية هناك نوع آخر من الهجرة بهدف الحفاظ على الحياة، إذ يترك الناس أوطانهم اضطرارياً بسبب الأوضاع الأمنية كما حصل في العراق وسورية، وتعدُّ منظمة اليونسكو، أن هجرة العقول، نوع سلبي من أنواع التبادل العلمي بين الدول، يتسم بالتدفق في اتجاه واحد صوب الدول المتقدمة، لأن في هجرة العقول نقلاً مباشراً لأحد أهم عناصر الإنتاج، وهو العنصر البشري. وعلى الصعيد العالمي تؤكد النظرية الاقتصادية، ونظريات التنمية دور رأس المال البشري في النمو طويل الأمد ، وكانت الدول النامية قد بذلت جهوداً كبيرة خلال نصف القرن الماضي للنهوض بمستوى التعليم وبناء كادر علمي وطني، مع ذلك ما زالت تعاني من شح الكوادر العلمية واليد العاملة المؤهلة، نتيجة الهجرة المستمرة للكفاءات منذ ستينيات القرن الماضي، ويقدر عدد المهاجرين في العالم بـ (٢١٤) مليون شخص أي ما يعادل (٣, ١٪) من سكان العالم، منهم نحو (٣٧٪) من الدول النامية هاجروا إلى الدول المتقدمة، وما يقارب (٦٠٪) من المهاجرين هم هجرات بين دول ذات مستوى تطور متماثل، و(٣٪) من المهاجرين هم مهاجرون من الدول المتقدمة. ويتضح أن الهجرة الدولية قد تباطأت خلال السنوات الماضية مقارنة بحجم الهجرة في القرن الماضي أو القرن التاسع عشر، وبالمقارنة مع سنوات النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة

القيـود والضوابط المتشددة التي تفرضها الـدول المتقدمة، ونتيجة التباطؤ في النمو الاقتصـادي فـي الدول المتقدمة يلاحظ نوع من التناقض بيـن نظرة كل من السياسة والعلم بالنسبة إلى الهجرة.

ثمة جدل كبير حول التكاليف والمنافع الاقتصادية للهجرة، وعلى الرغم من تباين وجهات النظر، هناك توافق على أن الهجرة تحقق منافع...

التيار الشعبـوي المتصاعد في الولايات المتحدة الأمريكيـة وأوروبا أصدر حكماً سلبياً ضد العولمة والهجرة.

يرى المحللون أن ثمة خوفاً من الجريمة ونوعاً من الخطر على الهوية الوطنية والثقافة إذ يظهران عاملين مؤثرين في الرأي العام، ويعبّران عن شعور عميق بعدم الأمان.

يثيـر موضوع الهجرة اليوم كثيـراً من الحوارات والصراعـات السياسية، حول الاندماج والخطـر على السلم الأهلي وفرص العمل، مع ذلك تتنافس الدول المتقدمة اليوم في تقديم الإغـراءات لليد العاملة عالية التأهيل لجذبها، وقد بدأ مؤخـراً الاهتمام بآثار الهجرة على البلـدان المصدِّرة للعمالة من منظور التنمية البشرية وليـس من منظور التحويلات ودورها التنمـوي. وكانت منظمة الصحة العالمية قد أثارت المخاطـر الناجمة عن هجرة الكفاءات الطبيـة من الـدول النامية إلى الدول الصناعيـة المتقدمة، الأمر الذي دفـع العالم لتأكيد ضرورة إحراز تقدم بتشجيع منظمة التجارة العالمية على وضع مدونة قانونية للإجراءات.

ما أسباب الهجرة الخارجية؟

أسباب الهجرة كثيرة منها: البحث عن فرص عمل معيشية أفضل، أو للتعلّم في بلد تتوافر فيه هذه الظروف بشكل أفضل. بعضهم يلجأ إلى الهجرة للهروب من الضرائب المرتفعة في بلادهم. ومـن أسباب الهجرة المهمة الاضطهاد والخلافـات الدينية أو السياسية والحروب والكوارث الطبيعية...

تفسير ظاهرة الهجرة حسب النظرية الاقتصادية يتم من خلال العوامل المرتبطة بالعمل والوظيفـة، مفهوم الطرد والجذب: هو أقرب النظريات تفسيـراً لواقع الهجرة، التي حددت أسبابها الرئيسة بالاتصال، وتعدد العلاقات بين البلاد التي ترسل وتستقبل المهاجرين، ويُعد الطـرد والجذب متغيرات تساعد في انتقاء جماعات محددة حتى تهاجر من مكان إلى آخر، وتعدُّ الحروب، والمجاعات، والكوارث الطبيعية، والنمو السكاني السريع، وغيرها من عوامل

الطرد القوية. يكشف تقرير صادر عن البنك الدولي أن الهجرة العالمية انتشلت الملايين من الناس من براثن الفقر وعززت النمو الاقتصادي.

يرصد التقرير الذي يحمل عنوان «الانتقال من أجل الرخاء: الهجرة العالمية والعمل» أسباب الهجـرة، فيشير إلـى أن الفوارق الكبيرة والمستمرة في الأجور فـي جميع أنحاء العالم تمثل الدافـع الرئيسي للهجرة الاقتصادية من البلدان منخفضة الدخل إلى البلدان مرتفعة الدخل. مشيراً إلى أن كثيراً من المهاجرين تمكنوا من مضاعفة أجورهم ثلاث مرات حين انتقلوا إلى بلـد جديد، مما يساعد ملاييـن المهاجرين وأقاربهم في بلدانهـم الأصلية على الإفلات من براثن الفقر. وغالباً ما تستفيد بلدان المقصد، إذ يقوم المهاجرون بأدوار مهمة.

مساوئ الهجرة

من الجانب الاقتصادي؛ إنَّ زيادة عرض العمالة يفرض ضغوطاً خافضة للأجور، ما يضر بالعمالة المحليـة - أقلها أصحاب المستويات المهارية المماثلة. وهذا يزيد النظرة السلبية إلى الهجرة، وهو ما يطلق عليه بنظرية التوازن الجزئي. فالناس يرون أن المهاجرين هم سبب البطالة في مجتمعاتهم.

ردود سلبية على الهجرة من بعض الدول الأوروبية، على شكل نوبات من الخطابة المعادية والأهـداف غير الواقعية مثل: تعهد الحكومة الإيطالية هذا العام بطرد نصف مليون مهاجر غير نظامي، يخفي فشلاً هيكلياً في التعامل مع الجوانب العملية.

فوائد الهجرة

قـد تكون العمالة المهاجرة مكملـة للعمالة المحلية وليست بديلاً لهـا. ومن المؤكد أن المهاجريـن ينفقون قسمـاً كبيراً من دَخلِهم، ومن ثمَّ فهم يزيدون الطلب، ويسهمون في زيادة الأجور وتوليد فرص عمل جديدة.

الهجـرة الوافدة إلى الاقتصـادات المتقدمة أدت إلى زيادة كبيـرة في نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي، لأن المستويات المهارية وأوجه التكامل يعززان إنتاجية العمالة، ولأن توافد المهاجرين في سن العمل إلى بعض الأماكن يساعد على مواجهة نقص العمالة الناشئ عن التطورات الديموغرافية.

وأخيراً، نخلص إلى عدم وجود آثار سلبية كبيرة في مجموعات الدخل الوسطى أو الدنيا في البلدان المستقبلة (المُضيفة).

وعملياً؛ المهاجرون من أصحاب المهارات المُميزة أو المحدودة يثرون سوق العمل بمعرفتهم، ويعززون الابتكار، ويساعدون على رفع إنتاجية نظرائهم من العمالة المحلية. أما المهاجرون أصحاب المهارات المحدودة فيمكنهم رفع الكفاءة بشغل الوظائف التي لا تقبل عليها العمالة المحلية.

الدراسات في المملكة المتحدة والولايات المتحدة كشفت بأنَّ المهاجرين ليس لهم تأثير كبير في خفض أجور العمال قليلي المهارة من المواطنين الأصليين. المهاجرون يحملون معهم طرائق وأفكاراً جديدة، للمواطنين الأصليين للتعلم والتكيف. ويحفّزون المواطنين على اكتساب مهارات جديدة. تشير الدراسات البريطانية والأمريكية إلى أن المهاجرين، عادة، يسجلون براءات اختراع أكثر مما يسجلهُ المواطنون الأصليون، ومن ثمَّ فإن الهجرة ترفع الإنتاجية في الاقتصادات المضيفة. حتى لو أنَّ الرأي المحلي ينظر إليهم أحياناً بطريقة عدائية.

الهجرة القسرية

يمكن تعريف الهجرة القسرية بأنها انتقال الشخص من مكانه أو من بلده إلى مكان أو بلد آخر مضطراً بسبب ظروف قسرية أجبرته على ذلك، وليس بمحض اختياره.

من أسباب الهجرة القسرية الحروب المستمرة، والصراعات المدمرة للأوطان والشعوب مثل الأوضاع الناجمة عن الحرب الإرهابية التكفيرية الكونية على سورية، أو بسبب الحروب المندرجة تحت النزاعات الطائفية نتيجة العرق أو الدين مثل: ما يحدث في بورما وإفريقيا الوسطى، يفرُّ الأشخاص من مناطقهم خوفاً على حياتهم وعلى حياة ذويهم، باحثين عن الأمن والأمان والحياة في مكان آخر، وقد تكون الهجرة القسرية هجرة داخلية... وقد تكون الهجرة من مدينة إلى مدينة أخرى، وتعرف الهجرة بهذه الطريقة باسم النزوح وهو نزوح قسري إجباري، وقد تكون الهجرة من دولة إلى دول أخرى.

للهجرة القسرية تأثير كبير في حياة الأفراد، فهناك عائلات بأكملها غرقت في البحر في أثناء محاولة الهروب والوصول إلى أوروبا ... غير أن للهجرة القسرية تأثيراً كبيراً في المجتمعات العربية بشكل خاص، والهجرة القسرية في الوطن العربي، ويظهر تأثيرها واضحاً للعيان. ففي سورية، وبسبب التنظيمات الإرهابية التي مارست أبشع أنواع القتل والتدمير، ترك الآلاف من الأشخاص أماكنهم التي كانت فيها ولادتهم وحياتهم. وهاجروا نزوحاً إلى أماكن أخرى أكثر أماناً، وهي مغادرة إجبارية...

على مدار السنوات، ومع استمرار الهجرة بهذه الطريقة، تصبح المجتمعات الأم للمهاجرين فقيرة على المستوى الاقتصادي والفكري، وعلى العكس تستفيد المجتمعات التي تستقبل هؤلاء المهاجرين من تلك الطاقات الشبابية التي أجبرتها الظروف القاهرة كالحرب وغيرها. على الهجرة وترك أوطانها.

عملياً يهاجر الأشخاص الذين يُغادرون بهذه الطريقة ليس بحثاً عن العمل، ولكن بحثاً عن الأمان والحماية والاستقرار، وعادة من يصل بهذه الطريقة يتقدم بطلب لجوء إلى الدولة التي يصل إليها، ومعظم من يفكر في الهجرة بهذه الطريقة لا يفكر في مخاطر الهجرة غير الشرعية لأنه غالباً ما يكون هارباً من مخاطر ربما تفوق ما يتعرض له من مخاطر، والمثال على ذلك آلاف المهاجرين غير الشرعيين الذين يموتون غرقاً في مياه البحر الأبيض المتوسط...

هل هناك رؤى متطابقة بشأن الهجرة والتجارة؟

أولاً: على غرار التجارة، حتى إذا كانت الهجرة الداخلة تحقق منافع صافية لاقتصادٍ ما، فقد يترتب عليها خسارة وربح.

ثانياً: مثلما تؤدي التجارة بمرور الوقت إلى التخصص وفق الميزة النسبية، فقد يستغرق الأمر وقتاً حتى تترسخ الآثار الديناميكية للهجرة، لأنها تعتمد على تكيف منشآت الاقتصاد.

هل حركة انتقال البشر تحفز التنمية الاقتصادية؟

أحد تقارير معهد ماكنزي العالمي يقول: لا يشكل المهاجرون سوى (٣,٤٪) من سكان العالم، وينتجون (٩,٤٪) من الناتج العالمي، أي ما يعادل نحو (٦,٧) تريليون دولار، ويعادل ذلك إجمالي الناتج المحلي لكل من فرنسا وألمانيا وسويسرا مجتمعة. هؤلاء المهاجرون لو أنهم مكثوا في بلدانهم الأصلية، فإنهم يضيفون ثلاثة تريليونات دولار، أي ما يقارب الناتج الاقتصادي للهند وإندونيسيا مجتمعتين.

يظهر التقرير أيضاً أن التنمية الاقتصادية تحفز على زيادة الهجرة. ويؤكد وضع قواعد وهياكل الإدارة الرشيدة والحوكمة التي تزيد مزايا حركة البشر. ومع تنقل المهارات ينبغي أن تتنقل آليات الحماية الاجتماعية والمزايا والخدمات للأسر. وعلى المسؤولين في البلدان والمناطق المضيفة إدراك الميزة التي يضيفها العامل المغترب من خلال تعزيز الاندماج من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية.

نتائج الهجرة على البلد المُستقبِل

مبدئياً الهجرة تؤدي إلى زيادة في قوة العمل للبلد المهاجَر إليه، وزيادة في الطاقة الإنتاجية للاقتصاد بما أن المهاجرين هم عادةً من الفئة العمرية الصغيرة، كما تؤدي إلى زيادة الاستهلاك في البلد المهاجَر إليه، وارتفاع في نسبة العمالة مما يزيد الطلب الكلي والناتج المحلي الإجمالي للبلد. ومن آثار الهجرة أيضاً مرونة سوق العمل، إذ يميل المهاجرون عادةً إلى العمل في القطاعات التي يفضّل السكان المحليين للبلد عدم العمل بها، وهذا له آثار إيجابية على الاقتصاد. وعادةً ما يتقاضى المهاجرون دخلاً أقل من السكان المحليين، وذلك بسبب حاجتهم الشديدة إلى المال مما يخلق تفاوتاً في الفرص لبعض البلدان.

النتائج الأخرى للهجرة هي عدم دفع المهاجرين للضرائب، إذ إنّ معظم هؤلاء يتلقّون أجورهم نقداً مما يجعلهم يتهربون من دفع الضرائب المفروضة على الدخل، ويؤدي إلى تراجع في عائدات الدولة على الرغم من تكبد الدولة نفقات عالية على المهاجرين، فهم يحصلون على استحقاقات وخدمات حكومية كثيرة مثل: التعليم، والرعاية الصحية، وبرامج: المساعدات الغذائية، والرعاية الاجتماعية.

آثار هجرة الكفاءات على بلدان الأصل كثيرة أولاً: النتائج السلبية منها هجرة الأدمغة البشرية وعنصر الشباب، وثانياً: التحويلات المالية التي يرسلها المهاجرون إلى أهلهم أمرٌ جيد لاقتصاد الدولتين. ومن الناحية الأخرى قبول المهاجرين بالأعمال البسيطة يحدّ من إنفاق الشركات على التكنولوجيا ووسائل الإنتاج الحديثة.

الواقع أن ثمة جدلاً كبيراً بين الاقتصاديين، حول إذا ما كان يترتب على هجرة الكفاءات خسارة لبلد الأصل، ولاسيّما إذا كان بلداً نامياً (متخلفاً)، أو بمعنى إذا كانت هجرة الكفاءات هي في حقيقة الأمر «نزيف» لمورد حيوي يضعف من فرص التنمية أو مجرد تدفق الكفاءات الزائدة عن حاجة مجتمع متخلّف، لا يستفيد منها على أيّ حال...

وفي هجرة فرد ما خسارة أولية لبلد الأصل تتمثل في التكلفة التاريخية التي تكبدها المجتمع في تكوين وتعليم المهاجر، مباشرة أو بطريق غير مباشر، حتى وقت الهجرة.

التكلفة التاريخية للمهاجر لها بُعد اجتماعيٌّ. لمّا كانت بلدان الأصل في العالم الثالث فقيرة، والتعليم العالي بها ميزة لا يحصل عليها إلا نخبة، هي عادة الأقدر مالياً، فإنها

لا تتحمل إلا نسبة ضئيلة من تكلفة التعليم العالي، لذا فإن التكلفة المجتمعية لتعليم الكفاءات المهاجرة تقع في الحقيقة على كاهل الغالبية الفقيرة في بلد الأصل.

إنَّ الكفاءات المهاجرة تنتقل إلى مجتمع أكثر «تقدماً» يوفر لها ظروف عمل ومعيشة أفضل، مما يؤدي إلى ارتفاع إنتاجيتها وإسهامها بدرجة أكبر في صنع المعرفة والتقدم الإنساني، والرد على هذه الحجة واضح، إذ حتى لو استبعدنا التناقض الظاهر بين مصالح بلدان المهجر المتقدمة ومصالح بلدان الأصل المتخلفة، في سياق النظام العالمي الجديد، فكثيراً ما يكون إسهام الكفاءات المهاجرة في إنتاج المعرفة خاضعاً لبراءات اختراع، وعلامات تجارية لا تتيح لبلد الأصل الاستفادة الحرة منها، لأنها غالباً ما تكون مصممة لخدمة أغراض ونمط احتياجات بلدان المهجر المستقبلة.

الهجرة مثيرة للجدل؛ هل هي نعمة أو خسارة على الدول المستقبلة (المستضيفة)؟

من الناحية العملية؛ بين البطالة والنمو والمالية العامة تتنوع التقييمات، وتختلف بحسب بلدان الاستقبال ونوعية المهاجرين: (عائلات أو مهاجرون اقتصاديون أو لاجئون)... ترى «إيمانويلا أوريول» من معهد تولوز الفرنسي للاقتصاد أنه «من الخطأ» القول: إن استقبال المهاجرين «يفاقم البطالة»، ولفتت إلى أن «المهاجرين يتولون أعمالاً تكون في أغلب الأحيان شاغرة. الميزة الأخرى للهجرة بحسب (مجموعة الأبحاث بي أس آي إيكونوميكس) أن تدفق المهاجرين يزيد الطلب، ويحفز الاستهلاك ما «يؤدي على الأرجح إلى استحداث فرص عمل» في القطاعات الأخرى.

وفي دراسة نشرت بتاريخ (٢٠ حزيران عام ٢٠١٨م) قدرت منظمة التعاون والتنمية أن عدد العاطلين عن العمل يمكن «أن يرتفع بنحو ٦٪» بحلول (شهر كانون الأول لعام ٢٠٢٠م) في ألمانيا.

من جانبه يقول «جان كريستوف دومون» رئيس قسم الهجرة في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية: «ما من شك في أن الهجرة ترفع الناتج الإجمالي» في دول الاستقبال عبر تحريك الاستهلاك والنشاط الاقتصادي.

الهجرة تؤجج الشعبوية والعنصرية في الغرب

تؤكد مراكز الدراسات أن هناك (٤٣٧) ألف طلب لجوء في الاتحاد الأوروبي خلال الأشهر السبعة الأولى من عام (٢٠١٨م)، هؤلاء يُمكن أنْ يُقبلوا جميعهم. وفي ضوء الشيخوخة العالية

في الاتحاد الأوروبي فإنَّ تدفق الشباب من الأجانب سيكون ثروة عظيمة، لكن أوروبا تواجه حالياً ثلاث مشكلاتٍ مرعبة وهي: البطالة العالية، وضعف النمو، وعدم مرونة سوق العمل. إن تردد أوروبا أمام تحدي المهاجرين إنما يعكس ضعفها الاقتصادي الكبير.

يواجه مسؤولو الاتحاد الأوروبي في بروكسل صعوبات في الاتفاق على استجابة مشتركة لأزمة الهجرة لتهدئة توترات في إيطاليا وألمانيا. وقد أدت ظاهرة تدفق موجات الهجرة الشرعية وغير الشرعية إلى الغرب إلى تأجيج ظاهرة الشعبوية والعنصرية فيها.

هجرة الكفاءات وتأثيراتها في البلدان النامية

إن من أهم وأخطر التحديات الصعبة التي تعترض طريق التنمية الاقتصادية في البلدان النامية؛ افتقارها إلى الكوادر العلمية والفنية المؤهلة والمدربة في مختلف مجالات العمل والإنتاج، وتتجسد المشكلة بالنسبة إلى هذه البلدان في النزوح المتزايد أو النزيف المستمر للأدمغة العلمية والخبرات والكوادر الفنية المدربة عموماً، إذ يجتذب التوجه للهجرة إلى البلدان الصناعية المتقدمة وبلدان العالم الثالث الغنية بمصادر الثروة الطبيعية أعداداً متزايدة منها بصفة مطردة بتأثير الإغراءات المادية، وتحسين ظروف الحياة المعيشية.

بلغت نسبة الكوادر المهاجرة إلى الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا فحسب ما قيمته (٥٠ مليار دولار)، منها نحو (٣٣ مليار دولار) من آسيا، ولاسيّما الهند وبلدان الشرق الأوسط. وبصرف النظر عن مدى دقة هذه الأرقام فإنها بلا شك توضح بعض الملامح الرئيسة للصورة العامة للموقف الصعب الذي تواجهه البلدان الفقيرة والنامية ومازالت تعاني الأمرّين من ندرة الخبرات العلمية والفنية من جهة، ومن هجرة من تمكنت من تأهيلهم وأنفقت عليهم مبالغ طائلة. ولاسيّما هجرة الكفاءات، ظاهرة انتقائية، بمعنى أن العناصر الأنشط والأكثر تأهيلاً هي عادة تلك التي تزيد فرصة هجرتها. ومحصلة هذا الوضع أن تؤدي هجرة الكفاءات، في الأجل الطويل، إلى تخفيض الرصيد المعرفي، ومن ثم الناتج الإجمالي، في بلدان الأصل نتيجة لفقد الناتج المترتب على وجود الكفاءات التي هاجرت.

إنَّ نقص الكفاءات، الذي تزيد من حدته الهجرة، يؤدّي ببلدان العالم الثالث إلى استقدام كفاءات أجنبية لدعم النشاط الاقتصادي بها، مما يترتب عليه تكلفة مادية واجتماعية كبيرة. ويحدث أحياناً أن تعود الكفاءات المهاجرة إلى بلادها بوصفها خبراتٍ أجنبية تحت علم بلد آخر، ولخدمة مصالح ليست بالضرورة متوحدة مع مصلحة أوطانها الأصلية، وفي هذا الخسارة الأعظم.

المهاجـرون من الـدول النامية يرسلون ما يقارب (٤٤٠ بليـون دولار) من النقود سنوياً إلى عوائلهم في بلدانهم، وهو ما يعادل ثلاث مرات حجم مساعدات التنمية الرسمية في العالم.

الهجرة في العالم العربي

أدت اضطرابـات ما سمي بالربيع العربي، إلى عدم الاستقرار السياسي والأمني، وانتشار الصراعـات المسلحـة والحروب الأهلية والإرهاب التكفيري الذي مارس أبشع أنواع الذبح والقتل الوحشي للبشر...، وتدمير البنى التحتية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية.

وتعدّ دول الربيع العربي من أهم الدول المُصدرة للمهاجرين، لأسباب سياسية واقتصادية وأمنيـة... شهـدت الدول العربية حالة مـن استنزاف المواهب في كـلّ المجالات، ولاسيّما المجـالات الحيوية كالطب والطاقـة النووية والاقتصاد، في الوقـت الذي تحملت فيه ضخ استثمارات في تعليم هؤلاء المواهب وهجرة كفاءاتها وأدمغتها نحو الغرب.

الهجرة اصطياد الغرب للعقول

تعاني الدول العربية أزمة معرفية تجسّدت في نزيف هجرةٍ، وتشير الإحصاءات إلى أن ثلاث دول غربيـة غنية وهي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا تصطاد (٧٥٪) من المهاجرين العرب، بـل أكثر من ذلك. وقد منحت بعض الدول الغربية جنسياتها للعقول العربية المهاجرة كي تنسب إبداعاتهـا إليها بالكامل، إذ يهاجر سنوياً (١٠٠ ألف) من العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء كـل عام مـن ثمانية أقطار عربية هي سوريـة ولبنان والعراق والأردن ومصـر وتونس والمغرب والجزائر. وفي عام (٢٠١٧م) كشف تقرير للبرنامج الإنمائي للأمم المتحدة بعنوان «نظرة جديدة إلـى النمو الاقتصادي: نحـو مجتمعات عربية منتجة وشاملة» أن المنطقـة العربية تشهد أعلى معدلات الهجرة من المتعلمين وأصحاب المهارات، مع تفاقم حدة البطالة.

إلـى ذلـك، يشكل نمط الحياة في البلـدان الغربية عنصر جذب لعـدد كبير من الشبان العـرب. وبحسب إحصـاءات لـ«منظمة العمل العربية»، فإن أكثـر من نصف الطلاب العرب الذين يتلقون دراساتهم العليا في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم.

وتشكل الأسباب الاقتصادية وارتفاع معدلات البطالة سبباً مباشراً للهجرة، وفي المنطقة العربيـة أعلى معدل بطالة علـى الصعيد العالمي، إذ تبلـغ (٢، ٢٣٪) بالمقارنة مع المعدل العالمي البالغ (٩، ١٣٪)، كما أنها ترتبط بسياسات الأجور، ومستوى الدخل.

وبحسب تقرير البنك الدولي والجامعة العربية، ينتقل ما يقارب (٤٠٪) من مهاجري الشرق الأوسط إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، ويهاجر (٢٣٪) منهم إلى دول متقدمة أُخرى، و(٣١,٥٪) يهاجرون إلى دول داخل الشرق الأوسط، و(١٪) فحسب من المهاجرين ينتقلون إلى دول نامية أُخرى في العالم. وإن (٥٤٪) من الطلاب العرب، لا يعودون إلى بلدانهم.

تنامي ظاهرة الهجرة في الدول العربية لها كثيرٌ من السلبيات، أبرزها استنزاف الكفاءات الضرورية للبلدان الأصلية عبر هجرة العقول والشباب، وهو ما يشكل قيداً على عملية التنمية الشاملة، ويسهم في تكريس علاقة التبعية بين الدول النامية والمتقدمة. بحسب إحصاءات إدارة السياسات السكانية والهجرة في جامعة الدول العربية، خسائر مادية وفنية قدّرت بنحو بليوني دولار سنوياً.

أسباب هجرة الكفاءات العربية

لخصت تقارير الجامعة العربية واليونسكو الأسباب والدوافع الأساسية لهجرة العقول العربية، في عجز الدول العربية، على استيعاب أصحاب الكفاءات، الذين يجدون أنفسهم عاطلين عن العمل، إضافة إلى ضعف دخلهم المادي، وفقدان الارتباط بين أنظمة التعليم ومشروعات التنمية والتطوير. تأتي مصر في مقدمة الدول المصدرة للعقول إلى الخارج، ولاسيّما كندا والولايات المتحدة وألمانيا، وطبقاً لبيانات اتحاد المصريين بالخارج، فإن تعداد علماء وأكاديميي مصر المقيمين بالخارج، يبلغ نحو (٨٦) ألف عالم وأكاديمي، منهم (١٨٨٣) في تخصصات نووية نادرة، كما يضمون (٤٢) رئيس جامعة حول العالم.

وتشير خريطة العلماء المصريين في مجال الطاقة الذرية، إلى وجود (١٨٠) عالماً مصرياً في المجال النووي، يعيشون خارج مصر.

أصدرت الجامعة العربية عشرات التقارير التي حذّرت فيها من أن العالم العربي يعاني من فقر علمي، وخسارة (٢٠٠) مليار دولار بسبب هجرة الكفاءات العلمية والعقول العربية إلى الدول الأجنبية، ودعت إلى السعي لاستعادة هذه العقول، ولاسيّما في ضوء التفوق التكنولوجي لدولة الكيان الصهيوني، وتحول الصراع العربي الإسرائيلي تدريجياً إلى صراع تفوّق تكنولوجي، ومُلاحظ أن كثيراً من العقول العربية تفضل البقاء بالخارج، وعدم الرغبة في العودة إلى أوطانهم وذلك لعدّة عوامل اجتماعية وثقافية، منها جاذبية

الوسط العلمي في الغرب وتطوّره، ورغبة كثيرٍ منهم في الاستقرار ببلدان المهجر، بسبب نجاحهم في فرص كفاءتهم العلمية في الدول التي تحتضنهم. فضلاً عن التسهيلات المقدمة، ما يحفزها على الاستقرار بالدول المستضيفة، والاندماج بالمجتمعات الغربية، في الوقت الذي تعاني فيه مجتمعاتهم الأصلية من سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتنموية ونقص الإمكانات.

تظهر خطورة هجرة الكفاءات العربية، في جانبين، أولهما التكلفة التي يتكبدها المجتمع في تكوين وتعليم المهاجر إلى حدود موعد هجرته، إذ إنَّ هذه العقول لم تكلف الدولة المضيفة شيئاً في تنشئتها وتدريبها. ويتجسّد الخطر الثاني لهجرة الأدمغة العربية إلى الغرب في عدم استفادة دولهم الأصلية من مهارتهم الفكرية والمعرفية وتقديم فائدتها إلى الغرب...

اللاجئون السوريون

الموضوع الذي شغل العالم في السنوات الماضية هو هجرة السوريين بسبب الحرب الإرهابية الكونية على سورية.... والأرقام التي صدرت إلى الآن تشير إلى أنه دخل نحو (٨٠٠) ألف مهاجر سوري إلى ألمانيا وحدها، أما في لبنان البلد الأقرب جغرافياً إلى سورية فبلغت نسبة الهجرة فيه نحو (١,٢) مليون لاجئ سوري. ومع انتصارات الجيش العربي السوري على التنظيمات الإرهابية واستعادة قسم كبير من الأراضي السورية المحتلة؛ وإعادة الأمن والاستقرار إليها، يلاحظ عودة تدريجية للسوريين النازحين إلى وطنهم الأم سورية.

يمكن معالجة تداعيات ظاهرة الهجرة الخطيرة والمثيرة للجدل بخطوات ثلاث:

أولها: إيجاد حلول جذرية لأسباب الهجرة الناجمة عن الأوضاع الاقتصادية والأمنية...

وثانيها: صياغة القوانين والتشريعات المناسبة.

وثالثها: إيجاد تسويات للصراعات المسلحة ومحاربة التنظيمات الإرهابية حيثما وجدت، لأنّها أحد أهم المصادر الرئيسة للنزوح والهجرة. مع الإشارة إلى أهمية وضرورة وضع إستراتيجية عربية متكاملة للتصدي لمشكلة هجرة الكفاءات، وإيجاد حلول للحدّ من هذه الظاهرة، وفيما يأتي بعض الحلول المُقترحة:

- احتـــرام الحرّيـــات الأكاديميّة؛ وذلـــك عن طريق عدم وضع أيّ عوائـــق، أو حواجز في طريـــق العلماء، والأكاديميّين في أثناء بحثهم عن المعلومات، وتبادلهم للأفكار، واستخدامهم لمختلف وسائل التطوُّر الحديثة.

- تعديل نظام الرواتب، والأجور التي تُخَصَّص للكفاءات العلميّة. وتوفير الحوافز المادّية المُرتبطـــة بالبحوث العلميّة، وتحسين الأوضاع المعيشيّة لهـــم، إضافة إلى تأمين الاستقرار النفسيّ لهم.

- الحرصـــ على توفير الفُرَص للكفـــاءات المُهاجرة للمشاركة فـــي المؤتمرات العلميّة، والفكريّة داخل أوطانهم الأصليّة.

- تعديل سياسة التوظيف، وإصلاحها، وذلك بوضع الكفاءات في المناصب المُلائمة لها.

- استثمار الكفاءات المحلّية، وتفضيلها على الخبرات الأجنبيّة في عمليّة التنمية.

- توفير البُنية الضروريّة واللازمة للبحوث العلميّة، عن طريق إزالة كلّ ما يُعيق إجراءها، بالإضافة إلى تقديم التقييم المُنصِف للكفاءات العلميّة.

فضاءات المكان: تقاطبات ودلالات

رواية زهرة الصندل أنموذجاً

د. فوزية زوباري

للفضاء المكاني حضور وارف في العالم الروائي، فهو- وعدا عن أنّه عنصر مهم من عناصر السرد - لا ينعزل عنها، ولا يتعرّف إلاّ بها، ويدخل مع المكونات المكانية الأخرى؛ من زمان، وشخصيات، وأحداث في علاقات متعددة ومتشابكة يتبادل معها التأثر والتأثير. وعدم النظر إلى المكان ضمن هذه العلاقات وتعددها، والصلات التي يقيمها معها، يجعل من الصعب فهم الدور النصي الذي يقوم به الفضاء الروائي داخل السرد.

فوجود الشخصيات يساعد على تشكيل البناء الروائي في النص ويبرز صورته، كما يساعد على نمو الأحداث وتطورها، ومجرد الإشارة إلى المكان يعني أن حدثاً ما سيجري فيه، «فحيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة»[1].

ومن جهة أخرى، فإنَّ المكان الروائي، ومع ارتباطه بالشخصيات، والأحداث، ووجهات النظر، مرتبط بزمن القص؛ فكل ما يحدث في الرواية، من داخلها وخارجها، يتم عبر الزمن ومن خلاله؛ إذ تترتب عليه عناصر التشويق والإبداع والاستمرار، ويتخلل أحداث القص، ليشكل في نهاية المطاف «الهيكل الذي تشيّد فوقه الرواية»[2]، والمحور الأساس المميز للنصوص الحكائية بشكل عام. بهذه الاعتبارات جميعها، يصبح المكان عنصراً جوهرياً ومتحكماً في الوظيفة الحكائية بفضل بنيته الخاصة والعلائق المترتبة عليه. تأسيساً على ذلك يمكننا اعتماد المكان بوصفه شبكة من العلاقات، ووجهات النظر التي

تتضافــر، لتعمل معاً علــى تشييد الفضاء الروائي الذي سيكــون ميدان سيرورة الأحداث وتطورها.

ينفتــح نص «زهرة الصندل»[٣] علــى الزمن بالوقوف على الأحــداث الدامية التي مرت علــى سوريــة، وتحديداً في حلب، بوصفهــا أحداثاً مؤثرة في تاريخ البــلاد، إنه زمنٌ يواكب مرحلــة السبعينيات من القرن الماضي، لكنه زمن منفتح على الماضي، مثلما هو مفتوح على المستقبل.

تنمو أحداث الرواية وتتطور ضمــن فضاء روائي يتحدد بمدينة حلب وأسواقها القديمة؛ إذ تشكــل حلب التيمة Theme المكانيــة الرئيسة لكتابات إخلاصي، فتنزاح المدينة عن أنها جغرافيــا ومساحات، لتشكل طبقــات حضارية وثقافية وسياسية تتفاعــل مع الزمن، ويغدو المكــان أشبه بلوحة فسيفسائية تنطق بأكثر من لغــة، وتبوح بأكثر من حقبة تاريخية تتعاقب كرنولوجيــاً منذ الحكم العثماني، فالانتداب الفرنســي مروراً بحرب فلسطين ولاسيما حرب الثمانية والأربعين؛ إذ شارك السوريون بما يعرف بجيش الإنقاذ، وصولاً إلى العصر الحديث؛ إذ يسجل الســرد زمن الحكي في مرحلة السبعينيات من تاريخ سورية الحديث. وفي معرض التخييل الموهم بالواقع، يحدد الروائي جغرافية مكانه الروائي المركزي، الأنصارية، والأماكن الفرعيــة الأخرى، كالسوق والشوارع والأروقة القديمة ضمن الفضاء الحلبي عموماً؛ عمومية تفقــد شموليتها، لتمنح هذا المكان بعض الخصوصية بتحديد علامات بارزة تحيط بالمكان البــؤرة مثل القلعة، ســوق حلب القديم (سوق المدينة) الممتد ضمــن حارات وأزقة متعددة، تجاور القلعة، وتستمد منها الديمومة وعنفوان التاريخ.

يقــول أمبرتو إيكو: «... وأنا أروي، أحب أن تكــون الفضاءات التي أتحدث عنها حاضرة أمامي. إن استحضار هذه الفضاءات تجعلني أحيا داخل القصة، ويساعدني على التماهي مع شخصياتي»[٤] ربما، ومن هذا القبيل يحاول إخلاصي أن تكون الأنصارية، وهي مركز الإقامة الأساســي لشخصياته، أن تكون النسخة الروائيــة للمنصورية الواقعة في حي الفرافرة أقدم أحياء حلب وأجملها، وكانت قديماً دار إقامة لجدّه[٥].

فالمكان الروائي عند إخلاصي، وعلى الرغم من «دخوله في معمل التخييل، يظل مرتبطاً بالواقع، يبتعد عنه بقدر اقترابه منه»[٦] والأنصارية؛ ذات الجذور الواقعية، والتي تحولت إلى مكــان روائي «تحمل من الشعرية قدر ما يحملــه ناس ذاك المكان»[٧] والجغرافيا تتحول إلى

«شعـــر عندما تتحول أمكنتها الساكنـــة إلى أماكن متحولة فاعلة؛ أي أماكن حيّة تنبض بإيقاع الزمن وإنسانية البشر»[٨].

شيد الروائي عالمه التخييلي على أساس من العالم الواقعي، وربط بين العالمين بعلاقات؛ منهـــا العاطفي الـــذي يربطه بمدينة حلـــب، وأمكنتها القديمة التي تشي وتحـدّث بأصالتها الحلبية التراثية التي «تحترم الإنسان كثيراً»[٩]، ومنها التاريخي الذي «يختزل الأفكار التاريخية والفلسفية»[١٠]. ومدينة حلب، حيث تجري أحداث الرواية تفرض نفسها بوصفها مركز إشعاع حضـــاري وثقافي معروف منذ القدم. وعلى الرغم من تعرض المدينة للغزو المتعاقب خلال قرون طويلة، فإنها مازالت تتنفس وتنمو محكومة بإرادة البناء والاستمرار، وكان حجرها رمزاً مـــن رموز المقاومـــة للفناء. وإذا كان حمض الزمن قد أثّر فـــي الحجر، «فإن معدن المدينة التاريخـــي نادر ومقاوم»[١١]، ينطق بأكثـــر من لغة، ويبوح بأكثر من حقبة تاريخية، ما إن تنزاح مرحلة حتى تنبجس أخرى مختلفة عنها ومغايرة، لكنها متقاطعة معها ومتواصلة.

وإذا شكّلـــت مدينة حلب الفضـــاء الكبير الذي تدور في فلكه الأمكنة الرئيسية والفرعية، فإنـــه لابدّ مـــن تحديد تلك الأمكنة لما تحملـــه من وظائف ودلالات تتوضـــح عبر السيرورة السرديـــة من خلال العلاقات المتبادلة في ذلك الفضاء، إذ سيكون مبدأ التقاطب هو وسيلة الكشف عن تلك العلاقات.

أيّـــاً كـــان شكل التداخل بيـــن العاملين: الواقعـــي والتخييلي، فإنّ العالـــم الروائي لزهرة الصندل، بفضائه وأمكنته، يغدو معادلاً موضوعياً للعالم المرجعي في الواقع، حاول الروائي تشييـــده بتوظيف التقنيات والعناصر الروائية المتعددة، بوصفها التربة المناسبة للتشييد، ثم منحها من روحه وفكره ليطلق، من خلالها، رؤيته للعالم. وبهذا، تنهض الأنصارية مكاناً رئيساً بوصفه مكان الإقامة، تتحرك ضمنه الشخصيات الروائية التي تعيش في كنفه، يقابلها السوق القديم، والأزقة المحيطة به، والشوارع، والأحياء؛ بوصفها أماكن انتقال فرعية لا تقل أهمية عن المركز، ولاسيما السوق القديم مكان انطلاق الشرارة الأولى للأحداث التي امتدت، فيما بعد، إلى كل أنحاء حلب.

أماكن الإقامة

الأنصـارية: تبـــرز هذه الدار الكبيرة والقديمة بوصفها مكـــان إقامة رئيسية للشخصيات باعتبارين اثنين:

١- الأنصارية بوصفها مركز إقامة وسكن:

تنغلق الأنصارية، المكان البؤرة، على عائلة متعددة الفروع تعود إلى جذر واحد. تضم هذه الدار الكبيرة، إلى جانب الغرف المتعددة المحيطة بالدار ما يأتي:

- الحوش، أو الدار، وهو مركز تجمع العائلة بكل طاقمها لإحياء المناسبات المتنوعة، حزناً وفرحاً.
- البركة، بأشجارها وأزهارها.
- الخزائن والمكتبية التي تحفظ كتباً ولفائف قديمة.
- القبور الثلاثة في صحن الدار للجد والعم والحفيد.
- القبلية؛ أو ما يسمى قبلية الأولياء حيث تضاء بالشموع للرجاء والدعاء.
- السقيفة، والسرداييب المحيطة بالبناء، تمتد وتتشعب لتربط الأنصارية بالقلعة، كما تربط القلعة بالأحياء القديمة والمنافذ التي تؤدي إلى خارج المدينة، هذا من حيث طبوغرافية المكان، أما من حيث الوظيفة الإنسانية، فالأنصارية هي دار سكن وإقامة لأغلب الشخصيات، تحمل أعباء الأحداث المأساوية التي مرت بالبلاد في تلك المدة.

صاحبة الدار هي الجدة «**وهوب**» الشخصية الأولى والمركزية في الرواية.

صاغ المؤلف من خياله هذه الشخصية التي مثلت «حلماً من أحلامه»[١٢]، وكانت نموذجاً «للتوحد بين المثل الأعلى والواقع الروحي التواق إلى الكمال»[١٣]، فكانت «شخصية نموذجية Personne exemplaire» بجدارة؛ كما قدمتها لنا المعلومات المتواترة عنها من خلال السرد، وكما قدمتها الشخصيات الأخرى التي كانت تحيط بها، وكما رشح من المعلومات الضمنية التي استطعنا استخلاصها من سلوك الشخصية وأفعالها وأقوالها، ومن المعلومات التي قدمها الراوي نفسه، سواء ما يتعلق منها بالمظهر الخارجي أم ما يتعلق بطبائعها وآرائها ووسطها الاجتماعي؛ أو ما قدمه عن طريق التدخل المباشر بالتفسير والتأويل[١٤]. وإذا أضفنا إلى ذلك اسم هذه الشخصية «وهوب» الذي يميزها ويعطيها بعدها الدلالي الخاص، وجدنا أن هذا كله «يدعم الوحدة التي يؤشر عليها الاسم الشخصي، بحيث تشكل معها شبكة من المعلومات يتكامل بعضها مع بعض، وتقود القارئ في قراءته للرواية»[١٥]. تحمل «وهوب» بجسدها النحيل، وقامتها الطويلة «كأميرة أسطورية»، مئة عام من الزمن منحتها الحنكة والحكمة والخبرة.

أحمد الشخصية الحكائية ذات الحضور المتعدد، والراوي الممثَّل ضمن الكلام narateur homodiégetique؛ يشارك في الحديث، ويتدخل في سيرورته، من خلال بعض التعليقات والتأملات والأوصاف التي يطلقها على ما حوله، ومن حوله، من الأمكنة والشخصيات، تمتد معرفته الشاملة إلى ما وراء الجدران، ليعرف ما يجري في أذهان سكان البيت، إنه، باختصار، السارد العالم بكل شيء والحاضر في كل مكان.

تعيش إلى جانب هاتين الشخصيتين الرئيستين: أم أحمد، وأحمد الحفيد العائد من مصحّ للأمراض النفسية.

إذا كانت البيوت امتداداً لأصحابها تعبر عنهم، وتفعل فعل الجو في نفوس الآخرين الذين يعيشون فيها[١٦]، فإنه من الضروري أن نضع في الحسبان التأثير المتبادل بين الطرفين: البيت والشخصية المقيمة فيه، إذ لا شيء يمكن أن يكون ذا دلالة من دون ربطه بساكنه. ولا يأخذ المسكن معناه ودلالته الشاملة إلّا بإدراج صورة عن الساكن الذي يقطنه، وإبراز مدى الانسجام أو التنافر الموجود بينهما[١٧]، بعد أن يكون قد حفر كل منهما آثاره في الآخر، وكأنَّ الأمر فعل وردّ فعل؛ فالإنسان هو الذي يمنح المكان قيمته، وربما وجوده[١٨]، كما أنه قادر على منح الأمكنة والأشياء قيمتها، وأبعادها الذهنية، والماورائية [١٩].

وإذا كانت **وظائف الوصف**: الزخرفية، والتفسيرية، والإيهامية، تسهم في إبراز المكان، فإنَّ الوظيفة التفسيرية منها تجسد علاقة المكان - الأنصارية بسكانه، وتوضح طبيعة تلك العلاقة المبنية على الحب والعطاء والوفاء بين الطرفين. فالمكان المسكون، كما يقول باشلار، يتجاوز المكان الهندسي، وأنصارية الجدّة وهوب تتجاوز بناءً من حجر، عمّره الزمن كما عمَّر صاحبته، فهو مثال لقيم الألفة والدفء التي يمثلها قول جان فاهل:

والبيت العتيق

أحس بدفئه الخمري اللون

يتسرب من الحواس إلى العقل [٢٠]

وإذا كان هناك من تقاطبات تكشف بعلاقاتها عن المكان وساكنيه، فإنَّ تقاطب الماضي/ الحاضر أكثر ما يكشف عن طبيعة العلاقة بين الأنصارية وساكنيها: ماضٍ جميل أكثر استقراراً عائلياً واجتماعياً، وحاضر يحاول أن يقاوم كل ما يخلّ بأمن العائلة واستقرارها، ماضٍ دفع فيه كثير من شباب الأنصارية أرواحهم في مقاومة وطنية مشرفة ضد العثمانيين

والفرنسيين والصهاينة، وحاضر يتخذ فيه بعض شبابهم سلوك التمرد والعصيان المسلح ضد الدولة، ملحقاً الضرر بالأمن العام، وما يجّر ذلك من فوضى وخلخلة في بنية المجتمع والاقتصاد. ثمة ماضٍ كان الانفتاح فيه على الآخر عنوان أهل الأنصارية، وحاضر بدأت فيه رياح الطائفية تعبث وتحاول اقتلاع ما بني ورسّخ من قبل.

وإذا كان المكان انفتاح الذاكرة على الزمن الماضي فإنه انفتاح، أيضاً، على النفس الإنسانية بمشاعرها المتنوعة وكثرة انفعالاتها. الماضي والحاضر في تقاطبهما يفتحان المجال ليس لاسترجاعات زمن مضى، ولكن، أيضاً، لزمن معاصر، وزمن آت. وهما في تقاطبهما يتقابلان، ويحكمان المكان. الأول يمثل هناك، والثاني يمثل هنا ليدخلا في حركية جدلية ترجح الماضي أحياناً، ثم ينتهي بفرض قوة الحاضر وآنيته، ويترك باباً مشرعاً نحو المستقبل.

في العادات والتقاليد، لم يكن أيضاً حاضر الأنصارية أقل كرماً من ماضيها في المحافظة على العادات والتقاليد الجميلة، من إحياء لواجبات «الموت والزواج والنجاح في الشهادات»، فضلاً عن «موائد الطعام المفتوحة» للغريب قبل القريب... والفقراء الذين تعودوا تَسَقّط أخبار الأنصارية للشبع والدعاء لسيدة الأنصارية وهوب[٢١].

وإذا كان تقاطب الماضي والحاضر ظاهراً بوضوح في «زهرة الصندل»، فإنَّ تقاطبي الداخل والخارج، والمنغلق والمنفتح، كانا يندمجان في تضاغيف الرواية في جدلية حركية مؤثرة تفتح المجال على حقول دلالية تتحرك ضمنها الشخصيات.

الأنصارية، ببنائها ذي العمارة القديمة المتوارثة للبيت الحلبي أو الدمشقي السوري، هي المكان النموذجي لسكن العائلة السورية بأصلها وفروعها الممتدة من الأجداد إلى الأحفاد. هذه الدار هي نموذج ملائم وغني لتقاطبات الداخل والخارج، والمنفتح والمنغلق؛ فهي المكان الداخل المنغلق على الأمن يوفر الحماية لساكنيه، ويحمل دلالات السعادة والألفة والشعور بالطمأنينة لساكنيه[٢٢]، وهو نقيض الخارج، المكان المنفتح الذي لا يوفر ذلك الأمن أو تلك الحماية. ولأنَّ مبدأ التقاطب يعدّ أداة رئيسة للكشف عن العلاقات التي تحكم الأمكنة، فقد يكون أيضاً وسيلة للإحاطة بأحداث مهمة في الرواية. وأحداث العصيان المسلح الذي انطلق من سوق حلب القديم هي التي تكاد تسيطر على مضمون الرواية، لتنمو على هامشها أحداث جانبية أخرى.

التحق ماهر- وهو واحد من فروع العائلة التي فضلت السكن خارج الأنصارية- بالعمل المسلح الذي نهض في حلب، وبدأ على شكل إضراب عام، فرضه المسلحون على سوق

المدينة. وغدت حملات الكرّ والفر بين رجال الأمن والمسلحين تتوالى. أما حملات التفتيش عن المسلحين والسلاح فكانت تجوب أحياء حلب وبيوتها. بهذا الاعتبار بدا الخارج منفتحاً على الخوف والاضطراب والعنف والقتل، وبدا الداخل - الأنصارية، منغلقاً على الأمن والحماية، الأمر الذي دفع ماهراً؛ المسلح الجريح، إلى الهروب من ذلك الخارج واللجوء إلى الداخل الآمن، والتسلل خلسة إلى سقيفة الأنصارية المهجورة. ما لبث أهل الدار أن اكتشفوا قريبهم الفارّ والمصاب بجروح بالغة، وقد تمدد على الأرضية الخشبية للسقيفة، وهو مدمى الجسد. يقول الراوي واصفاً المنظر: «وقد ظهر لي وجهه المغطى بلحية سوداء، وكأنه بدوي لم يعرف الراحة منذ سنين»[٢٣].

مثلت «سقيفة الأنصارية» في زهرة الصندل المكان المائز، المثال من أمكنة التخفي والحماية، فكانت «الداخل» المنغلق على الأمن، وتقديم الإسعافات اللازمة من أهل الدار لابنهم الفارّ، مقابل الخارج المنفتح على الخوف. لكنَّ هذا المكان «الداخل - المنغلق» على الأمان كان يتعرض بين الحين والآخر لاعتداءات الخارج المخلّة بأمنه واستقراره. فقد حاول غرباء ثلاثة مدججون بالسلاح الدخول عنوة إلى الأنصارية، وظهر واحد منهم وقد طوق خصره بحزام من القنابل، وظهر المشهد وكأنّ معركة ما ستلتهب بين لحظة وأخرى[٢٤]. لكنَّ حنكة الجدّة أعادت الأمان إلى الأنصارية بعد أن تمكنت من إقناع المسلحين بالمغادرة.

٢- الأنصارية بوصفها فضاءات وتقاطبات كثيرة:

توسل الروائي، ومن خلال تقنيات السرد والوصف والمشهد، بالقبض على المكان - الأنصارية، والكشف عن فضاءات متعددة نستطيع حصرها في فضاءات ثلاثة رئيسة، وهي: الفضاء الاجتماعي، والفضاء التاريخ السياسي، والفضاء العجائبي.

- **الفضاء الاجتماعي**: يتشكل حضور البنية الاجتماعية في النص من «المادة الحكائية التي يتفاعل الكاتب معها في إطار اجتماعي واقتصادي وتاريخي خاص»[٢٥]. وكلما أمعنا في الدخول في عالم «زهرة الصندل» تلمّسنا بقوة نتيجة هذا التفاعل بين الطرفين: المؤلف والمكان؛ فالأنصارية، بمرجعيتها الواقعية، تحمل آثار الحنين العائلي، ومازالت تحتفظ بين حجارتها القديمة بحميمية المكان، وبمرجعيتها التخيلية الروائية. فهي دار الجدّة «وهوب» وعائلتها ذات الفروع الممتدة، وبين الواقعي المرجعي والخيال الإبداعي شكلت هذه الدار

«حالـة نفسية» خاصة، لأن «كل الصور البسيطـة والعظيمة تكشف عن حالة نفسية» كما يقول باشلار[٢٦]، لامست كيان المؤلف، كما اخترقت قلوب سكان الأنصارية الجدد؛ وهوب وعائلتها.

أنصارية وليـد إخلاصي لم تُقدَّم روائياً بوصفها مسكناً فحسب لشريحة معينة، أو إطاراً لأحداث محددة، بل قُدّمت للقارئ بوصفها علامة فارقة بكل ما تزخر به من تاريخ موغل في القدم، تشـرب من القلعة الخالدة عبر الزمن، وعبر حضارات تعاقبت عراقة وأصالة، ولدت غنى وتعدداً في الإثنيات والطوائف والمعتقدات والتقاليد والعادات، غنى ترك بصماته على المجتمـع الحلبي عموماً، وعلى سكان الأنصارية على وجـه الخصوص، إذ انعكس ذلك كله في مواقف الشخصيات وفـي مشاعرهم وآرائهم وأفكارهم، وكما لو كانت هذه الدار «خزاناً حقيقيـاً» للأفكار والمشاعـر والحدوس، إذ تنشأ بين الإنسان والمكـان علاقة متبادلة يؤثر كـل طرف فيها في الآخـر[٢٧]. وقد برز هذا من خلال المشاهد الوصفية، ومن خلال الحوار الـذي أسهم في الكشف عن طبيعة الشخصيات ورؤاها للعالم، وربما كشف عن كثير من رؤى المؤلـف نفسه للعالم. فالعمل الروائي، في نهاية المطاف، عملية خلق لواقع متخيل، وتجربة أدبيـة ذاتية ترتبط، بقدر كبير، بحياة الكاتب وتجربته الحياتية والاجتماعية والفكرية، ولابدَّ أن ينعكس ذلك على الشخصيات ومواقفها الفكرية والحياتية نحو مجتمعها.

لم تكف هـذه الدار الكبيرة، بقسميهـا المأهول والمهجور، ولم يكـف سكانها المنتمون لأكثـر من جيل زمني، عن بثِّ حزمة من الـدلالات التي تكشف عن عوالم الشخصيات، وعن قيمها ،وعن العادات والتقاليد التي تمسكت بها، والتي نستطيع إرجاعها إلى:

١- **الانفتاح على الآخر**: تنغلق الأنصارية، المنزل السكني، على أسرة ذات أصول وفروع تمثل الصورة العامة للأسرة الحلبية التي اعتادت، عموماً، العيش في سكن واحد، ذي عمارة هندسيـة متشابهـة بين دار وأخرى. لكنَّ هـذا الانغلاق على العائلة، كـان في وجهه الآخر، انفتاحـاً على الخارج، حيث الآخر القريب والغريب. هذا الانفتاح بدا في صورة متعددة عبر تنامي السرد، وعبر المشاهد الحوارية المتكررة، والوقفات المحملة بالدلالات التي تشير إلى الانفتاح صفةً مميزة وبارزة لساكني الأنصارية.

إذا كان المجتمع الحلبي نتاجاً لحضارات متعاقبة، ولأمم متنوعة خلت، ولقيم متعددة، فإنَّ توليفة من نوع خاص من القيم يبحث عنها الكاتب، لتسهم في حل معضلة التنوع والاختلاف التـي اتسم بها الشعـب السوري عموماً، وتجلت قوية في «زهرة الصندل»، لاسيما في مرحلة

حساســة من تاريخ البلاد أرَّخ لها المؤلف، كمــا ذكرنا سابقاً، في سبعينيات القرن المنصرم، إذ كانت حلب على وجه الخصوص، وبعض المدن السورية، على وجه العموم، مسرحاً لسلسلة مــن الأعمال المسلحة الدامية، والاغتيالات التي تناولت شخصيات علمية واجتماعية مهمة. وقــد لجــأ المؤلف إلى تطعيم سرده بتقنيات متنوعة كانت تندغــم في نسيج السرد، فيصبح هذيــان الجدّة نوعاً من الحديث اللاواعي مع النفســ، لكنه محمل برسائل تحمل قيم الحب والتآخــي ونبذ البغض والحقد: «أيها الشيخ الهنــدي / أيها الطيب القلب أحرق بخورك في صحــن الدار / وزّع خشب الصندل عليهم / لا تبقوا في قلوبكم سوى المحبة / إنهم يقتتلون لأنهم لم يعرفوا رائحة الصندل / لا أحب البغض / الأنصارية علمتنا الحب...»[٢٨].

استضافت الجدّة وهوب في دارها «الأنصارية» شيخاً هندياً غريباً عن الدار، واختارت له غرفة في دارها، لينقطع إلى صلواته وطقوسه، يبقى خشب الصندل، الذي شكل الأساس في استعمــالات الشيخ الطبية، معادلاً موضوعيــاً للأصالة. «تلك الشجرة التي لا تموت أخشابها بعد قطعها «أصالة تعبق بالرائحة الزكية» انتشرت رائحة الخشب الزكي... وكانت قطعة منه مازال مستقرة على رفٍّ في غرفة الجدة»، وتعبق أيضاً بالانفتاح على الآخر ولو كان غريباً وأجنبياً. فإذا علا صوت السلاح في الزمن الحاضر، وأصبح لغة التفاهم بين المواطن والآخر في الوطن الواحد، وغدت لغة القتل هي السبيل، يبقى استرجاع الماضي الزاهي المنفتح على الغريب، وليس على القريب فحسب، لغة الضرورة، وسبيلاً إلى العودة إلى لغة العقل.

يتعــدى الانفتاح علــى الآخر الغريب، ليشمل القريب، لكنــه القريب الذي امتشق السلاح مهــدداً أمن الوطن والمواطن. ودائماً هي الجدّة وهوب صاحبة المواقف التي تتطلب الحنكة والعقــل والحكمة التي تصنع من لغة الحوار تقنية الوصــول إلى الهدف. فقد رأت أمام باب دارها «**أشباحاً ملفحةً تنتصب واقفة**» حاولوا اقتحام دارها، وحاورتهم بلغة العقل التي كان لها مفعول مدهش مع المسلحين: «**مَنْ أنتم، ومَنْ علمكم انتهاك حرمات البيوت؟**»

تقــدم الغريبان الباقيان بأسلحتهما، وقد ظهر واحد منهما، وقد طوق خصره بحزام من القنابل، وظهر المشهد وكأن معركة ما ستلتهب بين لحظة وأخرى... «**وصاحت الجدّة بتعالٍ: ألــم تسمعوا عن الأنصارية؟**»، يتدخل السارد، الذي حمــل في الوقت نفسه شخصية أحمد، ومن خلال المنولوج: «تمنيت لو أني أقدر على محاورة هؤلاء في أمور كثيرة طالما دارت في ذهني خلال تلك الأحداث المتعاقبة على المدينة، لكن الأسلحة سريعة الطلقات، التي برزت

مـــن بيـــن أيديهم لغة جديدة لم آلفها من قبل، جعلتني أكثـــر تعقلاً، فآثرت الصمت». وانتهى المشهد بخروج المسلحين من دون إلحاق الأذى بالسكان.

تســـاؤلات عدة تبرز فـــي موقف شبيه: هل يكون الحوار وسيلة ناجعة بوجه السلاح؟ أو أن الســـلاح حاجة مطلوبة للوصول إلى الهـــدف؟ أو نحن بحاجة إلى وسائل أخرى يجب أن نلجأ إليها في حالات مماثلة؟

يأخـــذ الانفتـــاح على الآخر مظاهر أخرى فـــي «زهرة الصندل»، نلحظـــه في رغبة أهل الأنصارية في السفر والالتقاء بالآخرين، كما فعل سلام، حفيد الأنصارية؛ إذ اختار أن يكون قبطانـــاً يجوب البحار، أو كما فعل آخر حين اختار السفر إلى إيطاليا لدراسة الفن التشكيلي وارتبـــط بإيطالية. وعلى الرغم من أن الزواج بأجنبي يمثل شيئاً من الانفتاح على الآخر، فإن للجدّة وهوب رأياً مغايراً.

٢- **الـزواج بالأجنبـي**: فـــي مجتمع يتمسك بعاداته وتقاليده مثـــل المجتمع الحلبي، يبرز الجانـــب السلبـــي من الزواج بأجنبي؛ سواء أكان امرأة أم رجـــلاً. سبب يعود أصلاً إلى جوهر هـــذه المشكلة، كما ترى الجـــدّة، هو الاختيار الخاطئ لبناء أسرة علـــى أرضية غير مستقرة «**فقدنـا اثنيـن من العائلة دون فائـدة، والخطأ كان في البداية هو الاختيـار...**»، «... **لأنه لا يمكـن بنـاء أسـرة فـي أرض غير ثابتـة**». وسواء سبَّب هذا الزواج تخلـــي ابن البلد عن أسرته وتربتـــه ومحيطه، وهاجر مع الطـــرف الآخر، «ليزرع في تربة جديدة» أم عاد إلى الوطن بعد فشـــل التجربة والتخلي عن «زرعه» للآخرين، في الحالتين تكون الخسارة فادحة، طالما أنها خسارة بشرية لا تعوض.

لقد عرَّج المؤلف على هذه المشكلة الاجتماعية التي تواجهها مجتمعاتنا الشرقية عموماً، وهي مشكلة، وإن بدت على هامش الحدث الرئيس، إلا أنه هامش لا يستهان به، في مجتمعاتنا التي تنشد الاستقرار والتطور في آن.

٣- **التجمـع العائلـي فـي سكن واحد**، والحرصـــ على إحياء العـــادات والتقاليد وحسن الضيافة:

كانـــت الأنصارية قد جمعت بين جدرانها أجيـــالاً متعاقبة من العائلة الكبيرة ذات الفروع المتعـــددة. وقد أخذ الجيل الجديد منها بترميم ما تآكـــل من حجارتها، وتجديد ما بقي من معالمهـــا. أحمد الطبيب، وليلى المهندسة، عقدا العزم على ذلك، وعلى إعادة ترتيب المكتبة

ومـــا حوته من نفائس. وقد بـــدت هذه العائلة مثالاً للنمـــوذج البطريركي في حياتها، نموذج يقـــوده الكبير ويحتمي بـــه الصغير. الجديد في أنصارية زهرة الصنـــدل أنَّ القيادة العائلية فيهـــا قد اعتلتها امرأة تجمع صفات الرجـــل، كما سرد ووصف الراوي. فهي المرأة الحكيمة الآمـــرة والمطاعة في آن واحد. تجمع بين الحزم والحب، وبين الشدّة، واللين، وبين الكبرياء والتواضع. ثنائيات اجتمعت بوئـــام وتفاهم في شخصية الجدة فكانت الواقع التخييلي الذي حلم به المؤلف، كما رأينا سابقاً.

كانـــت العائلة الأنصارية من رأس هرمها حتى آخر فـــرد فيها حريصة على إحياء تقاليد وعـــادات عُرفت بها البيئة الحلبية، فكانت «**تمتلئ عصـر كل يوم تقريبـاً بالأطفال من أبناء عمومتي... فكانت توزع عليهم الحلوى التي لم تنقطع يوماً عن الدار... وكان أبناء العمومة وزوجاتهـم وبنات أعمامـي وأزواجهم يتوافدون فرادى أو جماعات ليتحلقوا حول الجدة التي تتصـدر الليـوان الكبيـر...**». هـــذا الاهتمام كان يشمل الغريب، ولـــم يقتصر على القريب... فكـــان على هذه الدار أن «**تفتح أبوابها للناس جميعاً من كل طائفة تحتمي بها، فتعثر على الطعام والدفء والطمأنينة**»، وكانت الولائم «**لا تتوقف في الأنصارية، تجمع حولها الأقارب والأصـدقاء والغرباء والفقراء الذين كان يحلو لهم أن يطرقوا الباب في أية لحظة، ليسلموا على أهلها، ومن ثم يطلبون الطعام**».

- **الفضاء التاريخي السياسي**: المضمون الحكائي للرواية هو واحد من عناصرها المكونة وهـــو مـــا تقوله الرواية من آراء تهـــدف إليها أو أفكار تعبّر عنهـــا؛ إذ إنها تحمل رسالة تريد إبلاغهـــا، ودوراً تريـــد أن تؤديه، ومتعة تريد تحقيقها. والكاتب الروائـــي، وهو يشيّد عالمه، يستعمل ما يراه مناسبـــاً من تقنيات وآراء وعناصر روائية تتضافر جميعها، لتنتج هذا العمل الذي يحمل بصمة صاحبه ورؤيته للعالم.

مضمون «زهرة الصندل» سياسي بامتياز، يعود إلى مرحلة تاريخية مرت بها البلاد. ولأنه لا يمكـــن فصل التاريخ عـــن خلفياته السياسية أو الموازية لـــه أو المتداخلة معه، فإننا آثرنا الدخـــول إلى هذا العالم تحت غطاء تاريخي سياسي في حقبة ليست بعيدة زمنياً، لكنها على صلة بما يحدث حالياً، ومنذ أكثر من خمس سنوات على الأرض السورية.

آثر الروائي الدخـــول إلى هذا الفضاء متوسلاً بالاسترجاع تقنية تقود إلى الحاضر بقدر مـــا تعود إلى الـــوراء، ومن خَبرَ الزمن، وعاش قصصه ومآسيه هـــو الأولى بأن يكون الشاهد

القائل، والجدة هي المعنية دائماً: «**أحمد قتله الأتراك، عبد السلام الفرنسيون، وأما محمد فقد صرعته رصاصات اليهود، ومصطفى، رصاص من قتله؟**». هو استرجاع الماضي البعيد بهدف نعي الحاضر القريب الذي أدمى الأرض السورية من جديد، ولكن هذه المرة بأيدي أبنائه من السوريين أنفسهم، وليس بأيادٍ أجنبية كما كان الحال ماضياً. وإذا ما وقف الماضي والحاضر في قطبين متقابلين يحكمان المكان والحدث، فإنَّ جدل الحركة القائم في مخيلة الروائي ينتهي إلى طغيان صورة الحاضرة وسيطرته؛ لأنَّ ما هو ماثل أمام العين أكثر فاعلية مما هو باقٍ أو ماثل في الذاكرة. هذا الحاضر القريب المماثل لذاك الماضي.

بدأت الأحداث في سوق حلب القديم ذي المرجعية الواقعية والتخييلية في آن، وشكل مقتل مصطفى، ابن الأنصارية، وصاحب محل في السوق القديم، مركز تقاطع الواقعي بالتخييلي وتداخلهما، وبوابةً للدخول إلى منطقة الحدث حيث أصيب مصطفى بطلقات نارية طائشة استقرت في جسده، وأودت بروحه. تأتي الأحداث الدموية على مجموع الوحدات العشرين من قسمي الرواية الأول والثاني، وتستغرق عدد الصفحات الأوفر من الرواية.

تضيق المسافة بين المرجعيتين لمصلحة الواقع الذي رفد الحدث بكل قوة على حساب التخييل، فسجلت الرواية وقائع هذا الحدث، وكادت تسمي الأمور بمسمياتها كما ظهرت على أرض الواقع. كما قلنا منذ البداية، إن حضور الراوي كان متميزاً بوصفه شخصية رئيسة، وفي الوقت نفسه، بوصفه القائم بعملية التقديم، لذلك كان اللجوء إلى ضمير المتكلم هو السائد، وقد نصّب نفسه متكلماً باسم الجميع، وراوياً للأحداث كلها، لقد تخلل السرد بعض الحرية المقيدّة للشخصيات، لتقدم لنا معلومات عبر تعليقاتها، أو حواراتها. وقد كشف لنا الراوي طبيعة الأحداث ومسارها من خلال التركيز على الأمور الآتية:

١- **الكشف عن الشريحة السياسية التي كانت وراء أعمال العصيان المسلح ضد الدولة**، وذلك من خلال تسميتها بـ«الجماعة»، ووصفها بـ«المسلّحة»؛ لأنها رأت في استعمال السلاح طريقة للدفاع عن رؤيتها، وإن تسبب هذا السلاح في قتل الأبرياء من مواطنين لا ناقة لهم ولا جمل، من أمثال مصطفى؛ ابن الأنصارية. وتُرِكَ للمجاز دور في الكشف عن هويتها العقائدية والأفكار التي تنتمي إليها من خلال «إطلاق اللحية»، بوصفه مظهراً بارزاً للتيارات الدينية الأصولية، فقدم لنا شخصية ماهر بـ«صاحب اللحية السوداء»، و«المجاهد» ضد الظلم كما يدّعي، أو من خلال طريقة خطاب هذه الفئة المحمّل بالدلالات العقائدية التي

تسفر عن الانتماء، وهذه المرة على لسان واحد من هذه الجماعة المسلحة التي حاولت اقتحام الأنصارية، عندما ظهرت حنان بادر إلى القول: «من هذه السافرة؟ ».

٢- **العمل السري للجماعة:** «العمل في الظلام» هو التعبير المجازي الذي استخدمه السارد للإشارة إلى العمل السري لهذه الجماعة. وفي مشهد حواري بين الجدّة وماهر الذي لجأ إلى سقيفة الأنصارية بعد إصابته، تتكشف لنا رؤية الكاتب عبر خطابه سواء عن طريق السرد المباشر، أم عن طريق المشهد: كان ماهر... جميلاً بعد أن استعاد عافيته، ولم تبدُ عليه آثار من عنف أو رغبة في قتال، فخيّل إليّ أنني أمام فتى طيب القلب أُلصقت به تلك الأسلحة كرهاً. وقالت الجدة وهي تطعمه: «**ما الذي دفعك إلى هذا يا ولدي؟**» وبعد حوار طويل نصل إلى مغزى الحوار: «**رجال الأنصارية يقاتلون وجهاً لوجه، وجدّك محمد الذي قضى في حرب فلسطين كان يقاتل الأعداء وجهاً لوجه، وأنت! ألست من أبناء الأنصارية يا ولدي؟**» وفي أماكن أخرى، كان السارد يعبّر عن ذلك من خلال وقفات وصفية تعطي الدلالة نفسها؛ العمل في الظلام، نقتطع منها تعليقاً لأحمد: «**ما يحدث الآن من قتل في الظلام، ومن تعسف أمور تقلق الجدة**». وعلى لسان أحمد ابن العم، الذي يعبّر بالصيغة نفسها عن طريقة عمل هذه الجماعة، فيقول: «**من الذي يحاصرنا رجال بأسلحة رسمية أم أنهم أولئك الذين يتحركون في الظلام؟**»، موازناً بشكل غير مباشر بين السلاح الرسمي في أيدي السلطة التي تصدّ هجوم المسلحين وتتعقبهم، والسلاح غير الشرعي الذي يتحرك في الظلام. «**فالعمل في الظلام، والقتل في الظلام**» من أبرز العبارات الدالة التي كانت تتكرر على لسان السارد أو الشخصيات لوصف أعمال الجماعة السرية.

٣- **أسلوب عمل الجماعة:** يكشف السارد مع تنامي سرده عن أسلوب عمل الجماعة في دعوتهم التي تتسم بـ«التغرير» بالشبان من حديثي السن للالتحاق بهم. «**صاحت الجدّة، عندما علمت بأمر ماهر... الذي لم يبلغ بعد العشرين من عمره... لم تركناه يغرر به فيعمل في الظلام لاعباً بأسلحة الموت، ذهب بلا معنى...**». وفي موضع آخر ينطق قولها بالدلالة الواضحة: «**دعوا لي أمر أن يثوب إلى رشده فهذا من شأني**».

أمام هذا «التغرير» بالشباب، لا يبدي الأهل أي انشغال أو قلق تجاه ما يحدث لأبنائهم؛ هل هو القبول الضمني؟ هل هي اللامبالاة؟ أم عدم القدرة على الردع، أو على اتخاذ القرار الصائب لحماية الأبناء من اندفاعاتهم وانفعالاتهم؟ مهما كان الجواب على ما سبق فإنَّ

موقفـاً مماثـلاً لموقف والد ماهر يشوبـه التساؤل المقلق الذي غلّـف استفسار الجدة عن حفيدها. السـارد دائماً هو مصدر الخبر، إذ ينقل إلينا تعليق الوالد غير المباشر المستسلم أمـام خيار ابنه ماهر «**صـارحها بأنّ ابنه غـاب عن البيت منذ شـهر أو أكثر، وأنه لا يسـتبعد التحاقه بجماعة مسـلحة تقاوم الدولة... وهو لا يقوى على شـيء سـوى الدعاء له أن يحميه الله في غيابه**».

٤- **القضـية وحمـل السـلاح**: لابدَّ أن لحامل السـلاح قضية، أو هدفاً يبتغيه من وراء ذلك، القضيـة كانت غائبة تماماً عن السرد وتقنياتـه، على العكس من ذلك كان السارد، وعن طريق إحـدى شخصياته، يوازن بيـن موقف شباب الأنصاريـة قديماً من قضايا الوطـن الأساسية (الاستعمار التركي، والفرنسي، والصهيوني... إلخ) حين حملوا السلاح دفاعاً عن قضية مشروعة، وموقف ماهر، الذي حمل السلاح من أجل قضية «بلا معنى» على حدّ تعبير الجدة. فإذا كانت القضية رداً على الظلم – كما ادعى ماهر- فإن رأيها صريح وصادم: «**لا يمحو الظلمَ قتلٌ في الظلام...**». ورجال الأنصارية يقاتلون وجهاً لوجه. وبرأيها، نقاتل من أجل قضية تستحق الموت «**سـتكون حقاً ابن الأنصـارية عندما تعود وقد فعلتم شـيئاً من أجل أرضـنا فلسطين**» لا الموت العبثي كما فعل ماهر «ذهب بلا معنى»، فهل تستوي الموازنة بين الموتين؟

٥- **قضـية الاغتيـالات**: يكشـف السارد عن أمر آخر عمدت إليـه الجماعة المسلحة في طرائق عملها ووسائلها في الدفاع عن أهدافها، هو اغتيال الكفاءات العلمية؛ ممثلة بالأستاذ الجامعي على سبيل المثال. يقول أحمد: «**وكنت في عودتي من الكلية أحمل نبأ اغتيال أستاذ جديد... وكنا قد أحببنا على يديه علم الجراثيم... وكان أستاذنا يمزج الدروس والمحاضرات بالتفاؤل، ولكن رصاصة ظالمة، وقيل إنها سبع رصاصات أسكتت شجاعته في قول الحق فظلَّ حزني عليه مستمراً**».

عندمـا يطغى الأسلوب التقريري على السرد، يغدو السادر مسجلاً لأحداث كانت حقيقة واقعـة احتلت صفحات من تاريخ سورية الحديث، يفرض الواقع سيطرته على ساحة الحدث محـاولاً دفـع الخيال إلى الانزياح بعيـداً، ليعيش القارئ السوري لحظـة الحدث الآنية كما عاشها ماضياً.

تعددت تداعيـات الأحداث الدموية على المجتمع السوري، ونستطيع أن نرصد محطتين لهما انعكاساتهما على المجتمع، وتبلورتا في:

١- **الهجرة خارج الوطن**: إن انتشار الفوضى والموت المجاني العبثي كان يدفع بعض السوريين إلى التفكير بالهجرة والعيش في وطن بديل، وإن كانت هذه الفئة قليلة في المجتمع، ولم تكن ذات تأثير إلاّ أنها مؤشرات غير مريحة تخلي المجتمع من طاقاته المتنوعة. «**الهجرة، أيضاً فكرت بها كما كان يفكر بها كثيرٌ من الناس أعرفهم**». «**حقيبة على الظهر، وإرادة للسفر إلى أي مكان. نمشي ونفكر بلا شيء، وإذا ما صادفتنا مشكلة فكرنا. أريد أن نرحل ونبتعد فقد نفكر أفضل**». **أأهاجر؟ لكن سرعان ما كانت هذه الفكرة تنحسر عن السرد، وعن ذهن السارد الذي كان يواجه بآراء أخرى من أهل الدار تفضل البقاء لتحمل مسؤولياتها**: «**هل نسيت أمك، أنت وأنا زوجان لامرأتين وحيدتين، هل مازلت تفكر بالهجرة؟.. كانت أحلامي قد عصفت بي فشطحت. ...**».

٢- **اختلاف وجهات النظر والمواقف مما يحدث على أرض الوطن:**

«**هل تفهم حقاً ما يدور في المدينة من أحداث؟**»... «**إني لا أفهم سراً للعنف القاتل، أهو عصر الموت المجاني؟**» هذا الحوار البسيط بين شخصيتين من الأنصارية كان يمثل وجهة نظر شريحة من أبناء المجتمع الحلبي؛ شريحة أصيبت بصدمة بسبب الأحداث الدامية من دون أن تفهم سر هذه المعركة بين أبناء الوطن الواحد، أو حتى بين أبناء الأسرة الواحدة فانقسمت بين مؤيد ومناوئ، أسرة كان فيها القاتل والقتيل كما حدث لأسرة الأنصارية «...**أسرتنا فيها القاتل والقتيل، ومنها من يمثل السلطة، وفيها من يرفع على السلطة السلاح**». وفي مقابل اجتماع الأضداد واختلاطها في كثير من الأسر كان هنالك تنوع في وجهات النظر والمواقف تجاه ما يجري في المدينة، كانت عين الراوي تلتقطها وتبثها بين طيات النص، من خلال إشارات وتعليقات أو حوارات مباشرة. فالسارد الذي تقمص شخصية أحمد يمثل طيفاً من ذلك المجتمع، ويحدد موقفه: «**لن أكون مع أحد، أنا أريد الآن أن أكون مع نفسي، ولا أريد لنفسي إلا أن تكون هنا. ... في المدينة، في استمرارها، أريد أن أكون مع الحب والطمأنينة**». في مقابل الأغلبية الصامتة من المجتمع كان يظهر الشرخ واضحاً في انقسام آراء الطلبة في كلية الطب حيث يدرس أحمد، وحيث بدأت حوادث اغتيالات الأساتذة. هذا الانقسام في وجهات النظر قاد بعض الطلاب إلى مناصرة القتل والاغتيال، ولم يقف عند التأييد الفكري أو الكلامي فحسب. الكلام هنا لأحمد الذي عايش هذه الاختلافات في كليته، وبين زملائه الطلاب «**عدد منهم يبدو عليه أنه يناصر ما يحدث في المدينة**»، وكنت أستمع إلى همس بعضهم يفرح لمقتل هذا أو ذاك فأتعجب، أيفرح الناس لمقتل الناس؟ لكنَّ رأي الجدّة «**وهوب**»

كــان يمثل وجهة نظر الإنسان المؤمن ببلده، وبقدرته على الصمود في وجه ما يحدث: «**أريد أن أتأكد من المدينة أنها تقبل ما يحدث**»، وهي، وإن بدت غير متأكدة أو متيقنة مما يحدث فذلك من قبيل تجاهل العارف المتأكد من عدم القبول؛ لأنها واثقة من أنَّ البلد التي تعرضت «**للزلازل والاحتلال والتخريب لم تفقد قدرتها على الاستمرار لحظة**».

- **الفضــاء العجائبــي**: يتحدد مفهوم العجائبــي بالنسبة إلى مفهومي الواقعي والمتخيل، ويحيــل على تداخل الواقع والخيــال، بمعنى آخر، على تداخل عالــم الحقيقة بعالم التوهم والتخييــل. والعجائبي حَدَث خارق للعادة، لا يخضع في تفسيره لقوانين الطبيعة ولا لأعراف العقــل؛ أي لا يمكن تفسيره عقلياً. انطلاقاً من هذا التحديد، يحاول الروائي أن يوظف هذا الفضــاء «قبليــة الأولياء» في «زهرة الصنــدل» للتعبير عن رؤية مغايــرة للتعامل مع الواقع واللاواقــع أو ما وراء الواقــع (الغيب). وليحقق، من خلال هذا التوظيــف أيضاً، كسر رتابة الســرد، وتطعيمه بتقنيات جديدة، وتحقيق جماليات من نوع خاص للنص؛ ولاسيما الوظيفة الأدبيــة التي تمنحه جاذبيته الخاصة أمام المتلقي، كما تمنحه جماليته الذاتية التي تثير في نفس المتلقي تقدير هذه الطاقة الجمالية وتذوقها.

تمثــل «**قبلية الأولياء**» الواقعة في الجهــة الجنوبية من الأنصارية مشهداً مكانياً دُفن فيه «**أولياء لا يعرف لهم تاريخ محدد**» وكانت أغطيتهم الخضراء تتجدد من ساكني الأنصارية في المناسبــات. وينتمي هذا المشهد إلى البنى العجائبيــة للمتخيل الخاص بالخطاب الصوفي؛ أي مــا يدعى بالمناقب والكرامات، ويشكل، فــي الوقت نفسه، امتداداً للمتخيل الشعبي الذي يتحــدث عن كراماتهم وخوارقهم، الأمر الذي يجعل مــن قبورهم في القبلية «**محجاً لطالبي الفرج، يقصــدونهم بالشــموع والابتهالات، ويقفون عندها يهزون القضــبان الحديدية يرجون تحقيق طلب أو أمنية**». إنه النص العجائبي، كما يقول تودوروف، «يقدم لنا بشراً مثلنا»، كانوا يقطنون عالمنا ثم ينتقلون، بموتهم، إلى العالم الآخر، و«**إذا بهم يوضعون في حضرة المستغلق عن التفسير» مما هو «محكوم بقوانين مجهولة من طرفنا**»، لكنهم يبقون وسيلة للاتصال بين ذينــك العالمين، وتلك هي الوساطة التــي يجترحها الولي الصالح بكراماته ومناقبه. لقد اتكأ الروائي في فضاء القبلية على الفانتاستيك باستدعاء أشكال المتخيل والخارق لهؤلاء الأولياء لدمجهــا في بنية النص ونسيجه، محاولاً تقديم رؤية مغايرة للتعامل مع الواقع وما وراءه، كما ذكرنــا. كــان السارد كثيراً ما يتوقف، مع تنامي السرد، عند هذا المكان، لينقل خبراً عن جدّه «صانع المعجزات» الذي دفن في القبلية، أو عن أولئك الناس الذين كانوا يأتون كل يوم إلى هذا

المكان يشعلون الشموع، ويتوسلون بالابتهالات، أو عن جدّ آخر كان يصلي عند أقدام الأولياء، «**ويتجه إلى الله بالدعاء حتى اشتهر بالنسك والزهد**»، وهو، في وقفاته السردية جميعها، كان يضع قارئه أمام وقائع غريبة عند هؤلاء الأولياء بأضرحتهم الرخامية المغطاة باللون الأخضر، لما لهذا اللون تحديداً من دلالات دينية تحدث عنها الإسلام في قرآنه وحديثه، كما يضع نفسه على حدود العجيب «**أعجب لأمر ثقتهم الكبيرة بالرفات**». وما بين التردد والتعجب اللذين كانت تثيره تلك الوقائع، كان المتلقي يواجه حدثاً فوق طبيعي بحسب الظاهر، في حين أنه هو نفسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية المعروفة في الواقع المعيش. وهنا يخطر لنا أن نتساءل: هل كان في اتكاء الأديب على الفانتاستيك بقصد الكشف عن بعد الأوهام والخرافات والأساطير والتخاييل التي تشكل مكوناً من مكونات رؤية العالم لدى المجتمعات الإنسانية، أم أن في الأمر بعداً آخر أكثر مصداقية يلجأ إليه الإنسان أمام المطلق؟

إن قبلية الأولياء، أو ما أطلقنا عليه فضاء القبلية- عدا عن الجمالية التي منحها لبنية النص- مشهد مكاني يرتبط، بشكل أو بآخر، بالمكان الديني، الجامع على سبيل المثال. هذا المكان يحمل في بعد من أبعاده وظيفة الاتصال بالعلو السماوي المقدس «**مصدر النور**» الذي يُوصَل إليه عن طريق الإيمان القلبي، وهو بوصفه مكاناً دينياً يؤدي دوراً استراتيجياً في حياة الكائن، لأنه يضمن الانفتاح نحو الأعلى، ليقبض على الكثافة الروحية الخفية بين المكان والإنسان.

هذه الكثافة الروحية، هي التي تمنح الإنسان انفتاحاً نحو الأعلى حيث وجود المطلق؛ انفتاحاً جاء بعد انغلاق السبل أمام الإنسان، وأمام القلق والألم الأرضيين. فقبلية الأولياء في «زهرة الصندل» مكان ممتلئ ومشبع بالدلالة الروحية، يزوّد من يتوسله بالصدق والحب لتجديد طاقته الروحية في حياته اليومية، لتعينه وتساعده على التحمل والاستمرار، وعلى تحقيق الأماني العزيزة. إنه المكان الذي نوسد فيه الأمل والأمنية، ونشعر فيه بالراحة والطمأنينة؛ إنه المكان الحامل للمعنى وللقدسية، وهو صلة الوصل بين الأرض والسماء.

إنَّ الخدمة الكبيرة التي تؤديها «القبلية» لمتوسليها هي أنها الحامل الذي يشدّنا إلى التخلص من إكراهات الواقع وقوانينه الصارمة، وإلى الرغبة في الانزياح عن المعيش الواقعي، والهروب إلى العوالم التي يقدمها المتخيل حيث «**الحياة مصفاة ومقطرة، وخالية من آليات الضبط والتوجيه القدري الذي لا فكاك منه**».

أماكن الانتقال

اقتصـــرت أماكن الانتقال في «زهرة الصندل»، من حيث أهميتها ودورها الوظيفي، على السوق القديم للمدينة، وعلى الشوارع والأزقة، وإن تفاوت دور كل منها في مسيرة الشخصيات وسيرورة الحـــدث. لقد استحوذ فضاء الأنصارية على المساحـــة الكبرى من فضاء الرواية، سطحـــاً وعمقاً، حاجبـــاً، بحضوره الكثيف، ما عداه من أمكنة. لكن رابطاً وثيقاً كان قد جمع بين الفضاءيـــن: فضاء الأنصارية، بوصفه مكان إقامة، وفضاء السوق القديم، بوصفه فضاء انتقال؛ إذ تقاسم الفضاءان حدثاً مهماً كان بمنزلة الشرارة التي انطلقت منها أحداث الرواية وهو مقتل مصطفى؛ ابـــن الأنصارية، في محله التجاري في السوق القديم، برصاص طائش استقـــرَّ في جسده، إثر تبادل إطـــلاق النار بين رجال الأمن ومسلحين حاولوا اختراق السوق، ودعوة التجار إلى عصيان إجباري بإغلاق المحلات ومغادرتها.

ليـــس هناك من صفات طبوغرافية للسوق ينقلهـــا السارد مصوراً هذا الفضاء الذي يحمل هويته الخاصة، وينتمي إلى سلسلة المناطق الداخلة في مجال التراث الإنساني: فالقِدَم، وضيق المسافة، وكثرة الأزقة الضيقة المتفرعة من جانبي السوق، والاكتظاظ السكاني، كل ذلك يرسخ المرجعيـــة الواقعية التي يمكن للمتلقـــي أن يعود إليها حين الحاجة. تتداخل هذه المواصفات، لتمنح السوق بعداً اجتماعياً يعكس تقاطبات الخارج والداخل، الاتصال والانقطاع. فالسوق؛ من حيث هو فضاء خارجي مفتوح جغرافياً، هو مكان اتصال وتواصل بين الناس التي تؤمه لحاجة أو لأخرى، لكنه لا يلبث أن ينغلق على الفوضى والرصاص الطائش، بفعل أحداث دموية طارئة تسببت بتمـــزق خيط الاتصال، فيكفّ السوق عن القيام بدوره في عملية التواصل المنوطة به، ويعـــود مكاناً منغلقاً على الخوف، ثم اللاتواصل، واللاحمايـــة يسيطران على الفضاء المكاني للسوق. ولم تكن الشوارع والأحياء أفضل حالاً من السوق بعد أن غدت بوصلة للتوترات اليومية التي تعيشها المدينة في ظل الأحداث الدامية، وخلت «**إلّا من خطوات الجنود والآليات... كما أن الرصـاص كان يفرقع بين فترة وأخرى**»، وخمدت حركة الناس، وخيم السكون على الشوارع الخالية إلّا «**من دوريات مسـلحة تمرّ بنـا متيقظة**»، وبقيت بعض الأزقة، وهي «**كل ما بقي من اتصال مع الشارع العريض الذي شقته البلدية وسط الأبنية القديمة**».

بفعـــل الأحداث الدامية، أصبحت أماكـــن الانتقال مشلولة الفاعلية، وتحولت من الانتقال إلـــى اللاانتقال، ومن الحركة المستمـــرة إلى السكون والثبات، ومـــن الاكتظاظ البشري إلى

الخلاء؛ إذ «**بات منع التجول في الشوارع مألوفاً، وانتشرت قوات الأمن تفتش وتبحث عن المسلحين الذين نشروا الخوف والذعر في كل مكان**».

بفضل هذه الإشارات التي استلّت من المتن الروائي، نستطيع أن نكوّن صورة أكثر وضوحاً، وأكثر دلالة عن دور أماكن الانتقال الوظيفي؛ إذ شكلت الفضاءات المكانية المناسبة للأحداث التي عصفت بالبلاد في تلك المدّة الزمنية، فانطلقت منها شرارة البدء، ثم استكملت دورها بوصفها مسرحاً للعنف الدموي، كما كانت الشاهد الأول على عودة الحياة الطبيعية إليها بعد توقف أعمال العنف. وكانت «**أصوات المايكرفونات تجلجل منذ الصباح منادية بانتهاء التفتيش... ودبت الحياة في المدينة. سمعت أصوات السيارات تخترق الشوارع بجنون يعوّض عن هدوء الأيام الساكنة**». وبعودة الحياة الطبيعية عادت تقاطبات الداخل الآمن، والاتصال إلى تفعيل دورها في إعادة عملية التواصل إلى السوق وعابريه.

تجلى الفضاء المكاني في «زهرة الصندل» عبر أماكن متعددة كانت الأنصارية المكان الأساس، والمركز لإقامة الشخصيات، كانت الفضاء الأبهى الذي انبثقت منه فضاءات متعددة ومتنوعة كان لها دورها ووظائفها المنوطة بها. وقد ساعدت التقاطبات الثنائية في المتن الحكائي على فتح الفضاء الروائي على ممكنات البحث، وأتاحت الاطلاع على المكان عموماً، والاقتراب منه من حيث هو مسرح لتلك الثنائيات التي كانت تشكل توتراً بين عناصر ذلك الفضاء، وترسم جدليته الخاصة. وعلى الرغم من أن المكان الروائي يعمل بوصفه حاضناً لأحداث الرواية ومسيرتها فإنه، وفي الوقت نفسه، يتداخل مع العناصر الأخرى المكونة للعمل الروائي، ويصبح جزءاً من نسيجها ومن مادتها الخام التي يتشكل منها البناء الروائي.

استلهم الروائي التاريخ، واستمد منه القيمة الرئيسة لروايته «زهرة الصندل»، مشيّداً عليها بناءه، باسترجاع أحداث دامية مرت على سورية في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وكان لها تداعياتها وامتداداتها التي استمرت لتظهر جلية واضحة في أحداث سورية الدموية الآنية، وذلك بعدّ هذا التاريخ وسيلة للتعبير، كما هو وسيلة ومحاولة للتغيير، ومن ثم بناء المستقبل، وبوصفه جزءاً من ماهية المرآة الروائية، ووظيفة من وظائفها في التعرف والرصد والكشف. ... وإذا كانت ملامح هذا التاريخ تتمفصل داخل النص الروائي، وتهيمن عليه، فإنَّ فنية هذا النص وامتداداته لا تظهر إلا بتلاحمه مع التخييل داخل البناء.

حاول إخلاصي تطويع الحدث التاريخي ضمن صياغة روائية فنية، عبر أسلوبيته التي اعتمدت ما بين يديها من تقنيات الفن الروائي، كما حاول «التكيف داخل دينامية تخييلية ومرجعية روائية» كانتا تتوازيان مع المرجعية الواقعية التي شدت الأحداث الروائية بقوة إليها، إلى درجة جعلت القارئ الذي اندمج مع الرواية وأحداثها، يخلط ما بين العناصر التي تنتمي إلى الخيال وتلك التي تعود إلى الواقع. إلّا أن الفنان- ومهما كان ارتباطه بالواقع، ومهما كان مطالباً باحترام الحقيقة- لا يكتفي بوصف الأشياء التي يراها، وإنما يخترع أشياء أخرى، لإيمانه بأن «**الكتابة الروائية لا تهدف إلى الإعلام مثلما تفعل النشرة الدورية أو الشهادة أو المعادلة العلمية، وإنما تلوّن الواقع... إنها اختراع، اختراع للعالم والإنسان، اختراع دائم ومستمر**». ومهما كان الكاتب الروائي، ومهما كان منجذباً إلى استلهام التاريخ والواقع، فإنّ العمل الروائي يبقى ذا خصوصية ترتبط بالكاتب نفسه وبرؤيته للأحداث بشكل خاص، ورؤيته للعالم، بشكل عام. وكما ترتبط بخلفيته الثقافية والاجتماعية والدينية ذات الحمولات الفكرية التي كانت تُمثل في وعي الكاتب ولا وعيه. وقد وجدناها جلية فيما عرضناه من فضاءات المكان وتنوعاته.

توسل الراوي بجملة من التقنيات، تصدرها سارد أساس يحكي عن نفسه وعن الآخرين، ويحكي في كثير من الأحيان بلغة تقترب من التقرير والمباشرة لكنها، وفي الأحوال كلها، تحمل رسالة مؤلفها التي يمتزج فيها الحزن والأمل بالتفاؤل بمستقبل أفضل، في محاولة لقراءة التاريخ بوعي وحياد والاستفادة من عبره.

الهوامش

(١)- انظر بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، بيروت، د.ط، ص٢٩.

(2)- Blin ,George, Standhal et le problème du roman, Paris, ed. Gorti, 1954, P: 77.

(٣)- إخلاصي، وليد: زهرة الصندل، دار عطية للنشر، لبنان، ط١.

(٤)- إيكو، أمبرتو: ست نزهات في غابة السرد، ترجمة: سعيد بنكراد، الدار البيضاء وبيروت، ط١، عام ٢٠٠٥م، ص ١٢٧.

(٥)- انظر إخلاصي: موجات نقدية ولقاءات، دار عطية للنشر، لبنان، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٢٦.

(٦)- المرجع السابق، ص ٩٠.

(٧)- انظر إخلاصي: موجات نقدية ولقاءات، دار عطية للنشر، لبنان، ط ١، ١٩٩٩م، ص٩٠.

(٨)- المرجع السابق، ص ٩٠.

(٩)- المرجع السابق، ص ١٢٦.

(١٠)- المرجع السابق، ص ١٢٦.

(١١)- المرجع السابق، ص ٢٧٢.

(١٢)- موجات نقدية، ص ٤٠٠.

(١٣)- المرجع السابق، ٤١٧.

(١٤)- انظر بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص ٢٣٦.

(١٥)- المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(١٦)- انظر ويليك، ووارين: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، دمشق، المجلس الأعلى لراعية الفنون والآداب، ١٩٧٢م، ص ٢٨٨.

(١٧)- بحراوي، ص ٤٤.

(١٨)- انظر صالح، صلاح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، القاهرة، ط١،- ١٩٩٧م، ص ١٣٥.

(١٩)- انظر المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢٠)- باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م، ص ٦٩.

(٢١)- زهرة الصندل، ص ٢٠٧.

(٢٢)- انظر باشلار: جماليات المكان، ص ١٩١.

(٢٣)- زهرة الصندل، ص ٢٧٥.

(٢٤)- المرجع نفسه ص ٣١٨.

(٢٥)- يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨، ص ١٤٣.

(٢٦)- باشلار، جماليات المكان، ص ٨٦.

(٢٧)- بحراوي، ص ٣١.

اكتفي بهذا القدر من الهوامش للضرورة.

المصادر والمراجع

(١)- إخلاصي، وليد: رواية زهرة الصندل، دار عطية للنشر، لبنان، ط ١.

(٢)- إخلاصي، وليد: موجاب نقدية ولقاءات، دار عطية للنشر، لبنان، ط ١، ١٩٩٩م.

(٣)- إيكو، أمبرتو: ست نزهات في غابة السرد، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

(٤)- باشلار، غاستون: جماليات المكان الروائي، ترجمة: غالب هلسه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤م.

(٥)- بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، بيروت، [د. ط].

(٦)- تودوروف، تزفيتين: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بوعلام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤م.

(٧)- جرييه، آلان روب: نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفى إبراهيم مصطفى، تقديم: لويس عوض، دار المعارف بمصر، [د. ط].

(٨)- حليفي، شعيب: مرايا التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٩م.

(٩)- صالح، صلاح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

(١٠)- سليطين، وفيق: الشعر الصوفي بين مفهومي الانفصال والتوحد، دار الرأي، [د.ط]، عام ٢٠٠٠م.

(١١)- ويليك، دارين: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، دمشق، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ١٩٧٢م.

(١٢)- يقطين، سعيد: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.

(13)- Blin (George), Standhal et le problème du roman, Paris, ed. Gorti, 1954.

الذّات الشّاعرة في ضوء المنهج النفسي

د. غيثاء علي قادرة

مـازال النَّصُّ الشِّـعريّ رهنَ قـراءات ونظريَّات ومناهـج مختلفة بغية اسـتبطان أعماقه، واسـتنطاق لغتـه، بوصـفه ميداناً مـن رؤى، خطتها نفس معنّـاة في بنى لغويَّة، وصـور فنِّيَّة، أخذتهـا مباضـع النُّقَّـاد أيَّما مأخذ ووضـعتها تحت مجهر النقد، بادئـة رحلة الطواف حول النص والولوج في أعماقه بغية الكشـف عن المسـكوت، فمنهم من أمات مبدع النَّصّ، وأبقى مفرداتـه شـاهدة حيَّة تحكي سـير الإبـداع، ومنهم من أحيا المبدع وانطلق منه يقارن صـوره الشـعرية بصـور وجـوده، ونمط حياتـه، فتعالقت عنده الذّات الشّـاعرة بذات الشّـاعر، ومنهم مـن اعتـدل في تناولـه البنيـة اللغوية فلم يُمِـت المبدعَ ليتفـكك النص، ولـم يحْيه ليغدو النصـ واقعـاً آخر. تعددت القراءات النسـقية من قراءة بنيوية، إلى قراءة لسـانية لغوية، إلى أخرى تفكيكية، فسيميائية، فتداولية وغيرها مما تقصَّت وسوَّغت النص الشعري، وغيرها من القراءات السياقية كالنفسية والتاريخية والاجتماعية.

لأن النصــ الشعري عالم يزدحم بالإشـــارات، ويغتني -في بعض منه- بالدِّلالات، كان لنا جهدنـــا في إبراز أثـــر المنهج النَّفسي السِّياقي في دلالات النصـــ، والتَّغلغل في رؤى المبدع النَّفسية، والبحث في أسبابها، مكوِّناتها. وإن لم تكن هذه القراءة بحديثة، وبحثنا ليس بمبتكر إلا أنَّنا نسعى ما ملكت أيماننا إلى تسليط الضوء على حيثيات هذا المنهج، ومعتمديه، وكيفيَّة استخدامه، ومثالب استخدامه ليغدو عملنا قراءة على قراءة.

المنهج النفسي في قراءة النص الشعري

المنهــج النّفسيّ منهــج إسقاطي يُخضعُ النّصَّ الأدبيَّ للبحوثِ النّفسيــة، اعتماداً على نظريــةِ التّحليلِ النَّفسي التي أسّسها عالم النّفس النّمســاوي: «سيغموند فرويد»، وعزا على أثرهــا المُنتَج الإبداعِي إلى قــدرةٍ خارجةٍ عن سيطرةِ المبدعِ، مصدرُها اللَّاشعور أو منطقة اللاوعي[1]- مستودع الرّغباتِ والدّوافعِ المكبوتة.

فالإبداعُ الفنيُّ تحت مبضع المنهج النّفسيّ ليسَ إلا محاولةَ إشباعِ رغباتٍ أساسية مكبوتة، وذكرياتٍ ماضية استقرّتْ في اللَّاوعي قبل أن تجدَ متنفَّسها في مكونات إبداعيّة مختلفة.

وتبــعَ فرويد تلميذُه «كارل يونغ» في فكــرةِ اللّاشعور، لكنه وسّع إطارَ بحثِه من اللّاشعورِ الفــردي إلى اللّاشعورِ الجمعــي، فالشّخصيةُ الإنسانيّةُ -عند يونــغ -لا تقتصرُ على حدودِ تجريتهــا الفرديّةِ، بل تمتــدُّ لتستوعبَ التّجربةَ الإنسانيّةَ للجماعــةِ الموغلةِ في القدم، لكنه يرفضُــ فكرةَ تفسيرِ الإبــداعِ الفنّيّ في ضوءِ العقــدِ النّفسيةِ، ويرى أنّ الفنّــانَ أهمُّ بكثيرٍ، ولا يمكنُ مقارنتُه بمريضِ الأعصاب[2].

ثــم تلاه «أدلر» الذي رأى أنّ الدافــعَ الرئيسَ وراءَ فعلِ الإبداعِ هــو غريزةُ حبِّ الظهور، وأن العقــدَ الكامنة فــي العقلِ الباطن لها دورٌ كبيرٌ في الإبداع، ولاسيما عقدةَ الرفعةِ وعقدَةَ الضعةِ، فالشعورُ بالرفعةِ يدفعُ الإنسانَ من غيرِ قصدٍ إلى إثارةِ انتباه الآخرين لرؤيةِ إنجازاتِه، والشعورُ بالضعةِ يدفعُ صاحبَه إلى تعويضِ نقصِه عن طريق الإنتاجِ الفني[3]، ومن أهم مبادئ هذا المنهج العلاقة اللاشعورية بين المبدع والمبدَع.

إن صلــةَ علم النّفس بالأدب والنّقد صلةٌ ممتدّة الجذور فــي التّراث الإنسانيّ؛ إذ يقاربُ النّاقــد من خلال المنهج النّفسيّ النّصّ الأدبيّ وما يتضمّنــه من عواطفَ وانفعالات وأخيلة مقاربة تعتمدُ التّأويلَ والتّفسيرَ والإشارةَ وسيلةً لولوج عالم الأديب النّفسيّ، وصولاً إلى حقيقة الــذّات المبدعة، فيدرس ما توارى في خفايــا الكَلم، وإيقاع الصّور من حالات نفسيّة عاشها الأديب، وعايشها، وكانت سبباً في ولادة النّصّ الإبداعيّ.

المنهجِ النفسيِّ في النقد الأدبيّ القديم

إنَّ مــن يتتبّــعُ سيرورة المنهجِ النّفسيِّ في النّقد الأدبي يتلمسُــ بواكيرَ الأثر النّفسي في الخطــاب النقدي العربــي للشّعرِ القديمِ؛ إذ لــم يخلُ الخطاب النقديّ مــن تلك النَّظرات

الحاذقـةِ التي تدلُّ على عميـقِ خبرةٍ بالنّفسِ الإنسانيّةِ، وبالـذّات الشّاعرة المبدعة ومدى تأثُّرِهـا بالأدب، لكنّها لا تعدو أن تكـونَ إشاراتٍ عابرةً متفرقةً لا يمكنُ عدّها اتّجاهاً نقديّاً، أو منهجاً صريحاً.

١- ويعـدّ «أبـو محمد عبد الله بن مسـلم بن قتيبـة» (٨٢٨م- ٨٨٩م) من أوائلِ من تلمَّسَ البواعـثَ النفسيةَ في الشعرِ العربـيِّ القديمِ بين النقّاد، حين تنـاول العواملَ النفسيةَ التي تختفـي وراءَ العمـلِ الأدبيّ، والكائنة في إطارِ الباعثِ الشعـوريِّ كالانفعال والهدوء، والفرح والحـزن وحدّة الشّوق، والحالات الشّعورية الأخرى، يقول: «وللشعر تارات (أوقات) يبعد فيها قريبـه، ويستعصب فيها ريّضـه، وللشعر أوقات يسرع فيها أتيُّه، ويسمـع فيها أبُّيه منها أول الليـل، ومنها صدر النهار، ومنهـا الخلوة... »[٤]. وهو يوحي بذلك إلـى أثر العوامل الزمنية النفسية في إبداع الشاعر.

٢- وقد رويَ عن «يونس بن حبيب» قوله: «**كفاك من الشّعراء أربعة؛ هم: امرؤ القيس إذا ركب، والنّابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب**»[٥]، وفي هذا إشارة إلى أثر الحالة النفسية في الشعر.

فامـرؤ القيـس أشعر الشّعراء الجاهليـين إذا ركب فرسه للقتال ورحـلات الصَّيد، أما زهير فكان معجباً بهرم بن سنان؛ لذا جاءت أجمل قصائده في مدحه، وقد قال النُّقّاد: إنَّ اعتماد زهير أشعر الشعراء إذا رغب في القول وأحب ما يقول، ونظراً لوجل النابغة، وخوفه من سطوة النعمـان، وبراعته في اعتذارياته دعاه بعض النقاد بأشعر الشعراء إذا رهب، أما الأعشى فأشعرهم إذا طرب لأنه كان يوقع أشعاره على آلة الصنج فسمِّي: «صنَّاجة العرب». وقـال العلماء: لم يتقدم امرؤ القيس الشعراء لأنه قال ما لـم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنهـا الشعـراء واتبعوه فيها؛ لأنـه أوّل من لطَّف المعانـي، واستوقف على الطلول، ووصـف النِّساء بالظِّباء والمها والبيض، وشبَّـه الخيل بالعقبان والعصي، وفرَّق بين النسيب وما سواه من القصيد، وقرب مأخذ الكلام، فقيَّد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه[٦]. ويعدد صاحـب العمدة ابن رشيق حالات لشعراء في دوري النشـاط والخمول ويعلل أسباب هاتين الحالتيـن بما يدخل في باب الملاحظات النفسية الباطنية فيقول: «ولا بد للشاعر وإن كان فحـلاً حاذقاً مبـرزاً من فترة تعرض له في بعض الأوقات إمـا لشغل يسير أو موت قريحة أو نبـو طبـع في تلك الساعة أو ذلك الحي وهذا ما يؤكِّد العلاقة الوثقى بين البنية النفسيّة

للشّعراء ومخرجاتهم الإبداعية، ويفيد في القول أيضاً[٧]: إنّ تأثير الفروق في البنى النفسيّة للشعراء وإبداعهم مهمّ في الاستجابة لدوافع الرّغبة والنّفور من جهة ودواعي التّميز والتّفرد من جهة أخرى».

٣- وقد أشار **عبد القاهر الجرجانيّ** إلى هذا الاختلاف في قيمة الإنتاج الشّعريّ، وأهميته، حين رأى أثر الحالة النّفسيّة المعيشة في الإنتاج الشّعري، فقال: «قد يكون الشّاعر في المديح أشعر منه في المراثي، وفي الغزل واللّهو والصَّيد أنفذ منه في الحكم والآداب»[٨]. فهو يرى في الفرح باعثاً نفسيّاً للتعبير والتصوير.

اعتقد عبد القاهر الجرجاني أن أموراً غيبية تؤثر في العملية الإبداعية، تقود المتلقي إلى إدراك المعاني الدلالية الخفية فقال: «إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعلُ الثناءَ من حيث اللفظ، فيقول: حلوٌ رشيق، وحسنٌ أنيق، وعذبٌ سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللّغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده»[٩]، ثم أضاف عبد القاهر الجرجاني إلى أن معرفة هذه المعاني صعبة المنال، لأنها معانٍ خفية، «لا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية والعقول النافذة، والطباع السليمة والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب»[١٠]. وفي هذا تعويل على نوعيّة المتلقّي، فالقارئ المنعم في أبعاد اللفظ، المتلمس نفسية المبدِع يختلف عن القارئ العادي. وفي موضع آخر يؤكد الجرجاني قوله: «اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأنّ لما يومئ إليه من الحُسْن واللّطف أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمُّل الكلام فيجد الأريحيّة تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عَجِب، وإذا نبَّهته لموضع المَزيّة انتبه»[١١].

٥-وأعاد القاضي الجرجاني الإبداعَ إلى مستوى الرؤية وحدّة الذّكاء، وأحال تنوّع موضوعات الشّعرِ إلى تنوّع طبائع الشّعراء أنفسهم، فلابدّ لدمثِ الخُلُق من أن يكونَ سَلسَ الكلام، وللجافي القاسي كزُّ الألفاظ[١٢]. ويقول -أيضاً-: «والقوم يختلفون في الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعّر منطق غيرهم، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق»[١٣].

٦-أما «**ابن طباطبا العلوي**» فيربط ربطاً نفسياً بين ارتياح القارئ للنص واهتزازه له، وبين عاملي الموافقة والمخالفة أو الألفة والغرابة، وفي ذلك جانب من الكشف عن

القوانين المتحكمة بحالة المتلقّي والمحددة لمواقفه وردود أفعاله: «والنَّفس تسكن إلى كلّ ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزَّت له وحدثت لها أريحيّة وطرب، فإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت»[١٤]. يشير ابن طباطبا إلى حالة المتلقي والمبدِع النفسية في آن معاً، وطريقة التلقي، واستعداد المتلقي لقبول ما يوافق هواه، ورفض ما يخالف هواه رفضاً نفسياً.

٧-ولم يبتعد **حازم القرطاجني** عن أقرانه من النقاد، فقد رأى أن النص الشعري وليد الواقع والحالة النفسية لمبدعه؛ بدءاً من نظرية التخييل الشعري وقدرته على التأثير في نفسية المتلقي، متحدثاً عن «التذاذ النفوس بالمحاكاة» أو «التذاذها بالتخييل» مما يلفت انتباه المتلقي ويجعله يتأثر ويعجب فينفعل ويهتز. وقد يؤدي هذا التجاوب إلى بعثه على الارتياح تبعاً لاستعداده لتقبل النص[١٥].

وقد تبع هذا النَّهج كثير من النُّقاد نذكر منهم: **قدامة بن جعفر، والآمدي، ويوسف السّكاكي، وضياء الدِّين بن الأثير**، وغيرهم ممّن آمن بعلاقة النّصّ الأدبيّ، ونفسيّة مبدعه وطباعه. وممن رأى دور البيئة في تشكيل نفسيَّة الإنسان، وتكوين طبعه وذوقه واضحاً.

نخلص مما سبق إلى أن عناية النُّقاد القدامى والبلاغيين بعلاقة الحالة النَّفسية للشّاعر بالمُنجَز الإبداعي لا تتعدى أنّها إشارات ومعانٍ تعكس خبرة الناقد وتجربته. واهتمامه بمعرفة أحاسيس الشّعراء وانفعالات مشاعرهم وتحديد المؤثرات البيئية؛ إذ إنَّ أهمَّ الأسس التي أكدها النّقاد القدامى تكمن في أمرين، الأول منهما هو: معرفة المؤثرات التكوينية التي قادت الشاعر إلى قول أبياته، ومن ثم معرفة الأسس التي تكمن وراء كلّ إبداع شعريّ، في إطار العلاقة بين المشاعر والتَّجربة الإنسانيّة والممارسة الفنيّة، ولاسيّما فيما يتعلق بقدرة الشّاعر على تحويل المنجز الإبداعي إلى نوع من التَّعويض النَّفسي عن نقص تعاني منه الذَّات الشّاعرة. والأمر الثاني معرفة الظروف التي تعود إلى تأثير الأساليب التعبيرية في المتلقّي؛ لما لها من بعد نفسيّ ودلالات إيحائيَّة، ما يؤكد أنّ أهمّ ما أكّده النقّاد العرب القدامى في هذه العلاقة يقوم على ثالوث محدَّد هو: المبدِع، والمتلقّي، والمبدَع.

المنهج النّفسيّ في النّقدِ العربيّ الحديثِ

تناول عددٌ غيرُ قليلٍ من النّقّاد العمل الأدبيّ بالقراءة من خلال علاقته بالحالة النّفسيّة للمبدِع، نذكر منهم: «د.عزّ الدين إسماعيل» في كتابه «التفسير النفسي للأدب»،

و«د. مصطفى سويف» في كتابه «الأسس النفسية للإبداع الفنّي»، و«د. عبد القادر فيدوح» في كتابه «الاتّجاه النّفسيّ في نقد الشّعر العربيّ»، و«عباس محمود العقّاد» الذي درسَ شخصيتي أبي نواس وابنِ الرومي، مبيّناً أثر الحالة النّفسيّة والبيئَة الاجتماعيّة في المنتَج الإبداعي لكل منهما، و«د. محمد النُّويهي» الذي تناول أبا نواس، و«المازني» الذي درسَ بشار بن برد، و«طه حسين» الذي درس المتنبّي وأبا العلاء، و«يوسف اليوسف» الذي تناول أصحاب المعلقات العشر، وغيرهم.

لقد سعى معظم الدّارسين إلى الإجابة عن السُّؤال الآتي: كيف تتمّ عملية الإبداع الفنّي؟

١- بنى **عبّاس محمود العقّاد** دراستَه على مقوّمات: رسم الصُّورة النّفسيّة -الجسديّة، ومعرفة مفتاح الشَّخصيّة، معتمداً في قراءته على اتجاهين اثنين؛ هما «الاتجاه النّفسيّ الفنّيّ»، و«الاتجاه النّفسيّ الجسميّ»، متّكئاً في رسم الصُّورة النفسيّة للمبدِع على ظروف العصر والبيئة، والنّشأة، والسّياسة، والثّقافة، وكلّ ما يتّصل بهذه الظروف من عوامل الاستعداد الموروث من البيئة الاجتماعية، وعوامل الاستعداد الفطري لتكوين الشّخصية نفسها.

تناول العقّاد الشاعر العباسي «**أبا نواس**»، منطلقاً من ملامح شخصيّته وصولاً إلى تحديد العقد والاضطرابات النفسيّة، مروراً بعلاقته بالفن، والحبّ، والعقيدة. العلاقة التي شكَّلت ركائزَ اتّكأ عليها العقّاد في الوصول إلى فهم نفسيّة أبي نواس.

نحا **العقاد** في دراسته منحيين اثنين:

أوّلهما: المنحى النفسي الفنّي، وفيه يسعى إلى ربط فنّ الشاعر بمزاجه وسلوكه وحياته النفسية الباطنية، لاستخلاص صورة نفسية له.

ثانيهما: المنحى النفسي الجسمي؛ وهو دراسة العلاقة بين الحالة النفسية والبنية الجسدية، وتكون هذه الحالات والظواهر مصحوبةً في الغالب باضطرابات في الوظائف الفيزيولوجية، وتغيُّر في السّلوك.

اعتمد **العقاد** في تشكيل ملامح الذات المبدعة على البنية الخارجية، وعلى مفتاح الشخصية سبيلاً لبلوغ العمق النفسيّ.

لقد اتُّهم أبو نواس بالشذوذ، وهو حب المرء لابن جنسه، وهذه الحالة تفسرها النرجسية وما طُبع عليه المصابون بها من اختلاف الهوى حسب اختلاف التشخيص والتلبيس.

خلص العقّاد إلى أنّ أبا نواس كان من الشواذ في تكوينه الجنسي ودوافعه الجنسية، ولكن شــذوذه غير الشذوذ الذي اشتهر به، وهو إيثــاره الذكور على الإناث، ولا بدّ من التفرقة بين الشذوذين؛ لأن النرجسية تفسر أطوار أبي نواس جميعاً، وقد ردّ إلى النرجسيّة كلّ شيء، مثل المجاهرة بالإباحية، والميول إلى الجنسين، وغيرها من التصرّفات.

انطلق العقاد في دراسته من مقولات مدرسة التّحليل النّفسيّ الفرويدي حين ربط تعقيد أبــي نواس بالاضطراب الجسمي المتّصل بطبيعة تكوينه، ما قــاده إلى ضروب من الشّذوذ، أبرزهــا تعلّقه بالخمر، وإحساسه نحوهــا إحساس الولد نحو أمه. وسبــب هذا الشّذوذ في تصوره، يكمن في عقدته النفسية التي تشكّلت في عقله الباطن أو اللاشعور، بسبب ما رآه في صباه من أمه التي تزوجت بعد وفاة أبيه(١٦).

العقاد وشخصية ابن الرومي:

تنــاول العقّاد -أيضاً- ابن الرومي دراسة وتحليــلاً، وتوصّل إلى وجود علاقة وطيدة بين العوامــل البيولوجية والسيكولوجية للشاعر والعمليّة التعبيريّــة قائلاً: «لا تعوزنا الأدلّة على اختــلال أعصاب ابن الرومي وشذوذ أطواره من شعــره أو من غير شعره، فإنّ أيسر ما تقرأه لــه أو عنه يلقي في روعك الظّنة القوية في سلامة أعصابــه، واعتدال صوابه، ثم يشتدّ بك الظّــن كلمــا أوغلت في قراءته، والقراءة عنه حتى ينقلب إلى يقين لا تردُّد فيه، وكلّ ما نعلمه مــن نحافته وتقزّز حسه، وشيخوخته الباكرة، وتغيّر منظره، واسترساله في الوجوم، واختلاج مشيتــه، وموت أولاده، وطيرته، ونزقه، وشهوانيته الظّاهرة في تشبيهه وهجائه، وإسرافه في لهوه ولذاته، ثم كلّ ما نُطالعه في ثنايا سطوره من البدوات والهواجس، قرائن لا تخطئ فيها الدّلالــة الجازمة على اختلال الأعصــاب وشذوذ الأطّوار، بل لا تخطئ فيها الدّلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ»(١٧).

علــى الرغم من خلط العقاد بين ذات الشاعر والذات الشاعرة اللتين تماهتا عنده فبدتا ذاتاً واحدة، إلا أنه أصاب من جانب بقدر ما أسرف في الحكم من جانب آخر، فذات الشاعر التــي عانت الفقد تجلت ذاتــاً شاعرة بعد أن ولّدت المعاناة إبداعاً، أما مفارقة العقّاد جانب الصّواب، فكانت إسرافه في تطبيق المنحى النفسي الجسمي.

٢-ويأتــي **محمد النويهي** بعد العقّاد في تحليل شخصيــات الشعراء تحليلاً نفسياً، على الرغــم من إيغاله في استخدامه المنهج النفسي، حين ربط مواقعة أبي نواس الخمر بمواقعة

جنسية، وتشبيهه كأس الخمر الصهباء بامرأة جميلة، وكشفه عن مختلف البواعث التي تكمن وراء كل نص شعري صاغه الشاعر.

لا يختلف العقاد عن النويهي في قراءتهما نفسية أبي نواس، إلا في بعض المصطلحات التي انطلق منها كلّ منهما، فالعقاد بنى دراسته على «النّرجسية» وما يتّصل بها من شذوذ، وعقد نفسية. أمّا النويهي فبناها على ما يرتبط بالشاعر من أسباب الشذوذ الجنسي وعوامله.

٣- ووثّق **أمين الخولي** الصّلة بين علم النّفس والأدب، فتناول بالدراسة النفسية أبا العلاء المعري، فهو يرى أنَّ من أهمّ أسباب التّناقض في سلوك المعرّي رغبته في التعويض عن نقصه عن طريق الاستعلاء والتجاوز، مستنداً في ذلك إلى نظرية (أدلر) القائمة على الظهور والتعويض عن مركب النقص، ويرى الخولي أنّ الأمر يتعلق بفيزيولوجية المعرّي، ولاسيما عاهة العمى التي كان لها الأثر الكبير في عمق إدراكه وتأمله، ورهافة شعوره، وصدق تعبيره[١٨]. وهذه السمة التي مازت المعري -وفق الخولي- وما أفرزته من إبداعات ورؤى، لا تنطبق على كل فاقدِ بصرٍ، لأنها قوة جوَّانية بؤرتها كامنة في أعماق النفس، مطلبها الخروج، سبيلها إثبات الذات وتعويض النقص المتمثل بالعمى عن طريق التفوق فالإبداع.

٤-واعتمد **يوسف اليوسف** نظريّة التّعويض النّفسي، واللّاشعور الجمعي مدخلاً يلج عبره أغوار الصورة الشعرية؛ إذ يستند في قراءَته إلى معطيات «فرويد» في التعويضِ عن عقدِ النَّقصِ النفسيَّةِ التي يعاني منها الشّاعر. ويرى أنَّ الشعرَ تنفيسٌ لمكبوتاتِ النفسِ، وردُّ فعلٍ على واقعٍ تحكُمُهُ قوىً سالبةٌ، منطلقاً في قراءاتِه من مفهومِ الافتراسِ الدائرِ في الطبيعةِ والمجتمعِ، وردِّ الشعراءِ على هذا الافتراسِ بمواجهتِهم قوى الهدمِ بقوى البناءِ[١٩].

يعزو اليوسف التَّخارجات الإبداعية إلى تداخلات نفسيّة، فهو يرى في البرهةِ الطللية تجليّاً لقمعِ العلاقاتِ العشقيةِ، وتلامُحاً للقهرِ الجنسيِّ الذي مارستْه الطبيعة. فطللية «امرئ القيس» -برأيه- تُعمِّقُ مشاعرَ الضّعفِ والانكسارِ والإحساسِ بالفناءِ المهيمنِ على القطاعِ الأسفلِ في البنيانِ النفسيِّ [٢٠]:

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيْبٍ ومَنْزِلِ
بسَقْطِ اللّوى بَيْنَ الدَّخُولِ وحَوْمَلِ

وكأنّا به يقف قائلاً: قفا نحتجُّ على الحظرِ المضروبِ على الحريَّةِ العشقية؛ إنّه احتجاج منطوٍ على نحو إضماري، ما فحواه أنّ القحطَ والحظرَ يتعاضدان في إحلال برهة الموت.

إنّهــا هيمنة صورة الموت على بنيان الشاعر النفسي؛ فكانت صورةُ الدموعِ هنا - بديلَ الماءِ أو المطر ونتيجةَ غيابه[٢١].

يُظهِــر الناقدُ الــذّات الشّاعرةَ في عجزها، وفي نقصها أمــام شرطها الوجودي، فجعلَ الشّاعــرَ فرداً عصابيــاً، يعاني عقدَ نقصٍ كامنة في مضمــرِ ذاتٍ شاعرة، أفرزها اللّاشعور الجمعيّ.

وانطلاقــاً من نظرية (يونغ) ومبــدأ اللّاشعور الجمعيّ عدَّ «اليوســفُ» الوشمَ في طلليّة «طرفة بن العبد» تعويذةً مجسّمةً تحفظُ الحياةَ من الفناء، وتجديدُهُ يقترنُ ببعثِ الحياة:

لِـخَـولَـةَ أطــلالٌ بِـبُـرْقَـةِ ثَـهْـمَـدِ
تَلوحُ كَباقي الوشْمِ في ظاهِرِ اليَـدِ[٢٢]

لا يقتصــر الفناء على حدود تجربةِ الشاعر الفرديّةِ بل يمتدُّ ليستوعبَ التّجربةَ الإنسانيّةَ للجماعةِ الموغلةِ في القدم التي كان هاجسُها إحقاقَ الخلودِ، وإثباتَ الوجودِ.

فهو يرى-أيضاً- أنَّ في استحضارِ الشَّاعرِ صورةَ المرأةِ إخفاءً لشعورٍ حادٍّ بالعجزِ يتناسبُ مع البكاءِ اللّامجدي أمام الطلل، ووفق نظرية التعويض النفسي، يرى أنَّ في مغامرات امرئ القيســ مع النساء، اضطرابــاً نفسياً يخفي شعوراً باللا أمن في عالمٍ أصابهُ العقمُ في التربةِ والمطرِ والقلبِ البشري[٢٣]. يقول في معلقته[٢٤]:

وبيْضَةِ خِـدْرٍ لا يُـرامَ خِبــاؤُها
تَمَتَّعْتُ مِنْ لَــهْوٍ بها غيرَ مُعْــجَلِ

يــرى اليوســف أنَّ الشاعرَ محكومٌ لغريزتِــه أكثرَ ممّا هو محكومٌ لمثلــه الأعلى؛ فتمثال امــرئ القيســ الأنثوي -مثلاً- يعبّر عــن حسِّ القهر والحرمان الكامن فــي البنى التحتانية للذات الشاعرة، ويبيّن ارتباطَ صورة المرأة بأشدّ حاجاته إلحاحاً، ألا وهي الخصب، والبياض المُلحّ عليها تعويض عن السواد النفسي الوجودي المحيط[٢٥]، ويرى أنّ ثمةَ علاقةً وثيقةً بين الحاجةِ إلى إشبــاع الشعورِ بالأنا، والحاجةِ إلى الإشباعِ العشقي. ولعلّ هذه العلاقةَ هي أهمُّ مسألةٍ يثيرُها الغزلُ الجاهليُّ خاصةً.

يرى الناقد أنّ مزية هذا الشعر تتأتى من أنها تشبع فينا قوى عميقة لا نعيها وعياً مباشراً، وهــي في الوقت نفسه تنبع من قوى لا شعورية راقدة في البناء النفسي للشاعر، وهذه القوى هي ما يتحكم بالخيال التصويري - أحد الطاقات العليا للنفس-[٢٦]وهي في الوقت عينه، من

نتاج القمع الاجتماعي الذي صوّره الشاعر على هيئة منغلق يحاصره على الدوام فيستجيب له الشاعر بالتحدي والتمرد والمقاومة.

مآخذ على المنهج النفسي

على الرغم من قدرة النقدِ النفسيِّ على محاكاة النصِّ الشعري التي يعودُ إليها الفضلُ في إضاءة جوانبَ كامنةٍ في المبدعِ وإبداعهِ، فإنها تبقى دراساتٍ قابلة للمساءلة، والاستفسار؛ ولنا أن نسأل:

هل كان الشاعر يعي مضمونَ نصه حين صاغه؟

هل يتوافقُ ما ساقَه الشاعر أو ما قصده مع ما توصل إليه الناقد من دلالات؟

هل النصُّ الأدبيُّ مرآةٌ عاكسةٌ لذاتِ الأديبِ أم أنّ هناك وسائطَ لغويةً أخرى؟

ومهما يكن من أمر، فإن المآخذ على التطبيقات النقدية وفق المدخل النّفسي متعدّدة وواضحة؛ نذكر منها:

١- الإفراط في التفسير النفسي للأديب على حساب الجوانب الفنية للنص، وإيلاء الأولوية بالدراسة للمبدِع على حساب المبدَع.

٢- المبالغة بالاهتمام بمنطقة (اللّاشعور، أو كوامن العقل الباطن)...

لا ينبغي أن تُعزلَ القراءة النّفسيّة عن غيرها من المناهج النّقديّة الأخرى؛ بل ينبغي التفاعلُ معها؛ فقد تختزل القراءة القسريّة للنّصِّ الشّعريِّ كثيراً من ثرائِه الدّاخلي بفعل إغفال شعريّة النّص، فلا ينظرُ إليه على أنه إبداعٌ، إنّما انعكاس لعقدٍ نفسيةٍ.

وإذا كانت العمليةُ الإبداعية وليدةَ حالةٍ مرضيةٍ يمرّ بها الأديبُ، فهل سيتوقفُ الإبداع إذا ما تم الشفاء؟ وهل الأدباء جميعهم حقاً يعانون أمراضاً نفسية؟

الاستنتاجات:

بلغ التداخل بين علمَيِ النفس والأدب ذراه عند كثير من النقاد، فكلاهما يُعنى بردود أفعال المرء، وسلوكه، ورغباته، والبؤس الذي يتعرّض له، والشواغل الفرديّة والاجتماعيّة؛ لذا يُعد الاتجاه النفسي أحد الاتجاهات التي رفدت القراءات النّصيّة بروافد ثرّة، فلأسسها ومكوناتها أثر واضح في دفع عجلة النقد إلى الأمام.

وختاماً؛ فإنه ليس على التحليل النفسي أن يضيءَ الأدبَ، بل على الأدبِ أن يضيءَ التحليلَ النفسيَ باستمرار؛ لأنّ الأدبَ هو الذي يتجددُ على نحوٍ دائمٍ، وهو الأقدرُ على تجديدِ التحليلِ

النفســـي وتطويره. وعلى الرغم من الثغـــرات التي وقع فيها المنهج النفسي في تفسير الأدب وأسبابــه ودوافعه، فقد أسهم - على نحو واضح- فـــي إرساء أسس مهمّة للدّراسات النّقديّة، ولاسيّما تلك الّتي تدرس العلاقة بين الإبداع والمبدع.

الهوامش

(١)- ينظر، فرويد، التّحليل النّفسي والفن، ص٩١-٩٤.

(٢)- ينظر، يونغ، كارل غوستاف، علم النفس التّحليلي، ص ٢٩-٣٠.

(٣)- ينظر، ليبين فاليري، التّحليل النّفسي والفرويدية الجديدة، ص ١١٣ وما بعدها

(٤)- الشعر والشعراء، ١/١٥٦.

(٥)- العمدة ، ١/٢٠٤ .

(٦)- العمدة،١/٢٨.

(٧)- العمدة، ١/٣٢.

(٨)- الجرجاني ، عبد القاهر، الرسالة الشافية ، ص ١٢٦.

(٩)- الجرجاني ، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص ٣.

(١٠)- المرجع نفسه، ص٥٠.

(١١)- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص٢٧٩.

(١٢)- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٤/٣

(١٣)- المرجع نفسه، ٣ / ١٧-١٨.

(١٤)- العلــوي ،ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت، ١٩٩٢م، ص٢١.

(١٥)- القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن حازم الأنصاري، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيــب بن الخوجة ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط١، ١٩٦٦، تونس، ص٩٧ ومابعدها.

(١٦)- العقـــاد، عباســ محمود، أبو نواس، الحسن بن هانئ، دراسة فـــي التحليل النفساني والنقد التاريخي، مطبعة الرسالة بالقاهرة، ص١٤٤، ومابعدها.

(١٧)- العقاد، عباس محمود، ابن الرومي حياته من شعره ، ص١٠١.

(١٨)- المرجع نفسه، ص١٤٧-١٤٨.

(١٩)- انظر بحوث في المعلقات، ص٢٨، ومابعدها.

(٢٠)- ديوانه، ص٨.

(٢١)- بحوث في المعلقات، ص١٢٢، ومابعدها.

(٢٢)- ديوان طرفة بن العبد، ص٦.

(٢٣)- بحوث في المعلقات، ص١٤١.

(٢٤)- ديوان امرئ القيس، ص١٢-١٣.

(٢٥)- بحوث في المعلقات، ص ٢٢٦.

(٢٦)- المرجع نفسه، ص١٥٠.

المصادر

(١)- ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الثالث، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٠٠م.

(٢)- القيرواني، ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، الجزء الأول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣)- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج١، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٤)- امرؤ القيس، ديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

(٥)- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ط١، دار المدني، جدة، ١٩٩١م.

(٦)- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ط٣، دار المدني، جدة، ١٩٩٢م.

(٧)- الجرجاني، عبد القاهر: الرسالة الشافية، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.

(٨)- شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد محمد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤م.

(٩)- طرفة بن العبد، ديوانه، تحقيق: درّية الخطيب، لطفي الصقّال، شرح: الأعلم الشنتمري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.

(١٠)- العقاد، عباس محمود: ابن الرومي، حياته من شعره، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٢م.

(١١)- العقاد، عباس محمود: أبو نواس، الحسن بن هانئ، دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي، مطبعة الرسالة بالقاهرة.

(١٢)- العلـوي، ابـن طباطبا : عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٩٢م.

(١٣)- فرويـد ، سيغموند : التحليل النفسي والفـن، دافينشي ودوستويفسكي، ترجمة : سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥م.

(١٤)- القرطاجني، حازم بن محمد بن حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط١، ١٩٦٦م.

(١٥)- ليبيـن، فاليري: التحليل النفسي والفرويدية الجديدة، ترجمة: نـزار عيون السود، دار الوثبة، دمشق، دون تاريخ.

(١٦)- وغليسي، يوسف: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

(١٧)- اليوسف، يوسف: بحوث في المعلقات، منشورات دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سورية، ١٩٧٨م.

(١٨)- يونغ، كارل غوستاف: علم النفس التحليلي، ترجمة: نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

إشكالية الأنا والآخر لدى كازانتزاكي

د. ماجدة حمود

عاش نيكوس كازانتزاكي في مرحلة تاريخية حرجة ما بين عامي (١٨٨٣-١٩٦٧م) تخللتها حروب عدة (الحرب اليونانية التركية، والحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية) ترى ما هو الأثر، الذي تركه هذا السياق التاريخي المضطرب في إبداعه؟ كيف واجه الأحاسيس السلبية، التي تزرعها الحروب في الأعماق؟ أو بالأحرى ما هي اللغة، التي استخدمها في مواجهة كراهية الآخر؟ وكيف تبدّت الأنا اليونانية في أثناء تلك المواجهة؟

الأنا اليونانية

تهدد الحروب الإحساس بالهوية، فتوقظ العنفوان والاعتزاز لدى الإنسان، وهذا ما يلاحظه المتلقي في كل كتاب كتبه **كازانتزاكي**، إذ يجده يتغنى بانتمائه إلى بلده (اليونان) التي يراها أهم منابع الحضارة القديمة في العالم، بل يبيّن أن الغرب يراها مهده الحضاري الأول، فهي منبع الديمقراطية والفلسفة والأدب المسرحي (المأساة والملهاة)...

وقد بدا واعياً في كتابه «تقرير إلى غريكو» أهمية موقعها الجغرافي وسط قارات ثلاث (آسيا، وأوروبا، وإفريقيا) لذلك فإن «**مصير اليونان**» يؤثر تأثيراً كبيراً «**على مصير العالم بأسره**»، (ص١٩٨) يؤدي هذا الموقع رسالة، توحي إلى المتلقي بأن اليونان تشكل قلب العالم، وحين تكون متعافية، فالعالم كله بخير!

بدا الروائي معنياً بتقديم دورها الحضاري، وتسليط الضوء على أهميته «**في اليونان تتأنسن الأشياء كلها -الجبال والأنهار والبحار والوديان- إنها تتحدث إلى الإنسان بلغة هي على الأغلب لغة بشرية، وهي لا تعذّبه ولا تهيمن عليه بشكل ساحق. بل تصادقه وتزامله في العمل. وتصبح صرخة الشرق القلقة المشوشة صافية، حالما تمر عبر ضوء اليونان... هو المصفاة، التي تنقّي بجهد كبير الوحش، وتصفّيه إنساناً. وتجعل العبودية الشرقية حرية، والهمجية عقلانية حكيمة...**». «تقرير إلى غريكو، ص١٩٧، ١٩٨».

يبلغ، هنا، الاعتزاز بالانتماء إلى اليونان أقصاه، بفضل لغة المبالغة، إذ يجعلها تمتلك قدرة حضارية خارقة، «**تتأنسن**» على يديها الطبيعة والأشياء؛ لذلك تعلي شأن الإنسان، و«**تتحدّث**» معه بلغة راقية، تحترم التعددية، فهي التي اخترعتها؛ لهذا «**لا تعذّبه ولا تهيمن عليه بشكل ساحق**» وهي لا تكتفي بالحديث، بل تتصرف معه تصرفات راقية «**تصادقه وتزامله في العمل**» لهذا لن نستغرب تلك الصورة النبيلة، التي يرسمها لوطنه، فيجعله أشبه بـ«**مصفاة**» تمتلك قدرة أسطورية، تستطيع إبعاد «**الوحش**» الذي ينتهك المثل، بل تمتلك القدرة على تحويله «**إنساناً**» يعيش من أجل بناء عالم أفضل.

إن هذه العظمة الإنسانية، تكافئ دلالة الحضارة فعلاً وقولاً؛ لهذا ليس غريباً أن يضيء نور وطنه جميع الأمم؛ وبذلك تعلو نبرة الإعجاب بـ(الأنا) اليونانية لدى **كازانتزاكي**، فيجعلها متفوقةً على الآخر الشرقي، الذي عانى من الضعف والاستعمار والتخلف، وما يزال، في حين مُنحت كريت، مسقط رأسه، حكماً ذاتياً منذ عام (١٨٩٨م) لهذا رسمت مخيلته صورة سلبية للشرق؛ إذ تصف صرخته بـ«القلقة المشوشة» ويزداد الوصف حدة، حين يسند «العبودية» إلى «الشرق» وقد زاد الإيحاء سلبية، بدلالة تصفها بـ«**الهمجية**» فيقارن المتلقي بين هذا الشرق و«ضوء اليونان» الذي يغيّر الحياة، فتصبح «**صافية**» وبذلك يحقق بلده معجزة، تقاوم كل المظاهر السلبية في الشرق، إذ تنتشر في فضاءاته الـ«**حرية**» وتبث في عقول أبنائه «**عقلانية حكيمة**».

يستهجن المتلقي تضخّم الأنا لدى **كازانتزاكي**، لكنه يلاحظ أنه يبذل جهده في إقناعه بأسباب اعتداده بأجداده اليونانيين،، فقد قاموا «**بتحويل الغريزة إلى حب، والعضّ إلى قُبَل، والعربدة إلى عبادة دينية، والصرخة إلى هدهدة عاشق. حوّلوا عشتروت إلى أفروديت**». «تقرير إلى غريكو، ص١٩٨».

نلمس لغة المبالغة في هذا الاعتداد، حين يرى عشتروت، التي هي آلهة الخصب عند الفينيقيين والبابليين «معجم الأساطير اليونانية والرومانية، إعداد سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢م، ص٣١٥»، يراها مكافئة لدلالة سلبية (الصرخة) في حين يرى الآلهة نفسها، بعد أن اتخذت اسماً يونانياً (أفروديت) باتت توحي بدلالة إيجابية (هدهدة عاشق). هنا يتبدى انحيازه إلى حضارة، ينتمي إليها!

لكن يلاحظ، في الكتاب نفسه، اعتداد كازانتزاكي بالـ(أنا) اليونانية واستقلاليته عن الأنا الغربية، حتى إن المتلقي يفاجأ بنقده لها، بل يعلن انتماءه إلى عوالم شرقية «إن قلبي العجوز، القلب الإفريقي... يحتقر العقل المتأورب، ولا يهتم به»، (ص٢١٥).

كأنه يوحي برفضه الاهتمام المبالغ فيه (لدى الأوروبيين) بالعقل على حساب القلب، وهذا نقيض ما عُرف به الشرقيون، ومنهم الإفريقيون!

على الرغم من ذلك يعود في خاتمة كتابه نفسه؛ ليؤكد انتماءه إلى القارات الثلاث «روحي تتمدد كتميمة كريتية. وكان لها شكل شراع مثلث الحوافي، كانت تعيش العصور ذاتها، المخاوف والأفراح ذاتها، وهي تمرّ بين القارات الثلاث... لآسيا القدسية وإفريقيا اللاهبة وأوروبة العاقلة...، ص٥٤٨-٥٤٩».

تبدّت روحه في شكل (**تميمة كريتية**) جعلها خياله على هيئة (**شراع مثلث الحوافي**) يبحر في القارات الثلاث القديمة، ليعزّز امتداده الكوني عبرها، على الرغم من اعتزازه بأصله الكريتي! فهو لن يستطيع الحياة دون الإبحار في المقدس، الذي قدّمته للعالم قارة (آسيا)، ودون أن تنبض في قلبه حرارة (إفريقيا) وروحها الإنسانية، عندئذٍ يستطيع أن يستهدي بعقل (أوروبا) ويؤسس لثقافة منفتحة، تقاوم مشاعر منغلقة على الأنا اليونانية!

وبذلك تنتصر لغة انفتاح (الأنا) على الإنسانية لدى كازانتزاكي، فتختفي نبرة التعصب لوطنه اليوناني والنظرة الضيقة، التي لا بد من ظهورها في الحروب، المهم أن يمتلك المبدع قدرة التغلب عليها!

الآخر التركي

لعل أكبر مؤثر بنى شخصية **كازانتزاكي**، وترك بصمة خاصة على إبداعه، هو تلك العداوة بينه وبين محتلي وطنه من الأتراك، الذين عايشهم في طفولته ومراهقته، أي مرحلة تكوينه، حتى بدا هاجسه البحث عن طريق، يشارك عبره في كفاح بلده، فلم يجد سوى الكتابة؛ لهذا

يقول عنها: «**كانت سندي الوحيد في كفاحي، كريت وتركيا، الخير والشر، النور والعتمة، كان بين كل منهما والآخر صراع لا ينقطع في أعماقي، وكان غرضي في الكتابة... هو أن أقدّم العون إلى كريت والخير والنور لكسب المعركة، كنا متشابهين في معركتنا نحو الخلاص، خلاص من أسلافي المعتمين، وخلاص العالم من العالم القديم الغاشم، خلاصنا من العتم**» «**تقرير إلى غريكو**، ص٥٤٤».

كان هدفه من الكتابة الإسهام في (**الخلاص**) الذي يكافئ التحرر من عتمة الاحتلال؛ لهذا لا يكتفي بفضح العلاقة المتوترة بين اليونان والأتراك فحسب، بل يؤسس في ذهن المتلقي تقابلاً، يوحي بصراع الحق الكريتي المكافئ لـ(**الخير، النور**) مع الباطل التركي، المكافئ لـ(**الشر، العتمة**) وهكذا بدت مهمته مهمة المثقف العضوي، الذي يسعى إلى (**تقديم العون**) لبلده وفي الوقت نفسه، يدافع عن القيم العليا، التي هي قيم الجمال والخير!

لم يكتفِ **كازانتزاكي** بتقديم هذه الحرب في رواياته فحسب، بل سعى في سيرته الذاتية إلى توثيق مشاهد عايشتها ذاكرة طفولته: «الهواء مملوء بالصرخات: صرخات المسيحيين وصرخات الأتراك، وتلتمع أمام عيني المسدسات ذوات القبضات الفضية، كريت وتركيا تتقاتلان. تصرخ الأولى «الحرية» فتجيبها الأخرى «الموت» ويمتلئ ذهني بالدم». «تقرير إلى غريكو، ص٧٩».

يلمح، هنا، إلى أن المعاناة من الحرب واحدة، تتجلى بـ(**صرخات**) لكن شتان بين صرخة محققة، أعزّ على نفسه من الحياة وأحلى من السعادة، هي صرخة (**الحرية**) وصرخة أعدائه الأتراك، التي تكافئ الظلم و(**الموت**) فتمتلئ مخيلة الروائي بذكريات دموية!

يلاحظ أن مقولة (**الحرية والموت**) شكّلت هاجساً إبداعياً لديه؛ لهذا ألّف رواية بهذا العنوان! وبقي هذا الهاجس مصاحباً لإبداعه، حتى آخر كتبه «تقرير إلى غريكو».

وكما اهتم المبدع بمتابعة أصوات (الأنا) المحتلة وهي تقاوم الآخر العدو، نجده يتابع العلاقة المتوترة بينهما من خلال تبادل نظرات عدائية «**كنت أرى المسيحيين والأتراك ينظر كل واحد منهم إلى الآخر شذراً بنظراته القاسية، ثم يفتل كل منهما شاربيه بغضب. وكنت أرى المسيحيين يدعّمون أبوابهم بالمتاريس واللعنات، في حين تعبر الشوارع قوات الاحتلال المسلمة بالمسكيت. وكنت أسمع العجائز وهم يحكون عن الحروب والأعمال البطولية، وعن الحرية وعن اليونان. وكنت أعيش ذلك بعمق وبصمت، وأنا أنتظر أن أكبر وأفهم ما يعنيه ذلك كله، بحيث أنني، أنا أيضاً، أستطيع أن أشمّر عن ذراعي وأذهب إلى الحرب**». «تقرير إلى غريكو، ص٧٧».

إذا كنا عايشنا في المشهد السابق مشهداً صوتياً، فإننا، هنا، نعايش مشهداً بصرياً يوثّق فيه لمشاعر سلبية، تطل من عيني (**كل**) من الفريقين، الذي ينظر (**شذراً**) إلى الآخر، فيتشاركان الاحتقار والحقد بتلك النظرات (**القاسية**) وبحركات، توحي بهيمنة المشاعر السلبية (**الغضب**) التي تتجلى في مظاهر الاعتداد بالرجولة (**ثم يفتل شاربيه**) لكنه يخصّ أهله، فيسلط الأضواء على معاناتهم وخوفهم من هجوم الأتراك فـ(يدعّمون أبوابهم بالمتاريس واللعنات)، أما مخيلة الأطفال فتملؤها قصص العجائز (عن الحروب والأعمال البطولية، وعن الحرية وعن اليونان) فتتمحور المشاعر حول هذه المعاناة وهذه البطولات، وإن كان ذلك (بعمق وبصمت) ليتناسب مع أجواء الخوف، فيبزغ حلم مشاركة الرجال في الذهاب (إلى الحرب)؛ الذي يتناسب مع ذلك القهر، الذي يعيشه الطفل **كازانتزاكي**.

يلاحظ في سيرته الذاتية أن كلمة الحرب تحتل وجدانه، وتهيمن عليه قصص معاناتها وبطولاتها، لهذا يستعجل الزمن؛ كي يصبح في عمر، يستطيع مواجهة العدو التركي! الذي يزرع الرعب في قلوب اليونانيين، وبذلك اهتم بتوثيق مشاهد تبرز انعكاس الخوف على تفاصيل حياتهم اليومية، فقد بات معظم جيرانه «**أنصاف مجانين... ربما لأنهم ينعزلون طوال العام داخل الجدران الأربعة لبيوتهم**». فقد هيمنت عليهم قصص الأجداد «**عن المجازر والحروب وعن تعذيب المسيحيين، حتى يقف شعر رؤوسهم، فإذا جاء أحد ووقف أمام بيوتهم، فإنهم يقفزون واقفين، وقد صعقهم الخوف، فكيف ينامون ليلاً؟ تظل عيونهم مفتوحة وآذانهم متربصة. إنهم ينتظرون ساعة الشر، التي لا بد أن تأتي**». «تقرير إلى غريكو، ص٦٨».

يرصد، في هذا المشهد، انعكاس الرعب على حياة أهله اليونانيين، إنهم لا يشعرون بالأمان، حتى داخل بيوتهم، يعيشون في رفقة ذاكرة، تنغّصها المذابح؛ لذلك أي خطوة يسمعونها، تجعلهم (**يقفزون واقفين**) فيسلط الضوء على حالتهم الداخلية (**وقد صعقهم الخوف**)، وأثر ذلك على حركتهم التي جمدت! أما الصورة الأكثر تأثيراً، فهي عدم استطاعتهم النوم ليلاً (**تظل عيونهم مفتوحة وآذانهم متربصة**) تلتقط أيَّ حركة، تأتيهم من خارج بيوتهم، إنه يهجس بذلك القلق الذي يعانيه من ينتظر (**ساعة الشر**) فيعيش حاضراً مفعماً بالخوف، والأكثر خطورة أنه ينغص رؤيته للمستقبل، إذ ثمة إحساس بأن ساعة (**الشر**) المكافئة للرعب (**لا بد أن تأتي**).

حين رأى الطفل أيقونة العذراء، وقد أحاط بها رمز الخير والشر (ملاك من جهة وشيطان من جهة أخرى) امتلأ قلبه سعادة، وانفتحت أمامه أبواب الأمل «**إن العذراء هي كريت...**

والشيطان الأسود هو تركيا، والملاك الأبيض كالثلج هو الملك اليوناني ذات يوم سوف يقوم الملك اليوناني في قطع كفي تركيا (كما بيّنت الأيقونة) متى؟ حالما أصبح كبيراً...». «تقرير إلى غريكو، ص٧٨».

توحي هذه الأيقونة بالمرجعية المسيحية، التي شكّلت وجدان الطفل **كازانتزاكي** لكن خياله أضاف إليها رجلاً منقذاً، هو (**الملك اليوناني**). والمدهش هنا، انزياح هذه المرجعية عن دلالتها المألوفة في مخيلة المتلقي (السلام، المحبة، حيث يردّ من ضُرب على خدّه الأيسر بتقديم خدِّه الأيمن...)، إذ يَحِلُّ مكانها فعلاً ذا دلالة عنيفة (**قطع كفي**) العدو، يقاوم بها الشيطان (تركيا). هذا ما أوحته (**الأيقونة**) إلى مخيلة الطفل، فاستطاعت أن تنتقل به من أحلام يقظته إلى لحظة مستقبلية (**سوف يقوم...**) الملك بقيادة أهالي كريت للانتقام من عدوّهم! لهذا لن يستغرب المتلقي تدخل المقدس لحمايتهم منه «**كلما شحذ الأتراك خناجرهم، وتهيؤوا للانقضاض على المسيحيين، كان القديس ميناس يقفز من أيقونته من جديد؛ ليحمي سكان (ميغالو كاسترو) ولم يكن الأتراك يرونه، لكنهم كانوا يسمعون جواده، وهو يصهل... ويرون الشرر، الذي تطلقه حوافره، وهي تضرب بالحصى، فيتقوقعون في بيوتهم، وقد جمّدهم الرعب**». «تقرير إلى غريكو، ص٩٦».

يشكّل (القديس ميناس) في المخيال بطلاً شعبياً، يقوم بمعجزات من أجل إنقاذ أهالي قرية **كازانتزاكي** فنجده (**يقفز من أيقونته**) ليواجه الأعداء (الأتراك) دون أن يروه، لهذا يهابونه، إذ يكفي أن يسمعوا صهيل (**جواده**) ويروا (**الشرر، الذي تطلقه حوافره**) حتى يسارعوا إلى الاختباء (**وقد جمّدهم الرعب**) وبذلك يعايش المتلقي قديساً أسطورياً، يتحول إلى قائد لشعبه، يستطيع أن يحميه، ويبث الطمأنينة فيه، والهلع بين أعدائه!

وبذلك تجلى الجانب الأسطوري في ذكريات طفولته، الذي يسعفه في مقاومة ظلم الأتراك، مثلما تجلى الجانب الواقعي لهذه المقاومة، إذ عايش المتلقي ردود فعل والده على ذلك الظلم، وذلك حين قاموا بذبح أهالي قريته، فوقف خلف باب بيته، وبندقيته في يد وسكينه في الأخرى، قائلاً لابنه **كازانتزاكي** «**إذا حطّم الأتراك الباب، ودخلوا فإن في نيتي أن أذبحكم بنفسي، قبل أن تقعوا في أيديهم**»، «تقرير إلى غريكو، ص١٠٦». لهذا حفر هذا المشهد عميقاً في وجدانه، حتى إنه جسّده في روايته «الحرية والموت» حيث يعيش المتلقي المشهد نفسه مع العقيد (مخايليس) الذي يبدو مستعداً لحماية زوجته وأولاده من وحشية

الأتراك؛ لهذا سيختار أهون الشرين، حين يقرر إنهاء حياتهم بيده، كي يوفر عليهم ذل الأسر وفظاعة القتل!

تجسّد والده في وجدان المتلقي في صورة مقاوم، يأبى الهوان ليس لأفراد أسرته فحسب، بل لكلِّ يوناني؛ لهذا لم يتحمل رؤية «**آغا يضع سرج التحميل على ظهر مسيحي، ويحمّله مثل حمار، غلبه الغضب تماماً، حتى إنه هجم على التركي**». «تقرير إلى غريكو، ص٣١». واستطاع تخليصه سيفه، وطلب من زوجته أن تعطيه لابنه، كي يستخدمه مبراة لقلمه، حين يكبر!

تعي ذاكرة الطفل حادثة أخرى، تبرز شهامة والده ومروءته، ففي إحدى المرات، كان يمرّ عند «**الظهيرة في زقاق ضيق عائداً إلى بيته، سمع صوت امرأة تصرخ وأبواباً تصفَّق، كان هناك تركي سكران، قد امتشق سيفه، وراح يطارد المسيحيين...**». «تقرير إلى غريكو، ص٣١-٣٢». فهاجمه الأب، ورماه أرضاً، وخلّصه سلاحه.

يلاحظ في كلتا الحادثتين كيف تجسّد الأب في وجدان ابنه (حين كتب السيرة الذاتية والرواية) في صورة فارس نبيل، يخلّص أهله اليونانيين من جور التركي، دون أن يلجأ إلى القتل أو العنف، إذ يكتفي بانتزاع سلاح عدوه فحسب!

بعد تحرير كريت صوّر مشهد الفرح، إذ شارك ضحايا الأتراك الاحتفال بالحرية «**كان كل أجدادي الذين قتلهم الأتراك، وكل جداتي اللواتي عذبهن الأتراك بتمزيق صدورهن، يصرخون مغتبطين، فأصرخ معهم، كلما خلا الشارع، حيث لا يراني أحد**». «تقرير إلى غريكو، ص١٣٠».

يلمّح، هنا، الروائي إلى وحشية الأتراك، الذين لم يكتفوا بالقتل، بل نجدهم يقومون بأفعال بعيدة عن الإنسانية (تمزيق صدور) النساء، لهذا ستشارك هذه الأرواح المعذَّبة **كازانتزاكي** بهجة النصر على الأعداء!

لغة كراهية الآخر التركي

تركت الحرب بين الأتراك واليونانيين بصمتها على لغة **كازانتزاكي** ورسمت تداعياتها الوحشية، التي تتسم بها أي حرب، فـ«**في أيّ شق تبحث في [اليونان]..سوف تجد عظام مسيحيين ذبحهم الأتراك**». «الحرية والموت، ص٢٩».

إن الأعمال الوحشية (**الذبح**) التي ارتكبها الأتراك ضد اليونانيين، تعطي مسوِّغاً لتشويه صورتهم بلغة الكراهية والحقد!

يلاحظ أن أحــلام الطفولة قد شوّهتها الحرب، فضاعت براءتها؛ لتحلّ محلّها لغة القتل والعنــف؛ لهذا وجدنا الطفل اليوناني (ثاراساكــي) ابن الكابتن (مخايليس) «**يحلم دائماً بأنه يصطاد ويقتل، أو بأنه على رأس جنود يشبعون ذبحاً في الأتراك...عندما يكبر سوف يفعل ما يحلم به الآن...تماماً مثل أبيه ومثل جده**». «الحرية والموت، ص٢٤».

تنتقل أحلام الطفل من عالم البراءة وصيد الفراشات، إلى عالم وحشي (**يصطاد ويقتل الأتــراك**). أمــا أحلام البطولة، التي تراوده فتنحصر في أن يكون (**على رأس جنود**) يمارسون فعلاً وحشياً، يوحي بمدى الحقد على الأعداء (**يشبعون ذبحاً في الأتراك**)، ومثل هذه الأحلام لا تأتــي من فراغ، إنها تتبع نهج (**أبيه وجده**) فــي المقاومة البطولية، وبذلك ترد لغة العنف لدى الطفل على لغة اللعن، التي يستخدمها الأعداء، فالعنف يشوّه الطفولة (لغتها، أحلامها، أفعالها ...).

وبذلك لن يستغــرب المتلقي تشويه صورة الأتراك، ورسم خطوطها بلغة متشنجة، تنبض عــداوة وكراهية؛ لهذا أُلحقت بالتركي كل الصفات السلبية، فمثلاً حين اختار أعضاء مجلس أعيــان القرية (مانولي) ليمثّل دور المسيــح، انتابه الغرور، فنسمعه يقول: «**انتفخت أوداجي، وتكبّرت كتركي**». «المسيح يصلب من جديد، ج١، ص٣٢٨».

تتجلــى صورة الآخر التركي في مخيلة الشاب اليوناني فــي هيئة حاكم متسلط، يستعلي على (الأنا) لذلك يبدو مفعماً بمشاعر سلبية (التكبّر) على الآخرين؛ مما يذكّره بهيئة أعدائه؛ فيندفع إلى النفور من ذاته، حين تهيمن عليها تلك المشاعر!

لــم يرسم (الأنا) اليونانية في صــورة منزّهة عن الخطأ، إذ يلاحــظ في رواية «المسيح يصلــب من جديد» أن أحــد اليونانيين (**بانايوتــي**) يعمل عند الحاكــم التركي، فيرتدي زيّه (الطربوشــ)، لكن الروائي يلمح إلى أنه ينتمي أيضاً إلى طبقة الأعيان اليونانيين، وليس إلى الفقــراء، الذين يواجهون عدوَّين في وقت واحد: (العدو الطبقي: الأغنياء، والعدو الخارجي: الأتراك) ويتحدان ضده، ففي أحد المشاهد، يقترح اللاجئ (لوكاس) منازلته، كي يبعد نصير الفقراء الأب (فوتيس) عن مبارزة الأب (جريجوريس) نصير الأعيان، فنسمعه يقول: «**ليتقدم لي أشجعهم وينازلنــي، ليتقدم لي بانايوتي... الذي يزهو بمسدسه وطربوشــه الأحمر، هذا التركــي القذر، ليجرب نفسه معي، إن كانت تواتيه الجــرأة**». «المسيح يصلب من جديد، ج٢، ص٧٨٠».

إذن من يخون أهله، ويعمل لدى العدو، لا بد أن يحمل صفاته، ويتطبع بطباع العبد، فهو (**التركي القذر، الجبان**) الذي لا (**تواتيه الجرأة**) على منازلة اليوناني الحر!

في رواية «الحرية والموت» لم يكن الكابتن اليوناني (مخايليس) يطيق رؤية وجه جاره التركي (علي آغا)، إذ «**تشمئز منه نفسه**» لهذا لن يستغرب المتلقي وصفه بأبشع الصفات، حين يُسلَخ من عالم الرجولة، وإسباغ الأنوثة عليه؛ لهذا نجده يستمتع بمجالسة النساء والثرثرة معهن «**فقد كان يبدو لزجاً كالقوقع، نصف رجل ونصف امرأة... يقضي أمسياته مع جاراته اليونانيات، مشاركاً لهن في ثرثرتهن**». «الحرية والموت، ص٧».

ثمة نظرة تقليدية، تجعل الأمور العظيمة من شأن الرجال، والأمور التافهة من شأن النساء؛ فيكون الاستعلاء اليوناني على الآخر التركي ضمن قيم تقليدية، تنتزع أهم ما يعتزّ به الرجل؛ لهذا جعله (**لزجاً، نصف رجل ونصف امرأة**).

يلاحظ، هنا، أن التوتر في العلاقة بين الأنا اليونانية والآخر التركي لم يكن دائماً، تتخلله لقاءات إنسانية، إذ نجد (علي آغا) يشارك اليونانيات الثرثرة في الأمسيات! مما يوحي للمتلقي بنشوء علاقة إنسانية بينه وبينهن بعيدة عن التوتر!

في رواية (زوربا) تستنجد امرأة تركية بالعذراء في أثناء الولادة «**أيتها العذراء القديسة، عندها وبسرعة انساب الطفل كشعرة في الوحل**» «زوربا، ص٦١». المدهش، هنا، استجابتها لها، وتسهيل ولادتها، لكن حين تناديها امرأة من أهالي (كريت) لم تستجب لها! لذلك يعبّر البطل عن ضيقه، ويسقطه على المرأة التركية، فيصفها بـ«**الكلبة الكافرة**».

أمّا صورة الحاكم (الآغا) العثماني فتبدو بشعة، إذ نجده في رواية «المسيح يصلب من جديد» غارقاً في الخمر والقيء ورماد السجائر، يدَّعي التقى، ويرفض أن يأكل لحم الخنزير في العلن، لكنه يأكله في السر، ويدعوه لحم جمل! وكذلك القائد (نوري باشا) في رواية «الحرية والموت» يواجه مشكلاته بالخمر، وكثيراً ما وجده مساعده مرمياً عند عتبة بيته، غارقاً بالقذارة، وحين يصاب في رجولته، إثر مبارزة مع أخ العقيد (مخايليس) يقرر الانتحار، ويوصي بذبح جواده فوق قبره، لكن لم يكن بين الأتراك أحد «**يقسو قلبه؛ ويستلّ سكينه... وظلوا يحدّقون في ذعر وإشفاق بجسد الجواد الممشوق، الذي يلمع تحت أشعة الشمس. إنه ليس رجلاً يونانياً ولا ثوراً ولا خروفاً، يسهل ذبحه هكذا، لقد كان زينة الدنيا وفخر ميغالوكاسترو، فمن الذي يستطيع أن يرفع سكينه على هذا العنق؟**». «الحرية والموت، ص١٥١».

يلفت النظر، هنا، تصويـــر الأتراك في هذا المشهد، وهم في قمة الإنسانية والرأفة فـــي التعامل مع (الجـــواد)، لم يجرؤ أحد منهم على قتله تنفيـــذاً لوصية قائدهم (نوري باشـــا) فينفّذها هذا الحيـــوان بنفسه، حين يمتنع عن الأكـــل والشرب، فيموت على قبر صاحبه!

يلاحـــظ أن هـــذه الصورة، تركـــت انطباعاً سلبياً عـــن الآخر التركـــي، إذ يبدو في قمة الوحشيـــة، حيـــن لا يتردد في ذبح (**رجـــل يونانـــي**) فيبدو هذا الفعل فـــي المخيلة، في أثناء التلقـــي، مكافئاً لذبح **ثـــور أو خروف!** فتصدم وحشية الأتراك مع الإنسان المتلقي، وتنفّره من أفعالهـــم، إذ يكتشف زيفهم وافتقادهم مشاعر إنسانية، على الرغم من تعاطفهم مع الحيوان؛ لأنهم يتوحشون على البشر!

لغة إيجابية عن الأتـراك

لـــم نلحظ شيوع اللغة السلبية في وصف الأتراك، ثمة لغة حساسة وإيجابية أيضاً، تحترم الروح الدينية لدى الأعداء (الأتراك)، إذ لا يلمح المتلقي سخرية أو استهزاء، حين يصوّرهم، وهم يقرؤون القـــرآن، فيهزّون أجسادهم و«**يتأرجحون إلى الأمام وإلـــى الخلف، وكأنهم على ظهور الإبل.**

بهـذه الطريقة ينقلون لأرواحهم الحركة الرتيبة المسـكرة- التي تقودهم إلى الصـحراء الكبيرة الغامضة- إلى النشوة» «تقرير إلى غريكو، ص٣١٢».

يستمـــد تفاصيل الصورة من الصحـــراء، التي أتى منها الديـــن الإسلامي، فصوّر حركة جسدهـــم الرتيبة (**إلى الأمام وإلى الخلف**) في أثناء قراءة القرآن الكريم (**وكأنهم على ظهور الإبـل**) ثم مدحهـــا، حين وصفها بـ(**المُسكرة**) وتستطيـــع أن تنقلهم (**إلى الصـحراء الكبيرة الغامضة**) التي توصلهم إلى لحظة إيجابية، تكافئ (**النشوة**).

لغة كراهية اليـونـانـي

مثلمـــا عايشنا احتقار اليوناني للتركي بسبب وحشيته وقذارته في أعمال **كازانتزاكي** تتاح الفرصة لسماع صوت الآخر (رجل الدولة العثمانية) وهو يعلن احتقاره لليوناني بسبب العداوة بينهما؛ لهذا نسمع صوت (الآغا) ينصح غلامه (إبراهيماكي) حين تقاتل أهل قريتين يونانيتين بعدم التدخل بينهما «**لا تكن أحمق، وتحشر نفسك في شؤون الروميين**».

وقد استخدم صيغة الجمع، التي توحي بشيوع لغة التعميم، التي تجسّد الإحساس بدونية الآخر، وتحفّز مخيلة المتلقي على إدخاله الجحيم، وذلك حين تصفه بـ«**السلالة الملعونة**».

وقد لجأ التركي من أجل تعزيز فكرته إلى الأسطورة، فبيّن البون الشاسع بين الأصل النبيل للأتراك، والحقير لليونان؛ ليستهين بهم، فقد «**أمسك** [الله تعالى] **بجذوة نار وببعض الروث، ومزجهما وصنع منهما عجينة واحدة، خلق منها أول رومي**...[ثم] **أمسك ببعض العسل والبارود وعجنهما في حرص وعناية، وصوّر منها التركي**». «المسيح يصلب من جديد ج٢، ص٩٧٠».

يوثّق الروائي، في هذه الأسطورة، استعلاء (الأنا التركية) حين يجعلها مكافئة للعسل المفيد والشافي، والبارود الحامي من الآخر العدو (اليوناني، الذي يدعى بالرومي) والذي يبدو قبيحاً مؤذياً مكافئاً الروث والنار! ثم يعزّز **كازانتزاكي** صورته السلبية في المخيلة؛ فيصفه بـ(**الداهية اللئيم**)، حتى إنه يلجأ لحسم صراعه إلى «**وضع قدميه بين ساقي التركي**» ليتعثّر، ويسقط أرضاً، عندئذٍ يفتقد العالم حاميه، وبذلك يُضخّم دور الأتراك، مثلما يضخم أذى الرومي؛ ليشمل كل من يختلف عنه؛ لهذا تعود صيغة الجمع إلى الظهور في الأسطورة «**سيبتلع هؤلاء الروميون العالم... جرعة واحدة**».

وكي ينقذ (تعالى) العالم من هذا الشر، خلق (رومياً آخر) من المادة نفسها (الروث والنار) وجمعهما في مكان واحد، عندئذٍ «**بدأت الحرب بينهما... فساد السلام على الأرض**». «المسيح يصلب من جديد، ج٢، ص٧٩٠».

يبدو الرومي في مخيلة التركي رجل حرب، لا يستطيع أن يعيش دون قتال، وكي يريح (تعالى) العالم من شرّه، خلق رومياً آخر؛ ليتلهيا بالاقتتال بينهما!

بالإضافة إلى حب العدوان يبدو اليوناني عندَ الآغا التركي كاذباً، أي جامعاً لكل المفاسد الأخلاقية؛ لهذا يخاطب (بانايوتي) قائلاً: «**أنت رومي، ومعنى هذا أنك كاذب**». «المسيح يصلب من جديد، ج٢، ص٨٢٢». ويبدو المؤلف، يحمل النظرة نفسها إلى هذه الشخصية؛ لهذا اختارها لدور يهوذا في رواية «المسيح يصلب من جديد». المدهش، هنا، أن المؤلف، لم ينزّه الأنا، فيصف اليوناني السيئ بصوته وبصوت التركي.

يلاحظ المتلقي امتلاك **كازانتزاكي** نظرة موضوعية لـ(الأنا) اليونانية، إذ فيها من يجسد أخلاق المسيح النبيلة وتضحيته (مانولي)، وفيها من يجسد يهوذا شرّه وخيانته (بانايوتي).

كيف أزال سوء التفاهم

شن الروائي في إبداعه هجوماً على (الحرب)، فهي من أفظع الأسباب المؤدية إلى سوء التفاهم بين الأنا اليونانية والآخر التركي؛ لهذا جعل شخصيات رواياته، تستخدم لغة تنقد وحشيتها، فمثلاً نسمع صوت (زوربا) يصفها قائلاً: «**ما هذا الجنون، الذي تملكنا، لكي نلقي بأنفسنا على رجل آخر، نطلب من الله العظيم أن يساعدنا! فهل هذا يعني أنّا نطلب من الله أن يذهب معنا؛ ليقطع آذان البشر وأنوفهم؟ إنها أحجية عظيمة، فإذا أردنا الحصول على الحرية في هذا العالم القذر، يجب أن نقوم بهذه الجرائم، وهذه الخدع القذرة، أليس كذلك؟... فبدلاً من أن يزيلنا الله بصاعقة من عنده، يمنحنا الحرية، إني لا أفهم حقاً...**». زوربا، ص٢٦-٢٧».

تبدو الحرب في مخيلة (زوربا) مكافئة لـ(**الجنون، والجرائم، والخدع القذرة**) يلتقط منها مشهداً مفزعاً، يؤرق ضميره، فنجده يسلط الضوء على صراع جسدي بين الأنا والآخر (**نلقي بأنفسنا على رجل آخر، نطلب من الله العظيم أن يساعدنا!**) ليس في عمل صالح، ينقذ حياته، بل في قتله، وبذلك ينحط الإنسان إلى درجة، يطلب فيها من الله تعالى أن يساعده في أعمال وحشية (**ليقطع آذان البشر وأنوفهم؟**) يلفت **كازانتزاكي** نظر المتلقي على لسان (زوربا) إلى أننا نعيش (**أحجية عظيمة**) ولغزاً صعباً ولا معقولاً، إذ من أجل الحصول على (**الحرية**) نرتكب فظائع في حق الإنسانية، نستحق عليها (**أن يزيلنا الله بصاعقة**) عقاباً على وحشيتنا! من هنا لن يستغرب المتلقي وصفه لـ(**هذا العالم**) الذي نعيشه بـ(**القذر**) إذ تتحقق فيه أنبل القيم والأهداف، التي تمنح حياتنا معنى وجمالاً (**الحرية**) عبر وسائل دنيئة وبشعة! مما يلوث دلالتها السامية، ويؤرّق الضمير الحي!

ينتقد في رواية «**الحرية والموت**» رجال الدين، الذين يشعلون فتيل الحرب، كما فعل (**الإمام**) التركي الذي «**يحرّض على قتل اليونانيين**» مع أنه من المفروض أن يحفظ دماء الناس، ويردع من تراوده فكرة الظلم والقتل، لذلك يبدو في الرواية من دعاة الحرب والدمار «**أما العقلاء والتجار فيحاولون صرف ذهنه عن ذلك**». «الحرية والموت، ص١٥٣». لأن حالة السلم تنعش التواصل بين الناس، فتنتعش أعمالهم، التي يقويها التعايش وتبادل المصالح؛ لهذا رفضوا تحريض (**الإمام**) على القتل!

يشتدّ سوء التفاهم بين الأتراك واليونان في أثناء الحرب، على الرغم من ذلك حاول الروائي أن يزيله، وذلك حين منح (الآخر) العدو التركي حقّه من الصفات الحميدة، مثلما

منح (الأنا) اليونانية، ففي مشهد من رواية «الحرية والموت» يسمعنا صوت (مخايليس) وهو يواجه فيه التركي (نوري) قائلاً:

- **اختر سلاحك يا «صديقي» نوري بك! هل أترجل، حتى نبدأ؟**

- **لكن (نوري) يقول في نفسه: يا له من رجل..يا لها من كبرياء، ويا لها من شجاعة، سعيد ذلك الرجل، الذي عدوّه من هذا الصنف من الرجال...**

(يسحب نوري باشا عرض المبارزة)

- **أنا أسحب ما قلت. نعم. أنا أؤمن بأنه لا محمد ولا المسيح، يريدان ذلك، أنا أؤمن بأنك محارب أصيل، وكذلك أنا، وينبغي فعلاً أن تسيل دماؤنا، ولكن بطريقة أخرى... نعم لنصبح أخوين في الدم»**. «الحرية والموت، ص١٦».

ثمة روح منصفة لدى **كازانتزاكي** تجمع تحت ظلالها الأنا (اليونانية) بالآخر (التركي) إذ على الرغم من أجواء الحرب، وما تزرعه من كراهية بين المتقاتلين! ثمة من يقاوم أهواء النفس، التي تظلم (الأنا والآخر) ليسبغ عليهما صفة نبيلة واحدة (**إنك محارب أصيل، وكذلك أنا**).

يؤطّر الروائي دعوة اليوناني للتركي من أجل المبارزة بروح ودية، فيناديه بـ(صديقي) فيردّ عليه الأخير بلغة أخوية (ينبغي فعلاً أن تسيل دماؤنا، ولكن بطريقة أخرى... نعم لنصبح أخوين في الدم).

اللافت للنظر، هنا، أن حفظ الدماء يأتي من التركي (نوري) حين يعلن انسحابه من المبارزة، بل يدعو اليوناني إلى امتزاج دمائهما بطريقة سلمية بعيداً عن ساحة الحرب؛ لتُحاك بينهما رابطة الأخوة، ما يدهش هو بناء علاقة الانفتاح هذه على أسس دينية متينة، تجمع بينهما، وتمنعهما من الاقتتال، إذ يجعل رسول الإسلام (**محمد**) ورسول المسيحيين (**المسيح**) قادة لروح التعايش معاً، ويبيّن أنهما (**لا يريدان**) القتل، وفعلاً يقتنع اليوناني (مخايليس) بهذا الرباط، وبذلك يجعل **كازانتزاكي** الدين، مهما اختلف الرسول، الذي يبشّر به، قيمة جامعة، تزرع السلم والمحبة بين البشر!

يتعمّد الروائي إلى تقديم مشهد يبرز ما تفعله الحروب من تشويه للرموز الدينية، حتى نجدها تبدّل دلالتها السلمية إلى دلالة قتالية؛ لهذا يسمع المتلقي صوت أحد الرهبان يروي لزوربا حكاية أسطورية، تعتمد أحد رموز المسيحية: «**في الماضي جاء الأتراك وأضرموا النار في الدير، ولكن اسمع ما الذي حلّ بهم من جراء هذا، ففي نفس الوقت، الذي مروا فيه**

بقرب الكنيسة، خرجت السيدة العذراء من الأيقونة بسرعة هائلة، وأمسكت برمحها، تضرب يميناً وشمالاً، حتى فتكت بهم جميعاً... منذ ذلك الوقت لُقبت بسيدة الانتقام بدلاً من سيدة الرحمة». «زوربا، ص١٩٨».

تتمثل العذراء في مخيلة المتلقي في صورة (الأم المسالمة) التي تحفظ الحياة، وتكره الحرب، لكن صورتها تتغير، حين يتعرض الدير، الذي تسكن فيه لعدوان تركي، عندئذٍ تستيقظ رغبتها في الثأر، فتحمل سلاحها، وتقتل أعداءها دفاعاً عن بيتها وأهلها، وبذلك تتحول إلى (**سيدة الانتقام**) بعد أن كانت (**سيدة الرحمة**) قبل الاعتداء على الدير، وهكذا يلمح الروائي إلى أن أفعال الأتراك العدوانية، استفزت رموز المحبة والسلام المسيحية (**السيدة العذراء**) وغيّرت دلالتها! كأن الروائي يحذّر بلغة غير مباشرة من خطورة الحرب، إذ تدمر رموز المحبة والسلام، وتجعلها أداة للانتقام والقتل!

وقد حاول **كازانتزاكي** إزالة سوء التفاهم بين الأنا (اليوناني) والآخر التركي، حين رسم صورة إيجابية للعدو (أفندينا التركي) تخالف أفق توقع المتلقي، إذ يجده يلجأ إلى الموروث اليوناني؛ ليحمي صديقه (مخايليس) من أبناء جلدته (الأتراك)، وبذلك نجح في ردعهم عن اقتحام بيت صديقه، حين أخبرهم بما يرعبهم: «**رأيت القديس ميناس، ففزعت، ألا تسمعونه؟ ها هو ذا، ووقف شعر رؤوسهم. هل سمعوا فعلاً صليل عدة الفارس... ولكن الأتراك لم يستديروا؛ لينظروا**». «الحرية والموت، ص١٧٣».

يحاول (أفندينا) في هذا المشهد اللاهث أن يقنع المعتدين من الأتراك بلغةٍ بصرية (**رأيت القديس ميناس**) ثم يعزّز قوله بلغة إشارية (**ها هو ذا**) وسمعية (**ألا تسمعونه؟**) فيوحي لهم بما يريد أن يسمعوه؛ لهذا يهربون، مما يدفعه للتساؤل، الذي يؤكد سماع صوت سلاح القديس: (**هل سمعوا فعلاً صليل عدة الفارس؟**) وبذلك يخدعهم، حتى إنه يؤكد لهم رعبه (**فزعت**) ليصيبهم بعدواه؛ مما يثبط عزيمتهم على الهجوم (**ووقف شعر رؤوسهم**) لهذا ولّوا هاربين، حتى إنهم لشدة ذعرهم،لم يجرؤوا على الالتفات، فـ(لم يستديروا) ليتحققوا و(**ينظروا**) هل حضر فعلاً القديس ميناس أم لا؟!

وبذلك لم يشيطن الآخر (التركي) ولم يحصره، على الرغم من فضاء الحرب، في إطار صورة سلبية، فقد أبرز أهمية العلاقات الإنسانية، التي تهدم الكراهية والقتل، وتبني جسور المودة، التي تحفظ حياة الصديق مثلما يحفظ المرء حياته!

إذن يمكن القول: إن **كازانتزاكي** على الرغم من أنه جسّد سوء التفاهم بين الأتراك واليونانيين بسبب معايشته للحرب الدائرة بينهما، إذ لم يسمح للعداء والكراهية بالهيمنة على إبداعه.

كما سعى الروائي إلى تسليط الضوء على علاقات الود والمحبة أيام السلم بعيداً عن أجواء الحرب بين الطرفين، إذ على الرغم من سوء التفاهم، واختلاف الانتماء الديني! يمتدح الآغا التركي اليوناني المتوفي عمدة القرية اليونانية (بطرياركاس) قائلاً: «**كان رجلاً هماماً، من النوع الذي يدخل الجنة، كان يحب الحياة الرغدة الممتعة، عرف كيف يعربد، ويتخذ المحظيات...لهفي عليه، لم يكن مسلماً، حتى يدخل جنتنا، حيث أنهار الخمر، والولدان المخلدون وحور العين**». «المسيح يصلب من جديد، ج٢، ص٥٩٨».

يسبغ التركي على اليوناني صفات البطولة، فقد كان (**هماماً**) ويصطحبها بصفات دنيوية حميدة، تجعله (**من النوع الذي يدخل الجنة**) لكنه يضيف صفات شهوانية، تناقض ما يطمئن له المؤمن عادة من أعمال ومعتقدات، سواء أكان مسيحياً أم مسلماً (**كان يحب الحياة الرغدة الممتعة... يعربد، ويتخذ المحظيات**) فيجعل تلك المحرمات، التي كان العمدة، يلهث وراءها، هي التي تؤهله لدخول الجنة، وبذلك ترسم مخيلة (الآغا) جنة يرغب في الحصول عليها؛ فهي على صورة ما استمتع به في دنياه؛ وبذلك لا يهتم بانحراف أخلاق اليوناني، لكنه يتألم لأنه لم يدخل الإسلام! فيتحسّر عليه ويتأسف من أجله (**لهفي عليه**)، إذ تفوته المتع المادية الأخروية أيضاً!

ونظراً إلى شيوع العداوة بين الأتراك واليونانيين، فإن المتلقي لا يستطيع أن يلوم الروائي حين يجده متعصباً للأنا اليونانية النظيفة، ومحتقراً الآخر التركي القذر، حتى إنه، في سيرته الذاتية، كان يميز، وهو طفل «**بين روائح المسيحيين والأتراك**»، إذ تصيبه (بالقرف) رائحة العائلة التركية، التي تسكن في الشارع المقابل لبيته، لكنه لا يستمر في رسم صورة سلبية لها، إذ سرعان ما يزيل الأثر السلبي لذلك الوصف في نفس المتلقي، فنجده يصفها بالـ(**لطيفة**) ويبين كيف أزال التزاور سوء التفاهم بينهما؛ وهكذا استطاعت المعايشة اليومية للآخر تقديم صورة أقرب إلى الموضوعية، بعيدة عن تعميم صفة (القذارة)، إذ يستثني طفلة العائلة، التي كانت «**تفوح منها رائحة غريبة ليست بالتركية ولا باليونانية، كنت أراها طيبة، كانت (أمينة) بيضاء وريانة، براحتين وقدمين مدهونتين بالكينا...كانت رائحتها مثل جوزة الطيب**»، (ص٥٠).

تهـزم رائحة الطفولة الـ(**طيبة**) كل الـدلالات السلبية، التي قد تلحق بالكبار من الأعداء الأتراك، مثلما تتفوق على الروائح، التي تنبعث من الذات (**اليونانية**) لهذا يختار للطفلة اسماً ذا دلالـة إيجابية (**أمينة**) يتبعه بصفات، توحي بالجمال اليوناني (**بيضـاء وريانة**) وزيادة في تأكيـد طيب الرائحة في وعي المتلقي، نجده يحددها بدقة (**الكينا**) ويجعلها شبيهة بـ(**جوزة الطيب**).

ثمـة استثناءات أخرى من قرف تلك الرائحة «**التي تفوح من الأتراك**» هي رائحة الأنوثة، ففي لحظة حدوث الزلزال «**اندفعت ثلاث فتيات تركيات حافيات شعثات الشعور وحاسرات، وتفرقـن فـي اتجاهـات مختلفة، وهـن يرتعدن مـن الخوف ويطلقـن زعقات حادة كأصوات السنونو، وتضمخ الزقاق كلّه برائحة المسك، كن وقفن يصرخن ويزقزقن كالعصافير... منذ تلـك اللحظة صـار للهزة الأرضـية وجه مختلـف دام معي طوال حياتي... قـوة قاتمة، تظهر الضوء، وتصبح وضاءة**». «تقرير إلى غريكو، ص٨١».

تغيّـر مشهد رعب الزلزال، حين خرجت (**فتيـات تركيات**) من بيتهن مضطربات (**يرتعدن من الخوف**) فيسمع المتلقي صوتهن (**يطلقن زعقات حادة**) تبرز مدى ما يعتريهن من رعب، وكي يزيل المؤلف الدلالة السلبية لهذا الصوت، يشبهه بـ(**أصوات السنونو**) فيتحوّل صراخهن في مخيلة الشاب اليوناني إلى زقزقة (**عصـافير**) أما رائحتهن العطرة، فـ(**تضـمخ الزقاق كلّه برائحـة المسـك**) وبذلك تغيّرت النظرة إلـى الأتراك، وفي الوقت نفسه تبدّدت حالة الرعب الزلزالـي بفضـل حضورهن، إذ أصبح لها (**وجه مختلـف**) يرافقه طوال حياته، وبذلك تغيّر حال الشاب، الذي حاصره الزلزال بـ(**قوة قاتمة**) تحوّلت بحضور التركيات إلى (**ضـوء**) انبثق في داخله، فأصبحت روحه (**وضاءة**).

يسجـل للروائي عدم سجن (الأنا والآخـر) في ثنائية نمطية (التركي شر/ اليوناني خير) إذ تنفتـح رؤيته على الأخوة الإنسانية بعيداً عن الهويات القاتلة؛ لهذا قدّم شخصيات تركية، تجسّد تلك الروح الإنسانية في مهنتها (الطبيب مصطفى بابا) الذي قدّمه في رواية «الحرية والموت» في مشهد يجسّد لهفته وانفتاحه على الإنسان أياً كان، وذلك حين وقع (الجد اليوناني سيفاكاسـ) عن السلم؛ فأسرعوا في البحـث عنه؛ لأنه ماهر في طبه، «**يعرف كل الأعشاب الطبية**»، ولأنه «**كان رجلاً طيباً، يعالج الأتراك والمسيحيين واليهود بلا تمييز... كان يقول: إنهم جميعاً يمرضون، حتى لو كانوا يونانيين أو يهوداً**». «الحرية والموت، ص٢٤٠».

يجسد الطبيب التركي القيم الأخلاقية النبيلة، التي تتجاوز انتماءات دينية، شوّهها بعضهم، فباتت مغلقة على (الأنا) تنبذ الآخر، فيبدو منفتحاً على قيم إنسانية، تشكّل أصول مهنته؛ لهذا يردد مقولة بديهية، توحّد الجميع تحت لواء المرض (**إنهم جميعاً يمرضون**) فلا بد من يد حانية، تشمل الجميع بأخوتها وبإنسانيتها.

أما في «تقرير إلى غريكو» فنجده يتحدث عن إنسانية اليونانيين **كازانتزاكي** ورفاقه حين يرأفون بأحد الفقراء الأتراك، بل «**كلما مرّ بهم وقفوا له احتراماً، إلا أنهم جميعاً كانوا متحدين بعاطفة مشتركة واحدة، تجعلهم، ينسون اهتماماتهم وخصوصياتهم، وتجعلهم يتقاربون بروح أخوية، لم يكونوا يكشفون عن هذه العاطفة؛ لأنهم كانوا يخافون الأتراك**». «تقرير إلى غريكو، ص٩٠».

لم يكتفِ هؤلاء الفتية في مشهد آخر بتقديم مشاعر الود والاحترام للفقير التركي، بل نجدهم في يوم ممطر بارد، حين لمحوا «**في الميناء، مساء أحد أيام الشتاء،... حمّالاً تركياً عجوزاً منزوياً في زاوية، وهو يرتجف. كان الظلام قد هبط، ولم يكن أحد يرانا، خلع أحدنا قميصه الداخلي، والآخر قميصه الخارجي، والثالث صدّارته، وأعطيناها للرجل، كما أننا كنا نريد أن نعانقه، غير أننا لم نجرؤ. ثم مضينا مزعوجين وخجلين، لأننا لم نؤدِ واجبنا كاملاً**». (ص١٣٤).

يلاحظ في هذا المشهد أن من يقلب موازين المشاعر السلبية، ويزيل سوء التفاهم بين اليونانيين والأتراك هم فتية صغار، مشاعرهم غضة نبيلة، تتسم أرواحهم بالطزاجة والبراءة والانفتاح على الأفكار النبيلة، التي تمتزج بالود والتسامح، وبذلك (**يتقاربون بروح أخوية**) لا تعترف بأي تمايز أو اختلاف، إنهم يعيشون خارج الإطار التقليدي، الذي يحاصر علاقات الإنسان بقضبان العداوة الموروثة، لهذا (**لم يكونوا يكشفون عن هذه العاطفة**) النبيلة، (لم يكن أحد يرانا) بعيداً عن الأطر المألوفة والآلية؛ لأنهم يعيشون عالم المثل والخير (**خلع أحدنا قميصه الداخلي، والآخر قميصه الخارجي، والثالث صدّارته، وأعطيناها للرجل**) لم يكتفوا بعمل الخير، المتمثل بالعطاء المادي، بل نجد صوت الراوي البطل يحدّثنا بصيغة جمعية عما يزهر في أعماقهم من مشاعر نبيلة نحو الفقير (**كنا نريد أن نعانقه**)، لكن حواجز نفسية كانت تقف عائقاً بينه وبينهم؛ لهذا يسمعنا صوت اعترافهم قائلاً: (**لم نجرؤ**)، إذ لم يستطع هؤلاء الفتية القفز فوق عداوة تحاصر (**الأنا**) اليونانية والأتراك، وقد أكّد **كازانتزاكي**

ذلـــك، حين دلّ على ما يختبئ في أعماقهم من مشاعر سلبية (**كانوا يخافون الأتراك**) لكنهم يقاومونهـــا، ويقدّمـــون العون للمحتاج، حتى لو كان ينتمي إلـــى الآخر، بل تصل درجة نقائهم إلـــى أنهم يعلنون عدم رضاهم عمّا قدّموه، فنجدهم (**مزعوجين وخجلين**)، حتى إن المتلقي يسمع صوتهم الجماعي، يبرز السبب (**لأننا لم نؤدِّ واجبنا كاملاً**) على الرغم من أنهم تبرعوا بكل ما يمتلكون! وبذلك يسمع الروائي صوت الخير عاماً، يرسخ في المخيلة والوجدان؛ مما يزيـــل أي توتر في العلاقة بين الأنـــا والآخر، ويؤسس لمشاعر منفتحة على التسامح والحب، لا مكان للكراهية فيها!

المدهش أن **كازانتزاكي** من أجل إزالة سوء التفاهم بين الأنا والآخر، يلجأ إلى فضح الذات اليونانيـــة، حين تعتـــدي على المقدس التركي، بل يصوّر اتساع صـــدر المسؤول (نوري باشا) وحرصه على رابطة الأخوة بينه وبين الكابتن (مخايليس)، لهذا لن يعاقب (أخاه مانوساكيس) علـــى الرغـــم مما يقوم به من عمل، يستفزّ به مشاعر الأتراك، فيكتفي بأن يشكوه إليه قائلاً: إنه «**يجعل من تركيا أضحوكة وسخرية، فأول أمس... كان ثملاً كعادته، وأدخـل حماراً إلى المسجد، ولقد جئت من القرية، فوجدت رجالي وقد تجمعوا، ورجالكم فيما بعد، ولقد رأيت مـن واجبـي أن أقـول لك، ومن واجبك أن تسـمع، فافعل مـا يوحيه إليك ربـك...**». «الحرية والموت، ص١٣-١٤».

يبـــدو القائد التركي (نوري باشا) أقرب إلى التسامـــح، لا يتسرع بالعقاب على الرغم من تجمّـــع رجاله غاضبين ممن انتهـــك مشاعرهم الدينية، وذلك حين أدخـــل حماراً إلى مكان عبادتهم، إنه يراعي ما بينه وبين الكابتن من رابطة أخوية (**من واجبي أن أقول لك**)، ويذكّره بضرورة مراعاة تلك الرابطة (**من واجبك أن تسمع**) ثم يخاطب ضميره الديني؛ ليحثّه على رفض استباحة أخيه للمسجد (**فافعل ما يوحيه إليك ربك**) لتحمي بيتاً من بيوته! وكي توقف نزعة الانتقام والكراهية، التي تولدها تلك الأعمال المستفزّة!

وبذلك يوضح **كازانتزاكي** في هذا المشهد ضرورة مراعاة مشاعر الآخر الدينية واحترامها، فهي أحد أهم العوامل، التي تزيل سوء التفاهم بين (الأنا) و(الآخر).

وفـــي مشهد آخر يقدّم عامـــلاً آخر، يزيل سوء التفاهم، ويحلّ الـــود بين الأنا والآخر، إنـــه الفن الرفيع؛ لهذا ينقـــل للمتلقي في سيرته الذاتية «تقرير إلـــى غريكو» تجربة فنية عاشها في شبابه المبكر، حين كان يسير ذات ليلة في حي، ينتمي إلى فضاء الآخر، فسمع

امرأة تركية «**تغني موالاً شرقياً بصوت مملوء بعاطفة حزينة متشنجة، كان الصوت عميقاً وأجشّ وكئيباً، ينطلق من حنايا المرأة، ويملأ الليل باليأس والسوداوية الحزينة، وحين أحسست بأنّه من المستحيل عليّ أن أتابع السير وقفت أنصت ورأسي مائل إلى الجدار، لم أستطع أن ألتقط أنفاسي، ولما لم تعد روحي المختبئة قادرة على التلاؤم مع قفصها الطيني، تدلّت من قمة رأسي، وراحت تتردد في أن تطير أم لا ... ابتعدت عن الجدار، لقد تخلّص العالم من عدميته... كانت السماء مشعة، وكل شيء يتلألأ**» «تقرير إلى غريكو، ص١٦٩- ١٧٠».

استطاع الفن المتجسد في غناء امرأة تركية، أن يحمل للشاب رسالة جمال، تتجاوز قيود الأرض، وما تبتكره أهواء البشر من مطامع، تسجن نظرتهم للحياة وللعلاقات الإنسانية، انطلق به هذا الغناء بعيداً عن لغة المصالح والمشاعر السلبية؛ فخاطب روحاً نقية، لم تلوثها الأحقاد والأنانية، وصعد بها إلى عوالم الحب والجمال، حتى بدا الشاب اليوناني عاجزاً عن الحركة والتنفس، فقد أخذه الفن الراقي إلى فضاءات جديدة، لا علاقة لها بقيود أرضية؛ مما أتاح لروحه القفز من قفصها الجسدي؛ لتنطلق إلى عالم سماوي، أكثر رحابة وإنسانية؛ لهذا حين (**صمتت المغنية**) أحس الشاب بأنَّ الحياة استردت جوهرها، وبات لها معنى!

وهكذا عزّز الفن الرفيع في داخل المتلقي مشاعر الحب الكوني، وغيّر نظرته الضيقة، فاتسعت آفاقه، كما حصل مع الشاب؛ مما أضفى على حياته بهاءً، حتى بدت السماء (**مشعة**) وكل ما يحيط به (**يتلألأ**).

من هنا لن يُستغرب ما يخلقه حب الموسيقا من رابطة إنسانية، غير مألوفة بين المعلم التركي (الماهر في العزف على آلة السانتوري)، والفتى اليوناني (زوربا) الذي هرب من منزل أسرته، بعد أن اشترى بمدخراته تلك الآلة، وألقى بنفسه عند قدمي التركي، فسأله «**لماذا ألقيت بنفسك على أقدامي هكذا؟**

- **لأني لا أملك مالاً لأدفعه لك**

- **وأنت مغرم بالسانتوري إلى هذا الحد؟**

- **نعم.**

- **حسناً يمكنك البقاء يا ولدي، فأنا لست بحاجة إلى مالك**». «زوربا، ص١٨».

يتجاوز في هــذا المشهد حب الفن كل المشاعر السلبية، التي تنشئها المطامع الدنيوية، ويخلــق رابطة أقرب إلى الرابطة الأسرية بين اليوناني والتركي، الذي يناديه (يا ولدي)، فقد باتت الموسيقا خير رابط بينهما، ينأى عما تعارف عليه البشر من روابط دموية ومادية؛ لهذا نسمــع صوت المعلم التركي، يبرز لا مبالاته بأجرة التعليم، فيقول للتلميذ اليوناني **(أنا لســت بحاجة إلى مالك)**. يهمه العلاقة الروحية، التي ينسجها الفن بينه وبين ذلك التلميذ.

كما استطاع إزالة سوء التفاهم، برأينا، بين الأنا والآخر حين امتلك روحاً صوفية، لا تعرف العزلة والتواكل، وإنما تنفتح على حب كل الكائنات وتنبض بحس المسؤولية نحو الإنسان بغض النظر عن عرقه ومعتقده!!

المراجع

(١)- نيكوس كازانتزاكي، تقرير إلى غريكو، ترجمة: ممدوح عدوان، دار ممدوح عدوان، دمشق، ط٥، ٢٠٠٧م.

(٢)- نيكوســ كازانتزاكــي، المسيح يصلب من جديــد، الجزء الأول والثاني، ترجمـــة: شوقي جلال، مراجعة د.نعيم عطية، دار طلاس، دمشق، ط٣، ١٩٩٦م.

(٣)- نيكوس كازانتزاكي، الحرية والموت، ترجمة: سعد زغلول نصار، مراجعة: محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٤)- نيكوس كازانتزاكي، زوربا، ترجمة: نخبة من الأساتذة، تدقيق: محمد باكير، دار أسامة، دمشق.

(٥)- نيكوس كازانتزاكي، تصوف: منقذو الآلهة، ترجمة: سيد أحمد علي بلال، دار المدى، ط١، ١٩٩٨م.

التفكير الإيجابي قوة للنجاح في الحياة

د. معمر نواف الهوارنة

يسعى الإنسان بفطرته إلى إيجاد الحياة المريحة والمملوءة بالسعادة والتفاؤل والنجاح، فهو يبحَث في كل المجالات، ويسعى إلى تطويرها من أجل الوصول إلى هدفه، وقد استطاع بفضل عقله المستنير أن يستوعب مدى القوة التي يتمتّع بها عقله وتفكيره في تسيير الأمور، ولجأ بعضُ الباحثين إلى دراسة هذه القوة ومحاولة تقسيم العقل إلى جزأين؛ العقل الظاهري والعقل الباطن ومدى تأثير كلٍّ منهما على الآخر، ونظراً إلى تطور التكنولوجيا استطاع الإنسان أن يراقب ما يحدث في هذا العقل بمتابعة الذبذبات والإشعاعات التي تصدر منه. اكتشف الإنسان أن حياته تسير وفق الأفكار التي يفكِّر بها، فالعقل الظاهر يرسل المعلومات والإشارات إلى العقل الباطن الذي يقوم بدوره بترجمة هذه الأفكار والإشارات وتخزينها ليقوم بإرسالها لاحقاً إلى العقل الظاهر بشكلٍ جديدٍ، فتوصّل إلى أنّ التفكير بطريقةٍ إيجابيةٍ ومحببةٍ يعطي النتائج الإيجابية في حياة الشخص، وعلى العكس من ذلك فإن الأفكار السلبية تؤدي إلى التأثير بطريقةٍ سلبيةٍ في حياة الشخص.

وفي حين يُعدّ التفكير السلبي مجرد إيحاء وهمسة تُوهِم الشخص بالعجز والشعور بالنقص. يعدّ التفكير الإيجابي إستراتيجية مبنية على القناعة والثقة والرضا، إن التفكير الإيجابي يعكس مميزات شخصية تتسم بالتحرر من القيود السلبية التي تعيق الفرد عن

ممارســة حياته بمرونة، وجوهره هو استبدال الفكرة السلبية بإستراتيجية فكرية تعتمد على التقييم المتوازن بين العاطفة والعقل.

إنَّ الشخصــ السلبي يميل في الغالب إلى إعطاء الأمور غير حجمها، فهو يضخم الصغائر ويستصغر الأمور المهمة. في حين الإيجابي يملك القدرة على تحجيم الموضوعات دون تهويلها أو التقليل من أهميتها. والشخص السلبي يميل لتعميم الخبرات السلبية على جميع جوانب حياته حتــى يتخلّل حياته الشعور بالعجز والنقص، أمـــا الشخص الإيجابي فإنه يدرك أن لكل تجربة ظروفها الخاصة، ولا يستدعي الأمر توقع الفشل أو الخوف من تكرار التجارب المحبطة.

الشخصــ السلبي يتهــم نوايا الآخرين ويقفز لاستنتاجات عشوائيـــة عنهم. أما الشخص الإيجابـــي فإنه يلتمس الأعذار للآخرين ويقــدِّر مستوى انفعالاتهم ويتجنب الحكم عليهم من خلال مقاييسه الخاصة.

تقـــول كل من «رايت ولوبيز، ٢٠٠٢»: إنَّ الناس يميلـــون عادة إلى إبراز السلبيات أكثر من الإيجابيـــات، والتوقف عند السلبيات أكثر من الإيجابيـــات، وتغليب الأحكام السلبية أكثر من الإيجابيـــة عنـــد تقويم وضعية ما، أو شخص ما، أو جماعة ما. فإذا نظرنا إلى واقعنا العربي الراهـــن بسلبياته المتكاثرة ومعوقاته وأزماته المتراكمـــة، ورؤاه المتزايدة في تشاؤمها، مما ينشـــر الكآبة والأسى. يتضح لنا مدى الحاجـــة الماسة إلى نموذج مغاير في علم النفس يغير المنظـــور السلبي، ويبحث عن أوجه القوة الكامنة، والفرص المطموسة، والإيجابيات الخفية التي نحن بأمس الحاجة إلى كشفها وإبرازها، بوصفها تشكّل أدوات لمواجهة تحديات المصير وبناء المكانة، في عالم يحكمه قانون القوة والاقتدار.

يمثل التفكير الإيجابي أبرز جوانب الاقتدار الإنساني. إذ إنه بلا شك الأداة الأكثر فعالية في التعامل مع مشكلات الحياة وتحدياتها، فالعقبات والصعوبات والمعوقات والسلبيات على اختلافهـــا لا تحل عملياً إلا من خلال التفكير الإيجابي الذي وحده يوفر المخارج ويستكشف إمكانات الحلول. ومن ثم فإن التفكير الإيجابي ليس مجرد مقاربة منهجية، بل هو توجه يعبئ الطاقـــات ويستخرج الظاهرة منها كما الكامنة من أجل حل المشكلات. كما أنه يشكل العلاج الناجع للحفاظ على المعنويات وحسن الحال النفسي.

ولا يعني التفكير الإيجابي أن نتغاضى عن سلبيات الحياة الفعلية، فذلك ليس من الإيجابية في شيء. التفكير الإيجابي هو على العكس من ذلك، ينظر بشكل جدلي إلى سلبيات وضعية

ما وإيجابياتها في الآن عينه ويوازن بينها. وينظر كيف يمكن العمل على تعظيم الإيجابيات في هذه الوضعية؟ وكيف يمكن الحد من سلبياتها؟ كذلك هو الحال في النظر إلى الآخرين، ولاسيّما في حالات الخلاف والنزاع، إذ نميل إلى إبراز السلبيات في تصرفات أو شَخْصِ الطرف الآخر على حساب طمس إيجابياته.

عندما تدرك أن كل ما حولك يحمل لك الخير وإن كان ظاهره غير ذلك فأنت هنا تتمتع بالقدرة على التفكير الإيجابي، وعندما تدفعك التجارب المؤلمة لخوض الحياة بدافعية أكبر وحماس متجدد فأنت هنا تتميز بالقدرة على التفكير الإيجابي، وعندما تعتقد أن نجاحك الحالي هو إنجاز جيد يستحق أن تعتز به دون استعلاء وأن تحجمه دون استصغار فأنت هنا تنفرد برؤية عقلانية متزنة قوامها الإيجابية.

التفكير الإيجابي مصطلح مركب من كلمتين:

أولاً: التفكير

من حيث اللغة: فَكَرَ في الأمر، يفكر، فكراً: أعمل عقله فيه، ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى المجهول، وفكّر مبالغة في فَكَرَ، والتفكير: إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها. «وفي الاصطلاح لا يوجد هناك تعريف واحد مرضٍ للتفكير، لأن معظم التعريفات مُرضية عند أحد مستويات التفكير أو عند مستوى آخر، ويعرف التفكير على أنه التقصي المدروس للخبرة من أجل غرض ما»، ويعرف التفكير أيضاً بوصفه مهارة بأنه: «المهارة الفعالة التي تدفع بالذكاء الفطري إلى العمل».

ثانياً: الإيجابي

نسبة إلى الإيجابية التي تعني المحافظة على التوازن السليم في إدراك مختلف المشكلات، وهي: أسلوب متكامل في الحياة، بغية التركيز على الإيجابيات في أي موقف بدلاً من التركيز على السلبيات، إنه يعني أن تحسن ظنك بذاتك، وأن تظن خيراً في الآخرين، وأن تتبنى الأسلوب الأمثل في الحياة.

وأما باعتبار التركيب فالتفكير الإيجابي هو: أن تستخدم قدرة عقلك الباطن «عقلك اللاواعي» للتأثير في حياتك العامة بطريقة تساعدك على بلوغ آمالك، وتحقيق أحلامك، وهو قدرتنا الفطرية للوصول إلى نتائج أفضل عبر أفكار إيجابية.

إن الإيجابية في التفكير منهج وقانون ضابط لانفعالات الفرد. وهو مهارة يستطيع الفرد من خلالها التحكم في مزاجه وردود أفعاله المختلفة. والتفكير الإيجابي سمة مميزة بارزة

في كــل شخص يتمتع بهدوء داخلي وثبات نسبي في المواقــف المختلفة وتسامح مع الذات وتفهم لطبيعــة الحياة وصعوباتها ولطبيعــة البشر المتقلبة والمتغيــرة بالإضافة إلى تقييم موضوعي للذات والآخرين.

ولعلــه عند الحديث عن التفكير الإيجابي يتبادر إلى الذهن مباشرة مهارة الثقة بالنفس. ذلــك أن التفكير الإيجابي هو انعكاس لدرجة عالية مــن الرضا عن الذات ودرجة عالية من الرضا عن الحياة بشكل عام. ذلك الرضا الذي ينمو بعمق في تلك النفوس المطمئنة الهادئة. إن التفكيــر الإيجابــي هو مهارة مكتسبــة يتعلمها الفرد من خلال تعزيــز البيئة للانفعالات المنضبطة ومن خلال الإقبال المجتمعي على الشخص المتفائل واستحسان رأيه والانجذاب للحديث إليه.

التفكير الإيجابي مهارة يعززها الفرد في ذاته من خلال الترديد الدائم للمعاني الإيجابية، والحديث الإيجابــي للذات ومباركة إيجابياتها، والرضا عن الذات وقبولها كما هي، والتجرد من الذاتية والحدية في تقييم المواقف والأشخاص، ويستطيع كل إنسان أن يكون إيجابياً في تفكيره عندما يدرك أن التفكير الإيجابي هو أداة وسلاح للتكيف النفسي والاجتماعي.

إن الشخصــ الإيجابي يحترم عقول البشر ويدرك حدودهم ويتعامل مع باطنهم الذي قد لا يتوافــق مع سلوك عابر اضطراري صدر عنهم لظروف محددة ومتغيرة، الإيجابي يستثمر كل طاقاته وقدرته ومواهبه وإمكاناته لتحسين وتطوير نفسه، ومن ثمّ تحسين العالم من حوله، وهو يوظف الابتسامة والكلمة الطيبــة والمبادرة لمساعدة الآخرين في تنمية ذاته الإيجابية ويمارس كل طاقاته برضا وثقة واقتناع.

إن الشخصيــة الإيجابية تتمتع بدرجة عالية من الاكتفــاء الفكري والعاطفي، لذلك فهي متحررة من القيود التي قد توقعها في مواقف الألم والشعور باليأس، إنها لا تتراجع عن تقديم أفضل ما لديها لخلق أجواء الراحة لها وللآخرين.

أهمية التفكير الإيجابي

يسعى الإنسان مهما كان عمره، ومهما كان الزمان أو المكان الذي يعيش فيه إلى أن تكون حياتــه وحياة من حوله مملــوءة بالسعادة، والرفاهية، والنجــاح المتواصل في شتى مجالات الحياة، ولذلك يحاول جاهداً أن يجلب لنفسه وللآخرين الخير والمصالح المادية والمعنوية، وأن يدفع عن نفسه الضرر والمفاسد، وإن مما يمكّن الإنسان من الوصول إلى مراده أن يقوم

بادئ ذي بدء بتحسين مستوياته الفكرية وذلك بتبني منهج فكري سليم عن نفسه وعن مجتمعه وعن الحياة بصفة عامة، وأن يدرب نفسه على التخلي عن الأفكار السلبية التي تحد من قدراته، والتي تضيع جهوده في سبيل تحقيق ما يصبو إليه من أهداف في حياته.

ومن هنا ندرك أهمية التفكير الإيجابي، فالإنسان يستطيع أن يقرر طريقة تفكيره فإذا اخترت أن تفكر بإيجابية تستطيع أن تزيل كثيراً من المشاعر غير المرغوب فيها، التي ربما تعيقك من تحقيق الأفضل لنفسك. ويرتبط الاتجاه العقلي الإيجابي ارتباطاً وثيقاً بالنجاح في كل مجال من مجالات الحياة.

وإن معرفتنا لتفاعل العقل الواعي والعقل الباطن سوف تجعل الإنسان قادراً على تحويل حياته كلها، فعندما يفكر العقل بطريقة صحيحة، وعندما يفهم الحقيقة، وتكون الأفكار المودعة في بنك العقل الباطن أفكاراً بناءةً منسجمة وخالية من الاضطراب، فإن القوى الفاعلة العجيبة سوف تستجيب وتجلب أوضاعاً وظروفاً ملائمة والأفضل في كل شيء، ولكي يغير الإنسان الظروف الخارجية فإنه يتعين عليه أن يغير السبب، والسبب هو الطريقة التي يستخدم بها الإنسان عقله وهو الوسيلة التي يفكر بها الإنسان ويتصورها في عقله.

ويمتلك التفكير الإيجابي قوةً كبيرةً في نجاح الشخص، فالنظر إلى الأمور بإيجابية يعدُّ بدايةً جديدةً لكل شيءٍ، فالتفكير الإيجابي يقوم بتحفيز الشخص على إيجاد الفرص والحلول من خلال الصعوبات والتحديات، فلا توجد نتيجة من الجلوس والنظر إلى الأمور التي تحصل بطريقةٍ سلبية والاستمرار في التنهد ولعن الحياة واتهامها بأن ما يحصل عليه الآخرون من فرصٍ أكبر، وإنما مع التفكير الإيجابي تُستخلص الحلول وتصبح كل تجربةٍ قصة نجاحٍ جديدةٍ.

حسن الحال والتفكير الإيجابي

حسن الحال الذاتي هو وليد تزاوج التفكير الإيجابي والعواطف الإيجابية. وقد قدم علماء النفس الإيجابي كثيراً من التعريفات لحسن الحال ومحدداته. من أبرزها وضع السعادة في موضع القلب من حسن الحال، بوصفها الغاية المنشودة لدى الجميع، ولو تعددت مقوماتها وحالاتها. ويتجسد حسن الحال عملياً في الصحة النفسية. وقد قدم لنا عالما علم النفس الإيجابي «KEYES، 2002 & LOPEZ» منظوراً إيجابياً لتشخيص الصحة النفسية، وذلك في مقابل هيمنة المنظور المرضي الذي ساد طويلاً.

بناء الاقتدار والتفكير الإيجابي

إن التمكن من الإمساك بزمام المصير وصناعته يحصل على مختلف أصعدة الوجود الإنساني. الاقتدار النفسي المتمثل في الحالات المتقدمة من الصحة النفسية ومتانة الشخصية، والاقتدار المعرفي المتمثل في القدرات الذهنية القادرة على التعامل مع قضايا الحياة بإيجابية وفاعلية، إذ يمثل التفكير الإيجابي أحد أبرز مظاهرها. الاقتدار المهني في مجال الاختصاص وامتلاك وسائل الفاعلية المهنية. الاقتدار الاجتماعي المتمثل في المهارات الاجتماعية والقيادة والمشاركة والانتماء، والمناعة الخلقية بإزاء إغراءات الانحراف والفساد.

إنه باختصار التفتح الإنساني الفاعل والكيان الناشط على جميع أصعدة الحياة الخاصة والعامة. هذا الاقتدار أصبح يشكل عُدَّة خوض غمار الحياة في عصر العولمة القائم على قانون القوى في جميع مناحيها ولاسيّما القوة المعرفية. يعيش الناس في عصر العولمة في عالم لا مكان فيه للضعف والرداءة لمن أراد أن يصنع مكانة ويبني مصيراً.

مقومات التفكير الإيجابي

التفكير الإيجابي هو اتجاه ذهني للاهتمام بالأفكار والصور والكلمات المؤدية إلى النمو، والنجاح، والتوسع. إنه اتجاه ذهني يتوقع نتائج جيدة وملائمة. كما يتوقع التفكير الإيجابي غلبة النهايات الناجحة والطيبة لكل فعل نقوم به. ولا يقبل كل الناس مثل هذه التوقعات الطيبة، حتى إن بعضهم يعتقد أنها نوع من المواقف غير الواقعية. كما أنهم لا يأخذون على محمل الجد الدعوة إلى التفكير الإيجابي، إذ يعدّونها بمنزلة تمنيات لا جدوى منها عملياً. ذلك أن الناس يميلون عادة إلى إبراز السلبيات أكثر من الإيجابيات في رؤاهم وأحكامهم.

والتفكير السلبي يتصف عموماً بالعدوى الانفعالية، أكثر من التفكير الإيجابي. إذ لا يلبث شخص أن يتحدث عن سلبيات حالة ما أو سلوك ما لدى شخص آخر، حتى تقوم جوقة من تداعيات الأفكار السلبية والإدانة أو الملامة أو التبرم والشكوى. وكل موقف سلبي من أحد الحاضرين يعزز مثيله عند الآخرين، في نوع من كرة الثلج.

يأتي الوعي في أول خطوات ومقومات التفكير الإيجابي، فالوعي هو أساس تفتح الرؤى حول الواقعين «الموضوعي والذاتي» في آن معاً، واستيعاب معطياتهما في إيجابياتهما وسلبياتهما. الوعي هو أن تصبح على صلة بما أنت عليه، وما تشعر به وتفكر فيه وتفعله. وعندما يصبح الإنسان واعياً بما هو عليه، وما يفعله في الحاضر، فإن آفاق البحث في البدائل والحلول تتجلى بما يتيح تعاملاً فاعلاً مع الواقع الذاتي منه كما الموضوعي.

يمتلك الوعي وظيفتين؛ أولاهما هي المراقبة والتنبه للذات والمحيط والاستجابة لهما، ورصد الوقائع والأحداث ذات الأهمية الخاصة بالنسبة إلى الشخص في وضعية معينة. وثانيتهما هي وظيفة التوجيه التي تتيح للشخص حسن التصرف في التعامل مع واقعه الذاتي والموضوعي، لجهة التصويب والتصحيح وتغيير المسار، أو الاستمرار في المنحى نفسه من التحرك.

إن الآليات النفسية المعرفية الفاعلة على الصعيد المرضي لها ما يوازيها على صعيد التنكر للمعوقات الذاتية الفاعلة على الصعيد الوجودي العام. ويشكل جلد الذات والاستمتاع الخفي به نموذجاً هو الأكثر شيوعاً وألفة.

إن القهر والهدر التاريخيين اللذين تعرض لهما الإنسان يرسخان لديه الآلية المعروفة والمتمثلة باجتياف الأحكام التي تطلقها سلطات القهر والهدر والاستعمار: إنه العاجز، القاصر، السلبي، الكسول، وكذلك العدواني الذي يجب قمعه وإخضاعه. ومع اجتياف هذه الأحكام تتكون صورة عن الذات، فردية وجماعية، تكرس المواقف السلبية المعطلة منها بوصفها حالة طبيعية. العجز والنظرة السلبية المتعلمان في الموقف من الذات يتخذان شكلاً قطعياً يقاوم الوعي بهما.

يشكل انتقاء الأهداف ووسائل تحقيقها واحداً من أهم مهارات التفكير الإيجابي فردياً كما جماعياً. يحدد انتقاء الأهداف، الذي يجب أن يتصف بالواقعية ويشكل في الآن عينه درجة كافية من التحدي بحيث يعبئ الطاقات والموارد في حلتها الفضلى، كل من التوجه في السير نحو تحقيق الغايات وأولويات الإجراءات، وأدوات التنفيذ وموارده، ومعيار الإنجاز كمياً وزمنياً «المقدار المطلوب تحقيقه خلال زمن معين»، ومتابعة الإنجاز وتصويب المسار إذا ظهر انحراف عن تحقيق الهدف، وتقويم فاعلية الإنجاز، ويتوجها جميعاً إعطاء قصد ومعنى لعملية تحقيق الأهداف الفرعية من خلال ربطها بغايات أخرى.

بعض آليات التفكير الإيجابي

لا يقتصر التفكير الإيجابي في حل المشكلات على المنهج العلمي العقلاني، وإنما يتجاوزه من خلال منهجيات التفكير الجانبي «Lateral Thinking»، والتفكير الابتكاري في تقنياته المتنوعة. وتستند هذه المنهجيات إلى المرونة الذهنية التي تشكل أحد مظاهر المرونة الذهنية الطليقة، التي تكسر القيود المفروضة ذاتياً على التفكير فينطلق في

آفــاق جديدة. وهنا تعاود الحياة مسيرتها النمائيــة، إذ تبقى الطاقات الحية متوافرة للفعل، أو تتصاعد عملية تعبئتها.

التفكيــر الإيجابي هو مفتاح الوفاق والنجــاح. الوفاق مع الذات والدنيا والناس، والنجاح في مسيرة البناء والنماء. تصبح على وفاق مع ذاتك حين تفكر إيجابياً في وضعك الشخصي وقدراتك وإمكاناتك، وكيف يمكن تعظيمها وتثميرها وحسن توظيفها لتحقيق أهدافك. وكذلك حين تتعامــل إيجابياً مع عثراتك وانتكاساتك وأوجه قصــورك فتفتش عن سبيل تصحيحها وتعديلها، وصولاً إلى التعلم منها وتجاوزها.

التفكير الإيجابي والانفعالات الإيجابية

يــؤدي الاقتــدار الإنساني في مختلــف مقوماته، إلى تحقيق الرضــا الكياني، مما يطلق عليــه اختصاصيو علم النفس الإيجابي تعبير حسن الحال «Well Being» إلا أن حسن الحال الــذي يشكل تتويج إنجاز الفــوز في معركة الوجود، أبعد ما يكون عن الحظ والحظوة اللذين يقطفهمــا الإنسان ثمرة ناضجة دون جد، فهو حالة كيانية تُبنى ضمن سياقات بيئية ملائمة. وحسن الحال هو الابن الشرعي لتزاوج كل من الاقتدار الإنساني والانفعالات الإيجابية.

يشغــل حســن الحال وما يصاحبه من خبــرات سعيدة مكانة مركزية فــي أبحاث علم النفس الإيجابــي. إذ يجعلــه مؤسسو هذا العلــم واختصاصيوه غايته الكبرى، ويجعلــون من مهمة بنائه وتمكيــن الناس من تحقيقه في حياتهم، الوجه النمائي الأكثــر صدارة في وظيفة علم النفس في مقابــل هيمنة المرض. ذلك أن علاج المرض ولو أنه يمهــد السبيل أمام انطلاق الطاقات الحية النمائية، إلا أنه لا يضمن تحقيقها بالضرورة، فالخلو من المرض الجسدي لا يضمن تلقائياً، كما سبــق بيانه، استثمار طاقات الجسد إلــى حالتها الفضلى. كما أن الخلو من الاضطراب الانفعالي لا يضمن بالضرورة بدوره، تفتح الانفعالات الإيجابية وما تولده من حالات سعادة وحسن حال.

يتمثل الرفــاه الإنساني، وهو لبّ التنمية الإنسانية في عملية توسيع نطاق خيارات الناس فــي جميع ميادين سعي الإنسان، وذلك من خلال تمكين الناس جميعاً عن المشاركة بفاعلية فــي عملية بنــاء حياتهم وصناعة مصيرهم. ويتم ذلك من خلال القضاء على كل أوجه القهر والهدر من ناحية، وبناء الاقتدار الإنساني من الناحية الأخرى، مما يشكل حتمية أخلاقية.

ومــا زال أكثر سكــان عالمنا العربي دون حدّ الرفــاه الإنساني، بمعنى احتــرام إنسانية الإنســان وحرياتــه الأساسية والمؤسسات الحامية لها، ولــو أن هناك شريحة تحظى بالرفاه

المادي، إلا أنها ما زالت دون مستوى الرفاه الإنساني، بمعنى صناعة الإنسان لمصيره وتوسيع نطاق خيارات إدارة وجوده.

بعض سبل تعزيز الانفعالات الإيجابية

يتفق العلماء على أن هناك كثيراً من سبل تعزيز الانفعالات الإيجابية، من خلال تنشيط النظام العصبي الحيوي الميسّر للسلوك. وأبرز دليل على ذلك هو العلاج المعرفي الذي يشتغل على تعديل الانفعالات السلبية من خلال تعديل الأفكار المغلوطة التي تسندها بشكل لا واع. ويشكل التدريب على أسلوب التفسير المتفائل الذي طور «سليغمان» برامجه للصغار والكبار بعنوان «تعليم التفاؤل» نموذجاً بارزاً في هذا المجال.

ويضاف إلى ذلك ويرفده أسلوب الحياة الصحي من سلامة غذاء ونوم كاف وممارسة الاسترخاء واكتساب مهارات التعامل مع الشدائد، وزيادة مقدار الأنشطة السارة، من اختلاط والتزام اجتماعيين، والاندماج في الطبيعة، وممارسة هوايات محببة، وأسلوب حياة نشط وحيوي. وكذلك الحديث الإيجابي مع الذات وإبراز إيجابياتها وأوجه عافيتها واقتدارها.

وتحتل القناعة مكانة مهمة من خلال الرضا بما نتمتع به في الحياة، وتجنب الانخراط في مشاعر المقارنات غير المُجدية بمن هم أكثر حظاً وحظوة في هذا المجال أو ذاك. ولهذا كله بدأ علماء النفس العلاجي والإرشادي يوفقون ما بين التدخلات العلاجية المعروفة، وتعزيز الروحانيات سلوكياً، معرفياً ووجودياً. وبدأ البعد الروحاني من الحياة يأخذ المزيد من المكانة والدور في الوقاية والعلاج والتربية الخاصة: الاهتمام بتعزيز الأمل، والحب، والصفح والغفران، والتقبل والرضا، والسكينة والطمأنينة، كلها تفتح آفاقاً رحبة أمام غلبة الانفعالات الإيجابية، وما يصحبها من حسن حال ذاتي ووجودي.

يمكن التفكير بطريقةٍ إيجابية من خلال ما يأتي:

• تكرار العبارات الإيجابية والمحفزة والابتعاد عن لوم النفس ومحادثتها - ولو سراً - بطريقةٍ سلبية، فالعقل يخزِّن ما يسمعه، وعندما يتخزّن فيه بأنه لا يوجد هناك إخفاق وإنما تجارب ودروس لا بد من التعلّم منها فإنه يحذف كلمة الفشل من قاموسه.

• تحديد الهدف من الحياة ووضع الأهداف قصيرة الأمد أيضاً ومحاولة التركيز على كل هذه الأهداف والابتعاد عن النظر إلى الماضي أو ما به من تجارب غير جيدةٍ.

• التأمل والاسترخاء وإعطاء النفس متسعاً من الاستقرار والراحة، ومحاولة عدم المبالغة في المشكلات وتطويرها.

• تقليل الأفكار الداخلة إلى العقل ومحاولة تنظيمها وترتيبها حسب الأولوية، لأن مزاحمة الأفكار تتعب العقل وتسبب فقدان التركيز في أيٍّ منها.

• لكـي تحقق النجاح وتعيش سعيـداً وتحيا حياة متوازنة يجـب أن يشمل التغيير طريقة تفكيرك، وأسلوب حياتك، ونظرتك تجاه نفسك، والناس، والأشياء، والموقف التي تحدث لك، والسعي الدائم إلى تطوير جميع جوانب حياتك.

• يجـب عليك أن تعلم أن أي تغيير في حياتك يحـدث أولاً في داخلك، في الطريقة التي تفكّر بها، والتي ستسبب لك ثورة ذهنية كبيرة قد تجعل حياتك سعادة أو تعاسة.

• عليك بالتفاؤل لأنه الإيمان بالنتائج الإيجابية، وتوقعها حتى في أصعب المواقف والأزمات والتحديات «ومن ثمراته أن يشعر المتفائل بسلطته وقوته وأنه متحكم في حياته بحكمة وذكاء حتى في مواجهة المشكلات المختلفة. إنني أستطيع التأثير بإيجابية في سلوك الآخرين، وفي نتيجة العمل المتوقعة لمهمة أو هدف ما وذلك عندما أكون متفائلاً، فإن التفاؤل يجعل تأثير قوتك يتضاعف عدة مرات أكثر من تأثيرها الطبيعي».

المراجع

(١)- الطيب، محمد، سيد (٢٠٠٩ م)، الصحة النفسية وعلم النفس الإيجابي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

(٢)- مصطفى، وفاء (٢٠٠١م)، أسرار التميز والنجاح، ط١، لبنان، دار ابن حزم.

(3)- Ryff, C. & Singer, B. (2008). Know Thyself and Become What You Are: A Eudaimonic Approach To Psychological Well – Being. Journal of Happiness Studies. (9). (13- 39).

(4)- Sligman, M. & steen, T. & park, N. & Peterson, C. (2005). Positive psychology progress . American psychologist. (60). (5). (410 _ 421).

مشكلات الطفولة من منظور علم النفس

ظاهرة الاكتئاب وإيذاء الذات

حسين محي الدين سباهي

الاكتئاب (depression): هو شعور بالحزن والغم مصحوب غالباً بانخفاض في الفاعلية. ويحدث سلوك إيذاء الذات (self-injurious) عندما يعمد الناس إلى الإضرار بأنفسهم، والانتحار هو شكل متطرف من سلوك إيذاء الذات يحدث لدى الأفراد المكتئبين.

وقد بينت الدراسات أن (٥٨٪) من آباء الأفراد المكتئبين هم أيضاً مكتئبون، كما أن نحو نصف المراهقين الواقعين تحت طائلة القانون هم من المكتئبين، ويسمى هذا الوضع بالاكتئاب المقنع (masked depression). واستجابات الحزن والعجز هي استجابات شائعة لمن يعاني من الأفراد الضرب وإساءة المعاملة ومما يجعل الموقف أكثر خطورة كما يرى كثير من المختصّين، هو أن الاكتئاب يمكن أن يكون سبباً لكثير من المشكلات السلوكية لدى الأطفال مثل: (التبول في الفراش، ونوبات الغضب، والهرب من المدرسة، والشعور بالإرهاق، والفشل المدرسي، والانحراف، والنشاط الزائد، والمشكلات الجسمية النفسية). فالانحراف كثيراً ما يظهر وسيلةً لتغطية الشعور بالوحدة واليأس. وغالباً ما يشعر الأطفال بالقنوط والعجز بسبب اعتمادهم على الكبار، والأطفال المكتئبون نادراً ما يظهرون الفرح أو السرور وغالباً ما يتحدثون بصوت رتيب خافت وتعوزهم روح الفكاهة ونادراً ما يضحكون، وقد تظهر لديهم أنماط من التأرجح المزاجي واضطرابات في النوم، وقد يكونون سريعي البكاء متهيجين بائسين متشبثين بالدعم الخارجي، وبعضهم يبدو لا مبالياً ومنعزلاً في حين يبدو

بعضهم الآخر في حالة قلق زائد، وبدلاً من الشكوى من الحزن قد يُظهر الأطفال شكاوى جسمية مثل الصداع وآلام المعدة، وقد لا يشعرون بالرغبة في عمل أي شيء ويفقدون الاهتمام بالرياضة أو اللعب، ويأخذ عملهم المدرسي بالتدهور بشكل مفاجئ، وقد يكون من الصعب إثارة اهتمامهم بأي شيء، وقد يشعرون بالنبذ وبأنهم غير محبوبين ولا يكون من السهل تنظيمهم، وغالباً ما يفضلون النشاطات الذاتية القائمة على العزلة، على التفاعل مع الآخرين، وهم يبدون للآخرين وكأنهم جديرون جداً، وقورون وأكبر من عمرهم، كما أنهم يقللون من قيمة أنفسهم وينظرون إلى أنفسهم وإلى العالم بمنظار أسود.

وكثير من الأطفال في عمر (٨ إلى ١٢ سنة) يهددون بقتل أنفسهم أو إيذائها عندما يكونون بحالة غضب شديد، إلّا أنهم يعتذرون عادة بعد أن ينحسر غضبهم ويقولون إنّهم لم يعنوا ذلك، أما الأطفال الذين يؤذون أنفسهم فهم شديدو النقد لذواتهم، وهي إشارة تحذيرية مبكرة مهمّة.

إنَّ سلوك إيذاء الذات بما في ذلك الانتحار هو سلوك شائع نسبياً وهو في ازدياد لدى فئة المراهقين. أما سبب الانتحار عند المراهقين فهو غالباً نتيجة الفشل المدرسي أو موت أحد الوالدين أو استمرار الخلافات الأسرية أو الفقر أو مشكلات العلاقة مع الأصدقاء أو مشكلات العلاقة مع من لهم سلطة أو قيادة أو سيطرة عليهم. والانتحار هو الثامن في ترتيب أسباب وفيات الأولاد في الفئة العمرية «٩ - ١٤ سنة»، ومفهوم الموت والانتحار، يستوعبه الأطفال عادة في عمر «٧ أو ٨ سنوات». إن بعض الأطفال عدوانيون نحو ذواتهم، فهم يهددون بإيذاء أنفسهم أو يقومون بذلك فعلاً، وكثير من الأطفال المتعرضين للحوادث (accident prone) يقعون في هذه الفئة، ومن أنماط السلوك التي تعدُّ عدواناً نحو الذات، الامتناع عن أخذ دواء ضروري، وكذلك أعمال المخاطرة المبالغ بها، كأن يقفز مثل هؤلاء الأفراد من مكان مرتفع أو يعبرون الطريق وسط سير كثيف أو يقودون السيارة بسرعة عالية. ويتضمن سلوك إيذاء الذات الخدش أو الجرح أو الصفع أو اللكم للذات، كما أن بعض الأطفال يعضون أو ينزعون جلدهم أو يبتلعون الأشياء أو السموم هذا إلى جانب الحركات الإيقاعية مثل حركة هز الرأس الشائعة نسبياً في الطفولة المبكرة التي تنحسر في عمر ثلاث سنوات أو أربع سنوات، وهز الجسم الذي قد يشير إلى وجود حاجة إلى مزيد من الفعاليات الجسمية. ويؤدي ضرب الرأس بشدة أو مدّة طويلة «حتى لو كان ذلك على مخدة» إلى حالة من التوتر في البيت وإلى الشعور بالغيظ وعدم الجدارة، أما شد الشعر فلا يعدُّ شائعاً جداً إلّا أنه يحدث بتكرار أعلى لدى

البنات دون الثانية عشرة. ومع أن الأطفال العاديين يمكن أن يؤذوا أنفسهم في بعض الأوقات، إلّا أن الأطفال الذين يعانون من مشكلات انفعالية جدية والأطفال المتخلفين يؤذون أنفسهم بشكل أقوى.

أسباب الاكتئاب

١- **الشعور بالذنب** (Guilt): إن الأطفال الذين يشعرون بأنهم فاسدون أو سيئون يرغبون في أن يُعَاقَبوا، فهم يعتقدون بأنهم يستحقون العقاب بسبب أفكارهم وتصرفاتهم السيئة، وتأتي مشاعر الذنب من خَرْقِ القانون، والشعور بالمسؤولية عن إساءة متخيلة أو من الشعور العام بعدم الجدارة، فالطفل يفكر «إنني سيِّئ جداً بحيث لا يمكن لأحد أن يحبني». وبمثل هذا الشعور فإنه لا يقتنع بما يظهره الآخرون من تعبير عن الحب أو التقبل ويصبح الموقف أسوأ عندما يحب الآخرون مثل هؤلاء الأطفال بشكل أقل لأنهم يتصرفون على نحو وكأنهم يطلبون النبذ. وقد يتساءل بعض الآباء: «كيف يمكن لك أن تحبه إذا كان يتصرف بشكل لا يستحق الحب؟» إن الأطفال الذين يشعرون بالذنب يلومون أنفسهم لأيِّ مشكلة أو فشل وغالباً ما يتحدثون لأنفسهم بلغة سلبية جداً، فيفكر الطفل مثلاً: «إنني مجرد شخص أحمق ولا عجب أن والديَّ لا يطيقانني» وفي العادة، يشعر هؤلاء الأطفال بالمسؤولية عندما يكون الآخرون منزعجين أو غاضبين أو متهيّجين. «لو أنني لم أتصرف بهذه الطريقة لما بقيت أمي تصرخ طوال الوقت». وعندما يقال لهؤلاء الأطفال إنّ شيئاً ما ليس خطأهم فإنهم لا يصدقون فهم يشعرون بأن من يقول ذلك يحاول أن يكون لطيفاً فحسب، ولأنهم يشعرون أصلاً بالذنب فإن الكلمات لا تؤثر في مفهومهم السلبي عن الذات.

٢- **الغضب المتجه إلى الداخل** (Anger turned Inward): إن الأطفال الذين يشعرون بالذنب قد يصبحون غاضبين على أنفسهم ومكتئبين وقد يؤذون أنفسهم على نحو ما، وهذه الطريقة مباشرة لمعاقبة الذات بسبب السوء. والحالة الأكثر شيوعاً هي أن يصبح الأطفال غاضبين جداً بسبب عدم عدالة الآخرين، فهم يرون آباءهم ومعلميهم وزملاءهم وإخوانهم أشخاصاً ظالمين قساة وغير حساسين لهم. وتتكون مشاعرهم هذه، من مزيج من الحقيقة والتخيل أو المبالغة، كذلك فإن معظم الراشدين لا يوافقون على تعبير الأطفال المباشر عن الغضب، فكثيراً ما نسمع الكبار يقولون «إياك أن أسمعك تتحدث بهذه الطريقة مرة ثانية وإلّا ستلقى معاملة قاسية أو أخاصمك أو أعاقبك... إلخ». وفي حالة الإحباط

(Frustration) يوجه الأطفال غضبهم الذي كان في الأصل متجهاً إلى الآخرين، نحو ذواتهم، كما لو أن الغضب ينبغي التعبير عنه على نحو ما. وبعض الأطفال يعبرون عن الغضب بحركات جسمية، أو بالشتم في سرهم أو بإخبار أصدقائهم... إلخ، أما أولئك الذين لا يفعلون فيصبحون ميالين إلى التقليل من قيمة ذواتهم وينتهون بإيذاء أنفسهم بطريقة ما. والمزج بين إيذاء الذات والاكتئاب هو مزج غير قادر الحدوث.

٣- **الشعور بالعجز** (Feeling Helpless): يأتي الاكتئاب عادة بعد تكوّن قناعة لدى الفرد بأنه لا يستطيع التكيف مع مشكلات الحياة اليومية والشعور المستمر بالعجز واليأس قد يؤدي إلى أفكار انتحارية بوصفها طريقةً للتهرب من موقف لا أمل فيه. وفي بعض الأوقات يُواجَه الشعور باليأس بالقيام بحركات الإثارة الذاتية (Self Stimulation) كالهز وضرب الرأس أو أي شكل آخر من أشكال إيذاء الذات كما لو أن الفرد يستمد من الإثارة الذاتية أو الألم شعوراً بأنه ليس عاجزاً تماماً.

٤- **الاستجابة للخسارة الفادحة** (Reaction to Deploys): يكون صغار الأطفال أكثر شعوراً بالتهديد من الأكبر منهم سناً بفقد الوالدين لأن الأطفال الكبار قد يكونون متعلقين بصديق أو معلم أو قريب. والسبب هو أن الأطفال يشعرون بأنهم قد دمروا إذا توقف تزويدهم المهم بالتقبل. كما أن بعض الأطفال أكثر حساسية وقابلية للتهديد من غيرهم وإن تعددت مصادر التقبل فموت أو مغادرة فرد مهم قد تستثير استجابات انفعالية قوية. وخبرة الفقدان بالنسبة إلى الأطفال تعدّ صدمة رئيسة أي حالة من الاضطراب العقلي والسلوكي ناتجة عن أزمة عاطفية، وقد يصبح الأطفال غير قادرين على مزاولة نشاطاتهم اليومية المعتادة ويصبحون اعتماديين، فاقدي الاهتمام متشائمين أو ذوي ميول انتحارية أو إلى أشكال من سلوك تدمير الذات. هكذا يمكن أن تؤدي أيّ صعوبات اجتماعية أو مادية مستمرة إلى نقص في اعتبار الذات وفي الثقة بالذات.

٥- **الحصول على الانتباه والحب والتعاطف أو الانتقام**: كثيراً ما يؤذي الأطفال أنفسهم أو يعبرون عن شعورهم بالحزن للحصول على محبة الآخرين وتعاطفهم ويكون هذا صحيحاً بشكل خاص عندما لا يمكن للطفل الحصول على الانتباه بطرائق أخرى، بل يصبح الحصول على الانتباه أمراً صعباً، لأن الطفل يمكن أن يسعى إلى الحب والانتقام في آن واحد، فالأطفال يصبحون شديدي الغضب لأنهم غير محبوبين وهم في الوقت نفسه يرغبون بشدة في أن

يكونــوا محبوبين وذوي أهمية بالنسبة إلى والديهم والآخرين. وهكذا فهم يعملون على تلقين مــن لا يحبهم درســاً، فالكبار سوف يشعــرون بالانزعاج عندما يرون الطفــل في مشكلة أو أن الأذى قــد ناله، والانتحــار سوف يجعل الآخرين يشعرون بالأســف على الطفل الضحية، وبذلــك يكون الطفل قد توصل إلى الانتقام بسبب مــا لحق به من ألم أو نبذ عن طريق هذا الفعــل القهري، كما يمكــن أن يعدّ الانتحار طريقة للتخلص من مواجهة هؤلاء الذين يسببون الألــم أو النبذ أو الخزي أو الإهانــة، كما يمكن التوصل إلى الانتقام عن طريق القيام بأفعال مدمــرة للذات كالانحراف أو تعاطي المخدرات أو الحصول على نتائج مدرسية متدنية، وقد يقــوم بعض الأطفال السلبييــن بقلع شعرهم أو رموشهم أو حواجبهم أو أظافرهم للتعبير عن غضبهــم من والديهم، ويكون ذلك فعالاً بشكل خاص عندمــا يشعر الآباء بالحرج من سلوك ابنهم المخزي.

٦- **الاستجابة إلى التوتر** (Reaclion to ten Sion): قــد يــرى التوتــر فــي التعارض أو العــدوان بين الأفراد وكذلك في الشعور الداخلي بالانزعــاج المصحوب غالباً بمؤشرات جسميــة للانفعال مثل: (التعرق، وزيادة النبض، وشــد العضلات)، وقد يقوم الأطفال الكبار بشد شعرهم أو بخدش أنفسهم عند شعورهم بالتوتر أو الإرهاق. وينتج الاكتئاب غالباً عندما لا يتمكــن الأطفال من السيطرة على التوتــر بطريقة مناسبة، أما الأفكار الانتحارية فتحدث نتيجة للبحث عن طريقة لإنهاء حالة التوتر المستمر الذي لا يمكن اجتنابه.

٧- **الوضع الأسري** (Family Context): قد تؤدي الصراعات الأسرية المتكررة أو الشديدة إلــى مشاعر اكتئاب لدى الأطفال ولاسيّما الأكثر حساسية منهم كما أن صغار الأطفال بشكل خاصــ أكثر تهدداً بالخلافات لأنهــم لا يدركون أن الكبار يحتاجون في كثير من الأحيان إلى تكــرار الحديث في المشكــلات، فقد يرون الوالدين مشتبكين في صراع مميت في حين هما فــي الواقع منهمكان في جدل عــادي نسبياً، والوالدان اللذان يشتبكــان فعلاً في صراعات زوجيــة جدية لا حــل لها من المحتمل جداً أن يكــون لديهما طفل مكتئــب أو أكثر. كما أن الصراعات المتكررة والشديدة بين الإخوة يمكن أن تؤدي أيضاً إلى كثير من الحزن لدى طفل معيــن، إذ قد يشعر هذا الطفل بأنه موضع للإزعــاج المستمر، وبأنه غير قادر على الابتعاد عــن إخوة وأخوات عدوانييــن، وبعض الآباء لا يتقبلون أي تعبير عــن الفشل أو الإحباط أو عدم السعادة من أطفالهم؛ هؤلاء الآباء لا يريدون سماع أي شيء عن المشكلات ولا ينصتون لأطفالهــم كما أنهم يتحدثون عن الأطفال أو يصــدرون إليهم التعليمات بدلاً من أن يتحدثوا

معهــم، وغالباً ما يتخلى الطفل عن محاولات الاتصــال مع هؤلاء الآباء، وبدلاً من أن يصغي ويتحــدث ويحل المشكلات يصبح اكتئابياً، واستمرار مثــل هذا النمط من السلوك قد يؤدي إلى أفكار أو أفعال انتحارية.

٨- **العوامــل الفيزيولوجيــة**: ينبغي أن تؤخذ الأسبــاب الجسمية المحتملة للاكتئاب في الحسبان، فعندما يكون الأطفال جيدي التكيف ثم تحدث لديهم استجابات اكتئابية «على نحو مفاجئ أو تدريجي» يجب تحري وجود أسباب طبيّة، ويكون هذا مهماً بشكل خاص في غياب أسبــاب الاكتئاب، فقد يكون هناك اختلاف في التــوازن الهرموني ولاسيّما لدى الفتيات في أثنــاء البلــوغ أو فقر دم ناتج عن نقص الحديد، أو اضطرابات في الغدة الدرقية أو حساسية للطعام أو اضطرابات في سكر الدم.

الوقــايــة مـن الاكتئاب

١- الاتصال المفتوح والتعبير عن الانفعالات:

يزيــد شعور الطفل بالــدفء والتقبل من خلال الاحترام والإصغــاء، إذ إن من الضروري أن يشعــر الأطفال بأن الكبار يهتمون بجدية، وأن من الممكن أن يلجؤوا إليهم للحصول على الدعم والتوجيه.

٢- ساعد الطفل حتى يشعر بالكفاءة والفاعلية:

لا بد من تنمية الشعور بالكفاءة والاستغلال، لأن حل المشكلات الفعَّال واكتساب الإحساس بالرضا عن الذات يساعد في الوقاية من الشعور بالعجز. إذ يجب أن يشعر الأطفال بأن لهم دوراً في التأثير فيما يحدث في البيت، ويجب علينا في الوقت نفسه أن نصغي إلى مقترحاتهم ونتّبعها إن أمكن، وأن نتجنب عدم الثبات أو المزاجية في أسلوبنا في تنشئة الأطفال.

٣- اعمل على تطوير مصادر متعددة لاعتبار الذات:

إن بعضــ الأطفال يتعلقون تعلقاً شديــداً بأحد الأبوين إلى الدرجة التي تصل غالباً لحد الإقصــاء العاطفي لأي شخص آخر، ولذلــك عليك أن تشجع أطفالك ليشعروا بأنهم قريبون من كبار آخرين ومن أقرانهم.

فقدان الاستحسان يصبح أقل تهديداً عندما تتوافر للفرد مصادر متعددة من الاستحسان والتقبــل. ومن الضروري تطوير مهارات وميول الطفل على نحو واسع، فمفهوم الذات الجيد

والقوي يُقَوَّى بالكفاءة في مجالات متعددة وليس بالتخصص في مجال واحد. كما يعطي ذلك الطفل أساساً جيداً ليقرر فيما بعد المهارة التي ينبغي أن يطورها بشكل أكمل، لذا يصبح الأطفال أقل هشاشة وأقل تهديداً، نتيجةً لفقدان مهارة واحدة أو شخص واحد.

٤- كن نموذجياً للتفاؤل والمرونة:

كثير من الناس يقدمون الحديث السلبي مجاناً، ويبخلون بالحديث عن المشاعر الطيبة، والأطفال يتأثرون على نحو مفيد بالاستماع إلى التعبيرات الإيجابية وبمشاهدة الأسلوب المرن والمتكيف في حل المشكلات، وفي مثل هذا الجو يصبح إيذاء الذات نفسياً أو جسمياً أمراً مستبعداً جداً.

٥- كن منتبهاً للإشارات التحذيرية:

كن واعياً لأيِّ إشارات تُظهر وجود مشاعر مستمرة من العجز والاكتئاب، وتَعامَل مع شكاوى الأطفال بجدية واحترام، وكن منتبهاً إلى تعليقاتهم وإلى سلوكهم غير اللفظي، لأن التقليل من أهمية شكاوى الأطفال قد يؤدي إلى الاكتئاب، أو إلى تصرفات إيذاء الذات بوصفها طريقةً للحصول على الانتباه أو الاحترام، ومن العلاقات التحذيرية التي تشير إلى وجود حاجة إلى تقويم ومعالجة متخصصين: اضطراب في النظام المعتاد للأكل والنوم أو الدراسة، وفقدان الوزن، والتهيجية والتعب، ووجود أدوات في غرفة الطفل يمكن أن تستخدم في إيذاء الذات مثل الحبال، أو الحبوب أو سكين، أو العزلة المفاجئة، أو توزيع ممتلكات الطفل التي يعدّها قيّمة جداً.

وأي حديث عن الانتحار أو إيذاء الذات مهما كان عرضياً، ينبغي أن يؤخذ بجدية، وفي حالة المراهقين فإن استعمال الكحول أو المخدرات قد يكون علامة مبكرة على الاكتئاب، إذ تظهر لديهم الحاجة إلى العقاقير للحصول على مشاعر جيدة ولاسيّما بهدف إقناع أنفسهم أو لمواجهة المواقف الاجتماعية.

العلاج من الاكتئاب

١- ناقش الحزن وإيذاء الذات بشكل منفتح:

يتجنب كثير من الكبار مواجهة الأطفال بالحقائق خوفاً من أن تشتد المشاعر السلبية لديهم أو أن يسلكوا أسلوب إيذاء الذات، وفي الواقع، فإن التعامل مع الأطفال بشكل جدي والإصغاء

لهـم بتعاطـف لهما تأثير مفيد، فإخبـار الأطفال بأن مشاعر الغضـب والاكتئاب هي مشاعر مؤقتـة، يؤدي في الغالب إلى طمأنتهم، فهم يشعرون بـأن الكبار يستطيعون مواجهة المشاعر القويـة، وأن الأمـور سوف تسير على ما يرام. والأطفال الذيـن يُظهرون حزناً شديداً يجب أن يُسألـوا بما يفكرون وما يزعجهم، غالباً ما يرتـاح الأفراد لأن هناك من يسأل عنهم، لأنهم قد يكونون مترددين في فتح الموضوع بأنفسهم، وبشكل عام إن جميع أشكال المشاعر يجب التعبير عنها ومناقشتها، فمشاعر الحزن ينبغي الإعلان عنها ومناقشتها بالتعاطف مهما كانت الأسباب المؤديـة له. ويجـب أن ننقل للطفل فكرة أننا جميعاً نعاني من شعور بالذنب نتيجة الفقدان أو الخسـارة، ومن الطبيعي أن نفكر بما كان يجب علينا أن نفعله وما كان يجب ألّا نفعله. لا تعمل على تأكيد ضرورة اختفاء الحزن أو عدم البكاء وإنما شجع التعبير عن جميع المشاعر.

٢- اضمن إدراك الطفل لتحقيق أهدافه:

يجب أن يتمكن الأطفال الاكتئابيون من الشعور بأنهم يستطيعون في الوقت الحاضر وضع أهداف وإنجازها، ويجب أن تقدم لهم المساعدة ليفكروا بما يرغبون في إنجازه بغض النظر عن مدى أهميته، فبعض الأطفال يرغبون في إنهاء مجموعة بدؤوا بجمعها، وبعضهم يرغبون فـي أن يشعروا بأنهم يستطيعون المساعدة عن طريق قيامهـم بعمل إضافي. والمهم هو أن تتأكـد من أنهم يدركون بأن سلوكهم هو ما يؤدي إلى المكافأة الداخلية أو الخارجية لأن هذا الإدراك يعمـل بشكل مباشر كمضاد للشعور اليائس بـأنَّ ما يفعلونه لا أهمية له، ويؤدي إلى شعور إيجابي بالإنجاز، ويشكل محوراً للاهتمام ومنفساً للطاقة.

٣- قم بتخطيط نشاطات ممتعة وتنفيذها:

من الضروري تجنب انعزال الطفل، ومن الضروري إبلاغ الأطفال الآخرين والكبار أن بعض الأطفـال قد لا يرغبون في المشاركة إلّا أنه يجب التعامل معهم بشكل طبيعي، إذ إنهم سوف يشاركون تلقائياً فيما بعد.

والاتجاه التفاؤلـي بأن الأطفال سوف يخرجون من حالة الحزن يجب أن يُعَبَّر عنه بشكل مباشـر، ومـن الأمور المفيـدة التخطيط لنشاطـات المستقبل مع أخذ ميـول الأطفال في الحسبان. ومن الأنشطة المقترحة: (التنزه، وركوب الدراجات، ومشاهدة المباريات الرياضية أو الاشتـراك بها، وزيـارة الأصدقاء والأقارب، وتنـاول الطعام خارج البيـت، وزيارة أماكن جديدة... إلخ).

٤- الحديث الإيجابي مع الذات (Positive Self- talk):

ينبغي القول للأطفال المكتئبين إنَّ مشاعرهم سوف تتحسن إذا تعلموا كيف يقولون لأنفسهم جملاً إيجابية. وإذا كنت حساساً لمشاعرهم فإن بوسعك أن تقترح التعبيرات الذاتية الأكثر مناسبة لهم ومن الأمثلة على هذه التعبيرات «أن الأمور سوف تتحسن» أو «قريباً سوف أشعر بالسعادة من جديد» أو «أن أصدقائي وأقاربي سوف يساعدونني لتتحسن مشاعري» أو «توقف عن رثاء نفسك وافعل شيئاً»... إن عليك أن تحلل الطريقة السلبية للطفل وأن تقترح تعبيرات ذاتية إيجابية لتعمل مضادّاً لمشاعر الذنب والتشاؤم، فالتفكير يؤدي إلى العمل بإيجابية.

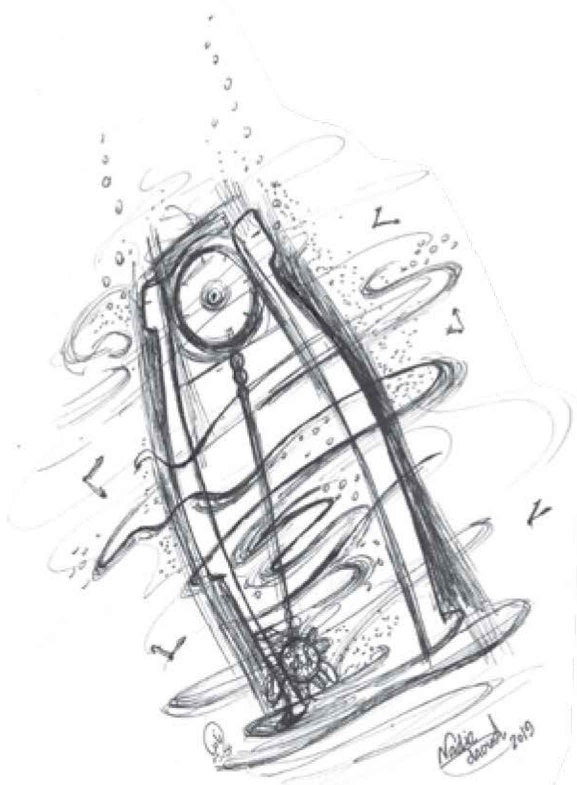
٥- اعمل على وقف سلوك إيذاء الذات:

إذا كان الفرد قد خرّب أو كسّر أشياء فإن مهمته هو إصلاحها، أو أن يقوم بأداء عمل معين ليدفع ثمنها. والفكرة الأساسية هي تصحيح الموقف والعمل على تحسينه ومن أمثلة ذلك معاقبة الطفل الذي يعض يده بأن يقوم بغسل فمه بمحلول مطهر، ويغسل أسنانه بفرشاة، ويمسح يده بدهون (Cream).

كما يمكن عزل الطفل بعد كل حالة من إيذاء الذات، ويمكن أن يكون العزل على شكل وضع الطفل في غرفة غير ممتعة مدة عشر دقائق، ولزيادة الفاعلية فإن عليك أن تقدم مكافأة إيجابية للسلوك المناسب في أوقات أخرى وإذا لم تُجدِ أمثال هذه الطرائق يمكن استخدام العقاقير المضادة للاكتئاب بنجاح من المختصين بالأطفال وأطباء الأطفال النفسيين، ويُفترض ألّا تكون المعالجة الدوائية إلّا بعد نفاذ كلِّ الطرائق السلوكية، وإذا استخدمت ينبغي أن تُستخدم في إطار العمل المحدد الهادف إلى تغيير الظروف التي أدت إلى الاستجابة الاكتئابية. وعندما يبدأ الأطفال بالمشاركة فيجب أن يُقَلَّل من الأدوية تدريجياً، وإنهاء استخدامها لأن الاستخدام طويل المدى لمضادات الاكتئاب لا يعدّ مناسباً.

ميقات الخائبين...

راتب سكر



-١-

هي ساعةٌ تأتي
محمّلةً على عرباتِها
غيباتِها
برقتْ
كظاهر وشمها بضميرها
عيني بكتْ
لفراقِها شرفاتِها
فَزَجَرْتُها
حتّى غُلِبْتُ بصمتِها
وتدافعِ الأمواجِ

- العمل الفني: الفنانة ناديا داود.

خلفَ زورقِها

وغيبتِها عنِ الميناء

بينَ صخورِها

وسطورِها

ودواتِها

فصرخْتُ:

«يا عينُ اسعفيني»!

أُسعفتْني...

غيرَ أنّ الليلَ

أُرخى في سدولِ ظلامهِ

خيباتِها!

-٢-

هي ساعةٌ

خيْباتُها

ملأتْ جرارَ البوح

خافيةً وظاهرةً

تواريني

كسطرٍ تائه المعنى

بلوْعتِها على تلّاتِها

من لي بمصباح

يوضّحني بأُوديتي

وقدْ أرْختْ ليالي غيبتي

ظلماتِها.

-٣-

خَفِيَتْ ملاعبُ روحنا

في جبّها

وغفتْ بلوْعة طينِها

تشكو ظلامتَها

لعلّ عدالةً بجرارِها

ترفو قميصَ غيابِها

وتفسّرُ الأشواقَ في أسرارِها

وتطيلُ شكواها

لعلّ سفينَةً سيّارةً

سمعتْ سطوعاً

في ضميرِ حنينِها

متراقصاً بسوارِها

فتدافعتْ تحنو على دنيا قستْ

لتعيدَ ضِحْكةَ صوْتِها الرنّان

في سهراتِها...

-٤-

لي صاحبٌ

دارى انكسار تلفّتي

بوفائه

لي صاحبٌ دارى

ولي وطنٌ

أُناجي ليلَه الفتّان

منتشياً بسحر صفائه

والروح تائقةٌ

إلى أعلى بحار نشيدها
سرحتْ إلى عليائه
همستْ تهجّي سحرَ ضحكتهِ
برقص نجومه
تحنو على أعمارنا
بحنان بهجتها
وصفو سمائه
كم لي منَ الآمال
لولا فسحة في دارها
دارتْ عليّ دوائرُ الأحزان
مالئةً كؤوسي لوعةً
وكاسرةً تجلّدَ أضلعي
بتدافع الأيام في ميقاتِها
حتى إذا طلعَ الصباحُ
صحا نشيدي
في أسى لوعاتِها!

❁ ❁ ❁

حدس لطين البحر

✽
أحمد حسن الزراعي

الصباح بيت الأمل ودنوّ اللوعات من أبوابها /لا يلتئم أقحوانه الشارد إلا ريثما تحدق الرائحة لزمان عطرها /ولا تميل الوردة قليلاً في خيال النسيم حتى تنسكب في شغف العين لا يلج العصفور باب عش حتى تهوي التماعاته ريشة ريشة /لتوغل في القصور القديمة للطير فلن ترجع من عشب ادّخرته ظنونك في البراري /لا منتهى للطلّ المتبقي في شغاف الوردة /ارتجاف الطين في خطواتك المعلقة في سديم النجمة حيث لا يدلّ التأوّه عليك /هم على حدّ الريبة في حزن الشجرة /أنت ربيت كأسك في الدوالي لتكون ولادة العنقود... اللهب الخفي في عيني أسد يتفرس وحيداً وقع خطوات بعيدة خارج الغابة.

✽ ✽ ✽

✽ شاعر يمني.

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حاول أن تدفن نظرتك،
بحجر أملس،
في أرض بعيدة،
حتى لايتذكرها ياقوت
إلّا بكى.

❁ ❁ ❁



تذهب الجثث إلى حميمية الأرض
بينما يعود البكاء إلى البيوت.

❁ ❁ ❁

وددت بطانية بسعة الأرض
لأغطي الأجساد المتعبة،
من صقيع العالم.

❁ ❁ ❁

جمعنا الوَشَل القديم
لتغسل الغيوم الخضراء الدم،
لمسنا حجر المطر المختلف،
الطين الغابر في أعماق البحر
حركة سنجاب يتألم في الغابة الأوروبية.
ثمة جسر في أعماق البحر
من ضباب قديم،
أسماك ملونة ببهجة المرجان،
موجة عالقة في مد البحر منذ القدم،
عقل يفكر تحت أنقاض أثينا القديمة،
لثمنا على عطش الماء العجيب

في قلب الصحراء،
ليس للماء غير ملك وحيد وقبلة لانهائية الثلج.
عظام الأساطير تشرق عشباً في الكتب.
ثمة ساهرون على أطراف غابة
محاطة بمخابئ النمور.
الزهو الذي لايطيقه عش النسر
في منقار الفرخ الوحيد المتبقي من ملك «سليمان».
أسمع شعاع نجمة يا إلهي!
أجنحة الملكوت تحف بالألف الهائي،
تتهيأ لتجلي «السلام المهيب» للسيطرة على هررة الحرب ونزوات الفتك!
تبجلت كل الرؤوس المقطوعة،
ثمة ما يتجلى
في شذرات الكتاب الحي.

❁ ❁ ❁

ذلك السيل من الإشعاعات

طالب عمران

كان متأكّـداً أنه يتعرّض وزملاؤه لتأثير الإشعاعات المنطلقة من المخبر النووي على الرغم من كل الاحتياطات التي قالوا إنهم يتخذونها.

أربعـة أعـوام مضت وهو يعمل في المخبر مع باحثين من الهنـد والبرازيل وروسيا دون أن يعمل معهم أحد من جنسيات أخرى. فقد كانت تلك الدول مستودعاً للكفاءات التي تصدّرها إلى الغرب، إضافـة إلى الأدمغة القادمة من البلاد العربية، كان المخبـر مخصّصاً لدراسة النظائر المشعّة، واستخدامها في المفاعلات النووية، وكان زيد يعلم أن البحوث التطبيقية التي يقوم بها مع زملائه، قد تستفيد منها القوات العسكرية في تطوير أسلحتها النووية.

يبدأ دوامه في المخبر منذ السابعة صباحاً حتى السابعة مساءً، مع أوقات قليلة للاستراحة. وكان يعود منهكاً، يتناول طعامه، ويضطجع قليلاً قبل أن يغطّ في النوم ليستيقظ على صوت المنبّه.

هاجـر من بلاده إلى هذه البـلاد بعدما تلقّى عرضاً من أكاديمية البحـوث في الأرض الجديدة للعمـل فيها براتب كبير. كان ذلك العرض مرافقاً لعرضٍ آخر من أوروبا- البلاد التي درس فيها وحصل على اختصاصه، ولكنه وجد عرض الأكاديمية أفضل له.

- العمل الفني: الفنان رامي الأشهب.

كانـت الأرض الجديـدة بالنسبة إليه حلماً، لدعايات كثيرة قال بها مَنْ يعملون هناك، فكل أنواع الرفاهيـة مؤمّنـة، والحصول على المال قـد لا يكون صعباً حتى عند من لا يملـك شهادات، ثم إنّ الجنسيّة تأتي بلا أيّ صعوبة.

المهـم أن يلتزم بالقوانين ويظلّ ملتصقاً بعمله وألا يقوم بأعمال تعدُّ شغباً، وهي أعمال محرّمة في أغلب حكومات العالم التي تدّعي الديمقراطية.

شَعـرَ فـي الأشهر الأخيرة بآلام في الصدر، وحين راجع المشفـى قيل له: لا يوجد سبب عضوي لهذه الآلام. وبرزت فجأة فكرة أنه يتألّم بسبب تعرّضه للإشعاع المتسرّب من أجهزة التجارب.

شعـر برعـب، لو صحَّ ذلك فهذا يعني أنه مقبل على حياة صعبـة، وقد لا تستمرّ طويلاً فالإشعاع لـه تأثيراته الخطيرة فـي أجهزة الجسم البشري، الجلد والصدر والدمـاغ وجهاز الهضم والكلية والكبد والقلب.

باح بهمومه لصديقه البرازيلي «رونالدو كالوفا».

- أعتقد أن أسباب هذه الآلام هو ما شرحته لك يا «رونالدو».

- هـذا استنتاج خطير يا زيد. ويجب أن نبحث فيه.



- نعـم. وأنا أحتاج إلـى معاونتك في ذلك.

- علـى الرغـم مـن كل ادعاءاتهم، فالتسرّب موجود. ولكنني لم أعتقد أنه مؤثّر إلى هذه الدرجة.

- يجب أن نبدأ عملنا بسريّة مطلقة، حتـى نتأكّد من ذلك. قبل أن ننتقل إلى المواجهة.

- أنـا أشعـر بحـزن شديـد عليك يا زيد. أنت ما زلت شابّاً في ربيع عمرك، ربمـا تؤثّر هذه الإصابات في مستقبلك في تكوين أسرة.

- ليس في تكوين أسرة فحسب، وإنما بقتلي ببطء.

- لا سمح الله، أرجو ألّا تصل الأمور إلى هذه الدرجة. إنه ليس قتلك فحسب وإنّما قتلنا جميعاً. هيا نعود إلى العمل ولنبدأ بإجراء اختبارات الإشعاع بعد نحو ساعة. لا تقم بأي عمل حتى آتي إليك.

- حسناً يا دكتور.

كان هنـاك بعض الموظفين من رجال الأمن والحراس والإداريين، يقومون بأعمالهم دون تدخّل بأعمال الأكاديميين. فهم هناك كما أكّد رئيسهم من أجل خدمة الأبحاث والعمل الأكاديمي.

بعـد نحو ساعة أتى «رونالدو» إلى الجناح الذي يقوم فيـه زيد بتجاربه، وتظاهرا بأنهما يقومان بتجارب خاصة، وقد أحضر «رونالدو» معه جهاز قياس نسبة الإشعاع، وهو جهاز صغير يمكن حمله بسهولـة. دارا معـاً في المختبـر وهما يتحادثان. والجهـاز تتذبذب مؤشراته علـى الأرقام العالية وسط دهشة الباحثين وذهولهما. وبعد أن انتهت جولتهما. عادا إلى جناح زيد.

- معقول؟ عشرة أضعاف النسبة المحتملة.

- وأعتقد أن اللباس لا يحمي كثيراً. إنه مصنوع وفق مواصفات لا تحمي من الإشعاع كثيراً.

- سأدخل الجهاز ضمن الملابس الواقية، لأرى نسبة الأشعة.

وحين أدخل الجهاز في اللباس صرخ مذهولاً:

- معقول يا دكتور «رونالدو»، النسبة هي خمسة أضعاف النسبة المحتملة، أي إنَّ اللباس لا يحمي كثيراً. كل ألبسة مَنْ في المختبر لا تحمي كثيراً. ماذا نفعل؟

- إنها كارثة. نحن لا نتلقّى الإشعاع فحسب، وإنما نحمله معنا، أصبحت أنا مصدراً لنقل الإشعاع إلى الناس في الخارج، إلى بيتي وأسرتي وأولادي.

- آلامك من هذه النسبة الزائدة بالتأكيد.

- وماذا نفعل؟

- يجب أن نخبر بقية الزملاء. ما رأيك لو تحدثنا مع الدكتور «راكيش» الهندي؟

- لا بأس. سأخابره بالهاتف.

ضغط على الأزرار لتنبعث النغمة المعهودة ثم يسمع صوت «راكيش»:

- آلو.

عرّفه بنفسه.

- دكتور زيد؟ أهلاً. خير؟

- (أرجو أن تحضر لعندي. إنه أمرٌ مهم).

- حسناً يا دكتور. دقائق وأكون في جناحك.

قال «رونالدو»:

- أرجو أن ننجح في إطّلاع الجميع على ما يحصل.

حضر «راكيش» بعد دقائق وحين شرح له زيد النتائج التي توصّل إليها مع «رونالدو» هزَّ رأسه:

- أنا أتوقع هذا.

- تتوقّعه؟ كيف؟

- من الراتب الكبير الذي يُصرف لنا كل شهر. بالتأكيد هناك أسباب لإعطاء هذه الرواتب العالية. لأننا نتعرّض لإشعاعات قد تقتلنا ببطء. قل يا زيد. هل أنت متزوج؟

قال «رونالدو»:

- ألا تعرف أنه غير متزوج، إنه في الثانية والثلاثين من عمره فحسب. كان يفكر بالذهاب إلى بلده وقضاء بعض الوقت في البحث عن زوجة. أو ربما اختصر المهمّة بأن يتزوَّج من فتاة يقدّمها له أهله.

همهم «راكيش»:

- أنا آسف. لم تعد الأسرة مطلباً لك.

- ماذا تقصد؟

- لديّ أربع بنات، وهو عندنا في الهند عدد كبير بين المثقفين يحتاج الأب لتزويجهن إلى مبالغ كبيرة، وهو ما تمكّنت تقريباً من تأمينه، أما في حالتك. فالوضع يختلف. الإشعاع يؤثر في الرجولة. إنه يسبّب العقم.

- يا إلهي ماذا تقول؟

- هذا أبسط مرض يصاب به من يتعاطى العمل بالأجهزة الشعاعيّة.

همس «رونالدو»:

- لا تزد من همومه يا «راكيش». يكفي. ماذا سنفعل الآن؟ يجب أن نقوم بحركة مضادة لإفهام المسؤولين عمّا يحدث لنا وأننا اكتشفنا الحقيقة.

- قل لي يا «رونالدو»، هل زوجت أولادك؟

- ما زال بعضهم في الجامعة، زوجت كبرى بناتي فحسب.

- أحوال الجميع هنا ليست على ما يرام، الكل مهدّد بخطر جسيم، سيعكس على أسرته. أنا غير موافق على القيام بحركة مضادة، ألم تقرأ شروط العقد.

- نعم قرأته جيداً.

- إنه يحمّل من يفسخ العقد تعويضات كبيرة.

- أنا لا أريد أن أفسخ العقد، أريد أن أعلن مدى استهتار إدارة الأكاديميّة بأرواح من يعملون فيها.

- وستصبح قضيّة خطيرة، ربما تتدخل بها الحكومة لمصلحة الأكاديمية ونخسر كل شيء.

- إذن نستسلم؟

- أنا لم أقل ذلك. ولكن يجب أن نفكّر بشيء آخر.

- هـه يجب أن أعود إلى عملي، أعتقدُ أن كاميرات المراقبة مسلّطة علينا الآن. إننا في شبه اجتماع.

- لا يهم، نحن لم نقم بعمل يستأهل المراقبة. أنت تبالغ في تصوّراتك.

- ربما. على كل حال سنبقى على اتصال ببعض قبل أن نقرّر نوع الإجراء الذي سنتّخذه.

- إذن أنت معنا؟

- بالتأكيد. ولكنني أعرف القوانين هنا، وما تتصرّف به السلطة أكثر منك. لذلك يجب أن نفكّر بشيء فعّال ودقيق يعيد إلينا حقوقنا ونحن نتعرّض لإشعاعات قاتلة. أنا ذاهب الآن سأتصل بكما فيما بعد.

- بأسرع وقت يا دكتور.

- بأسرع وقت.

قال «رونالدو» وهو يتنهّد:

- أعتقد أنه يفهم الوضع جيداً الآن، سنرى ما يمكن أن يقترحه علينا.

أخذ يتألّم:

- بدأ الألم من جديد.

- يجب أن تراجع المشفى. قدّم إلى الإدارة طلباً بسرعة. هل تريد أن أرافقك؟

- لا داعي. شكراً. سأظل على اتصال بك.

اتجه زيد إلى الإدارة وهو يكابر على نفسه ويشعر بآلام في صدره لا تُطاق. فقابل بعضاً من زملائه في الطريق إلى الإدارة ولدهشته رأى الدكتورة جمانة زميلته العربية.

كانت في الإدارة للسبب نفسه.

- تريدين الذهاب إلى المشفى؟

- نعـم. أحيانـاً أشعر باختناق ولا أستطيع أن أتنفّس جيداً، قيـل لي إنّها نوبات ربو. ويعالجونني على هذا الأساس.

- لا أعتقد أنك مصابة بالربو. على كل حال سنذهب معاً إلى المشفى.

- أنت أيضاً تعاني من المرض؟

- نعم. آلام في الصدر، وآلام في البطن أحياناً.

- هيا لننهِ الإجراءات الإدارية. سنتحدث في الطريق.

- حسناً.

لـم تكن المشفـى بعيدة، لذلك لم يستخـدم زيد أو جمانـة سيارتيهما. واتجهـا يتمشيان وهما يتحدّثان عن الأسباب المحتملة للأمراض المنتشرة في المخبر.

شعر زيد بالشفقة على نفسه وعليها. وهي تحكي له ظروفها الصعبة.

- آه يا زيد. اضطرتني ظروفي الصعبة للهجرة إلى هنا. لم أكن في وضع أُحسد عليه.

- أإلى هذا الحد؟ وتأتين صبية وحيدة للعمل في الأرض الجديدة.

- أوقعتني التجربة في زواج غريب.

- كيف؟ لم أفهم. اعذريني نحن نتحادث لا أريد أن أدخل بخصوصيات قد لا ترغبين في فتحها.

- لا. بالعكس. أنت صديق يا زيد. وأنا بحاجة إلى صديق في زمن عزّ فيه الأصدقاء.

- سأكون إن شاء الله نعم الصديق.

- تزوجت من مهندس يكبرني بخمس سنوات نتيجة إلحاح أهلي. وعلى الرغم من اختصاصي العالي في الفيزياء، فلم أكن معقّدة من أن مستواي العلمي أعلى من مستواه. ولكنه فهم أن صمتي وبساطتي، والتفانـي في خدمته كأيّ امـرأة شرقية هو ضعف، فبدأ يذلّني بطريقـة غريبة. بل اعتاد على ضربي. ولـم أعرف كيف أحل المشكلـة. ووحشيته تزداد. وكلما كنت ألجأ إلى أهلـي كانوا يسخرون مني، كان يريهم وجهه اللطيف المحب، ويبالغ في العناية بوالدي ووالدتي ويحضر لهما الهدايا. لذلك كلما كنت أشكـو لهمـا من سوء معاملته، كانا يقرّعاني. ويعنفاني. وفي أحد الأيام رنّ جرس الباب، كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، مَنْ الذي يأتي إلينا في هذه الساعة؟ أنا وحدي وهو يسهر في الخارج كالعادة.

- سمعت صوتاً أليفاً:

- أنا يا جمانة. افتحي.

- حيان. أخي. جئت أخيراً.

فتحت الباب واندفعت إلى حضنه وأنا أبكي:

- الحمد لله على سلامتك.

- أنا آسف جئت متأخّراً، ولكن كان يجب أن أراك. أين زوجك؟

- إنه يسهر مع رفاقه.

- وأنت وحيدة؟ اسمعي يا أختاه. منذ عامين وأنتما متزوّجان، لماذا لم تحملي؟

- في بداية حياتي، لم أكن أرى مانعاً من ذلك. وفيما بعد حمدت الله أن ذلك الحمل لم يتم.

- ما بك يا جمانة؟ لماذا تبكين؟

قلت له:

- لا أريد أن أتعبك بما يجري لي. أنت في إجازة، جئت لترتاح.

- ماذا يحدث؟ قولي لي، ماذا يفعل بك عامر؟

- أكاد أجن. لا أجد أحداً أشتكى له، هو في عرف الجميع ملاك طاهر وزوج مثالي. وهنا في البيت لا أرى سوى الجحيم. أرى فيه شيطاناً مريداً يُذِيْقُني كلّ صنوف العذاب.

- وأبي وأمي، ألا يعرفان بذلك؟

إنهما لا يصدقان شيئاً مما أحكيه عنه. انظر إلى آثار الضرب، إنه يجلدني بالسياط أحياناً.

- إلى هذه الدرجة، مسكينة يا أختي! أنت تعانين كثيراً. هل يتأخر كثيراً في السهر؟

- حتى الصباح أحياناً، ولاسيّما أن غداً يوم عطلة.

- لا بأس سنتحادث قليلاً ثم أذهب، وفي الغد سيكون لي تصرّف آخر معه.

- أرجوك يا أخي، قد ينزعج والدي أو والدتي.

- سأرتب الأمر لا تقلقي.

- وهكذا عمل أخي ما لم أستطع عمله. فقد جابه عامر بما يجري وحكى لوالدي ووالدتي، وعرف أن عامراً كان يعاني من شعور بالدونية، بعد أن اكتشف أنه لا ينجب أولاداً. فبدأ يذيقني صنوف العذاب، وهكذا نجح حيّان في تطليقي منه. وعشت حرّة أوّل مرة بعد معاناتي. ولكن القدر فاجأنا بموت أخي حيّان في حادث سيارة. ولم أجد بدّاً من الهرب إلى هذه البلاد أحمل معاناتي وحزني، وقد أجبرت والدي ووالدتي بعد ذلك على المجيء إلى هنا والعيش معي. والحمد لله أنني أرسلتهما للوطن قبل أن تستفحل حالتي.

- حكايتك مؤثرة يا جمانة.

تنهّدت:

- يبدو أنني أنحدر في مرضي أيضاً.

- إن شاء الله الأمور تكون أحسن مما نتوقّع.

- وممَّ تشتكي؟

- آلام في الصدر وأحياناً في البطن والرأس. إنها نسبة الإشعاعات التي نتعامل معها. هي أعلى من النسبة المحتملة بخمس مرات.

- ماذا تقول؟

- نعم. السبب هو ارتفاع نسبة الإشعاعات.

سمعت ذلك من قبل، ولكن المسؤولين أكّدوا لي أنها لن تصل أبداً إلى حدّ الخطر.

فكّر حزيناً:

(مسكينة جمانة أتت إلى هنا تبحث عن الأمان، فلم تجد سوى الخديعة والمرض البطيء القاتل).

- أراك شارداً؟

- آه. آسف. هه وصلنا المشفى. ابقي معي يا جمانة، أشعر أنني بحاجة إليك.

- خائف؟

- نعم. خائف على نفسي وخائف عليك. لست أدري ما يخبئه لنا القدر.

- ثق بالله يا عزيزي. أشعر بأنه يساعدنا دائماً.

- معك حق.

وصل زيد وجمانة إلى المشفى ودخلا قسم الأمراض الصدرية. راقب زيد جمانة وهي تدخل جهاز التصوير بالمرنان. وشعر بأنّ الفنيين يتهامسون حول حالتها.

عرف أن شيئاً غير عادي يحدث في صدرها. وحين خرجت تحدّث إليها الفنيون مطمئنين أن الوضع على ما يرام. ولم يكن زيد مقتنعاً بما يقولونه.

وكذلك الحال حين دخل غرفة التصوير، وحالما خرج هرعت إليه هامسة.

- لست مطمئنة يا زيد. كانوا يتهامسون حول النتيجة.

- أعرف ذلك يا عزيزتي.

- هل يقول لها إنهم كانوا يتهامسون أيضاً حول حالتها أيضاً.

- وماذا سنفعل الآن؟

- سننتظر ما يقرّره المختصّ.

اقترب زيد من العاملين في غرفة المرنان، وبقيت جمانة جالسة في انتظار عودته، سأل بلهفة:

- ماذا حدث لصورها؟

قدّمت الممرّضة الصور الطبية:

- انظري يا دكتورة. هذا ما أعطاه لنا الحاسوب من صور.

- يا إلهي حالتها خطيرة!

همس:

- مع الأسف هذا ما أكّده الأطبّاء في قسم التصوير.

قالت الطبيبة:

- استدعها لي من فضلك.

- حسناً يا دكتورة.

وجاءت الدكتورة جمانة تستند إلى ذراع زيد وهي تسعل:

- خير يا دكتورة؟ حالتي لا تسرّ.

- إن شاء الله سنحاصر الحالة. لا تقلقي. ولكن قولي لي منذ متى بدأت تشكين من صدرك؟

- منذ نحو العامين. وفي الأشهر الأخيرة ازدادت الآلام وانتشرت في البطن وأماكن أخرى.

- على كل حال لا أخفيك قلقي على حالتك. يبدو أنك لا تنتبهين إلى نفسك في المركز، ومهملة قليلاً في ملابسك الخاصة المضادة للإشعاعات.

قلت: بالعكس نحن حريصون عليها كثيراً. ولكن يبدو أن التسرّب أكبر ممّا يجب.

طبطبت على يدها:

- لا تصرّحي بذلك، لن يرضى المسؤولون عن المركز مثل هذا الكلام.

- حسناً ماذا أفعل الآن؟

- يبدو أنني سأدخلك المستشفى حالاً.

قالت: أرجوك أجليها قليلاً، لست مستعدّة لدخول المستشفى.

- ولكن حالتك تستدعي الدخول إلى المستشفى.

- لدي بعض الأعمال يجب أن أنجزها قبل دخولي.

فكّرت قلقة: (قد لا أخرج من هذه المستشفى أبداً إلا إلى القبر).

سأفكّر بالأمر. هيئي نفسك سريعاً.

- لا. أرجوك. أحتاج إلى يومين على الأقل.

- قد تتطوّر حالتك سريعاً؟

- لا تقلقي، سأكون أفضل حالاً خارج المستشفى الآن.

- خـذي هذه الوصفـة، واجلبي الأدوية التي فيهـا من الصيدلية المجـاورة وأرجوك أن تتقيّدي بالتعليمات يا دكتورة جمانة.

- شكراً لك يا دكتورة «مرسيل».

قالت «مرسيل» بقلق: (يا إلهي لم أتصوّر أن حالتها على هذه الدرجة من الخطورة. هذا يعني أن الإشعاعات تتسرّب بشكل غير معقول يجب أن أرفع تقريري للمدير المسؤول في المستشفى).

كان زيد يخضع لفحوص في مكان آخر. وقد أخذوا (خزعة) من الرئة لتحليلها سريعاً وقد آلمه ذلك. كان الأطباء من حوله ينظرون إليه مشفقين وقد شعروا بأنَّ حالته متدهورة كثيراً.

وحين انتهى من الفحوص جلس ينتظر النتيجة حين أقبلت إليه جمانة.

- هل انتهيت يا دكتور؟

- أنتظر النتيجة وأنت؟

- أصـرّوا علـى إدخالي إلى المستشفى اليـوم، ولكنـي بصعوبة أجّلت ذلـك ليومين آخرين. قد أدخل المستشفى ولا أخرج منها.

- جمانة. أرجوك.

أجهشت:

- كتب علينا أن نأتي إلى هنا ونموت منسيين. إنها ميتة قاسية.

- يا عزيزتي، حالتي مثل حالتك، أنا أذوي أيضاً. وأعلم أنني سأموت ربما قبلك، لا تحزني إنه قدرنا.

- سآخذ هذه الأدوية من الصيدلية وأعود إليك.

- حسناً يا عزيزتي.

تابعها (يا إلهي كم أشفق عليها، تبدو منهارة تماماً).

ثم نهض ليعرف ما نتيجة الخزعة؟

كما توقّع زيد، لم تكن النتيجة مرضية، فالمرض أكل قسماً كبيراً من رئتيه وانتشر في أجزاء أخرى.

أُعطي بعض الأدوية، ونُصح من الاختصاصيين بضرورة دخول المستشفى. وحين عاد يبحث عن جمانة لم يجدها.

سأل عنها الناس هناك، قيل له إنّها أخذت الأدوية وجلست قليلاً ثم ذهبت. شعر بالمرارة، يجب أن يلحق بها ويعثر عليها، ويخفّف من حزنها الشديد.

وحين خرج من المستشفى يتمشّى في اتجاه المختبر المركزي. رأى تجمّعاً للناس، كانت هناك فتاة ممدّدة على الأرض. وانخلع قلبه وهو يجد جمانة فاقدة الوعي. أبعد الناس عنها، وحملها حزيناً، وهو يحاول الوصول إلى سيارة أجرة.

سمع زمّوراً طويلاً وتوقفت سيارة ضخمة إلى جانبه.

- زيد، ما بها جمانة؟ ضعها في المقعد الخلفي.

- مسكينة المرض تقدّم كثيراً.

- يا إلهي. هيا نأخذها إلى المستشفى القريب.

- بل سنأخذها إلى بيتها، سآخذ العنوان من حقيبتها. رفضت دخول المستشفى قبل قليل. وأصرّت على الذهاب إلى البيت.

- وماذا عن حالتك؟

- ليست مرضية يا «رونالدو». أنا أموت ببطء أيضاً.

- أعاننا الله يا زيد. كلنا سائرون إلى الموت كما يبدو، ربما بسرعة أكثر مما نتوقع.

أخرج مفكرتها اليومية كان العنوان مكتوباً على الغلاف. أملاه لـ «رونالدو».

كم شعر زيد بالألم يعتصره وهو يراقب وجهها الذابل، وقد مدّدها على الفراش وهي ما تزال غائبة عن الوعي. كان «رونالدو» قد ذهب لإحضار طبيب من أصدقائهم ووجد زيد نفسه وحيداً مع جمانة، فبدأ يبكي على المقعد قرب سريرها.

أطلق العنان لدموعه وقد انتابته موجات من الانفعالات تركها تخرج متحرّرة من عقالها دون ضابط. وفجأة شعر بيد تمسح دموعه.

كانت جمانة قد استيقظت، وسمعت بكاءه ونحيبه المنطلق على سجيّته، فمدّت يدها إليه لتلامس وجهه وتمسح دموعه.

- يا إلهي لِمَ كل هذا العذاب يا زيد؟

- جمانة! استيقظت أخيراً، الحمد لله. شعرت بقلبي ينسحق عليك، وقد شعرت بأنكِ تقتربين من الموت سريعاً، كما أنا... كما أنا يا جمانة.

- أخذت الأدوية من الصيدلية ولم أرك حولي انتظرت قليلاً، والآلام تزداد في صدري، خرجت وأنـا أشعر بحاجة كبيرة إلى مَـنْ يسندني، وأضع رأسي على صدره وأمـوت، وكنت أنت من أبحث عنه، من أشعر بالأمان بالموت على صدره.

- أمعقول يا جمانة، أن تنفجر أحاسيسنا قبل وقت قصير من انحدارنا نحو الموت؟ أنا أعرفك منـذ زمـن وكنت معجباً بصمتك وأخلاقك، ولم أكن أجرؤ على أن أزيد معرفتي بك، لأنني لم أكن مستقراً في داخلي.

- الحياة في هذه البلاد لا تعطي الاستقرار والأمن كما كنا نعتقد.

- اجلس إلى جانبي هنا يا زيد. أشعر بالحاجة إلى أنْ أتلمّس حنانك. آه يا إلهي، بدأ الألم من جديد.

- سأفتح علب الأدوية، يجب أن تلتزمي بتعليمات الطبيبة.

- لم يعد ينفعني شيء يا زيد. أنا أموت.

- لا يا حبيبتي. ستعيشين، يجب أن تقاومي المرض.

- ماذا قلت؟ حبيبتي! يا إلهي كم أفتقد هذه الكلمة.

سمعا صوت جرس الباب الخارجي، فنهض، كان «رونالدو» قد عاد ومعه الطبيب.

فوجئ الطبيب فشهق حزيناً:

- دكتورة جمانة. معقول؟

- دكتور «تونغ» أنا أموت يا دكتور.

- حالتك سيئة جداً.

- والسبب الأشعة يا دكتور! نحن نموت ببطء جميعنا.

قال غاضباً:

- يجب أن تثار هذه القضية بسرعة.

- من الصعب أن نفعل شيئاً يا دكتور «تونغ».

- مدّي ذراعك يا دكتورة جمانة. ساعدها يا دكتور زيد.

- تبدو الحقنة كبيرة.

- إنها خليط من الأدوية سريعة المفعول والمسكّنات.

- دعني أضع رأسي على صدرك يا زيد.

- حسناً يا حبيبتي! تشجّعي أرجوك، كل شيء سيكون على ما يرام.

أحدث مرض جمانة وزيد، الذي ظهر سريعاً وبدا أنه يقتلهما بلا هوادة، ذعراً بين العاملين في المخبـر النووي. بعد أن ظهـر على أحد الإداريين الإعياء الشديـد، واكتشف أنه مصاب بسرطان متقـدّم. حـاول المشرفـون على المركـز تلافي الأمـر وعلاجه بشكل سـرّي حتى لا يتسـرّب إلى الصحافة والإعلام المرئي والمسموع. واستدعى المشرف على المركز «رونالدو» و«راكيش» إليه.

- عليكما بمقابلة الاختصاصيّة (هيلاري) قبل مثولكما أمام سيدي.
- «هيلاري جونسون»؟
- نعم. إنها تنتظركما الآن في مكتبها.

علق «رونالدو»:

- إنها مفروزة من وكالة الاستخبارات إلى هنا.
- وما الذي تريده منا؟
- سنعرف ذلك حين نلقاها.

اجتـاز بهما الحارس الممرّات وصعد في المصعد إلى طابق من الطوابق العالية البالغة (١٢٠) طابقـاً، ثم توقف أمـام باب مغلق، أخـرج بطاقته الإلكترونيـة ومرّرها أمام جهـاز صغير فانفتح البـاب. كان باباً لقسم كبير انتشرت فيـه الغرف والحرّاس، وسمعت أصوات الأجهزة الإلكترونية، ثم توقف الكهل أمام مجموعة من الحرّاس.

- أخضعهما للتفتيش يا «راؤول».

احتجّ «رونالدو»:

- تفتيش لماذا؟ نحن باحثان لا نعرف شيئاً عن الأسلحة.
- إنه إجراء إلزامي يا دكتور.
- من فضلك قف أمام هذا الجهاز.
- حسناً.

كما خاطب الحارس «راكيش»:

- وأنت ضع المصنّف الذي تحمله هنا.
- أحتاج إليه في حواري مع السيدة (هيلاري).
- حسناً سيخضع للتفتيش أيضاً.
- إنها مجموعة أوراق و(ديسكات) خاصة بالحاسوب. هه. تفضّل.

يبدو أنهما دخلا في نفق لعين.

وبعـد هذه الإجراءات فُتِحَ الباب أتوماتيكياً، وقادهمـا رجل آخر إلى مكتب السيدة. كانت امرأة فـي نحـو الخمسين من عمرها استقبلتهمـا بترفّع، كأن لديها مهمّة يجـب أن تؤدّيها مع شخصين ليست لهما أيّ أهمية.

– حسناً أيها السيدان، ماذا تريدان من وراء هذه الضجة التي تثيرانها؟

– لسنـا وحدنـا مـن يتكلّـم، الوضع يستدعـي تدخّلاً مباشـراً، المئـات من الباحثيـن والعمال والإداريين معرّضون للموت.

– ومن أوحى لك بهذه الفكرة، فكرة تعرّض الجميع في المخبر النووي للموت؟

– لم يوح لنا بها أحد. إنها حقيقة! عاينّا أنفسنا، الأشعة مخزونة داخل خلايانا. وآثارها ستظهر سريعاً كما ظهرت على بعض زملائنا.

– وماذا تريدون منّا؟

– وضـع أجهزة تمتص الأشعة من الجـو، والتحقّق من وجود تسرّب داخل المختبر، ثم الاهتمام بزملائنا المصابين.

– تضعون شروطاً إذن لسكوتكما؟

– ليسـت شروطاً يا سيدتي، إنها أبسط المطالب لحفـظ حياة من يقدّمون لكم نتائج باهرة في تطوير استخدام الطاقة النووية، وأنتم تقتلونهم بصمت.

– اسمع يا دكتور «رونالدو».

– ماذا تريدين؟

– استقبلناكـم في هذه البلاد وقدّمنا لكم العمل والمكافـآت السخية والرواتب التي لا يحلم بها أحد منكم في أي بلد آخر في العالم، ومع ذلك تبصقون على اليد السمحة التي مددناها لكم.

– ونحـن قدّمنـا لكم إبـداع عقولنا، ولم نلتفت إلـى أي شيء آخر، خدمناكـم بإخلاص دون أن ندري أننا لسنا سوى أرقام تافهة في سجلاتكم، تتعاملون معنا بوصفنا عيّنات اختبار، دون إحساس بإنسانيتنا.

– ومن قال لك إننا نستخدمكم عينات تجارب؟ من سرّب إليكم هذه المعلومة؟

– لم يسرّبها أحد أنا أفترضها. أفترض وجودها.

- حسنــاً. أنــا آسفة يبدو أني انفعلت أكثر من اللازم. ســوف أنفّذ كل ما قلته يا دكتور «رونالدو» وخلال مدّة قصيرة بشرط أن تلزم الصمت أنت ورفاقك الآخرين ولا تعاد تلك المبالغات والقصص التي تتناقلونها.

قال «راكيش»: نحن نوافق على ذلك يا سيدة هيلاري.

- توافقني على ذلك؟ أنت و«رونالدو»؟

أصر «راكيش»: نحن نوافق على ذلك. نعم، أنا و«رونالدو».

- قولا ذلك للمشرف على المخابر حين تقابلانه.

- نعدك بذلك.

أخرجت مغلّفان سميكان:

- تفضــلا، إنهمــا مغلفــان يحويان مبالــغ خاصة لكما، وسأعمــل على إيصال مثل هــذه المبالغ للآخرين. خذاها، لا تتردّدا.

- حسناً.

- أتمنّى ألّا أسمع بعد ذلك أي شيء من المخبر النووي.

- ونحن نتمنّى أن تنصب أجهزة امتصاص الأشعة سريعاً، وأن تعملوا على الاهتمام بزملائنا.

- كل شيء سيتم على أكمل وجه، مع السلامة.

خرج «رونالدو» و«راكيش» وهما مثقلان بالهجوم واتجها صوب المشرف على المخابر. وأبلغاه أن كل شيء على ما يرام ما دامت الأجهزة الأمنية قد تعهّدت بتسوية الموضوع.

لم يكن المشرف رجلاً سهلاً وقد استنطقهما حول ما دار في لقائهما مع هيلاري. وحاولا اختصار كل مــا تم بكلمــات سريعة. وبعد صمــت أعاد لهما الشــروط التي قالتها «هيــلاري» بحذافيرها وأن عليهمــا التــزام الصمت ووقف القصصــ التي تثار في المخبــر وحوله لمنــع أيّ تسرّبات للصحافة والإعــلام، فالمخبــر يعمل بشكل سرّي وهو تابع لجهات أمنية شديــدة الأهمية. خرجا ومعهما مبالغ جديــدة أضافها المشــرف إلى المخبر. وقد لحظ «راكيش» أن «رونالــدو» يكاد ينفجر من القهر. لم يتكلّم إليه طوال مدّة الدوام في المخبر وقد أبلغ الجميع بالتزام الصمت وأن كل المطالب ستنفذ.

كان زيد وجمانة يعيشان ساعات غريبة من العاطفة المتّقدة. وكأنما اكتشفا الحب الذي سينتهي بالموت، وشعرا بأنّه حب يفوق الوصف.

- زيد يا حبيبي تبدو متعباً.

- جمعتنا الغربة يا جمانة، وسيجمعنا الموت.

- أرجوك لا تتلفّظ بهذه الكلمات بعد الآن، نحن نعيش لحظاتنا الأخيرة بسعادة بالغة. الموت لا يهمّنا، ولن يلفظه أحد منّا بعد الآن.

- آه يا حبيبتي، كيف اكتشفت أنني أحبك هذا الحب؟ ألست متألمة؟

- هل تصدّق؟ لا أشعر بأي ألم الآن ما دمت بين ذراعيك. أشعر بحنانك وأخاف أن أفقده.

- سنظل معاً لن نفترق بعد الآن. حتى التعب والألم بدأ يتضاءل عندي وأنا أراها معي، أشعر بأنفاسها ونبض قلبها. (بصوت عال) ما بك يا جمانة؟

- أريد أن أنام في حضنك. أشعر بالرغبة في النوم، ولكن أتنفّذ لي رغبة أخرى؟

- ما هي يا حبيبتي؟

- أن تقبل الزواج بي؟

- إنه شعوري نفسه. سنعلن زواجنا اليوم ولن يفرّقنا أحد. إنها رغبتي نفسها يا جمانة وكنت سأقولها لك.

- لا بأس يا حبيبي. سأقاوم الخدر الآن، في انتظار أن نتزوّج. أن تعلن للجميع أن هذين العاشقين وجدا نفسيهما أخيراً.

- يا حبيبتي.

ورنّ جرس الباب فقبّلها وابتعد:

- سأفتح الباب عن إذنك.

كان «رونالدو» بالباب وخلفه «راكيش»:

- ما الذي جرى يا «رونالدو»؟

- لا تقلق كل شيء على ما يرام. كيف حال جمانة؟

- هل تصدّق أنها بخير، وهل تصدّق أننا سنتزوج اليوم، وأرجو أن تحقّق لنا هذه الرغبة يا صديقي العزيز، أريد أن نقيم حفلة زواج صغيرة هنا، بأسرع وقت.

- سنساعدكما في ذلك. مبارك يا زيد، هيا يا «راكيش» لنذهب ونجهّز للحفلة الصغيرة، ونحضر زملاءنا.

- أتحتاجان إلى شيء قبل ذهابنا؟

قل للدكتور حسن أن يحضر أيضاً، هو الذي سيجعل الزواج شرعياً بصفته مختصاً بالشريعة.

- حسناً، سيكون معنا بالطبع.

أغلق الباب خلفهما، رأى جمانة واقفة، سارت نحوه:

- جمانة. أنت تسيرين على قدميك. يا إلهي معقول؟

- أكسبني حبّك قوة جديدة يا زيد.

فكر بحزن:

- (يا إلهي، كم كانت مظلومة مقهورة! كيف لم أنتبه إلى ذلك كل هذا الوقت؟).

همس لها:

- تعالي يا حبيبتي. سنتناول بعض الطعام الآن. قبل أن يبدأ الجميع بالتوافد إلينا.

كان «راكيش» و«رونالدو» يتحدّثان عن الأعداد الكبيرة من القادمين من بلدان مختلفة، والذين انضموا هذا اليوم فجأة إلى العاملين في المخبر النووي.

كانوا شباناً وشابات متحمّسين أغراهم الراتب الضخم للقدوم إلى هذه البلاد. لم يختلطوا مع «رونالدو» و«راكيش» وبقية العاملين، وإنما بدؤوا بالعمل مباشرة تحت قيادة باحث كبير السن حضر معهم.

وشعر الجميع بأنَّ هؤلاء سيحلّون محلّهم بالتدريج، ولم يرضَ أيّ منهم تبادل الحديث مع العاملين القدامى على الرغم من كل المحاولات. بدا وكأن كل شيء مرتّب بطريقة دقيقة.

عرف «رونالدو» و«راكيش» أنهما قد ينقلان وبقية الزملاء القدامى إلى مكان آخر لا يعرف عنه شيئاً، وكثر وجود الأجهزة في المخبر، وكثرت عمليات استدعاء العاملين القدامى إلى المشافي.

أما جمانة وزيد فقد أقيم حفل زواجهما وكان حفلاً على الرغم من بساطته رائعاً، وحين تركهما زملاؤهما عاشا ليلة -رغم المرض والألم- من أجمل ليالي عمرهما.

وعلى الرغم من أن التحاليل والصور تؤكد انتشار المرض في جسم كل منهما، كانا يعيشان أيامهما السعيدة وقد أخذا إجازة طويلة من العمل، إجازة في عمقها بسبب المرض، وفي ظاهرها بسبب الزواج.

وكما حلمت جمانة، فقد ماتت بعد نحو خمسة أشهر بين ذراعي زيد، الذي شعر بحزن كبير لفقدانها.

أما ما حصل في المخبر النووي، فقد صدقت توقّعات «رونالدو» و«راكيش»، فقد نُقِلَ العاملون القدامى فيه إلى مركز صحراوي بعيد بدؤوا فيه يتهاوون واحداً بعد الآخر من المرض والقهر، في دولة تعدّ الإنسان رقماً في حسابها الشخصي، وتتعامل معه على هذا الأساس دون أيّ نزعة إنسانية.

❁ ❁ ❁

السـرد...

الدكتور منذر

غسان حورانية

بدا الوجوم واضحاً على ملامح أم فارس وهي تنصت إلى الحديث المتبادل بين زوجها وصديقه الدكتور منذر على الهاتف الخلوي... فقد فهمت من سياق ذلك الحديث أنه عاد من بلغاريا ليقضي الإجازة في دمشق هذه الأيام.

ومن ناحية ثانية كانت الخادمة «بيتا» تضع فنجانَيْن من القهوة وطبقاً من البتيفور والكاتو على المنضدة المستديرة التي تتوسط المرج الفسيح المحاذي لحوض السباحة في هذه الفيلا الكبيرة مترامية الأطراف والمقسمة إلى عدة أقسام، بما في ذلك البستان الكبير المتصل بها من الجهة القبلية المشتمل على عدد كبير من الأشجار المثمرة من جميع الأنواع بالإضافة إلى دوالي العنب والورود ونباتات الزينة التي تملأ الأحواض الممتدة على كامل أطراف المزرعة.

لثمت أم فارس رشفة من فنجانها، وراحت تتفرّس في وجه زوجها محاولة استنباط الأخبار من حديثه، أو قراءة ما بين السطور، فقد كان يقلقها توقف زوجها عن الكلام مُدداً، مكتفياً بالهمهمات، متحفظاً عن الاسترسال بالحديث، أو الرد بإجابات واضحة... أو هكذا تهيأ لها وهي

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بسبب رفضه اصطحابها معه في حينها، وكان ذلك بذريعة ضيق الوقت وعدم التفرغ للسياحة بسبب كثرة الأعمال واللقاءات المترتبة عليه في هذه الرحلة التي عليه أن يجوب خلالها معرضاً صناعياً تخصصياً يهمه كثيراً... وما يرافق ذلك من اجتماعات وندوات ومناقشات وأجواء رتيبة ومملة... هذا ما كان قد أكده أبو فارس لزوجته قبل السفر، ولكنها الرياح التي لا تجري دائماً بما تشتهي السفن... فحبل الكذب قصير، وطريقه عسير... فما كادت تنسى اعترافه بقضائه مع الدكتور منذر أجمل الأيام في بلغاريا،حتى وقعت في يدها عن طريق المصادفة بعض الصور التي جمعته في تلك الرحلة مع الدكتور منذر في عدة مناطق سياحية أبعد ما تكون عن أجواء المعارض والعمل المقيت والممل! بالإضافة إلى ظهور أكثر من فتاة معهم في تلك الصور يرتدين ملابس لا تغطي أكثر من شبرين من مساحة أجسادهن... وبعد ما صدر عن أم فارس من الويل والثبور وعظائم الأمور... وخلافات حادة، قطع أبو فارس لزوجته عهداً بأن يصحبها في كل الرحلات المقبلة.. فهدأ ذلك شيئاً من روعها، وشيئاً فشيئاً بدأت تتناسى الأمر، إلى أن جاء ذلك الاتصال ليؤجج في رأسها تلك الذكريات الأليمة من جديد.

عرف أبو فارس أن عليه العمل الجاد للنجاة من هذا الموقف فزوجته التي يبدو عليها أنها مصممة على ألّا تلدغ من الجحر نفسه مرتين لا يبدو عليها أنها ستمل من إطلاق الأسئلة والاستفسارات المتتابعة حتى لو كان يعلم هذه المرة بأنه صادقٌ في كلامه، فأخذ يشرح لها باقتضاب وهدوء مفتعل وبنبرة جدّية سبب زيارة صديقه، قال لها إنه قدم على رأس وفد رسمي من جامعة صوفيا لإلقاء عدة محاضرات في كلية الزراعة في بلدنا وفي بعض المراكز التي تعنى بالزراعة وشؤونها، وقد أعلمها بأن زيارته هذه لن تطول وليس لديه وقت فراغ إلا هذا اليوم وقد طلب صديقه منه مساعدته في شراء بعض الهدايا من سوق الحميدية، كان أبو فارس مضطراً لهذا الشرح ليصرف عن ذهن زوجته أي شك بوجود سهرة أو نزهة محتملة بمفردهما، أو أي أمر يمكن أن يثير هواجسها، ورغبة منه في إنهاء الحديث أخذ يتساءل عن سبب ترك عشب المرج ينمو بشكل عشوائي دون متابعته، إلى درجة أنه قد غطى معظم أنابيب الرذاذ المخصصة للسقاية، بشكل أعاق وصول الماء إلى المسافة المرسومة له.

كانت أم فارس ذات شخصية قوية وحضور اجتماعي لافت وتبدو مظاهر الأرستقراطية واضحة عليها، وهي التي تشرف بنفسها على شؤون الفيلا والمزرعة والبساتين مما جعلها توافق ملاحظات أبي فارس حول مسألة حاجة العشب إلى القص، فلفتت نظره إلى ضرورة المرور على المشتل

المجـاور للمزرعة لإحضار عامل ليقوم بتعشيـب الأرض، والعمل بالبستان الداخلي الذي أصبحت الأعشـاب فيه بطول حشائش السافانا، وذكرته أيضاً بضرورة أن يحضـر ذلك العامل معه بعض شتلات من الورود ليقوم بغرسها في بعض الأحواض الممتدة على طرفي المدخل.

رشف أبو فارس الشفة الأخيرة من فنجانه، وأخذ ينقل نظره بين شاشة المحمول وساعته وكأنه قرأ رسالة ضرورية على (الواتس أب)، ثم هبَّ واقفاً وقال لزوجته إن موعده مع صديقه قد اقترب، وعليه الذهاب من الآن... مخلصاً نفسه من كل أمر قد لا تحمد عقباه.

وضعـت «بيتا» حقيبة أبي فارس على المقعد الخلفي للسيـارة، وسألته أم فارس إن كان سيتأخر بالعـودة، فقال لهـا: إن أنهينا التسوق مبكراً وكان لدى الدكتور منـذر الوقت الكافي فسأعمل على اصطحابه معي لتناول الغداء.

أطرقـت أم فارس رأسها بالموافقة، فاجتماعهما في المزرعة أمـام ناظريها سيريح أعصابها وسيبعد عنها كل الوساوس والشكوك التي قد تداهمها بغيابهما، فقالت له: في حال موافقته أرجو إعلامـي لأحضّـر السلطة وبعض المقبلات، فأعلمها زوجها بعدم وجـود داع لذلك فالدكتور منذر يحب أن يعد الطعام بنفسه، وليس عليها إلا أن تهيئ المكان والأطباق وأدوات الشواء.

قضى أبو فارس مع صديقه في دمشق القديمة وأسواقها عدة ساعات حافلة بعبق التراث العريق فاستنشقا معاً عبير الزهـورات الشامية وروائح الياسمين والنارنج والزعرور والزيزفون والليمون والكباد والنعناع، وكل ما تحفل به أسواق دمشق المغرقة بالعراقة والقدم، كما التقطا بعض الصور التذكاريـة فـي سوق البزوريـة الشهير وحمّام نور الديـن الشهيد وقصر العظـم والجامع الأموي، فقضيا هناك أوقاتاً ممتعة تهفو لها الأرواح، وتأخذ بمجامع القلوب، وفور انطلاقهما باتجاه يعفور أخبـر أبو فارس زوجته بقـدوم صديقه معه، وبهذا الجو المشبع بالبهجـة والفرح أخذ الصديقان فـي أثناء طريقهما إلى يعفور يتبادلان الأحاديث الشيقـة، والذكريات الجميلة، وحكايات الطفولة ومـا تخللها من مغامـرات وطيش وقصص غرامية،ثـم بدأ يأخذ حديثهما طابعـاً جاداً، إذ نصح أبـو فارس صديقه بضرورة شـراء أرض زراعية تكون نواةً لمشروع معمـل لإعداد وتحضير المواد الغذائيـة، وهـي فرصة لينقل الدكتـور منذر خبرته الطويلـة في مجال الزراعة إلـى بلده، لتُصنَع مـن خلاله المنتجات بأعلى معايير الجـودة العالمية، فوعده صديقه بدراسة ذلك المشروع بشكل جـدي، وهكذا مر الوقت سريعاً ووصلا إلى المفرق المؤدي إلى المزرعة، فأعلم أبو فارس صديقه نيتـه بالذهـاب لشراء اللحم من أجل الشـواء، وخيّره بين الذهاب معـه أو أن يسبقه إلى المزرعة

ليطلـع على أشجارها وغراسها ريثما يعود، اختار منذر النزول وضغط الجرس لعدة مرات قبل أن يدفـع بيـده الباب الذي لم يكن مغلقـاً كما يجب، ووقف يتأمل تلك الأحواضـ الممتدة على طرفي المدخل الطويل الذي ينتهي عند زاوية حوض السباحة.

استنشق الدكتور منذر شهيقاً عميقاً ملأ به صدره التواق منذ زمن إلى عبير أزهار بلاده، وأخذ يتأمـل الـورود الممتدة على طرفي المدخـل الطويل، وعناقيد العنب التي تتـلألأ حباتها القرمزية كالياقـوت والمرجـان... ثم راح يعالج كتلة مـن الشوك في حوض قريب للبـاب، وبعد ذلك توقف لحظـات ورفـع النظارات الملونة من عينيه ووضعها فوق جبينــه، وألقى نظرة سريعة على ملابسه التـي علـم بأنها قد تتأثر جراء ما يـدور في رأسه من تعشيب وتصحيـح للمزروعات التي لن يقدر علـى تركهـا على وضعها بدافع مـن ميله الفطري لهذا العمل، وقد كان يرتـدي بنطال جينز فاخر النـوع غالي الثمن ويضع فـي جيبه ساعة معلقة بسلسلة ذهبية مثبتة بحزام بطرف بنطاله، ويضع علـى رأسه قبعة قشية مستديرة، ألقى ما بيده من أشواك وأعشاب يابسة جانباً، ثم استوقفته بعد عـدة أمتار بعض الأشواك والأغصان اليابسة في أحد الأحواض، فراح يقتلعها ويلقي بها في مكان محدد، وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه منهمكاً من دون شعور منه بالعمل بشكل جدي، فأخذت تعلـو كومة الأعشاب والأغصان اليابسة، وبدأ العـرق يتصبب من جبينه وكل جسده، ثم أخذ يقوّم شتلـة ورود مائلـة مستعينـاً بحبل وجده قرب الحوضـ، وفي هذه الأثناء ظهـرت أم فارس وخلفها خادمتهـا تحثان الخطا باتجـاه الضيف، ويبدو أن انهماكها بتهيئة الطاولـة جعلها تتأخر في تلبية نداء الجرس، فراحت في أثناء سيرها تتكلم مع خادمتها وهي تدقق من بعيد في ذلك الرجل الذي جعلهـا غاضبة من زيارته التي جاءت في غيـر موضعها فقالت: يبدو أن أبا فارس قد أحضر أيضاً عامـلاً مـن المشتل! ثم أخذت تدقق من شق الباب باحثة عن سيـارة زوجها مستغربة عدم وجوده وضيفـه مـع العامل، وراحت تلـوم أبا فارس في سرهـا على تسرعه وخلطه للأمـور بجمعه لدعوة الصديـق وإحضـار العامل في الوقت نفسه، فهـي لن تقدر على الاستفادة مـن العامل على الوجه الأكمل الذي تتمنّاه.

تتبـاطـأ خطـوات أم فارس عند اقترابها مـن الرجل فتسأله عن أبي فارسـ، فيتوقف عن العمل ويمسح عرق جبينه بساعده ثم ينزع القبعة من على رأسه ويضعها إلى صدره ويقول لها وهو يؤدي انحنـاءة بسيطة (بونجـور) مدام أولاً... أما أبـو فارس فقد ذهب لشراء اللحـم وأخبرني أنه لن يتأخر...، تتفرس أم فارس في وجه الرجل وتنقل نظراتها ما بين القبعة القشية والنظارات الملونة

والسلسلة الذهبية، وتقول في سرها: هه... عامل في المشتل يريد إعطائي دروس في (الإتيكيت) وأصول التعامل! (بنجرك وحدة تسهّل أمرك) من أين أتاني هذا العامل؟! يضع الرجل القبعة على رأسه ويهم بالكلام ليعرّف نفسه ولكنها تأخذ منه المبادرة قائلة بنبرة لا تخلو من الفوقية: (الله يرضى عليك) دعنا الآن من كل ما تفعل فلديك في الداخل عمل كثير والوقت لا يرحم ولا يسمح للأعمال الجانبية ولا للكلام الزائد... وما تفعله الآن لست مضطرة إليه، سأقوم بتأجيله ربما لمرة قادمة، فلدي في البستان الداخلي حشائش طويلة وقمامة ونباتات شوكية وأغصان يابسة تخيف الناظرين إليها.

كشف الدكتور منذر عن ابتسامة عريضة زينت وجهه البشوش وقال: تكرم عيونك مدام أنا جاهز لمساعدتك في كل ما تطلبين، تستدير أم فارس طالبة منه أن يتبعها نحو البستان الداخلي فتتبعها الخادمة فيحمل صاحبنا كومة النفايات المتراكمة على الأرض ويتبعهما بهمة ونشاط... وهنا تسأل الخادمة سيدتها: هل هذا هو العامل يا سيدتي؟! فتجيبها أم فارس: فعلاً أنا لا أستغرب سؤالك هل سمعتيه حين قال: إنه يريد أن يساعدني، وكأنه يتصور بأني سأعمل معه يداً بيد! قسماً لا ينقص هذا الرجل سوى بنطال قصير وكنزة بلا أكمام حتى يصبح ممثلاً في هوليوود!

تدفع أم فارس باب البستان الداخلي وتدخل فتتبعها خادمتها ويدخل خلفهما الدكتور منذر فتشير إليه أم فارس بيدها قائلة: كما ترى... الحالة المزرية هنا، تتحدث عن نفسها ولا داعي للشرح، العامل الشاطر يعرف ما عليه فعله، الله يرضى عليك كل هذه «البهدلة» لا أريد أن أراها...، تشير إلى غرفة صغيرة جانبية وتتابع حديثها:ويوجد لديك في هذه الغرفة عدة كاملة من منجل ومنشار وخلافه، بإمكانك استخدام ما تشاء، ومن الأفضل أن تقوم بترحيل الأكوام أولاً بأول، حتى لا تتراكم... وإن أنهيت العمل بسرعة فهنالك أماكن أخرى بحاجة إلى ترتيب ولكنها ليست بهذه الحالة المزرية، وللعلم فإن أبا فارس يحب من يعمل من قلبه وهو كريم ومعطاء عندما يعجبه العمل.

تلقى الدكتور منذر كل تلك التعليمات ببرود ووجه سمح ودون أن ينبس ببنت شفة، مكتفياً برسم ابتسامة على شفتيه وبهزة خفيفة من رأسه تنبئ باستعداده لتنفيذ كل ما يملى عليه.

تنصرف أم فارس نحو الفيلا، ولكنها تعود بعد لحظات مستدركة قائلة: بالنسبة إلى الأوساخ هنالك حاوية كبيرة قرب الباب الخلفي من هذا الاتجاه بإمكانك استخدامه حتى لا تضطر للمرور بجانب الفيلا وأنت حامل تلك الأكوام، لأننا ننتظر ضيوفاً بعد قليل.

تتـرك أم فارسـ الدكتـور منذر الذي بـدأ بتنفيذ ما طُلب منــه بجد ومثابـرة، وكان بين الفينة والأخرى يتوقف قليلاً ليلقي على نفسه نظرة وهو يرى ملابسه الجديدة وقد سكنها الغبار والتراب ووبر الأعشاب...، ثم يضحك من أعماقه ويعود إلى عمله بعزيمة ونشاط...

لا تـكاد تتعـدى أم فارسـ حوض السباحة حتى تلمـح سيارة زوجها قادمة عبـر مدخل المزرعة الرئيسـ، تتوقف السيارة وتبدأ بيتا بنقل أكياس اللحوم والفواكه والبقليات وعلب الحلوى وخلافها إلـى المطبخ، ثم تتوجــه أم فارس برفقة زوجها نحو الطاولة التي تتوسط المرج فتسأله عن ضيفه وعـن سبب تأخره عند اللحّام، وبـدوره يستغرب أبو فارس سؤالها عن الضيف فيجيبها وهو يتلفت يمنــة ويســرة: لقد توقعت أن تكونـي قد اجتمعت به هنــا أو هناك... لأنه لم يرافقنـي إلى اللحّام بـل أنزلته مـن السيارة بناء على طلبه ليقوم بالاطلاع على الأشجـار والمزروعات ريثما أعود، أما موضوع التأخير فقد اضطررت إلى شراء اللحوم من عند جزارين من يعفور وقرى الأسد، لأني لم أجـد كل الكمية التي أريدها عند لحّامي... يضع أبـو فارس حقيبته على المنضدة ويقول لزوجته: دعينا الآن نبحث عن الدكتور منذر، ترى في أي ناحية يتجول؟!

لـم تتأخـر أم فارس في معاتبــة زوجها على إحضار العامل مع الضيف فـي يوم واحد فقالت له: سامحــك الله يـا أبا فارس هل ضاقت بنا الأيـام حتى تحضر عامل المشتل بهـذا اليوم بالذات؟! والأكثـر مـن ذلك أنه حتى بيتـا استغربت ذلك النوع مـن العمال، يا رجل هل أتيـت لي بعامل من حدائـق كاليفورنيـا؟! أنا لم أر في حياتي ولا حتى في الأفلام السينمائية عاملاً يلبس بنطال جينز مـن أغلى الماركات العالمية، وعليــه قبعة قشية ويضع... لم يدع أبو فارسـ زوجته تكمل حديثها، فأمسكهـا مـن يدها بقوة ثـم وضع يده على فمها والأخـرى على رأسه وأغمض عينيه بقوة ملأت جبينــه بالغضون وقـال لها بنبرة حزينة مشبعة بخيبــة الأمل: إن الذي تتحدثيــن عنه هو الدكتور منــذر.. أخبرينـي بسرعة أين هو الآن؟! تهوي أم فارس بيديها ممسكة برأسها وتغمض عينيها من شـدة التأثر، وتهرع مسرعة باتجـاه البستان فيسبقها أبو فارس ويدفع بابــه الخشبي بكل ما أوتي مـن قوة فيصافحه وجه صديقه الذي تناثر عليه الغبار، وتعشـق في حاجبيه وأهدابه... وامتلأت ملابسه بالتراب والشوك اليابس، وقد امتزج كل ذلك بالعرق فأصبح أشعث أغبر يصعب التعرف إليــه أول وهلة، وكان يحمـل كومة نفايات يريد إلقاءها في الحاوية، فقفـز أبو فارس نحوه محاولاً انتـزاع كومــة القش من بين يديه قائلاً: أرجوك يا منذر سامحنـا على هذا الالتباس... أما الدكتور منــذر الذي لم تغب الابتسامة عن شفتيه علـى الرغم من كل ما حصل فقد تخلص من أبي فارس

وابتعد عنه قليلاً كي لا يدعه يلوث يديه، وقال له هذه المرة بنبرة جدية: لا يا أبا فارس دعك من الاعتذار، وأرجو أن تدعني لأنه لم يبق إلا هذه الكومة وقد انتهيت تقريباً كما ترون...، ثم يمم نظره نحو أم فارس قائلاً: آمل يا أم فارس أن يكون عملي قد أعجبك، تحجب أم فارس وجهها بيديها من شدة الخجل، فيحسم الدكتور منذر ذلك الموقف قائلاً: أرجو يا أبا فارس أن تدعني الآن أرمي هذه الكومة خارجاً ودعوا كل شيء على طبيعته، ولا أريدك أن تشرح لي شيئاً، فأنا أؤكد لك أنه بفضل هذا الالتباس الذي حصل قد نجونا بغيابك أنا وزوجتك من التكلف والمجاملات، وكل ما أريده منكما الآن أن تسبقوني وتهيؤوا المنقل والفحم وسأتبعكم في الحال، فقد بدأ الجوع ينهشني بأنيابه.

كانت مائدة عامرة تتخلّلها أنواع اللحوم المشوية من الشقف والكباب والبصل المشوي مع اللية، وبعض أقراص الكبة المشوية والطحال، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من المقبلات والكبة النيئة كل ذلك جعل الحاجة ملحة إلى إبريق من الشاي (الخمير) الذي وضع على المنقل فور انتهاء الشواء فتناولوا منه عدة أكواب وهم يطوقون المنضدة التي تتوسط العشب الأخضر، وقد أنست وداعة الدكتور منذر ولطفه أم فارس تبعات ذلك الخطأ الذي اقترفته بحقه، فكانت منسجمة لأبعد الحدود وهي تسمع منه القصص والحكايات الطريفة التي جرت معه خلال غربته الطويلة، وسمع منهما قصصاً مشابهة، وكان بين الفينة والأخرى يعرج عن قصد إلى تذكير أم فارس بما حصل بغية الإحراج... فأجابه أبو فارس في إحداها قائلاً: وهل كنت تصدق يا صديقي أنه كان التباساً؟! كل ما في الأمر أنني لم أجد عاملاً في المشتل فأنزلتك قبل إحضار الطعام لتقوم مكانه... تضع أم فارس يدها على فمها مستنكرة ذلك القول، ولكن منذر يضحك من قلبه، ويجيب: لا عليك يا صديقي ولك مني أن ألبّي دعوتكم إلى الغداء كلما طال العشب في بستانكم... تضحك أم فارس وتقول: وهل تعتقد أنه سيعجبنا عمل أحد بعد الذي أبليته أنت؟ وتصدر من الجميع ضحكة عالية...

وهكذا كان المرح والمزاح والبساطة عنواناً لتلك الجمعة التي تخلى الجميع فيها عن التكلف وجو الرتابة، وعلى الرغم من ذلك لم تنسَ أم فارس معاتبة زوجها أمام الضيف لعدم اصطحابها معه إلى بلغاريا، فوعدها منذر بأنه في المرة القادمة لن يستقبله إلا برفقتها، قطع حديثهم صوت جرس الباب وكان القادم أبا أنور جار أبي فارس، فأحضرت له «بيتا» كرسياً وجلس معهم، وقبل أن يهم أبو فارس بتعريف صديقه منذر إلى جاره طلب الأخير من أبي فارس أن يعطيه عنوان أو

رقــم الخلوي للعامل الــذي قام بتنظيف المزرعة... وعندما سأله أبـو فارس عن مصدر معلوماته تلــك، أجابه بأن خادمتــه شاهدت مع بيتا عاملاً يقوم بالتنظيف والتعشيــب، وقد روت لأم أنور ما شاهدته من نشاطه وخبرته، وقد أبهرها حسن تنظيمه ومعرفته الواضحة بكيفية تقليم الأغصان وتنشيــط التربة، إلــى درجة أن البستان الداخلــي للمزرعة لم يعد يقل جمــالاً وترتيباً عن حدائق الفيلا نفسها... وكل ما أريده منك يا أبا فارس هو عنوانه ليقوم بتنظيف مزرعتي وإعادة ترتيبها، ولكن قبل ذلك لدي سؤال: كم دفعت له أجراً مقابل عمله؟

التقت نظرات الدكتور منذر بعيون أبي فارس وزوجته، وهم يحاولون إخفاء ضحكة كادت تنفجر مــن صدورهم...، ثم قطع أبــو فارس الصمت قائلاً: لن يكلفك الأمر يــا صديقي سوى بضع قطع مــن اللحم المشوي وبعض المقبلات، فقد اشتغل ذلك العامل بطعامه وشرابه وحسب... تبع ذلك لحظــات من الصمــت، انفجر الجميع بعدهــا بضحكة مجلجلــة مترافقة بسيل مــن دموع البهجة والفرح والسرور.

❁ ❁ ❁

اعترافات امرأة

بقلم: غي دو موباسان
ترجمة: سلام مخائيل عيد

طلبتَ مني، يا صديقي، أن أروي لك أكثف ذكريات حياتي. أنا هرمة جداً، بلا والدين، بلا أبناء؛ لذا، أجدُني حرّة بأن أعترف لك. عِدني فحسب بألّا تكشف عن اسمي أبداً.

تعلَم أنّ كثيرين أحبّوني؛ وكثيراً ما أحببتُ، أنا نفسي. كنت جميلة جداً؛ يمكنني أن أقولها اليوم حين لم يبقَ شيء من ذلك. كان الحبّ عندي حياةَ الروح، مثلما الهواء حياةُ الجسد. كنتُ لأفضّل الموت على أن أكون موجودة من غير حنان، من غير أن يكون هناك من يتعلّق تفكيره دوماً بي. غالباً ما تدّعي النساء أنّهن لا يحببن إلّا مرّة واحدة بكلّ ما في قلوبهنّ من قوّة؛ وكثيراً ما حصل وأحببتُ بعنف شديد ظننتُ معه أمراً مستحيلاً أن تنتهي صباباتي. مع ذلك، كانت تنطفئ دوماً بطريقة طبيعيّة، مثل نار ينقصها الحطب.

سأحكي لك اليوم عن أولى مغامراتي، وكنتُ بريئة تماماً منها، لكنّها حدّدت المغامرات الأخرى.

ذكّرني الانتقامُ الرهيب الذي قام به صيدلي بيك (Pecq) المخيف هذا، بالمأساة المروّعة التي شهدتُها رغماً عنّي.

- العمل الفني: الفنانة ناديا داود.

كنتُ متزوّجة منذ عام، من رجل ثري، الكونت هيرفيه دو كير... وكان بريتونياً من سلالة قديمة، ولم أكن أحبّه طبعاً. يحتاج الحب الحقيقي، في اعتقادي على الأقلّ، إلى الحرية وإلى العقبات في آن معاً. أيكون الحبُّ المفروض الذي يصادق عليه القانون ويباركه الكاهن، حبّاً؟ إنّ قبلة شرعيّة لا تساوي قطّ قبلةً مسروقة.

كان زوجي طويل القامة، أنيقاً، سيّداً كبيراً حقاً في مظهره. لكنّه يفتقر إلى الذكاء. فهو يتكلّم بصراحة، ويُصدر أحكاماً تقطع مثل نِصال. كنتَ تشعر أنّ ذهنه مملوء بأفكار جاهزة وضعها أبوه وأمّه فيه، وقد حملاها من أسلافهما. لم يكن يتردّد قط، إذ كان يُبدي في كلّ شيء رأياً فورياً ومحدوداً، من غير أيّ تحرّج أو إدراك لأنّه يمكن أن تكون هناك طرائق أخرى للرؤية. كنتَ تشعر بأنّ ذاك الرأس مغلق، ولا تدور فيه أيّ أفكار، من تلك الأفكار التي تجدّد الذهن وتنقّيه مثل الهواء يعبر منزلاً فُتحت أبوابه ونوافذه.



كان القصر الذي نسكنه قائماً وسط بلد مقفر. كان بناء كبيراً حزيناً، تحيط به أشجار هائلة تذكّر طحالبها بلِحى الشيوخ البيضاء. وكانت الحديقة، وهي غابة حقيقيّة، محاطةً بخندق عميق نسميّه قفزة الذئب؛ وفي الطرف الآخر، من

جهة المستنقع، كانت لنا بركتان كبيرتان مملوءتان بالقصب والأعشاب الطافية. بين الاثنتين، على حافة جدول يصل بينهما، بنى زوجي كوخاً صغيراً لإطلاق النار على طيور البطّ البرّي.

كان عندنا، إلى جانب خدمنا العاديين، حارس، نوعٌ من شخص فظٍّ مخلص لزوجي حتّى الموت، ووصيفة، تكاد تكون صديقةً، متعلّقة بي بجنون. وكنت قد أحضرتها من إسبانيا قبل خمس سنوات. كانت طفلة مهجورة. كنتَ لتظنّها غجريّةً بلونها الأسود، وعينيها القاتمتين، وشعرها العميق مثل غابة، المُقنفذ دوماً حول جبهتها. كانت في السادسة عشرة من عمرها آنذاك، لكنّها بدت في العشرين.

كان الخريف في بدايته. وكنا نصيد كثيراً، تارة عند الجيران، وتارة عندنا؛ ولحظتُ شاباً، بارون دوك...، الذي راحت زياراته للقصر تتكرّر على نحو غريب، ثمّ كفّ عن المجيء، ولم أعد أفكّر في الأمر؛ إلّا أنّني تبيّنت تغيّراً في سلوك زوجي نحوي.

كان يبدو صَموتاً، مشغول الذهن، ولا يقبّلني؛ وإن كان قلّما يدخل غرفتي التي اشترطت أن تكون مفصولة عن غرفته كي أعيش وحدي إلى حدّ ما، إلّا أنّني غالباً ما كنت أسمع، في الليل، خطوة حذرة تأتي حتّى بابي ثمّ تبتعد بعد بضع دقائق.

ولأنّ نافذتي في الطابق الأرضي، فغالباً ما خلت أيضاً أنّني أسمع من يحوم في الظلام، حول القصر. أخبرت زوجي بذلك، فحدّق في وجهي بضع ثوانٍ، ثمّ أجاب: «لا شيء، إنّه الحارس».

لكن، ذات مساء، وفيما كنا ننتهي من تناول العشاء، سألني هيرفيه وقد بدا مبتهجاً جداً على غير عادته، ابتهاجاً ماكراً: «هل ترغبين في قضاء ثلاث ساعات في كمين لقتل ثعلب يأتي كلّ مساء ليأكل دجاجاتي؟» فوجئت: فتردّدت؛ لكن، وإذ كان ينظر إليّ بإصرار غريب، انتهى بي الأمر بأن أجبت: «بالتأكيد، يا صديقي».

ينبغي أن أخبرك أنّني كنتُ أصيد، مثلَ رجل، الذئبَ والخنزير البري. لذلك، كان طبيعياً أن يقترح عليّ هذا الكمين.

لكنّ زوجي بدا فجأة عصبياً على نحو غريب؛ واهتاج طوال الأمسية، وهو ينهض ويعود إلى الجلوس على نحو محموم.

نحو الساعة العاشرة، قال لي فجأة:

«هل أنت مستعدة؟» نهضتُ. ولأنّه أحضر بنفسه بندقيّتي، سألتُ: «هل يجب أن أحشوها رصاصاً أم خردقاً؟» ظلّ متفاجئاً، ثم استأنف: «أوه! خردقاً وحسب، سيكون كافياً، كوني أكيدة». ثمّ أضاف،

بعـد بضـع ثوانٍ، بنبرة غير اعتيادية: «يمكنكِ أن تتباهي بأنّ لكِ دماً بارداً شهيراً!» رحتُ أضحك: «أنا؟ لماذا إذن؟ دم بارد من أجل قتل ثعلب؟ فيمَ تفكّر، يا صديقي؟».

وهـا نحـن ننطلق، بـلا ضجيج، عبـر الحديقة. كان البيـت كلّه نائماً. بـدا البـدر وكأنّه يصبغ بالصُّفرة البناء القديم الداكن الذي كان سطحه الأردوازي يلمع. وكان البرجان اللذان يجانبانه، يحملان على قمّتيهما صفيحتيّ إضاءة، وما من ضجيج يعكّر سكون تلك الليلة الصافية والحزينة، العذبة والثقيلة، التي بدت ميتة. لا ارتعاشة هواء، ولا نقيق ضفدع، ولا نعيق بومة؛ جثم خدر مشؤوم على كلّ شيء.

حيـن صرنا تحت أشجار الحديقة، اكتنفتني برودة، ورائحـة الأوراق المتساقطة. لم يفه زوجي بشيء، لكنّه كان يُصغي، يراقب، بدا وكأنّه يستشم في الظلام، وقد تملّكه شغف الصيد من رأسه حتى قدميه.

سرعان ما بلغنا حافّة البركتين.

ظـلّ شعرهمـا الأسلي[1] بلا حراك، فلا نفحة ريح تداعبه؛ لكـنّ حركات تكادُ لا تشعر بها كانت تتراكض على الميـاه. وأحياناً، كانت نقطة تتحرّك على السطح، فتنطلق منها دوائر خفيفة، أشبه بتجاعيد مضيئة، تكبر إلى ما لا نهاية.

حين وصلنا إلى الكوخ حيث كان علينا أن نتربّص، جعلني زوجي أمرُّ أولاً، ثمّ لقّم بندقيّته ببطء، فأحدثت طقطقة الزناد الجافة أثراً غريباً عندي. شعر بأنّني أرتعد فسألني: «أيكون هذا الاختبار كافياً لكِ؟ اذهبي إذن». فأجبته وأنا في غاية الدهشة: «لا، إطلاقاً، لم آتِ كي أعود. هل أنت غريب هذا المساء؟» فتمتم: «كما تشائين». وبقينا ساكنين.

بعـد نصف ساعة تقريبـاً، ولأنّ شيئاً لم يكن يعكّر صفو تلك الليلـة الخريفيّة الثقيل والصافي، قلت بصوت منخفض جداً: «هل أنت متأكّد من أنّه يمر من هنا؟»

انتفض هيرفيه كما لو أنّني عضضته، وقال، وقد ألصق فمه بأذني: «أنا متأكّد، هل تسمعين؟». وبدأ الصمتُ من جديد.

أظنّني كنتُ قد بدأت أغفو، حين شدّ زوجي على ذراعي؛ ونطق صافراً، وقد تغيّر صوته: «أترينه، هنـاك، تحـت الأشجار؟» أمعنت النظر، لكنّني لم أميّز شيئاً. وببـطء، أسند هيرفيه البندقية إلى كتفـه، وهو يحـدّق فيَّ. كنتُ، أنا نفسي، متأهبّة للإطلاق، وفجأة، علـى بُعد ثلاثين خطوة أمامنا، ظهر رجل بوضوح تام، يتقدّم بخطوات سريعة، حانياً جسده، كما لو أنّه هارب.

ولهـول ذهولـي، أطلقت صرخة عنيفـة؛ لكن، وقبـل أن أستطيع الالتفات، مرّ لهـب أمام عينيّ، وأشعرني انفجارٌ بالدوار، ورأيتُ الرجل يتدحرج على الأرض مثل ذئب يتلقّى رصاصة.

رحتُ أطلقُ صيحات حادةً وقد تملّكني الهلع ومسّني جنون؛ فإذا بيد غاضبة، يد هيرفيه، تمسك بحلقي. سُوّيتُ بالأرض، ثمّ حُمِلت بين ذراعيه القويّتين. ركض، رافعاً إيّاي في الهواء، نحو الجسد المُمدّد على العشب، وألقاني فوقه بعنف ليشجّ رأسي.

شعرت بالضياع؛ كان سيقتلني؛ وقد رفع كعبه فوق جبيني، حين طُويَ بدوره، وأطيح به، من غير أن أفهم ما كان يحدث.

نهضتُ بخشونة، فرأيت باكيتا، خادمتي، على ركبتيها فوقه، وقد أنشبت أظافرها مثل قطّ هائج، وراحت تنتزع لحيته وشواربه وبشرة وجهه، متشنّجةً، مهتاجة.

ثـمّ، وكما لو أنّ فكرة أخرى استحوذت عليها فجـأة، نهضت، وارتمت على الجثّة محتضنة إيّاها بقوّة، مقبّلة عينيها وفمها، وفاتحةً بشفتيّها الشفتين الميتتين، باحثة فيهما عن نَفسٍ، وعن مداعبة العاشقين العميقة.

كان زوجـي، وقـد نهض، ينظر إليها. لقد فهم، فسقط عند قدميّ: «أوه! المغفرة يا حبيبتي، لقد اشتبهت بكِ وقتلتُ حبيب هذه الفتاة؛ لقد خدعني حارسي».

أمّا أنا، فكنت أنظر إلى القبلات الغريبة بين هذا الميت وهذي المرأة الحيّة؛ وإلى نحيبها، وإلى رعشات حبّها اليائس.

منذ تلك اللحظة، أدركتُ أنّني لن أكون مخلصة لزوجي.

❀ ❀ ❀

الهوامش

(١)- نسبـة إلى نبـات الأسل Joncs العشبـي ذي الأوراق المدببة الطويلة الذي ينمـو في المناطق الرطبة (المترجمة).

❀ ❀ ❀

آفاق جديدة في التعليم العالي العربي

د. أحمد حلواني



يجمع الأساتذة الباحثون في قضية التعليم بالوطن العربي على المطالبة بوضع إستراتيجية جديدة للتعليم العالي والجامعي تلبّي طموحات الإنسان العربي في التنمية البشرية، وتنسجم في مرتكزاتها الأساسية مع متطلّبات التقدّم العالمي والتطوّر التكنولوجي بحيث تتجاوز في مفاهيمها وأساليبها النمط التقليدي القائم، الذي كان سبباً في إعاقة نموّ هذا الميدان وتصنيفه في نهاية سلّم تطوير التعليم في العالم. الأمر الذي يقتضي الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة وتجاوز القيود الأيديولوجية والفكرية والنظرة الإقليمية، وترسيخ مفهوم الحرّية الأكاديمية مع وضع التعاون العربي في الإطار الأكاديمي بعين الاهتمام، بحيث توجد آلية عملٍ عربي مشترك تنسّق بين عمل الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية العربية، وتخلق وسائط اتصالٍ وتبادلٍ ومناهج مشتركة لتشكّل كلّها قاعدة علمية أكاديمية مشتركة لجميع الجامعات ودور البحث والتعليم العالي في الوطن العربي.

وقــد أصبحت إمكانات التعــاون بكل أبعادها وأشكالها ممكنــةً ومتوافرة بشكل يؤمّن تحقيق أهــداف هذا التعــاون والاستفادة من الخبرات بفضل التطوّر التكنولوجــي المتسارع، الذي فتح فضاءات واسعــة لاستخداماته لمصلحة ميادين الحياة المختلفة ومنها ميدان التعليم العالي، بل إن كثيــراً من رجال الفكر والتنظيــر والإعلام، يضعون ميدان التعليم العالي في مقدّمة الميادين التي يجب أن تستفيد من التطوّر التكنولوجي في مجال الاتصالات، وتحقيق نقلة نوعية في هذا الميدان، تشمل إخراجه من مآزقه الحالية وفتح آفاق جديدة بأشكال تخدم البشرية وتشغل حيّزاً واسعاً في شبكات الاتصالات بدلاً من إشغالها بطرائق تعيق التنمية البشرية وتحرفها عن غاياتها الإيجابيــة. والمثل يقول: إن العملة الجيــدة تطرد الرديئة. وإشغال فضــاءات شبكات الاتصال بأشياء إيجابية لا بد أن يؤثّر في تخفيف آثار الأشكال الضارة أو غير المفيدة إن لم يبطلها.

إن هــذه الفضاءات الجديدة والمسؤولة التي يتحمّلها رجال التعليم تحتّم القيام بدراسات علميــة، للاستفادة من الإمكانات الكبيرة لوسائــل الاتصال واستخداماتها ودورها في تطوير العملية التعليمية بشكل عام والتعليم العالي بشكل خاص.

ويــرى كثيرٌ من الباحثين في هــذا الميدان أن الآفاق المستقبلية عــن بعد ستتفوّق على التعليــم التقليدي القائم حالياً، بفضل الإمكانــات المتاحة وطبيعة الحياة الجديدة وانسجام طريقــة التعليم عــن بُعد مع هذه الحياة من جهــة، والإمكانات الواسعــة بالاطلاع والتعاون والتجاوب والتواصل اليسير. الأمر الذي يقتضي وضع خطة شاملة في تعميم تعليمي يضمن تيسير استخدام التكنولوجيا الحديثة لدى الاجيال المختلفة بشكل عام والناشئة بشكل خاص. ممــا يقتضي تعريب تكنولوجيا الاتصالات الحديثة لجعلهــا أكثر قرباً من المجتمع وقضاياه ومفاهيمه، وإن كان التعريب هنا لا يعني التخفيف من أمر اللغة الأجنبية والاهتمام بها. إنما التعريــب يقرّب الاستخدام من عامــة المجتمع، ومن ثمَّ يزداد الوعي بأهميّة هذا الاستخدام وتزول الغربة والاستغراب عن شرائح المجتمع المختلفة فيحرص على الاستفادة من إمكاناته، ومنها اللغات الأجنبية التي يجدها عبر قنواته المختلفة. والمعروف أن حركة التطوّر العلمي والثقافــي عند العرب تمّت بفضل أولئك الذيــن أتقنوا اللغات الأجنبية التي كانت سائدة في عصرهم كالفارسية واللاتينية والسريانية والأرمنية واليونانية... إلخ.

إن التعليــم عن بُعد سيفتح مجــالات التعليم الواسعة أمام شرائح جديدة من المجتمع إن لــم تكن ظروفها أو وقتها يمكّنها من ولوج التعليم التقليــدي، كما أنها ستشّجع شرائح أخرى

على الدخول في اختصاصات جديدة أو تحديث معلوماتها في اختصاصها الأصلي في الوقت الذي يلائم ظروفها، أو في متابعة الدراسات العليا.

ولدخول هذا العالم ذي الفضاء الخصب والكبير لا بد من نشر حالة وعي عام لدى المجتمع كله، وفي أوساط الطلبة بشكل خاص تُكوّن حالة مناخ عام حاضن وموائم لتقبّل هذا الشكل الجديد والاهتمام به والدخول في آفاقه تعلّماً وإنتاجاً وإبداعاً.

استخدمت كلٌّ من أمريكا وبريطانيا وسائل الاتصال التقنية في التعليم منذ أواسط القرن العشرين، إذ قامت المعاهد والجامعات الأمريكية بطرح مساقات معتمدة عبر التلفاز للطلاب داخل الحرم الجامعي وخارجه كما استُخدِم المذياع لبثّ برامج تعليمية صباحية في بريطانيا، واستخدم في بث مساقات تعليمية لأكثر من نصف مليون طالب.

إنَّ استخدام وسائل الاتصال في الكلّيات المفتوحة، من خلال التلفاز ذي الدائرة المفتوحة والإذاعة المسموعة، والكتاب، والهاتف، والحاسوب، والإنترنت، ولاسيّما في عصر الفضائيات المتطورة أصبح من المسلّم به حالياً لأن تقنيات الاتصالات الحديثة عن بُعد واستخداماتها في التعليم والتعلّم عن بُعد وما تؤدّي إليه من تدفّق في المعلوماتية هي أداة تتيح للدول المتقدمة اقتحام الحرمات التعليمية والثقافية للدول الأقل تقدّماً، بحيث تمكّن من فرض أنماط ثقافية وقوالب فكرية تهيمن على الحياة الفكرية والتعليمية وتفيد في صياغة الفكر الجماعي للمجتمعات الأقل تطوراً بصورة تتناسب مع أغراض الدول الأقوى، السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، من خلال مساقات التعليم عن بعد.

وعندما لا يكون للمؤسسات الوطنية دور في تعميق مفاهيم نشر التعليم عن بُعد والتعامل مع الشبكات الفضائية في وضع برامج جامعاتنا العالية والمفتوحة والتواصل مع الأفراد الراغبين في التعلّم والتواصل مع المجتمع المتحضّر للحفاظ على النظام العالمي الجديد، ستكون النتائج لمصلحة الأنماط القادمة من الآخر.

إن بناء الإستراتيجية التعليمية المعلوماتية المستقبلية بات أمراً ملحّاً وضرورياً لا يحتمل التأخير. وتعميمه على الجامعات العربية والتوسّع في التعلّم عن بعد والتعامل مع الحواسيب والأنظمة والبرامجيات بكل جدّية، وتطوّر الأنظمة التعليمية القائمة كي يصل التعلّم إلى كل فرد في أبعد بقعة في الوطن العربي (وفق د. هيثم غالب الناهي في كتابه الدولة وخفايا إخفاق مأسستها) قبل أن يحدث الاختراق من الآخر في جوانبه المختلفة التي يسمّيها بعضهم بالغزو،

هـــو ما يجب التركيز عليه باهتمام ومسؤوليّة، فالاختراقات وفق مفهوم الغزو متعددة الجوانب من الثقافي إلى التربوي عن طريق التعليم إلى الإعلامي مع استخدام التكنولوجيا المتطوّرة.

فـــي هذه الاختراقات التي استطاعت الفاعليّة بشكل واضح ومؤثّر في أغلب الأجيال نشر ظواهر اجتماعيّة مخالفة للقيــم المجتمعيّة السائدة ببعدها الأخلاقي، متزامنة مع الصراع على الإنتاج الاقتصادي، وتأمين مصالح الشركات الكبرى والنفوذ السياسي في الدول المنتجة على طريق إفشال مأسسة الدول و إيقاف تطويرها.

وبالعـــودة إلى موضوعنا، لا شك في أن وسائل الإعـــلام الجماهيري ستكون هي الطريق إلى ميلاد مجتمع الإعلام والمعلومات المؤدّي إلى المعرفة وارتقاء الذكاء الإنساني ونشر حالة الوعي العـــام، ولاسيّمـــا إذا عرفنا أن نسبة الأميّة لا تزال قوية في المجتمـــع العربي كما أشار إلى ذلك تقرير برنامج الأمـــم المتحدة الإنمائي لعام (٢٠٠٣م) عن التنمية الإنسانية، كما أن نسبة انتشار وتوزيـــع الكتب لا تزال في حدود متواضعة جداً وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصحافة، إذ ينخفض عدد الصحف في البلدان العربية إلى أقل من (٥٣) صحيفة لكل (١٠٠٠) شخص مقارنة بـ (٢٨٥) صحيفـــة لكل (١٠٠٠) شخص في الدول المتقدمة. ومن هـــذا المنطلق فإن التركيز على وسائل الإعلام السمعي والبصري هو الأساس في نشر حالة الوعي العام وصولاً إلى نقل مفهوم مجتمع الإعلام والمعلومات وانتشاره، مع الأخذ في الحسبان الانتقال إلى النشر الإلكتروني.

مـــرّت البشرية بخمس مراحل تطوّرية في مجال الاتصال وهي الكلام والكتابة والصناعة والهاتـــف والإذاعة، ومن ثـــم التلفاز وصولاً إلـــى الأقمار الصناعيـــة والحواسب والأقراص المضغوطـــة والإنترنت والشبكات الإلكترونية، ولست بحاجـــة إلى الحديث عن تكوّن مجتمع الإعـــلام والمعلومات التي يصفها بعضهم بأنهـــا الموجة الثالثة من الموجات الحضارية بعد الزراعيـــة والصناعيـــة التي لا تلغي المجتمع الصناعي أو الزراعـــي وإنما تعمل على ارتقائه وتكامله وتعزيز آفاق تعاونه الدولي في إطار نسيج واحد واسع متنوع.

إن الجهد الذي يبذله المعولمون لإنشاء مجتمع الإعلام والمعلومات العالمي لا ينافي واقع المجتمع العربي، وهو الأكثر قرباً بعضه إلى بعضٍ بمقوّماته الثقافية والتاريخية والحضارية. وهو ما يحمّل النُّخب الثقافية وأصحاب الأفكار التنويرية المسؤولية الكبرى في التحوُّل نحو بنـــاء مجتمع الإعلام والمعلومات العربي. هذا المجتمع الذي سيحمل رسائل العلم والمعرفة والتعليم بمختلف مستوياته وتخصصاته.

إن تسخيـــر التقنية لتوسيع قنوات التعليم خارج إطار الزمان والمكان التقليديين في إطار مـــن المرونة والاستجابة لاحتياجات المجتمع العربي وآفاق تطويره واتصاله بالعالم المتقدّم سيمكّـــن طلبة التعليم العالي عماد هذا التطوير والتواصل من استخدام وسائل التقدم التقني والاستفادة القصوى منها في تحقيق نقلة حضاريّة معاصرة.

إذا كـــان التعليم العالي العربي قد مرّ في مراحل التأسيـــس بشكله الأكاديمي المتعارف عليـــه، وأثبـــت قدرته ونجاحه خلال القـــرن العشرين، فإن نهايات ذلـــك القرن قد أظهرت الإشكالات الكبيرة وحالات الاختناق والتخلّف التي أصابته وذلك نتيجة حالات ازدياد الطلبة نتيجة التزايد السكاني مع قصور الإمكانات المادية، ومن ثمَّ التجهيزات، بل الجمود الفكري الذي هيّمن على المناهج نتيجة هيمنة الأيديولوجيا ومنع التواصل مع الجامعات العالمية.

وعلـــى الرّغم من أن ديمقراطية التعليم التي استُخدِمت شعاراً إيجابياً، اقتصرت على مفهوم إتاحـــة الفرصة في انتساب شرائح مختلفة من الطلبة إلى جميع التخصّصات الجامعية ومجانيّة التعليـــم وفق شروط معقّدة فـــي الاصطفاء مع استثناءات لحالات خاصة، وهي ما أدخلت التعليم العربي في آفاق مغلقة في جوانب كثيرة، راوح فيها لزمن طويل. الأمر الذي دعا إلى تصنيفه من الهيئات الدولية بالمتخلّف والجامد، مما ترك آثاره السلبية في كثير من أجيال الطلبة وفي حركة التطوّر العلمي بشكل عام وأثّر سلباً في سوق العمل وما سُمّي حديثاً باقتصاديات المعرفة.

والمؤســـف أن الأصـــوات التي نبّهت إلى مخاطر هذه الحالة لـــم تكن مؤثّرة في مراحلها الأولى ولم يكن بالإمكـــان قبول تنبيهاتها وأفكارها، وإذا كانت بعض الأصوات قد استطاعت أن تُقنـــع بعض المتنورين في بلـــدان الخليج العربي لإقامة جامعـــات جديدة على الأساليب والمناهج الغربية في نهايات القرن الماضي فإنّ تأثير هذه الجامعات بقي ضئيلاً لأن الصوت المؤثّـــر كان باستمرار في حياتنا العربية يجب أن يأتي مـــن الأقطار العربية الكبرى. كما أن تأثيـــر جامعات المغرب العربي بقـــي ضئيلاً بحكم انجذاب قسم مـــن أساتذتها إلى الثقافة الغربيـــة من جهـــة، وبحكم ضعف مؤسسات العمل العربي المشتـــرك من جهة أخرى، ولو أن الأمـــر قد بدأ يتغيـــر في المرحلة الأخيرة بسبب ازدياد حركـــة التواصل العلمي والأدبي بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وهو ما يدعو إلى التفاؤل بعض الشيء من حيث إمكانية تضافر الخبرات والمعلومـــات والإمكانات لمصلحة تجربة عربية مشتركة تمتلك من الوضوح والقوة والإمكانات ما يمكّنها من النجاح على أرض الواقع.

ويمكننـا هنا أن نذكر فاعلية بعض المؤسسـات التعليمية العربية التي أنشئت في أقطار المغـرب مثل المعهد العربي للترجمـة في العاصمة الجزائر للاستفـادة من خبرات أقطار المغرب العربي في الترجمة بعد الشوط الكبير الذي قطعته في التعريب، وإلى مكتب التعريب فـي الرباط والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس مع اتحاد الإذاعات العربية الذي انتقل من القاهرة إضافة إلى المجلس القومي للثقافة العربية في الرباط الذي أصدر مجلـة ثقافيـة شهرية مهمة هي مجلة الوحـدة، حرّر فيها قامات ثقافيـة كبيرة من أقطار الاتحاد المغاربي وجميع الأقطار العربية الأخرى.

إن النقلة النوعية التي بدأ التعليم العالي العربي يشهدها في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي تدعونا إلى التفاؤل من جهة وإلى الاستنفار من جهة ثانية.

بدأ التعليم المفتوح والتعليم عن بُعد في الوطن العربي خطوات متعثّرة في بداية الأمر لأسباب كثيرة أستطيع أن أستخلص منها:

١- تعصّب أصحاب تجربة التعليم التقليدي لأسباب كثيرة (منها التعوّد والإخلاص الضيق والمصلحية).

٢- عدم انتشار وسائل الاتصال بالشكل الدائم في جميع المناطق العربية المأهولة.

٣- نقص الخبرات في التعامل مع هذا الشكل من التعليم وقصور خطط التأهيل.

إلا أن أسباباً إيجابيّة أخرى كثيرة منها:

١- إخلاص وحماس أصحاب الدعوة لهذا الشكل من التعليم المفتوح في إطار فهم عملية التطوّر والخلاص من النمطية.

٢- صعوبة الانتقال إلى الجامعات في المناطق العربية الواقعة تحت الاحتلال.

٣- الحالة المعيشية للمواطن العربي.

٤- ازديـاد عـدد الطلبة والإقبال على التعلّـم مع انتشار حالة وعي عـام بأهمية التعلّم بالتوازي مع ازدياد عدد السكان.

كلّ ذلك أكّد أهمية الاستمرار في تجربة التعليم عن بُعد وتطويرها.

عاش كثيرٌ مـن الطلبة في الأردن وفلسطين بشكل خاص تجربة الانتساب إلى الجامعات السورية واللبنانية والمصرية فـي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، التي حقّقت

خدمـــات كبيرة للأجيال العربية، يكملها ويتابعها الآن نظام التعليم عن بعد باستخدام وسائل الاتصال الحديثة.

أمـــا الجامعات الافتراضية والانتساب إليها فهي نقلة نوعية أخرى لا بد من الدخول فيها إضافــة إلى التجارب القطرية المُحدثة بوساطة إمكانات عربية مشتركة بضرورة قيام اتحاد الجامعـــات العربية بالتنسيق مع جميع الجامعـــات العربية المنتسبة إليه الحكومية والخاصة وبقـــرار عربي على أعلى مستوى (مؤتمر القمة) لإطـــلاق جامعة إلكترونية بمناهج وأساليب وإمكانـــات تتـــلاءم والظروف العربية، وتحقيـــق الطموح في جامعة عربيـــة عالمية في هذا الميـــدان. وبالمناسبة فإنني أحب أن أشير إلى تجربة قام بها اتحاد الأطباء العرب في إنشاء هيئـــة البورد العربي، التي اتّخذت مـــن دمشق مقراً لها من منطلق ريـــادة سورية في تجربة تعريـــب التعليم الطبي، التي أثبتت نجاعتها ونجاحها بفضل إخلاص القائمين عليها وعزمهم وخبراتهم العلمية العالية واللا مصلحية الذاتية التي عملوا في ظلّها.

إن هـــذه الخطوات الكبيرة لا بد أن تؤثّر إيجاباً في تطوير التعليم العالي التقليدي في جامعاتـــه الوطنية المنتشرة في كل بقاع الوطن العربي وأقطاره فتكمل مسيرتها وأهدافها بالاستفـــادة من التطور الحاصل فـــي ميادين التعليم الأخرى في شحذ هممها وفتح الآفاق أمامهـــا لتطوير عملها، واستخدام وسائـــل الاتصال الحديثة فـــي تواصلها مع الجامعات العربيـــة من جهة ومـــع التجارب المشتركة مـــن جهة أخرى ومع الجامعـــات ودور البحث العالمية أيضاً.

إن الأعمـــال الكبيرة تحتاج إلى جهود نخبويـــة مخلصة مستندة إلى رؤى علمية تشعّ فيها روح المعاصرة والوطنية والدفاع عن الهوية والذات.

إن نظـــرة إلى تقارير التنمية الإنسانية للأعوام الماضيـــة تحثّ كلّ صاحب ضمير وطني إلى صحوة معرفية تعمّم التعليم الراقي للانفتاح على العصر والتحرّر من قيود النمطية التي يرســـخ بها. ولاسيّما إذا عرفنا أن التقرير الذي جاء بعنوان «تحت إقامة مجتمع المعرفة في البلدان العربية» قد استشهد بكلام للمفكر الراحل إدوارد سعيد حين قال: «إن الزمن الراهن هو ساحة المعركة، والمعرفة هي سلاحنا».

وطبيعي أن الطريق الموصل إلى المعرفة هو التعليم، لكن أيّ تعليم؟ ويقول تقرير التنمية البشريـــة: إن عمليات نشر المعرفـــة في البلدان العربية في مجالاتها المختلفة التي يحدّدها

بالتنشئة والتعليم والإعلام والترجمة تواجه صعوبات كثيرة، أهمّها شحّ الإمكانات المتاحة للأفراد والأسر والمؤسسات (والتضييق الحكومي) على نشاطاتها.

الأمر الذي أثّر في فاعليتها وقصّر في إفساح مجالات المناخ المعرفي والمجتمعي اللازمين لإنتاج المعرفة. ويشير التقرير صراحة إلى أن أساليب التعليم المتّبعة تؤثّر سلباً في الثقة بالنفس والكفاءة الاجتماعية والشعور بالحريّة الفردية والاستقلال. كما يشير التقرير إلى أن أخطر مشكلات التعليم تتمثل في تردّي نوعيته.

كما يتحدث التقرير عن الإعلام العربي ووسائل الاتصال ويصنّفه دون مستوى تحدي مجتمع المعرفة ويحدّد عدد مستخدمي الإنترنت بنسبة (٦, ١٪) فحسب من سكان الوطن العربي (مع ملاحظة زيادة محدودة لهذه النسبة بعد تاريخ التقرير).

إن ما ورد في تقرير التنمية الإنسانية يؤكّد أهمية تطوير التعليم العالي في الوطن العربي وإخراجه من مأزقه الحالية، بدخول فضاءات جديدة تعتمد التكنولوجيا الحديثة، ودعم الجامعات الخاصة وفق أنظمة جديدة تؤمّن الدعم الحكومي والأهلي في إطار معايير الجودة وضبطها، وتطوير استخدام أدوات الاتصال الحديثة، ونشر وعي مجتمعي عام لقبول التعليم الافتراضي والمفتوح ضمن المفاهيم التي أكّدتها، وهي جامعةٌ عربية واحدة للتعليم الافتراضي مع اتفاقات دقيقة ونافذة مع جميع الجامعات العربية المنتسبة إلى اتحاد الجامعات العربية.

إن لغتنا الواحدة وطموحاتنا المشروعة وإمكانات الأساتذة والعلماء والباحثين الأكاديميين العرب، وانفتاح أمتنا الحضاري على العالم أجمع، وتقبّل التواصل والتبادل المعرفي معه، والقدرات الكبيرة التي تملكها أمتنا بأقطارها المتعددة تشكل كلّها قاعدة صالحة تؤهّله لعمل كبير في مجال التربية الافتراضية والتعليم الإلكتروني.

إن المنافسة بين الأشكال التعليمية الجديدة ستؤدّي إلى شحذ الهمم وتقديم أفضل ما لدى القائمين على هذه الأشكال من أساتذة وإداريين لتحقيق الأفضل ولإثبات الحضور الفاعل والمنتج والمبدع. إن التعليم الافتراضي بفضل مواصفاته المتلائمة مع طبيعة الحياة الجديدة سواء في الوقت أم في الاتصال أم تنمية مجالات التفكير والتحليل بشكل ذاتي وإيجابي يوسّع ملكة تحمّل المسؤولية المباشرة والانضباط الذاتي والمبادرة والدافعية، مما يؤكّد أن المستقبل سيكون لغلَبَة هذا النوع من التعليم على النمط التقليدي، والمجال يبقى

مفتوحاً بفضاءاته الواسعة شريطة خلق حالة من الوعي العام لدى المجتمع في استخدام تكنولوجيا الاتصالات، وتعريب المصطلحات، وخلق حالة من التواصل بين الجمهور العام وهذه الأنماط الجديدة، بحيث يتحوّل الجمهور كلّه إلى مؤيّد وداعم في حال تفهّمه استناداً إلى القاعدة التي تقول: «إن الإنسان عدو ما يجهل، وصديق ما يعرف».

في العودة إلى ما أصدره الفيلسوف التربوي الفرنسي إدغار فور صاحب فلسفة الإصلاح الاجتماعي في فرنسا التي أصدرها بعد أحداث أيار عام (١٩٦٨م) في فرنسا ورأى فيها: (أزمة ثقافية عاطلة عن الحركة في عالم متحوّل، ومعاناة لفراغ فكري كما يحدث في سائر الأزمات التاريخية). إذ إن المعروف أن إدغار فور حين دراسته لحلول الإصلاح الجامعي الذي قدّمه إلى الحكومة الفرنسية في أعقاب أحداث أيار عام (١٩٦٨م) توقّف عند مسألة الاصطفاء من خلال مفهومين مختلفين، فعارض مفهوم الاصطفاء الهادف إلى التصفية أي استبعاد عدد من الطلبة المتقدمين للدراسة الجامعية واستبقاء القسم الآخر، وأيّد مفهوم الاصطفاء بصورة ديمقراطية على بلوغ التربية العامة والتأهيل الخاص الذي يستطيعه. لذلك لم يشمل الإصلاح أو التطوير مجالاً واحداً في التعليم الجامعي.

وهذا الأمر يمكن أن نقيسه إلى واقع التعليم العالي لدينا فالتغيّر الجزئي هو ألدّ أعداء عمليات التطوير والإبداع، إذ إن أصحاب الاكتشافات والأفكار الإنسانية المبدعة كانوا أصحاب تفكير جذري عملوا في غير المألوف.

ومن هنا فإن افتتاح جامعات خاصة وميادين جديدة للتعليم العالي في إطار التربية الافتراضية والتعليم المفتوح، أو عن بُعد، ومعاهد مهنية متخصّصة، هي خطوات ليست جزئية فحسب للخروج من عنق النمطية السائدة، إنما هي عملية تغييرية أستطيع أن أسميها بالتفكير العملي في المستقبل، ومن ثمَّ القدرة على التفاؤل والحلم بدلاً من أن تفقدنا الظروف الراهنة والصعاب والأزمات القدرة على التعامل معها.

لكن أول ما يمكن تأكيده هو أهمية الدخول في هذه العوالم الجديدة بثقة وبتخطيط واضح يستند إلى الطاقات الزاخرة المخبوءة وإلى القدرة الكامنة في صنع مشروع المستقبل المرتكز على الإدارة والعقلانية والفهم العميق للعالم وتغيّراته.

إذ من المعروف أنه بقدر ما تشتدّ الصعوبات وتحتدّ الأزمات بقدر ما تستنفر الأمة طاقاتها وإمكاناتها، والقاعدة المشهورة تقول: التحديات الكبرى هي التي تصهر الشعوب

والأمم العظيمة وتشحذها. مستذكرين أيضاً نظريّة آرنولد توينبي في التحدي والاستجابة، وثقته التي عبّر عنها خلال زيارته إلى مصر بأن العرب قادرون على الاستجابة للتحديات التي يواجهونها بحكم ما يملكون من إرادة حرّة وتاريخ ومشاعر بطموح مشترك.

إن أخشى ما نخشاه هو حالة من الشكلانية أو التمثيل والادعاء بالسير نحو التطور والمستقبل دون أن يرافق ذلك عمل حقيقي يعتمد على بنية وأساس قوي، فتتحول الأمور إلى إجراءات لا معنى لها. تضاف إلى حالات الثبات المنتشرة فنضيف عبئاً إلى عبء. (وذلك ليس من قبيل التشاؤم إنما من قبيل الخشية والتحذير).

إن الحالة العربية القطرية المستندة إلى حساسيات لا معنى لها، وإلى مصالح ضيّقة لا ترى أبعد من أنفها. (مع التقدير لجهود اتحاد الجامعات العربية ولجهود المنظمات العربية الأخرى) تجعل الاتحادات والمنظمات تعيش حالة جامعة الدول العربية، ومن ثمّ فإنها تعيش حالة من الركود والعوائق الكبيرة. إنها حالة عجز الأنظمة العربية المسؤولة عن واقع التعليم العالي والبحث العلمي، كذلك نتطلع إلى مبادرات تقودها النخبة من أبناء هذا الوطن من علمائه ومفكريه وباحثيه لتجاوزها وتأسيس المرحلة العربية المستقبلية للتعليم العالي بكل أشكاله ومعه البحث العلمي بالطبع في إطار نظام تعليمي قادر على تحصين الإنسان وتأهيله النشط والفعّال مع عصره.

إن مساحة المتغيرات التي جاءت مع طوفان تكنولوجيا الاتصالات والحاسبات أعادت صياغة العالم، فهل يعيد العلماء العرب صياغة التعليم العالي العربي إن ذلك ليس حلماً، ومؤشراته في المبادرات الخاصة التي قادها متنورون افتتحوا من خلالها جامعات خاصة وميادين للتعليم الإلكتروني والمفتوح تؤكّد واقعية هذا الأمر.

نقول ذلك لأننا لا نزال نخشى على التجارب القطرية ونرى في بعضها خطوات جريئة واضحة الأهداف، ولكن، بصراحة، في بعضها الآخر شكلانية ومصلحة تجارية بحتة.

إن التعليم الافتراضي المستند إلى الأساليب الإلكترونية يستطيع أن يستفيد من تجارب الجامعات العربية وتجاربها لكنه لا بد من أن ينطلق انطلاقة جديدة طارحاً الأسئلة والإشكالات الجوهريّة في الأسلوب والمنهج والاختصاصات، والميادين تتلاءم وهذا النوع من التعليم وهذا الفضاء الواسع له مع متطلبات الحياة وتسارع تغيّراتها وتواصلها مع العالم كله.

المصادر والمراجع

(١)- أحمد أنور عمر، محمود عرفة: مشروع الشبكة العربية للمعلومات، دراسة مقارنة بين الاتحاد الأوروبي والمجتمع الأمريكي والوطن العربية، الألكسو ١٩٩٦م، تونس.

(٢)- د. السيد ياسين: ثورة المعلوماتية، جريدة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٩/٩/٢٣م.

(٣)- فرانك كيلش: ثورة الأنفوميديا، ترجمة: حسام الدين زكريا، عالم المعرفة، كانون الثاني، ٢٠٠٠م، العدد ٢٥٣، الكويت.

(٤)- د. نبيل علي ود. نادية حجازي: الفجوة الرقمية، عالم المعرفة، آب ٢٠٠٥م، العدد ٣١٨، الكويت.

(٥)- حلواني فادية المليح: آراء في الأدب والتعليم والمرأة، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٢م.

(٦)- إدغار فور: فلسفة الإصلاح الجامعي، ترجمة: هشام دياب، وزارة التعليم العالي، دمشق.

(٧)- د. عبد العزيز شرف: الأجناس الإعلامية وتطوير الحضارات الاتصالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٨)- د. بسمان فيصل محجوب: إدارة الجامعات العربية للتنمية الإدارية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٩)- منشورات الشبكة العربية للتعليم عن بعد، أعوام ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، عمان.

(١٠)- د هيثم غالب الناهي: الدولة وخفايا إخفاق مأسستها، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠١٦م.

الأمثال في حياتنا

د. عبد الكريم محمد حسين

في القرآن نجد آيتين تلتفان بالأمثال هما: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

ففي الآية الأولى جعل أثر القرآن في تمثيل هيئة الجبل بهيئة الإنسان الخاشع، وجعل (لو) قيداً، بمعنى لو افترضنا أن القرآن أُنزل على جبلٍ لكان كالإنسان المؤمن خاشعاً خاضعاً لأوامره، فهو كتاب قادر على بعث الحياة في الجماد؛ فتأثيره في الإنسان من باب أولى... وهو تمثيل يثير جدلاً بين استجابة غير العاقل وتمنع بعض العقلاء، واستجابة الجماد، وتمنع الأحياء، فتقابل فريق الاستجابة وفريق العناد، كما تقابلت هيئة الجبل وهيئة الإنسان الخاشع في رؤية عميقة تبرز أن جانب الإنسان المأخوذ من تراب الأرض، ولو كان من جبلة الصخور الجبلية يخشع لله كما يخشع المؤمن، فما بال غير المؤمن لا يستجيب ليحقق معنى التناغم الكوني بينه وبين الجبال المنيعة العالية التي لا تهزها الريح العاتية مما يدعو للتفكر في استجابة الطبيعة لله وخضوعها لأوامره، وانقسام مواقف الناس منها إلى مستجيب أو معاند أو غير مبالٍ مما يدعو إلى التفكر.

وفي الآية الأخرى نجد أن الأمثال التي يضربها القرآن ببيت العنكبوت لا يصل إلى آفاق التمثيل بها إلا العالمون بأحوال العنكبوت ونسجها ومدى صلابته قياساً بعالم العناكب

واحتماء هذا المخلوق به وضعفه قياساً بعقول البشر، مما يجعل الأمثال من بوابة الاستعارات التمثيليــة والهيئات التمثيلية مفتقرة إلى أبصار العلماء وبصائرهم (تفكيرهم وعقولهم)، وأن العقــل يبلغ بالتفكير ما لم يبلغــه التفكير غير المؤيد بالعقل. ومعلــوم أن العقل آلة تتفاوت طاقتهــا مــن إنسان إلى إنسان. والمثل هنا ببعض معانيــه وأحواله في رؤانا الدينية... وهي صور من صور الأمثال وهيئة من هيئاتها.

المثـل في بـوادينـا

يقــول أبناء القبائل العربية فــي الجولان: (المثل نبي) أي يشبه أقــوال الأنبياء من جهة صدقهــا عندهم، وهي تشبــه كلام الأنبياء في حديثها عن المستقبل، فأنت تقول لابنك، وهو يتغافل عن دروسه، اسمع يا بني ما يقوله المثل: (من جدَّ وجد، ومن زرع حصد) تريد أن تقول لــه: مــن جد في عمله وجد ثمرة العمل على قدر اجتهاده فيه، كما أن الفلاح يَجِدُّ في زراعة حقله وتعشيبه، وحمايته من القوارض والحشرات أو الآفات، فيجدُ ثمرة عمله في حصاده.

فهــذا الكلام مشتق من ملاحظة الواقع ومراقبته، وهو كلام وجيز يشبه كلام الأنبياء من هذه الجهة، ويحمل تجارب المتقدمين الذين اجتهدوا في أعمالهم -مهما تكن تلك الأعمال- فوجــدوا ثمار أعمالهم بين أيديهــم، وهو في واقعيته يشبه كلام رسائــل الأنبياء **﴿وأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾**(النجم: ٣٩).

والمخاطب سيجــد في المستقبل ثمرة تعبه بمقدار علمه بما بذل، وبمقدار ما بذل على بركــةٍ ولذةٍ يجدها فــي الثمر؛ لأنها من عمل يده، وكذلك الفلاح فــي زراعة حرثة وحصاده وما بين الزراعة والحصاد.

وتعاليــم الأمثال لا تختص بالماضي وحــده، ولا تقف على الحاضر دون المستقبل، لأنها مشتقة من تجارب النــاس التي تتجدد بتجدد الأجيال، وتأتي الأمثال حكمة تداوي علة مرة، وتــارة تقع مواقع الدواء من الداء فتجتثه، وأخرى تأخــذ منازلها في العقول فتمنع صاحبها من مصاحبة الحاسد العاجز والكسول، وتطلق نياقه من عقالها مع الريح لتكتشف ما حولها، فتكــون صور الأمثال في النفوس حاجزاً مانعاً من الهلاك كما تمنع الآيات حامليها المؤمنين بها من الوقوع في الزلل والإجرام، وربما كانت الأمثال لصيقة بأعراف العرب في مثلها النابتة مــن واقعهم تؤلف قيماً حارسةً معانيَ الشرف ومفاهيم العيب بنصوص تشبه كلام الأنبياء أو كتبهــم المنزّلة من السماء، وهي نصوص تُروَى كما سمعــت أول مرة، لا يُعتذر من ميلها عن

الفصحى في قليل أو كثير، ولا من شجاعتها في تعبيرها عن حقائق الحياة كما يبصرها أهلها.

فهم يحافظون على نصها كما يحافظ أهل الكتب السماوية على كتبهم، بل هي أناجيلهم التي في صدورهم، وهم حماتها وحاملوها فيما بينهم، ومورثوها لأبنائهم.

إذا كانت الأمثال كذلك فما موقعها من معاجمنا العربية الفصحى؟! والأمثال جزء من حياتنا تسكن قلوبنا، وتجري على ألسنتنا كما يجري ماء السيل في السهول الممتدة على امتداد الأبصار واختلاف الأمصار وتضاريس الجبال والوديان والقيعان.

المثل من معاجمنا

المعنى اللغوي قاعدة يبنى عليها المعنى الاصطلاحي، وهو يكشف عن طبيعة المثل في صفاته أو مقاصده؛ لأن التسمية بجزء من المعنى أو صفة من صفاته، وقد قال أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ):

(مَثَلَ) الْمِيمُ وَالثَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُنَاظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ.

وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَيْ نَظِيرُهُ، وَالْمِثْلُ وَالْمِثَالُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ. وَرُبَّمَا قَالُوا مَثِيلٌ كَشَبِيهٍ. تَقُولُ الْعَرَبُ: أَمْثَلَ السُّلْطَانُ فُلَانًا: قَتَلَهُ قَوَدًا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ فَعَلَهُ.

الْمَثَلُ: الْمِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهٍ وَشِبْهٍ.

وَالْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ يُذْكَرُ مُوَرًّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى...

وَالْمِثَالُ: «الْفِرَاشُ وَالْجَمْعُ مُثُلٌ، وَهُوَ شَيْءٌ يُمَاثِلُ مَا تَحْتَهُ أَوْ فَوْقَهُ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ بَنِي فُلَانٍ: أَدْنَاهُمْ لِلْخَيْرِ، أَيْ إِنَّهُ مُمَاثِلٌ لِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ. وَهَؤُلَاءِ أَمَاثِلُ الْقَوْمِ، أَي: خِيَارُهُمْ».

فأول كلام ابن فارس الكشف عن طبيعة المثَل في معناه أنه مبني على قياس حال بحال، وقصة بقصة، لقوله: (مُنَاظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ) أي التوازي والتقابل، مما يومئ إلى أن للأمثال مصدراً صدرت به أول مرة، فكان المثل كلاماً وجيزاً اشتق من تلك التجربة، مثال ذلك، قولهم: «ويروى عن عَبيد بن شرية أنه قال: أول من قال: سبق السيف العذل، حريم بن نوفل الهمداني، وذلك أن النعمان بن ثواب العبدي كان له بنون: سعد وسعيد وساعدة».

فأما سعد فكان شجاعاً بطلاً، وأما سعيد فكان جواداً سمحاً ذا أحواز وصنائع، وأما ساعدة فكان صاحب شراب وندمان، وكان أبوهم النعمان ذا شرف وحكمة، وكان يوصيهم، ويحملهم



علـــى أدبه، فقال لسعد – وكان صاحب حـــرب–: إن الصارم ينبو، والجواد يكبو، والأثر يعفو، والحليم يهفو...

ثم قال لسعيد – وكان جواداً–: يا بني، إنه قد يبخل الجواد، ويصلد الزناد، وتجمد الثماد. وتمحل البلاد، فلا تدع أن تجرب إخوانك وتبلو أخدانك.

ثم قال لساعدة: يا بني إن كثرة الشرب تفسد القلب، وتقل الكسب، وتحدث اللعب، فانظر نديمك،...

ثـــم إن النعمان توفَّى، فقال سعيد: لآخذن بأدب أبي، وأبلو أوثق إخواني في نفسي، فعمد إلـــى كبشـــ فذبحه. ثم أضجعه في قبته، وغشاه ثوباً، ثم دعـــا رجلاً كان من أوثق إخوانه في نفســـه، فقـــال: يا أبا فلان إنما أخوك من صدقك بعهـــده، وحاطك برفده، وقام معك يجهده وسَوَّاك بولده، قال: صدقت. قال: إني قتلت فلاناً فما عندك؟ فقال: يا للسوأة السوءاء وقعت فيها، وانغمست، فتريد ماذا؟

قـــال: أحب أن تعينني عليه حتى أغيبه، وأجِنَّه، قال: لستُ لك في ذلك بصاحبٍ، ثم تركه، وانطلق، فدعا سعيد رجلاً آخر من إخوانه، يقال له: حريم بن نوفل الهمداني، فقال: يا حريم مـــا عندك؟ قال: ما يسرك. قال: فإنـــي قتلت فلاناً، قال: فتريد ماذا؟ قال: تعينني عليه حتى أغيبـــه، قال: لهانَ ما فزعتَ فيه إلى أخيك؛ ثم قال –وعبد لسعيد عنده–: هل اطّلع على هذا غيـــر عبدك هذا؟ قال: لا. فأهوى حريم إلى العبد بالسيـــف فقتله، وقال «ليس عبد بأخ لك» ففزع لذلك سعيد، وقال: ما صنعتُ؟ إنما أردت تجربتك، قال حريم: «سبق السيف العَذَل».

الحكاية أن سعيداً وإخوانه تلقوا وصية أبيهم بأن الشدائد تكشف معادن الأصدق ما كان زائفاً، وما كان صنو الود والصفاء بالماء لا تغيره الأحوال العارضات، ولا تبدله العلل المنهكات، والصديق الزائف ينكشف معدنه في مواجهة مواقف الحياة، فاختبر سعيد صديقين له ليكشف عن مغزى وصية أبية، فكان المقدم عنده من أصحابه أولَ من اختبره بإخباره أنه قتل رجلاً، وهو في الحقيقة قتل كبشاً من الغنم، فتهرب منه، وأخلى ظهره من حمله، وما ينتظره، ثم ذهب إلى صديق آخر يسمى حريماً، فوجد فيه صدق الموقف، فسأله حريم: هل يعلم بفعلك أحد غيري، وغير عبدك هذا؟ فأجابه سعيد: لا... فاستل سيفه فقتل العبد خشية أن يعلم أحد بالخبر سواهما، فلما قتل العبد ندم سعيد، وتغير وجهه، فسأله صاحبه عن سر ذلك اللوم الذي يبديه من قتل عبده، وهو إنما يريد صيانة السر والحفاظ على الصديق، فأجابه سعيد: ليس ههنا قتل، وأخبره الخبر، فقال له حريم: سبق السيف العذل، فذهبت مثلاً بين الناس، والسبب بتعجله في قتل العبد استبعاده أن يكذب عليه ولو مختبراً؛ ولا شك أن الاختبار زلزل أثواب الصداقة بينهما؛ لأنه دال على شك سعيد في باطن، وثقة حريم بصدق أعلى من ثقة صاحبه به.

فمورد المثل هنا بمناسبة قوله أول مرة، أي: في مولده، وهو جزء من التاريخ البشري والأحوال المتباينة في بيان اختلاف الأصدقاء بأوقات الشدائد، فمنهم من تفتقده فلا تجده، ومنهم من تجده حولك ومعك.

ومضرب المثل متجدد وحاضر في كل لوم على فعل متأخر، فأظهر حزمه بقتل الشاهد، وأظهر الندم على فعله، ولم يكن يعلم أن الأمر تجربة لموقفه، فندم على تعجله، والسيف لا عودة لحكمه إذا فعل فعله، وتأخر علمه عن أوان الفعل نفسه، فمورد المثل ثابت، ومضربه متجدد لتجدد الأحوال المشابهة في المواقف الإنسانية.

والمثل جاء نتيجة لمواقف الأولاد في الحياة ووصايا أبيهم لكل واحد منهم بما يخصه، وجمعهم فيما يخص الأصحاب، وكادت كل جملة مفيدة تؤلف مثلاً، لكن الجملة الأخيرة سارت في الناس عامة مثقفين وأميين في الأجيال العربية كلها من بعد ذلك...

مما تقدم يتبين أن الأمثال تسكن مقاصد الكتب السماوية ومنها القرآن في بيان الخير أو الكشف عن الشر، وتكمن الأمثال في صدور أبناء القبائل بمراتب الأنبياء عند المؤمنين بالغيب، وتختلج الحياة في منعطفاتها الكبرى بسيل من الأمثال كما في وصية النعمان بن

ثــواب العبدي لبنية فكانت الأمثال برتبة قوارير الدواء لأحوال كلٍّ منهم، وللعلة التي لا يخلو منها أحد في أصدقائه.

فالأمثــال تعيشــ فينا، وتعيش معنا، وتمتد منا إلينا وتسكن فــي أنفاسنا على مائدة لقاء الأجيال وإفادة بعضها من بعض، وهي معنا في لقائنا على الخير وافتراقنا عليه.

المراجع

(١)- فصــل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (-٤٨٧هـ) وهو شرح لكتاب الأمثال، لأبي عبيد القاســم بــن سلام (- ٢٢٤هـ) حققــه: د. إحسان عباس، ود. عبد المجيد عابديــن، بيروت، دار الأمانة، ومؤسسة الرسالة، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

(٢)- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (-٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

الإشارات الفَلَكيّة

في شعر محمّد الفراتي (١٨٩٠- ١٩٧٨م)

سراج جراد


محمد الفراتي

الشّاعرُ محمّد الفراتي شاعرُ الفرات وقامتُه الشّامخة، وهو الذّاكرة الّتي لن ينساها التّاريخ، عَلَمُ وادينا من أقصاه إلى أقصاه، هو الحياة بفنونها المختلفة متجسِّدة في شخصه. وربّما عرف كثيرٌ من أبناء الفرات الأستاذ محمّد الفراتي شاعراً من خلال قصائده المشهورة في الفرات الخالد، وقلّما تجد أحداً من أبناء هذا الوادي لا يحفظ شيئاً من هذا الشِّعر.

وقد عُرف بالفراتي لأنّه كان يوقِّع قصائده عند نشرها بهذا الاسم عندما كان في مصر طالباً للعلم، وقد اكتسبه من الرّواق الشّاميّ في الأزهر، إذ كان ينسب نفسه إلى الفرات، حتّى غلب على اسمه الحقيقيّ: محمّد بن عَطا الله بن محمود.

وفي هذه الدّراسة عن الفراتي أريد أن أسلِّط الضوء على جانب يخفى على كثيرين، فكلّ الّذين عرفوه أو سمعوا به من خلال أشعاره الّتي انتشرت في وادي الفرات ومصر والعراق، عرفوه شاعراً متميِّزاً ومهتمّاً باللغة الفارسيَّة وآدابها، ولم يعرفوه مهتمّاً بعلوم الفلك، وما يحيط بها من قضايا التّأمّل والتّفكّر، إلّا المختصّين منهم الّذين رأوا في شعر الفراتي فلسفة كونيّة عظيمة، لا ينطق بها أيّ إنسان، إلّا إذا كان مهتمّاً، ومثقّفاً بهذه العلوم المهمّة.

علاقة الفراتي بعلم الفلك

الشَّاعــر محمّد الفراتي شخصيّة مهمّة في وادي الفرات السوري، ملأ شعرُه الآفاق شأنه شــأن كثير من الشّعراء، وكـلُّ مَن كتب عن الفراتي وآثاره ومؤلفاته ذكر الدواوين الشِّعرية، ثم أشــار إلى ما تركه من مخطوطات كثيرة عند أبنائه أو غيرهم، ولم يأتِ ذكر لاهتمام الفراتي بالفلــك، وكتابته في هذا المجال، إلا النزر اليسير متفرقــاً بين ثنايا الكتب والمقالات التي تحدثــت في الفراتي، فالأستاذ أحمد شوحان في كتابه «محمد الفراتي شاعر وادي الفرات» ذكر من بين مؤلّفات الفراتي تفسيرَ الآيات الكونيّة «وهو تفسيرٌ نفيسٌ للآيات الّتي تبحث عن الكــون، وما حوى من كواكب ونجوم ومجــرّات ضخمة، قام الفراتي بتفسيرها تفسيراً علميّاً، يعتمــد علــى علم الفلك، وقابلها على أحدث نظريّات علم الفلــك الحديثة، والكتاب ما يزال مخطوطاً».

ومن بين الّذيــن كتبوا عن الفراتي كتابةً منهجيّة أكاديميّــة موثّقة ودقيقة الدّكتور شاهر أمرير في كتابــه القيِّم «الفراتي: حياته وشعره»، ذكر فيه أنّ الشّاعر ترك مخطوطات كثيرة، يوجد قسم منها لدى الدّكتور إبراهيم الكيلاني وقسم آخر لدى أبنائه.

وأورد الأستــاذ عبد الفتاح قلعه جي في مقالته «رَبابــة الفرات: الشّاعر محمّد الفراتي» ذكراً لإحدى مخطوطاته بعنوان «إعجاز القرآن»، فقد قال: «أسهم في تكوين شخصية الفراتي الثقافية عدة عوامل منها بيئته الفراتية الجميلة الهادئة والمحافظة، وثقافته الدينية والأدبية ذات الطابــع الأزهــري، ودراسته لعلم الهيئة – الفلك– وقد استفــاد منها في دراسته للقرآن الكريــم في كتابه «إعجاز القرآن في الآيــات الكونية وتطبيقها على النظريات الفلكية»، وقد كان لاهتمامه بالدراسات الفلكيّة القديمة والحديثة تأثير في اتجاهات إبداعه الشعري».

وأشــار الدكتور حسين جمعــة إلى اهتمام الشّاعر بعلم الفلك إشــارة بسيطة في دراسته «الفراتــي في قصيدته الكوميديــا السّماويّة»(1)، فقد وصفه بعالم الفلــك والشاعر الفلكي، وأشار إلى انشغال الشاعر بالمراصد الفلكية وبما فيها من مناظير وتلسكوبات.

وللفراتــيّ نفسه آراء خاصّة في هــذا المجال، ففي إجابته عن سؤال الشاعر عبد المنعم الرحبــي له: هــل صحيح بأنك من مواليــد (١٨٩٠م)؟ أجاب قائلاً: «أنــا لا أقبل إلا التاريخ القمــريّ، لأنَّه تاريخ العرب، وإن كانت السنة الشمسيّة هــي الصحيحة فلكيّاً، وأنا أفضِّل أن يكون عمري عربيّاً».

وفـــي حوار له أجراه معه الفنّان فاتح المدرِّس فـــي جريدة الثورة قال: «أصبحت لا أنظر إلـــى ظواهر الأمور، دون أن أتحرّى الحقائـــق التي وضع نظامها الدقيق في هذا العالم، هذه هي نظرتي من ذلك الوقت، ما كنت أقتصر على ما أراه في هذا الكوكب، الذي يجهل جماله الساحـــر أكثر سكانه، هذا الكوكـــب، لا أعرف ولا يعرف كلّ من درس العوالم التي تحيط بنا، أجمـــل منه، ولا ألطف، لأنَّ كل ما توصَّل إليـــه العلم إلى الآن هو رؤية الكواكب السيّارة، رؤية مظاهرهـــا فحسب لما فيها من جمال، لذا المجهـــول عدم، وما دام العلم إلى الآن، أو علماء الفلك خاصة، ما توصلوا أو اكتشفوا اكتشافاً صحيحاً غير القمر».

وعن سؤاله: هل يمكن للمكان أن يحتوي الزمان؟ أجاب الفراتي: «المكان، مثلاً الكرة الأرضية، هـــذا الكوكب، فهو متحـــرك بحركة يومية، يقطع فيهـــا على نفسه (٢٧) كيلو متـــراً في الدقيقة الواحـــدة، نتيجة الليـــل والنهار، ويقطع حول الشمس في حركتـــه السنوية (١٥٠٠كم) في الدقيقة وينتج منها الفصول الأربعة، وأما الحركة الثالثة، ولا يعرفها إلا الأقل من القليل ممن يشتغلون في علم الفلك، هي الحركة الثالثة حركة الشمس حول مركز المجرة، هي وبناتها، أي السيارات أخوات الأرض، تتحرك مع أمها الشَّمس بالثانية الواحدة من ٣٠ ألف كم، ولا تتمّ دورتها حول المركز إلا إذا تحركت الأرض حولها (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) دورة (الدورة سنة)، وبإجماع أكثر علماء الفلك.

وبالإضافة إلى كل ما عرضته فإن ما نشره الفراتي على صفحات مجلّة التمدّن الإسلامي وغيرهـــا يؤكّـــد قطعـــاً أنّه كان على علم تـــامّ ودراية كاملـــة بعلم الفلك وتاريخـــه ونظرياته ومصطلحاته وأعلامه.

ومن غير المعروف، بعد هذا كلّه، أين درس الفراتي علم الفلك؟ فهو لم يصرِّح بذلك، ولم يُذكـــر عن أحد قولٌ، أو نقلَ كـــلامٌ بهذا الشأن، سوى بعض الأقوال الشفويّة التي تؤكِّد دراسة الفراتـــي لعلم الهيئة (الفلك) في مصر مدّة ثلاث سنوات قبل التحاقه بالأزهر لدراسة العلوم الشَّرعية، ولكن للأسف، لا يوجد ما يوثِّق هذا القول سوى ما ذكره الأستاذ عبد الفتّاح القلعه جـــي في مقالته الآنفة الذّكر «ربابة الفرات: الشاعـــر محمد الفراتي». وعلى الأرجح أنّه قد تعلَّـــم علم الفلك بمفرده، إذ إنّه ليس من الصَّعب على مَن يتعلَّم اللّغة الفارسيّة وحده ويترجم أشعـــار كبار الكتَّاب الفرس ونثرهم، أن يتعلَّـــم علماً بمفرده يُعينه على ما عُرف عنه من ذكاء وحافظة سريعة. ولهذا كان من الطبيعي أن تظهر إشارات فلكيّة كثيرة في شعره، وأن يوظف ما تعلّمه وحفظه من علم الفلك في صياغة معانيه وفكره.

مخطوط الفراتي في علم الفَلَك

المخطوط مؤلَّف من (٢٣ صفحة)، من القطع الصَّغير، مرقَّمة من الأعلى من (١ إلى ٢٣)، كُتبت على دفتر كتابة عادي مسطَّر، في كلِّ صفحة يوجد من (٢٠ إلى ٢٣ سطراً)، وفي كلِّ سطر يوجد (١٠- ١٣ كلمة تقريباً)، والأوراق من قياس (١٥- ٢١) وقد كُتب بخط واضح مقروء، ولا نعلم إن كان الفراتي دوَّنه بيده أم أملاه على أحد من تلامذته أو أبنائه، علماً أنَّه عُرف باهتمامه بتدوين كتبه بخطه الذي لا لبس فيه ولا غموض، ومن يطَّلع على النسخة الأصليّة من المخطوط قلّما يجد كلمة غير واضحة المعالم، بل كانت جميع الكلمات مقروءة ومفهومة وخالية من الحواشي، وقد جاءت أوراقه مرتبة دون خلل من بدايته وحتى نهايته، بخط حبرٍ أسود، ويكاد يخلو من الهوامش والحواشي.

في صفحة (الغلاف) عنوان المخطوط، كتب بخطٍّ واضح: (**تفسير الآيات الكونية وتطبيقها على أحدث نظريات علم الفلك**)، ولم يذكر أي شيء معها.

وفي الصفحة التالية منه (الصفحة الأولى) يضع الكاتب بين قوسين عنوان (المقدمة)، وإلى يسارها رقم (١) إشارة إلى تعداد الصفحات، وتحت عنوان جانبي (**تاريخ علم الفلك**)، ثم يقول: «إن أقدم الآثار الفلكية التي عرفها الباحثون هو الهرم الأكبر الذي بناه (خوفو) (٣٠٠٠ ق.م) وقد تبيَّن للعلماء الباحثين أنَّه مزولة فلكية لمعرفة الفصول، وأوقات الزراعة في دلتا النيل، وأقدمها عند اليونان آراء سقراط (٤٧٠ ق.م).

وإن آراء أولئك القدامى من اليونان، كانت تشير إلى أن موقع الشَّمس في وسط الكون.

ولكن صورة الكون الغالبة على الأقل في أذهان أهل العلم إلى القرن السَّادس عشر كانت هي الصورة التي وضعها كلوديوس بطليموس الإسكندري نحو عام (١٥٠م).

وتمثِّل هذه الصورة الأرض كرة كبيرة مثبتة في مركز الكون يدور حولها القمر والشمس والكواكب السيارة والنجوم، ووافقه كل من علماء عصره على هذه النظرية المغلوطة، وظلَّ النَّاس يعتقدون صحتها حتى ظهور العالم البولونيّ (**كوبر نيكوس**) في القرن السّادس عشر للميلادي ونشر رأيه الجديد.

لم تستطع نظرية بطليموس أن تفسِّر بصورة مقنعة حركات السيارات الشاذة، ولذلك كان العلماء النابهون يبحثون منذ القدم عن نظرية أخرى أو ذيل لنظرية بطليموس يزيل هذا الإشكال، فحاز كوبر نيكوس شرف وضع نظريته.

وتتلخَّص نظريته أوّلاً: إنَّ الأرض تدور على محورها دورة كاملة. «انتهى كلام الصفحة الأولى».

وفي الصفحة الوسطى من المخطوط ورقمها (١٥)، يبدأ الفراتي كلامه بقوله: «ونحن نقف هنا قليلاً من تأويله معنى اللام والمستقرّ، فقد جعل اللام بمعنى (إلى) وجعل المستقر يصلح أن يكون اسماً للزمان واسماً للمكان، وكلُّ هذا لا غبار عليه، إلا أنّه لم يتعرض لاشتقاق المستقر من الاستقرار وهو ضد الاضطراب، وإنني أرى على هذا أن الشمس تجري إلى مكان استقرارها وهو مركز فلكها العظيم الذي سبق أنه في برج الرامي، ولولا شدة جذب ذلك المركز لها ومقاومتها له بسرعة حركتها الهائلة حوله لاضطربت في فضاء هذا الكون ولتوارت في ظلماته التي لا تنتهي عند حدّ، وذلك تقدير العزيز العليم.

وإن جعل جَريَها بمعنى حركتها على محورها فيكون المستقرُّ أيضاً بمعنى المكان الذي فيه، أي تدور في مكانها. (**انتهى كلام الصفحة ١٥**).

ويوجد في السَّطر الرابع من الأخير محو لكلمة (المعنى، وتصحيحها بـ معنى).

وفي الصفحة الأخيرة: وهي نهاية بحث يتكلَّم عن المنازل التي يتداولها النَّاس موروثاً شعبياً وهو من علوم الفلك وهذه بعض شروحاته، والصفحة رقم (٢٣) من المخطوط، مؤلَّفة من (١٣ سطراً)، يبدأ كلامه قائلاً:

٢٦- **سعد الأخبية**: أربعة كواكب من القدر الثالث ومن كواكب الرامي على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا وللرابع وسطه وهو السعد والثلاث خباؤه ويطلع بالفجر في (...).

٢٧- **الفرغ المقدم**: كوكبان نيّران من القدر الثاني بينهما قدر رمح، فالجنوبي منهما على متن الفرس الأكبر المجنح، والشمالي على منكبه ويطلع بالفجر.

الفرغ المؤخر: كوكبان نيّران من القدر الثاني بينهما قيد رمح أيضاً، فالجنوبي منهما على جناح الفرس، والشمالي مشترك بين سرته ورأس المسلسلة ويطلع بالفجر في (...) (**ما بين الأقواس فراغ في المخطوط كذلك**).

٢٨- **بطن الحوت**: ويقال له الرشاء وقلب الحوت أيضاً، كوكب نيِّر من القدر الثالث على جنب المرأة المسلسلة ويطلع بالفجر في (...).

وهذه المنازل الثمانية والعشرون، تسمي العرب الأربعة عشر الشمالية منها التي أولها الشرطان وآخرهما السماك (**شامية**)، والباقية منها التي أولها الغفر وآخرها بطن الحوت (**يمانية**).

الإشارات الفلكيّة في شعر محمّد الفراتي

يحفل شعر الفراتي بذكر العوالم والأفلاك، ولا يأتي هذا عن عبث وإنما يرجع لاهتمامه أولاً بعلم الفلك بشكل عام وثقافته الواسعة في هذا المجال، وفي ديوانه «الهواجس» نجده يدوِّن مجموعة كبيرة من القصائد التي تتكلَّم عن الأرض والشمس والزهرة والمشتري وزحل ونبتون وبلوتو، بل نجد في شعره مناجاة يبثها الشاعر أحزانه لتلك الكواكب التي يتكلَّم عنها، ويحطُّ على رحالها منقِّباً عن ذاتها في عالم الملكوت مترامي الأطراف، يخاطبها كوكباً كوكباً بحديث ذي شجون، يتأمل فيها حيناً، ويشكُّ فيها أحياناً، ثمَّ لا يلبث أن يعاود صحوته أو إغفاءته التي يمرُّ بها نتيجة الرواسب الفكرية والثقافية والعلمية التي أثَّرت كثيراً في تكوين شخصيته التي تتوق إلى التحليق في الفضاء الرحب، لأنّه ضاق بالأرض ذرعاً فلم يجد إلا هذا الكون الفسيح مجالاً له فيبثه شكواه التي يعاني منها على الأرض وكأنّه ينظر إلى السماء فيجد فيها سلوى لروحه الوثّابة، فلا يملك إلا أن يقول الشعر، وفي ذلك يقول الدكتور شاهر أمرير في كتابه «الفراتي: حياته وشعره»: «أغلب الظنّ أنَّ تأملات الفراتي، يكمن وراءها شعور عجيب مرير بالغربة في هذا المجال، وخوف من الآتي المجهول، وجهل بالمصير، يعزز ذلك معلومات فلكية ونظره في الفلك، وشغف في تلك الميادين اللامتناهية، وقراءات فلسفية متنوعة ولعل اختياره لعنوان الهواجس يعبِّر بوضوح عن القصد والنية في الانطلاق إلى أرجاء رحيبة تختلط فيها الأوراق وتتشابك الخيوط، يحتار الشاعر ويقلق، حين يتجاذبه الشكُّ واليقين، لقد تساءل عن العالم المحجوب المتمثِّل بالروح والغيبيات، وانطلق في أمدية الكون غير المحدودة».

والشواهد والأمثلة في شعر الفراتي كثيرة كثرة واضحة، ففي قصيدته «مناجاة» في ديوانه المذكور خاطب القمر مبيّناً جماله وحيرته في حسنه وبهائه قائلاً: (من مجزوء الرّجز)

يا قمري ما أجملك
ما غِبْتَ مذ دار الفلكْ
فكمْ طريقٍ سالك
أنرتَ في هذا الحَلَكْ
يا قمري ما أجملكْ
حيّرتَ فكري مذ بدا
حسنُك يزهو أبدا

وأنـــــت بـــــاقٍ ســـرمـــدا
تـــــروي حـــديـــثَ مـــن هـلـك
يـــا قـــمـــري مـــا أجـــمـلـكْ
فـــي الـــكـــون كـــلُّ كـوكـب
شـــقَّ حـــجـــابَ الـغـيـهـبِ
فـــهـــو لـــنـــا مـــنـــكَ نـبـي
بـالـــنـــور يـــهـــدي سـبـلـكْ
يـــا قـــمـــري مـــا أجـــمـلـك
يـــا مَـــن أدرتَ الـــســدمـا
قـــدمـــاً فـــشـــعَّـت أنـجـمـا
ســـبـحـانـك الـــلـــهـــم مـا
أجـــــلَّ عـــــنـــدي مـثـلـك
يـــا قـــمـــري مـــا أجـــمـلـك

وفـــي قصيدته «في هيكل التقديس» من الديوان نفسه، وقف الفراتي متأملاً عظمة صنع الخالـــق بديع السموات والأرض، وهو مقرٌّ بعبوديته للخالق العظيم الذي يشهد له بالوحدانية وكـــأن لســـان حاله يقول: وفي كلِّ شيء له آية تدلُّ على أنه واحدٌ، ثمَّ سطّر كلامه واصفاً هذه الأفلاك قائلاً: (من البسيط)

هـذي الـــدراري زيـنـت الـسـمـاءُ بـهـا
وكـم أضـاءت بـجـنـحِ الـلـيـل لـلـسـاري
أدرتـــهـــنَّ شـــمـــوســاً لا عـــــدادَ لـهـا
تـجـري إلـى غـايـة فـي كـلِّ مـضـمـارِ
واقـبـلْ خشوعي وتـهـيـامـي إلـيـك فـقـد
عـقـدتُ فـي هـيـكـلِ الـتـقـديـسِ زنّـاري

وفـــي قصيدته «الشاعر» التي أهداها إلى الصديق العبقري أحمد الصافي النجفي نجد أنـــه أسبغ عليه صفـــات كثيرة، ومنها أنّه كالنجم الذي ينير الطريـــق ليهتدي البشر، وصفات أخرى من عالم الفلك، كما في قوله: (من الخفيف)

تـخـذَ الـنـجـمَ فـي الـديـاجـي سـمـيـراً
لـــســـواهُ، بـــحـــبِّـــه لا يـــبـــوحُ

أنــت لـحـنُ الـخـلـود فـي دورةِ الأفـ
لاكِ بـل أنـــتَ صـوتُـه الـمـبـحـوحُ

وفـــي قصيدته «تأمل مراد الله» من الديوان نفسه أعمل الفراتي عقله وحلّق به باحثاً عن الحقائــق التـــي أراد الاهتداء إليها بالفكر الذي أودى به في نهاية المطاف إلى السقم، ولكنَّه في النهاية وجد مناه وغايته من حقيقة هذا الوجود من خلال تذليله للصعاب والعقبات التي يتجاوزها العقل إذا هُدي الرشاد: (من الطَّويل)

أقلـنـي إذا جـاوزتُ فـي بحثي الوهما
فإن اكتشافَ الغيبِ مقصدي الأسمى
فقد يـدرك الـمرءُ الحقيقةَ وحدَها
مـجـردةً فـي الـكـونِ لـو رُزقَ الفهما
يــرى الـمـرءُ فـي الآفــاقِ آيـــاتِ ربـه
فيقضي بـأن الــروحَ مـوجـودةٌ حتما
أجـلْ ذلـلَ العقـلُ المصاعبَ وارتقى
إلى منكبِ الجوزاءِ واستنـزلَ العصما

وفـــي قصيدته «يا ليـــل» مناجاة حقيقية بينه وبين الليل الذي بثــه أحزانه وشكواه، الليل الـــذي وقف الفراتي عنده كثيراً متأملاً آلاء الله من خلال نجومه التي تسبح في هذا الظلام الساكن الكبير:

يـــا لـــيـــلُ بــحـــرُك طـــامٍ
فـــيـــهِ الـــنـــجـــومُ تـــعـــومُ
الـــبـــعـــضُ قـــــالَ: شـــمـــوسٌ
والـــبـــعـــضُ قـــــالَ رجـــــومُ
فـــي الـــكـــونِ تـــجـــري أمـــــورٌ
مـــنـــهـــا تـــطـــيـــشُ الـــحـــلـــومُ

وفي قصيدته «حديث مع الكواكب» وصف لحقيقة الأفلاك وماهيَّتها وحيرته تجاهها في المقاطـــع المتتالية التي ذكر فيها الكواكب السيارة في المجموعـــة الشمسية، بالإضافة إلى الشموس المحيطة بها متمنياً لو كانت له تنقلات بين تلك الكواكب التي قرأ عنها وسمع بها: (من الوافر)

شموسٌ بالفضاء لها مدارُ
ثوابتُ لا يقرُّ لها قرارُ
نظنُّ بها متى زالَ النهارُ
لنحوِ الغربِ يعطفُها انحدارُ
وكم بالظنِّ نخلقُ ما نشاءُ
ولو أنّي على زحلٍ مقيم
رأيتُ الأرضَ من فوقي تعومُ
فيا للعلم ما هذي الرجومُ
تغيَّرت المعالمُ والرجومُ
ففي كلٍّ يلوحُ لنا اعتلاءُ

وسطَّر الفراتي بشعره ما قالته النظريات حول مركزية الشمس بالنسبة إلى المجموعات الشمسية، ولم يقف عند الأقوال والنظريات القديمة، فقال: (من الوافر)

ضلالٌ أن نقيمَ على القديمِ
ونحن اليومَ في عصرِ العلومِ
وقد كشفت خفيّاتُ النجومِ
فلو أنّي سُئلتُ عن الجحيم
أجبت فقلتُ جدتُنا ذُكاءُ

ثم قال يصف الشمس بحرِّها ولهيبها: (من الوافر)

ذكاءُ لهيبها يشوي الوجوها
ذكاءُ تحيّرَ العقلاءُ فيها
فكم عدَّتْ نجومٌ من بنيها
ينمُّ بها الظلامُ لراصديها
فيظهرُها ويخفيها الضّياءُ

وناجى الشاعر كوكب (نبتون) البعيد مستفسراً منه لعل عليه رجلاً رشيداً يخبره عن حقائق هذا الكون المعجز: (من الوافر)

أنبتونُ القصيُّ عن الحبيبِ
ألا هل فيك من رجلٍ لبيبٍ؟

فيخبرُنا عن العجبِ العجيبِ
متى لحناً له بعدَ الغروب
أهذي الأرضُ أم أنتِ السّماءُ؟
تحيَّر فيكَ يا نبتونُ فكري
فنحنُ وأنتَ حولَ الشّمسِ نجري
كلانا في السّماءِ وليتَ شِعري
أنهرٌ فوقَ أرضِكَ مثلَ نهري؟
تحفُّ به الجهالةُ والشّقاءُ

وطلب من كوكب (نبتون) أن يخبر كوكب (أورانوس) عن حاله التي آل إليها على الأرض، وذكر كواكب المجموعة الشمسية بعد ذلك واحداً واحداً: (من الوافر)

فصفْ لأخيكَ أورانوسَ حالي
فحالي بينَ قومي غيرُ حالِ
أهبتُ بهم فما سمعوا مقالي
لأنّ القومَ في قيلٍ وقالِ
بهم صممٌ قلوبهم هواءُ
أرى كيوانَ من فوقي يُدارُ
تحفُّ به كواكبُهُ الصّغارُ
فيا كيوانُ حلَّ بنا الدّمارُ
فما ندري إذا لاحَ النّهارُ
أصُبْحٌ نحنُ فيه أم مساءُ؟
أبِنْ للمشتري ما حلَّ فينا
فإنّا بالجهالة قد بُلينا
فيا أوطانُ من فمك اقذفينا
كُليْنَا يا كلابُ وجرجرينا
ومن يجهلْ فذاك له جزاءُ
إلى المرّيخِ أدفعُها حراراً
توقَّدُ من لظى الأحشاءِ نارا
فيا مرّيخُ لم أطقِ اصطبارا
لأنَّ القومَ قد أضحوا حيارى
حيارى الجهلِ داؤهم عياءُ

ألا يـا أرضُ يـا ذاتَ الـنّـتـاج
ويـا أمَّ الـمـنـيـرِ بـكـلِّ داجِ
لـطـرفِ الـعـلـمِ مـن جـرّاكِ سـاجٍ
فـيـا أخـتَ الـمـعـاركِ والـهـيـاجِ
ألـم يكفِ الـورى هـذا العنـاءُ؟

وأفرد الفراتي قصيدة لكوكب الزهرة كوكب الصبح، قائلاً فيها: (من مجزوء الرَّمل)

آهِ يـا (فـيـنـوسُ) يـا ربـ
ـبـةَ أربـابِ الـجـهـودِ
أنـتِ يـا زهـرة بـل يـا
نـجـمـة الـلـيـل الـولـيـد
كـم صـبـا قـلـبٌ إلـى مـر
آك فـي الـمـاضـي الـبـعـيـد
ورنـا طـرفٌ إلـى لأ
لائـك الـبـاهـي الـفـريـد

وشبّـه نفسه بالكوكب الذي يشرق من مكان ويغرب من مكـان آخر أحياناً في قوله: (من الرّمل).

أنـا فـي لـيـلِ شـقـائـي كـوكـبٌ
تـارةً أبـدو وطـوراً أغـربُ

وفي قصيدته «التاريخ والرجال» قال:

يـا راصـدَ الـشّـمـسِ وأضـرابـهـا
بـأيِّ صـوبٍ شـمـسُـنـا تـذكـرُ؟
أرى شـمـوسـاً مـحـدقـاتٍ بـنـا
يـخـطـئُـهـا الـعـدُّ فـلا تُـحـصَـرُ
لـكـلِّ شـمـسٍ عـالـمٌ مـثـلـنـا
ظـنّـي ومـن عـالـمِـنـا أكـبـرُ
نـحـسُّ أنَّ الأرضَ مـرهـونـةٌ
وهـي بـنـا تـجـري ولا نـشـعـرُ

واتخـذ الفراتي منهـج (ديكارت) في الشَّك باحثاً عن الحقيقـة متسائلاً: ماذا وراء هذه الأفـلاك العظيمة التي تجـري في الفضاء العظيم وما تحويه المجـرة من ملايين الكواكب السيـارة في المجرة التي هي عبارة عن ذرَّة صغيرة في ملكوت الله تعالى اللامتناهي؟ فقال في قصيدته «ماذا وراء اللانهاية؟»:

مـا الأرضُ فـي هـذا الفضا
ءِ الـرّحـب فـي مسـرحِ أُنسـي
مـا الشـمسُ؟ مـا مقـدارُهـا؟
مـا بيـن ألـفـي ألـفِ شمسِ
تـجـري ببـحـرِ اللانـهـا
يـةِ عـائـمـاتٍ ليـسَ ترسـي
لـم نُحـصِ مـا تـحـوي المجـر
ـرةُ مـن شـمـوسٍ حيـنَ تُمسـي
وأرى الـمـجـرةَ ذرةٌ
فـي الـكـونِ إذ يصـدقُ حِدْسـي
فـاللانـهـايـةُ قـد قـضـى
بـوجـودِهـا عـقـلـي وحسّـي

ولـم ينس الفراتي أن يقف عنـد كوكب الأرض (الكوكب الأم) واصفـاً إياه بالزهرة حيناً وبالأخ حيناً آخر، وهي أفضل الكواكب الموجودة على الإطلاق لما تحمله من مقومات انفردت بها عن بقية الكواكب، فقال في قصيدته «كوكب الأرض»: (من الخفيف)

لا تـحـقِّـرْ أرضـاً تـدبُّ عليـهـا
إنَّـمـا الأرضُ كـوكـبٌ فـي السّمـاءِ
هـي كـالـزهـرةِ الجـميـلـةِ إن لا
حَـتْ لـراءٍ فـي صبحِـهـا والمـسـاءِ
هـي أخـتُ المـرِّيـخِ إمـا تـبـدّى
يـتـلـظّـى بـفـحـمـةِ الظـلـمـاءِ
تـتـهـادى مـع الـتـوابـعِ طـراً
حـولَ أم الـشّـوابـكِ الحسـنـاءِ

يحتويها قلبُ المجرَّةِ تجري
سابحاتٍ به بلا إرساءِ
بفضاءِ الوجودِ مثلُ الفراشِ
حائمٌ حولَ شعلةٍ من ضياءِ
أفضلُ الكائناتِ طراً هي الأر
ضُ بما أنتجَتْ من الأحياءِ
عقمَ الكونُ وهي أمٌّ ولودٌ
يا لأمٍ نجيبةِ الأبناءِ
ولدت فكرةً وحسّاً وعقلاً
وشعوراً كالكوكبِ الوضّاءِ

وفي قصيدته «الكهرباء» قال:

يا أرضُ يا بنتَ السّما
وقيتِ من حرِّ الهجيرِ
أوحَتْ إليَّ سماؤكِ الـ
آياتِ في اليومِ المطيرِ
كم غيرَ بدرِ الأرضِ في
هذي العوالمِ من بدورِ
ولكم بها شمسٌ تنيرُ
بكلِّ حالكةِ السّتورِ
أكواكبَ الجوزاءِ في
جنحِ الظّلامِ لنا أنيري
وسلي لنا المرّيخَ ذا الـ
ـقمرينِ عن عددِ الشّهورِ
وصفي لنا ما فيهِ من
يبسٍ ومن بحرٍ غزيرِ
واستخبري أبناءَه
عن حالِ أصحابِ القبورِ

يا كهرباءةُ نحنُ من
هذي الحياةِ على شفيرِ

ومن خلال الموروث الثقافي والديني والفكري للفراتي سطّر ما ذكرَتْهُ النظريات الحديثة لعلم الفلك من أن السماوات هي سبع وكذلك الأرض مؤكداً في الوقت نفسه أن القرآن الكريم جاء بهذه الحقائق منذ مئات السنين فقال في قصيدته «السّماوات السبع»:

صدقَ اللهُ فالسّماواتُ سبعٌ
حسبما جاءَ في الكتابِ المبينِ
لم ترَ العينُ فوقَنا غيرَ سبعٍ
نيّراتٍ على ممرِّ السّنينِ
وأبانت لنا الحقيقةَ سبعاً
فوقَنا مذ مبدأ التّكوينِ
ومن الأرضِ مثلهن دحاها
الله سبعاً على قرار مكينِ
قطعاً إن أردت أو طبقاتٍ
فهي سبعٌ وعدٌّ عن تعييني
ليس بالظنِّ ما أَبَنْتُ فما لي
عندَ بحثي وترهاتِ الظُّنونِ
قد هداني لشرحِها مَنْ هداني
بعدَ جهلي لسرِّ هذا الدّينِ
كم بآيِ الكتابِ من معجزاتٍ
حارَ فكري بسرِّها المكنونِ

هذا هو الفراتي الشاعر المتأمِّل الذي ضاقت به الأرض مكاناً فلم يجد إلا الفضاء الرّحب له ميداناً واسع الأركان ليسطِّر ما يجول بفكره من خواطر وأشعار معتمداً في ذلك على ثقافةٍ واسعة وخيال خصب يحلّق في الأفلاك.

الهوامش

(١)- سمّى الدكتور حسين جمعة مقالته «الفراتي في الكوميديا السماوية» علماً أن الفراتي سماها «الكوميديا الإلهيـــة» وقد نشــرت في مجلة الحديث الحلبية، كانون الثاني وشبـــاط، ١٩٥٧م. وهي قصيدة تكلّم فيها الفراتـــي عن رحلة سماويّة خياليّة علميّة إلـــى عالم النّجوم والكواكب والمجرّات، طرح فيها مجموعة من النّتائـــج الكونيّة الطّويلة الّتي حصَّلها عن هذه الأفلاك، والفراتي في هذه الرّحلة قلَّد مجموعة الرّحلات الخياليّة الّتي قام بها مجموعة من الشّعراء قبله، أمثال أبي العلاء المعرّي في رسالة الغفران، وابن شُهيد فـــي التّوابع والزّوابع، و(دانتي) في الكوميديا الإلهيّة، و(ملتـــن) في الجنّة الضائعة أو الفردوس المفقود، والزّهاوي في ثورة في الجحيم، وجعل الفراتي في قصيدته الملحميّة «الكوميديا الإلهية» خلاصة تجاربه ومعارفه عن علم الفلك.

المراجع

(١)- مخطـــوط تفسير الآيات الكونية على أحـــدث نظريات علم الفلك، موجود عند ابن الشّاعر السيد طارق الفراتي، وحصلنا على صورة منه من حفيده الأستاذ رعد آصف الفراتي، الذي بادر مشكوراً إلى إطلاعنا عليهـــا، وأحبَّ نشره رغبة في زيـــادة التعريف بهذا الجانب المجهول من حياة الشاعر الفراتي، لأنه يتكلَّم عـــن تفسيره لبعض الآيـــات القرآنية معتمداً على ثقافته العالية في العلـــوم الفلكية واهتمامه بكلٍّ جديد وحديث في عصره.

(٢)- شوحان، أحمد: محمد الفراتي شاعر وادي الفرات، دار التراث في دير الزور، ١٩٨٥م..

(٣)- أمرير، شاهر: الفراتي: حياته وشعره، دار معد، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

(٤)- جمعـــة، حسين: الشّاعر محمّد الفراتي في الكوميديـــا السّماويّة، مجلّة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، العدد شباط، ١٩٩٦م.

(٥)- قلعـــه جي، عبد الفتّاح: ربابـــة الفرات: الشاعر محمد الفراتي، مجلة المعرفـــة، وزارة الثّقافة، دمشق، العدد (٥١٦) أيلول، ٢٠٠٦م.

(٦)- جريدة الثّورة، العدد (١٢٨٩٣)، كانون الأوّل، ٢٠٠٥م.

(٧)- مجلة التمدّن الإسلاميّ، ١٣٧٤ه.

(٨)- الفراتي، قصيدة (مناجاة)، ديوان الهواجس، مطبعة دمشق، ١٩٥٤م.

الجولان في الفضاء الروائي

«أدب الحرب نموذجاً»

د. أحمد علي محمد

ربّما لم يشكّل الجولان فضاءً روائياً قبل أن ينشر فارس زرزور قصةً بسيطة بعنوان «شجرة البُطم» في مجلة «الجندي» في أواخر أربعينيات القرن العشرين، ومعروف أنّ زرزور من مواليد مدينة دمشق ومن أهالي حي الميدان، ولد في ثلاثينيات القرن العشرين، وحاز الشهادة المتوسطة نحو عام (١٩٤٧م)، ليعيّن بعدها معلماً في الجزيرة السورية، ثمّ حصل على الثانوية نحو عام (١٩٤٩م)، لينضم إلى صفوف القوات المسلحة السورية، ويقضي زمناً من خدمته في الجولان، وكان هذا الزمن الذي قضاه في الجولان بوصفه مسرحاً للصراع العربي الإسرائيلي فرصة سانحة ليؤلف قصصاً يمجد فيها البطولات التي أظهرها الجيش السوري، وهو يقف ضد الأطماع الإسرائيلية التوسعية في الجولان عقب نكبة فلسطين عام (١٩٤٨م)، إذ بدأت تتكشف تلك الأطماع في الاستيلاء على «تل العزيزيات» الإستراتيجي الذي يُطل على الجليل في الأراضي الفلسطينية، من أجل ذلك عقد زرزور أحداث قصته «شجرة البطم» حول معارك «تل العزيزيات» التي نشبت عام (١٩٤٨م) بعيد النكبة، فرصد في قصته تلك يوميات جندي في إحدى الوحدات العسكرية المكلفة بحماية التل، ولده ضابط في الوحدة نفسها، وفي النهاية يسقط الجندي الأب شهيداً وهو يدافع عن «تل العزيزيات»، ولكن مسيرة النضال لا تتوقف بل تستمر عند ابنه الضابط وعند رفاقه.



الجولان

تأتي أهمية القصة لأنها من القصص المتقدمة التي جعلت من الجولان مكاناً روائياً، مع أنها قصة بسيطة من حيث البناء الفني، كما أشير آنفاً، إلا أنّها لفتت انتباه الكتّاب إلى أهمية الجولان، بوصفه مكاناً روائياً وساحة من ساحات الصراع العربي الصهيوني.

بعد نكسة حزيران عام (١٩٦٧م) تعمقت علاقة الرواية العربية بالجولان، فظهرت رواية «الأبتر» لممدوح عدوان عام (١٩٦٩م)، التي تحدث فيها عن إدريس الذي رفض الخروج من قريته المنصورة إثر العدوان الصهيوني على الجولان، متحدياً سلطة الاحتلال، لكنه يُقتل في النهاية على يد الجنود الصهاينة.

بعد ذلك نشر عبد النبي حجازي روايته «قارب الزمن الثقيل» عام (١٩٧٠م)، ليتحدث فيها عن حرب حزيران عام (١٩٦٧م)، بيد أنها لا تجعل من الحدث الحربي مركزاً للرواية، بل انصرف الكاتب فيها إلى أحداث جزئية أخرى كعلاقة أحمد بنوال، فنجم عن ذلك تفتت بنية الرواية، لتغدو في آخر الأمر في غاية التشتت، من أجل ذلك توشك علاقتها بأدب الحرب أن تكون منبتة، لذا هي أدخل في باب الأدب الاجتماعي.

وفي عام (١٩٧٢م) نشر نصر الشمالي روايته «الأيام التالية»، تبعتها سلسلة روائية ظهرت على أعقاب حرب تشرين عام (١٩٧٣م)، أبرزها رواية «دعوة إلى القنيطرة» للأديبة كوليت خوري عام (١٩٧٦م)، ورواية «رفقة السلاح والقمر» للكاتب المغربي مبارك ربيع المنشورة عام (١٩٧٦م)، وهي رواية تسجيلية يروي فيها الكاتب جانباً من أحداث حرب تشرين في الجولان، إضافة إلى بعض الأحداث التي دارت في المغرب، وقد استمد الكاتب مادة روايته

من الأخبار التي انطوت عليها الرسائل التي بعثها الجنود المغاربة الذين شاركوا في الحرب إلى ذويهم، وهي أحداث انتقائية على أيِّ حال، لم تتحكم بالبنية العميقة للرواية، يضاف إلى ذلك انصراف الكاتب إلى عقد لون من المقارنة بين حرب تشرين التي دارت رحاها في الجولان وسيناء، وحرب الهند الصينية، ذلك لأنّ السارد ميمون كان قد شهد الحربين في أزمنة مختلفة، كما تنطوي الرواية على أحداث فرعية أخرى تضمها إلى شرعتها بصورة غير منسقة، لتتشكل من ذلك كله مادة روائية، يبدؤها الكاتب بعرض عسكري حافل، يصور نهاية حرب تشرين، واستقبال التجريدة المغربية في الرباط، بعد أن عادوا من الجولان منتصرين، ثم يعود من خلال الاسترجاع إلى بداية الأحداث.

أبرزت الرواية الجانب البطولي في شخصية الرقيب ميمون ورفاقه، كما صورت نفسيات الجنود، وهم في حال من الترقب والانتظار والتأهب، ولكن سرعان ما تدب الحيوية في نفوسهم وأجسادهم حين التحموا بالعدو الصهيوني على جبهة الجولان، وقد أظهروا شجاعة نادرة فألحقوا بقوات العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. وفي الحكاية الثانية القائمة على ضرب من التداعي النفسي يسترجع ميمون من خلالها بعض أحداث الحرب في الهند الصينية ليقول: إنّ البطولات التي أظهرها أبّان ذلك كانت هباء منثوراً، أو أنّها بطولات عبثية لم تنجم عنها ثمرة تعود بالنفع على أبناء قومه، ومن ثمّ لم تعقبها زغاريد فرح وأغان تمجد النصر الذي بلغه العرب في حرب تشرين، لذا سمَّت الرواية حرب تشرين حرباً مقدسة، والحرب الصينية حرباً عبثية.

في عام (١٩٧٧م) نشر عبد السلام العجيلي روايته «أزاهير تشرين المدماة»، وفي العام نفسه أيضاً ظهرت رواية «ألف ليلة وليلتان» لهاني الراهب التي جسدت المنحى الواقعي النقدي إثر نكسة حزيران عام (١٩٦٧م)، ثم ظهرت رواية «إعلانات عن مدينة كانت تعيش قبل الحرب» لمحمد ملص عام (١٩٧٩م)، ورواية «المرصد» لحنا مينه عام (١٩٨٠م)، وفيها يعمد الكاتب إلى تسجيل شهادات المقاتلين الذين خاضوا الحرب، ويحاول من خلال شخصية النقيب (م) التعبير عما كان يغتلي في دواخل المواطن العربي من مشاعر محبطة، وجدت من خلال المواجهة مع العدو تنفيساً لتحقيق الذات، وترمي الرواية إلى أن ما حدث في تشرين إنما هو مرحلة مميزة في التاريخ العربي الحديث ، تخلص فيه العرب من عقابيل نكسة حزيران التي أدخلت العقل العربي في أزمة التشظي وجلد الذات، ففي ربا الجولان انتشت أرواح المقاتلين، وفي وهاده وهضابه نزفوا الدماء بسخاء، وبعد نهاية الحرب كانت

صـــوره شاخصة في أخيلتهم ، يقـــول النقيب (م) وهو يحدث نفســـه: «أنا تعب حزين ولكني لســـت يائساً... لقد قاتلت وهـــذا الجرح شاهدي ووسامـــي،... أن يقاتل صاحب الحق يعني أن ينتصـــر»... (ص:٩٨)، وبذلك يلخص الكاتب المقولة الفنيـــة في روايته، فحواها أن أهمّ نتيجة نجمت عن حرب تشرين إنّما هي استرجاع الثقة بالذات، ثم ظهرت رواية «تاج اللؤلؤة» لأديب نحوي عام (١٩٨٠م)، ورواية «صخرة الجولان» لعلي عقلة عرسان عام (١٩٨٢م) أيضاً، وفيها يشير الكاتب إلى أنّ النصر الذي تحقق في تشرين كان ثمرة لقيم غرستها الأمهات في نفوس أبنائهن، ولـــم تكن مرحلة النكسة إلا مجرد مراجعة للذات، بغية إعادة بناء الشخصية المقاومـــة، على أساس تـــدارك السلبيات التي أدت إلى تلك الهزيمة، يقول علي عقلة عرسان فـــي وصف زينب: «درجت زينب على طريق أمثالها من أصحـــاب الألم والفاقة، وسارت على سننهـــم، وفي ظـــلام قلبها ودربها التمســـت لنفسها العزاء والصبر فـــي أولادها، كانت تضع زيـــداً أمامهـــا وتشعره بأنه رجل وأنه صاحـــب البيت، تحدثه عن أبيه وتبعـــث فيه الهمة...» (صـــ٤٨). أما رواية «الخندق» لمحمد وليـــد حافظ المنشورة عام (١٩٨٥م)، فتتناول جوانب من الصور القتالية التي خاضها فرسان المدرعات في ربا الجولان، وقد هيمنت على الرواية الظلال التي تشف عن انفعال بالأحدث، وكذا رواية «تل الفرس» لناديا خوست المنشورة عام (١٩٨٥م)، أمـــا رواية «الرجل والزنزانة» لوهيب سراي الدين المنشورة عام (١٩٨٨م)، فتنحو نحواً مختلفاً في كلامها على الجولان وحرب تشرين، وذلك بابتداعها أحداثاً عجائبية، صور فيهـــا سراي الدين السجين (حمـــود)، الشاب الجولاني الذي تمكن مـــن الفرار من السجون الإسرائيليـــة، وذلك بحفر نفق بعلبـــة سردين، مكنه من مغادرة زنزانته خلسة في الليل، ليقوم بـــزرع المتفجرات في المنشآت العسكرية الإسرائيليـــة، ثم يعود في صبيحة اليوم التالي إلى زنزانتـــه ليكون حاضراً أمام التفتيش، وفي آخر الأمـــر يقرر قتل حراس السجن ثم يغادر مع زوجتـــه، وتختلف هذه الرواية عما كتب عن الجولان وحـــرب تشرين عامة، إذ تجنب المؤلف الجانب التسجيلي، معتمداً على ضرب من الفنتازيا، وهذا بالطبع ما أبعدها عن حيز الإقناع، لـــذا يمكن تصنيفها في باب الطرافة الأدبية ليس غير، ومن الأعمال الروائية رواية «المدفع الخامســـ» لوليد حافظ عام (١٩٨٩م)، ورواية «جسر بنات يعقـــوب» لحسن حميد المنشورة عام (١٩٩٦م)، وقد تكون رواية حسن حميد متفردة عن سائر ما ذُكر، لاعتمادها على مهارات سردية متعددة، ونجاحها في معالجة الأحداث من خلال تقنيات مميزة ، تتمثل بتقسيم النص الروائي إلى متن وحاشية، يضاف إلى ذلك تقديمها المكان بصورة فنية متقنة، وعليه تتحلّى

هذه الرواية بسحرية المكان، إذ هو مكان مختلف، مكان ناطق، مكان كعنق الزجاجة فيه زروع ونبت عميم، أمواهه وفيرة، وخيراته جمة، وفي هذه اللوحة المكانية الرحبة تنسج الرواية أحداثها من خلال سجوف خيالية رمزية محطمة فواصل الأزمنة محاولة استلهام التاريخ الديني، كحكاية يعقوب وموسى وعزيز مصر، وأما الأمكنة فلها في الرواية ظلال تنداح بين الجولان وأرض فلسطين، بيد أن الكاتب أراد أن يشحن القارئ بمسائل أيديولوجية لم تستطع الرواية المضي فيها إلى نهايتها بنجاح، ومن الأعمال الروائية رواية «قناديل الليالي المعتمة» لعلي المزعل التي ظهرت عام (١٩٩٨م)، ورواية «موسيقا الرقاد» لزهير جبور المنشورة عام (٢٠٠٠م)، وهي من الأعمال القليلة التي جعلت من المكان الروائي مكاناً شاعرياً نابضاً بالحياة ومنفعلاً بالأحداث، فالمكان الجولاني المتمثل هنا بنهير صغير يسمى بالرقاد يتغلغل في الأحداث وفي النفس في آن معاً، ورواية «أوراق الغرفة» لسليم عبود المنشورة عام (٢٠٠٥م)، ورواية «الورد لا يبتسم لموته» لنادر الفاعوري المنشورة عام (٢٠٠٧م)، وغيرها من الأعمال الروائية التي تناولت الجولان بوصفه مكاناً لأهم الأحداث في التاريخ العربي المعاصر، فظهر إثر ذلك أدب يحسن تسميته بأدب الحرب، وهو أدب مضى في انفعاله بالأحداث في طريقين مختلفين: أدب مثقل بالتشاؤم والخيبة تمخض عن حرب حزيران عام (١٩٦٧م)، وأدب مفعم بالتفاؤل نجم عن حرب تشرين عام (١٩٧٣م)، بيد أن ذلك الأدب بضربيه لم يرق من الناحية الفنية إلى مستوى الأعمال الروائية العربية البارزة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين كأعمال نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني ويوسف زيدان وغيرهم كثير.

إن أغلب الروايات التي تناولت الجولان جاءت بعد حربي حزيران عام (١٩٦٧م) وتشرين (١٩٧٣م)، وإذا كانت الروايات التي نجمت عن النكسة تجسد مشاعر الخيبة والإحباط، نظراً إلى الهزيمة التي مني بها العرب في هذه الحرب، فإن **أدب حرب تشرين** الروائي جسد الإحساس بالظفر والشعور بالزهو والنصر، ومع ذلك فإن الضربين من ذلك الأدب لم يجز التعبير عن الجوانب الانفعالية، بمعنى أن الرواية التي تناولت حرب تشرين خاصة لم تحول الحدث إلى موضوع فني باهر، يعدل الحدث المتمثل بالنصر العسكري الذي جاء بعد انكسارين.

بيد أن التأليف الروائي لم يتوقف عند هذين الحدثين، بل ظهرت بعض الأعمال الروائية لتصور أهالي الجولان بعد النزوح، منها رواية «أبعد من نهار - ذكريات دفاتر الزفتية» لأيمن الحسن المنشورة سنة (٢٠١١م)، وقد تحدثت الرواية عن مكان مؤقت سكنه بعض أهل

الجــولان في ضواحي دمشــق، بانتظار عودتهم إلى بلدهم، وهو مكــان قاتم أقيم على عجل فبــدت بيوته أشبه بالخرائــب، ولكن سكان ذلك المكان ظلوا يعيشــون في الجولان موطنهم بخيالاتهــم، ويحلمون بالعودة وشيكــاً، لذا نسجت الرواية أحداثها علــى ما هو استرجاعي، وقــد بدأت من النهاية، فمع رفع العلــم السوري في سماء القنيطرة تعاظمت آمال العودة إلى الجولان، ثم تعود بنا الرواية إلى حرب حزيران وانطلاق الأعمال الفدائية عام (١٩٦٩م) وبدء حــرب الاستنزاف على الجبهة المصرية، وبين ثنايــا الأحداث تتسرب أحاديث النازحين عن مزارعهم وبيوتهم وعاداتهم وحكايات طُوِيَت في تلك الربوع وفي صميمهم شوق إلى موطنهم، والروايــة تضع القارئ بين حربين وترصد مــن خلال ذلك حركة الشخصيات وتتبع مجريات حياتهم وتصور أمانيهم وأحلامهم.

تتمثل أهمية رواية أيمن الحسن برصدها جانباً اجتماعياً، إذ أظهرت الرواية شخصياتها عاجزة عن استيعاب صدمة حرب حزيران، ومن ثم ظلت الأحداث اليومية التي كانوا يعيشونها مرتبطــة وجدانياً بحياة كانــوا قد قضوها في الجولان، وعليه بــدا المكان الروائي متخيلاً سردياً، يلوح في أثناء العمل السردي بوصفه الفردوس المفقود الذي يظهر الفرق بين المكان الواقعي الذي يفضي إلى الإحباط والتشاؤم، والمكان المتخيل الذي يبعث الآمال بالعود إليه ثانية، وقــد توقفت الرواية عند ذلك الحد، محاولة تركيز مقصديتها حول فكرة فحواها أنه لا بديــل عن الجولان وطناً لأهله، وهذا بمنزلة تيار واعٍ أرادت الرواية بثه بين سطورها، وما الصورة القاتمــة التي قدمتها الرواية للمكان المؤقت إلا إشارة واضحة لذلك المقصد الذي أشرنــا إليه، والأمر الآخر الذي ميز هذه الرواية أنها من الروايات المتقدمة التي نحت نحواً «ديستوبيــاً» في تصوير الأمكنة الفاسدة، فالزفتيــة على حدّ وصف الرواية مكان «ديستوبي» بكلّ ما تعنيه الكلمة، بيد أنّ المؤلف لم يسعَ إلى ما سعى إليه كتاب الرواية الديستوبية العربية المعاصرة كالذي أظهره الكاتب العراقي أحمد السعداوي في روايته «فرنكشتاين في بغداد»، أو الكاتب اللبناني فوزي ذبيان في روايته «أورويل في الضاحية الجنوبية».

مــن المعروف أن كتاب الديستوبيا تخوفوا من تحــوّل اليوتوبيا الحالمة إلى حياة فاسدة يحكمهــا الطغــاة وتملؤها الشرور، وليس ذلــك فحسب، بل هنالك مــن رأى أن المجتمعات الحاليــة أقرب إلى الانهيار منها إلى بلــوغ المثالية، فما تنطوي عليه الحياة المعاصرة يبعث علــى التشــاؤم والإحباط، من أجــل ذلك وجــد أدب الديستوبيا ذريعــة للتعبير عن الخوف ممــا يمكن أن يؤول إليه الواقع الحالي، وعليه تتحــول الديستوبيا تعبيراً عن معاناة الإنسان

المعاصر الذي ينتهبه الخوف من حال التطور التقني الذي يستهدف حياته قبل كلّ شيء، وفي المجتمعات العربية وجد الأدب الديستوبي تربة غنية، لينطلق منها عبر أخيلة الأدباء الذين نزعوا إلى افتراض عالم أشد قتامة وأكثر سوداوية مما هو عليه الحال في مجتمعاتهم، وقد حفزهم على ذلك مجتمع يعاني من مشكلات تكاد تستعصي على الحلول، فلم يجد هؤلاء فسحة للأمل اليوتوبي، فغاصوا في خضم موضوعات الفساد والظلم التي أفضت إلى الدمار والخراب، فمن أولى الروايات الديستوبية العربية رواية «مقتل فخر الدين» للروائي المصري عز الدين شكري فيشر التي نشرت في عام (١٩٩٥م).

بيد أن «ديستوبيا» أيمن الحسن مختلفة عن ديستوبيا الرواية المعاصرة عند كل من فيشر والسعداوي وذبيان، لأنّها تنتقل من المكان الديستوبي (الزفتية) إلى مكان يوتوبي وهو الجولان، وقارئ الرواية يدرك ذلك بسهولة، لذا فإن هذه الرواية يغلب عليها المنحى التبشيري التفاؤلي طالما أن هنالك مكاناً يوتوبياً ممكناً تجسده الرواية وتنزع إليه شخوصها على الدوام.

ومن الأعمال الروائية التي رصدت تفاعل الشخصيات الجولانية بالأحداث في المكان المؤقت رواية «تسعون يوماً في الربيع» لمريم شعبان الصادرة عام (٢٠١٨م)، التي تحدثت عن عجوز أقامت في حمص بعد نزوحها من الجولان، وقد اندمجت في النسيج الاجتماعي في حمص، وعاشت حياة هادئة إلى أن بدأت الأحداث التي عصفت بسورية عام (٢٠١١م)، لتشتد معاناة هذه السيدة التي تعرضت للخطف والأذى، كما أنها فقدت أولادها وأحفادها في تلك الحرب الشنيعة، ومع كل ما حدث مع العجوز ثنية إلا أنها تصر على البقاء في حمص.

ومجمل القول: إن الأعمال الروائية التي تناولت الجولان لم تتناوله إلا لأنّه مسرحٌ للصراع، ولهذا كان الأسلوب الروائي في أغلب تلك الأعمال تسجيلياً مفعماً بالانفعال بالأحداث، ولم يبدُ الفضاء الروائي بارزاً مع أنه مكان موحٍ، من أجل ذلك غابت تفاصيله، واختفت الجوانب الجمالية فيه، كما تلاشت الصور الإنسانيّة التي كان يمكن إبرازها وشاحاً يثري الأحداث ، يضاف إلى ذلك افتقار أغلب تلك الروايات إلى التقنيات السردية التي يمكن أن ترقى بها إلى المستوى الفني الرفيع، يستثنى من ذلك أعمال قليلة كرواية حسن حميد «جسر بنات يعقوب»، ورواية أيمن الحسن «أوراق الزفتية».

والواقـع أن ما كُتب عن الجـولان روائياً لا يحسن النظر إليه بعيـداً عما كتب عن نكسة حزيـران وحرب تشرين، فكثرة الأعمال الروائية التي تناولـت هاتين الحربين يشكل اتجاهاً في الرواية العربية المعاصرة ، له سماته الفنية وخصائصه الأدبية، وهنا يمكن التساؤل: هل نجحـت رواية الحرب فـي معالجة هذا الموضوع من خلال رؤيا أدبيـة تعي حقيقة الصراع العربي الصهيوني، ومن ثم تعميق الوعي بجوهر ذلك الصراع؟

هل حاولت روايـة الحرب العربية أن تستخلص حقيقة ذلك الصراع، ومن ثم تحويله إلى موضوع فني يستحوذ على اهتمام القارئ العالمي، بمعنى آخر هل استطاعت أن تبرز الجانب الإنسانـي للصراع ببيان الفوارق بين ثقافة الهيمنة الصهيونيـة وثقافة المقاومة المشروعة التي تطالب بحقوقها ؟

وهـل استطاعت الرواية العربية أن تجعل من حرب تشرين حدثاً روائياً يضاهي ما يعرف بأدب الحرب في الآداب العالمية الأخرى من خلال إبراز البعد الإنساني والوجودي الذي نجم عـن ذلك الصراع، أم أن الروائيين العرب اكتفـوا بتمجيد الحدث بصورة لا تتجاوز الانفعال والعاطفـة، وكان مـن المفترض أن يستغلـوا النصر الذي حدث في هذه الحـرب ليؤسسوا أيديولوجيا خاصة بهذا الصراع، ومن ثم تحويله إلى مكون يسهم في تأسيس ثقافة حالية تؤثر فـي توجيه دفة الصراع مستقبلاً لمصالح الشعب العربي والفلسطيني على نحو خاص، ماذا استفـاد الأدب العربي من حرب تشرين نقدياً وثقافيـاً وأيديولوجياً، وبالمقابل ماذا أحدثت حرب تشرين مـن تغيرات في ثقافة الصهاينة، هل دعتهم إلى مراجعة الذات وتدارك الخلل الذي أوشك كما يقول الروائيون الصهاينة أن يقضي على كيانهم؟ هل المرحلة التي تلت حرب تشريـن، وفيها تعرضت المجتمعات العربية إلى مشكلات خطيرة أثَّرت تأثيراً بالغاً في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، من صنائع إسرائيل كي لا تتكرر حرب تشرين؟

مـا من شـك أنّ الكيـان الإسرائيلي قد تلقَّى درسـاً قاسياً على يـد الجيشين المصري والسـوري في حرب تشريـن، وعليه فإنّ الإحـداث التي جرت بعد تلـك الحرب جاءت في مصلحـة الصهاينة بدءاً من إنهاء المقاومة الفلسطينيـة واتفاقية أسلو الموقعة في نسختها الأولى في واشنطن عـام (١٩٩٣م)، وانتهاء بما تعانيه المجتمعات العربية من مشكلات على المستويات كلّها، وربما كان أخطرها تراجع فكرة القومية العربية في الحوار الثقافي الحالي وفي الأعمال الروائية على حدّ سواء.

لم يكن مصطلح «**أدب حرب تشرين**» خارجاً عن سياق مصطلح أدب الحرب عامة، فأدبُ الحرب دخل ضمن مصطلحات النقد العالمي في وقت مبكر من أزمنة التاريخ المعاصر، ويندرج تحت هذا المسمى ما كُتب عن الأعمال الروائية التي متحت موادَّها من الحروب وعلى رأسها رواية «الحرب والسِّلم» لتولستوي، ورواية «وداعاً للسلاح» لهمنغواي، ورواية «الدون الهادئ» لشولوخوف ، ورواية «الأمل» لمارلو، ورواية «أفول القمر» لشتاينبك، وغيرها، إلا أن ما كُتب عن حرب تشرين بوصفها من أهمّ الحروب التي خاضها العرب في العصر الحديث، إذ جاءت بعد هزيمتين، لم يصل برأي كثير من النقاد إلى مستوى فني ذي شأن، لأسباب كثيرة أهمها أنّ كثيراً من كُتّاب الرواية الذين تناولوا حرب تشرين في أعمالهم الروائية، كانوا يفتقرون إلى الخبرة والدراية بتقنيات الكتابة ، من أجل ذلك ظنّوا أنّ الاعتماد على الجانب التسجيلي أو النقدي الواقعي ينهض بأعمالهم فيغنيها عن الجوانب الفنيّة، لهذا ظلّت كثير من تلك الأعمال تدور في حيز المحلية، ولم تنجح في مخاطبة القارئ العالمي وإقناعه، كما هو الشأن في الأعمال الخالدة التي ذكرنا بعضاً منها وعلى رأسها رواية «الحرب والسِّلم» لتولستوي.

إضافة إلى ذلك فلم يتنبه أغلبُ كُتّاب الرواية في هذا الموضوع على إبراز الجانب الإنساني للحرب، ومن ثم النفاذ من خلال هذا الجانب لمخاطبة القارئ العالمي، مما حال دون تحول تلك الأعمال إلى نتاجات أدبية رفيعة، وكذلك أمسك كبار كتاب الرواية العربية عن المشاركة في الكتابة عن حرب تشرين أمثال نجيب محفوظ الحائز جائزة نوبل للآداب عام (١٩٨٨م).

وثمّة سبب أسهم في جعل ذلك الأدب يدور في فلك المحلية، اتصل بالنقاد، إذ كان نقدهم لهذا الأدب نقداً تشجيعياً في الأعم الأغلب، ولم يمارسوا أي دور لتوجيهه ليرتقي الأدباء بنتاجاتهم فيبلغوا الرتبة التي تجعل من ذلك بمستوى الحدث، أعني الانتصار الباهر الذي حققه العرب في الجبهتين سيناء والجولان ، لهذا يرى النّقاد أنّ ما كتبه الصحفيون أفضل بكثير مما كتبه الروائيون عن حرب تشرين.

ومع ذلك فهنالك أعمال روائية قليلة حالفها النجاح، لهذا عدت من أهمّ النتاجات التي بني على أساسها مصطلح (**أدب حرب تشرين**)، وهي: رواية «الرفاعي» لجمال الغيطاني، ورواية «الحرب في برّ مصر» ليوسف القعيد، ورواية «نوبة رجوع» لمحمود الورداني، ورواية «السمان

يهاجـــر شرقاً» للسيد نجم، ورواية «رفقة السلاح» لمبارك ربيع، وهذه الروايات جميعها كُتبت بعد حرب تشرين بقليل، ومنها ما صدر في عام (١٩٧٣م) أي في العام نفسه الذي جرت فيه الحـــرب، وهنالك روايـــات كثيرة ألفت بعد الحرب وهي أكثر جودة مما ألف في زمن الحرب، من تلك الروايات رواية «أنشودة الأيام الآتية» لمحمد عبد الله الهادي، إذ نشرت الرواية عام (١٩٨٨م)، أي بعـــد الحرب بخمسةَ عشرَ عامـــاً، وقد فاز فيها صاحبها بجائزة سعاد الصباح للإبـــداع الروائي، والمفارقة أنّ موضوع المسابقة لم يكـــن عن الحرب، إلا أنّ صاحبها تقدّم فيها للمسابقة بوصفها نتاجاً فنياً، ومع ذلك فازت بالجائزة، فكان ذلك من علامات جودتها، ويبدو أنّ الكاتب لم يخض تجارب روائية سابقة، يدل على ذلك اضطراب البناء الروائي الذي أقامه على التداعيات الذهنية، ثمّ إنّها متعثرة من حيث اللّغة والأسلوب، لكنّها من جهة أخرى تتميز بطاقاتها الإيحائية، والبعد الكلي عن التسجيل والتقرير، فتبدأ الرواية بنقل القارئ إلى أرضـــ المعركة، أي إلى سيناء بعد أن عَبَرَ الجيش المصري قناة السويس، ليسقطَ شهيدٌ في أثناء ذلك واسمه فتحي النجار، ثم يعلم أهله بنبأ استشهاده في الوقت الذي كانت فيه امرأته قـــد وضعت مولوداً، فيسميه أهله باسم أبيه فتحي، ثم تنصرف الرواية للحديث عن المجتمع المصـــري في أثناء الحرب، وقد أراد الكاتب أن يوحـــي أنّ تكافل ذلك المجتمع وتراصه في أثنـــاء الحـــرب شكّل جبهة قوية توازي الجبهة التي يقاتل فيهـــا الجنود في سيناء، وعليه فإنّ النّصر الذي حدث في تشرين لم يتحقق من دون تماسك المجتمع الداخلي، وبعد ذلك ينتقل الكاتب بتداعياته إلى مدرسة ثانوية في مصر، ليحدثَ لقاءٌ بين راوي الأحداث وشاب صغير في الخامسةَ عشرةَ مـــن عمره، وحالما يرى الراوي الشاب يتذكر صديقاً له سمع باستشهاده في حرب تشرين واسمه فتحي النجار، فيستوقف الشاب ليقول له: أرى فيك شبهاً من صديق قديم اسمه فتحي النجار، فيخبره الشاب أنّه ابن ذلك الشهيد، وهنا يوحي الكاتب بأنّ الجيل الجديد عليه بناء مجتمع جديد يتفق مع أدبيات حرب تشرين التي لم تكن لولا الأرواح الزكية التي بذلها الآبـــاء، وعلى الأبناء الحفاظ على ذلك النّصر واستثماره على النّحو الذي سيعيد للعـــرب بناء مستقبلهم واسترداد باقي أراضيهم السليبة، لا أن يكون النّصر مجرد تغنٍّ بمنجز انتهى، لذا يجب أن تكون حرب تشرين منهجَ عملٍ وعبوراً لانتصارات أخرى، وهذا ما يلحظه القارئ من خلال تركيز الكاتب على العالم النفسي للشخصيات، إذ أراد أن تكون حرب تشرين وسيلة لإعادة بناء النّفس العربية وتخليصها من الشعور بالإحباط، فتتشوف الأجيال إلى نصر مشابه يعيد الثقة الكاملة إلى العرب كما يعيد كامل حقوقهم السليبة.

تخطت هذه الرواية جميع ما كُتب من أعمال روائية عن حرب تشرين، بما انطوت عليه من إيحاءات، استهدفت إعادة بناء الإنسان العربي المعاصر على أساس الثقة بقدرته على النصر في زمن توالت فيه الانكسارات.

في الختام ثمة حاجة لتصنيف الأدب الروائي الذي جعل الجولان فضاء له، تصنيفاً نقدياً أكاديمياً، بغية دراسته دراسة تحليلية موضوعية، ومن ثم تقويمه تقويماً دقيقاً، بوصفه جزءاً من المشهد الروائي العربي المعاصر، إذ إلى الآن لم تظهر دراسة أكاديمية تتناول هذا الأدب، مما يجعله بعيداً عن مجالات التفكير النقدي الحالي، وما أنجز في الواقع حول أدب الجولان وحرب تشرين عامة لا يعدو أنّه مقالات صحفية منفعلة بالأحداث، والواقع أن ما كتب عن الجولان في ضوء ما هو جارٍ من صراع بين العرب والصهاينة لم يتوقف عند حدود التسجيل أو الانفعال، ذلك لأن الجولان أصبح جزءاً من الموضوع الروائي المعاصر، كما أنه امتد تأثيره في البناء الاجتماعي، كما ظهر ذلك في رواية أيمن الحسن «أبعد من نهار – دفاتر الزفتية»، ورواية مريم شعبان «تسعون يوماً في الربيع»، بمعنى أنه لم يتوقف التأليف الروائي عن الجولان بانتهاء حرب تشرين، بل إنه مستمر، لأنَّ هذا الجزء من وطننا تحول موضوعاً فنياً حاضراً كحضوره في وجدان كل عربي.

الباحثون عن الهوية

تجارب أهم المعماريين العرب الرواد في القرن العشرين

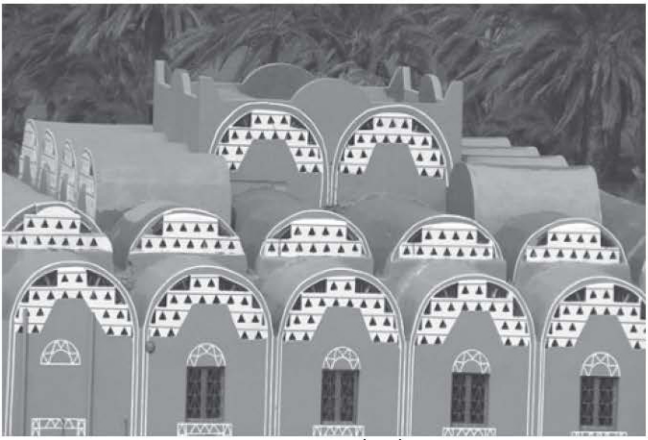
جورج.ن.جبلي

باحثون من القاهرة

١- المعماري حسن فتحي

ولد حسن فتحي في (٢٣ آذار، عام ١٩٠٠م) بالإسكندرية، وتخرج في كلية الهندسة بجامعة القاهرة... توفي في (٣٠ تشرين الثاني، عام ١٩٨٩م). حاز المهندس حسن فتحي «جائزة الآغا خان» في عام (١٩٨٠م) بناءً على مشروع المركز الثقافي الكبير لتجمّع المسلمين من أمريكا، وكتابه «عمارة الفقراء» من أهم الكتب التي غيّرت مفاهيم العمارة البيئية، وقد وضع كثيراً من الجدليات حول العمارة، التي ارتبطت زمناً طويلاً بالقرى، ولاسيما في تجربته الشهيرة بقرية القرنة، التي دوّنها في هذا الكتاب الذي صدر عن وزارة الثقافة المصرية عام (١٩٦٩م) في طبعة محدودة بعنوان «القرنة: قصة قريتين».

عندما كان «**لوكوربوزييه**» ينشر نظرية العمارة الحديثة (الدولية) في النصف الأول من القرن العشرين، اشتُهرَ «حسن فتحي» رائد العمارة العربية المعاصرة الأول، بطرازه المعماري الفريد الذي استمد مصادره من العمارة ومن البيوت والقصور بالقاهرة القديمة. كان حسن فتحي مهتماً ببناء المجتمعات أكثر من تشييد المباني، وكان رائداً في تقديم نماذج لمبانٍ تحترم تقاليد الأماكن وتراعي جميع مناحي الحياة.



من أهم أعمال حسن فتحي

قال حسن فتحي: «على المهندس المعماري ألا يفترض أن التراث هو عائق له. وعندما تكون كل قوة الخيال البشري مدعومة بثقل تراث حي، فإن العمل الفني الناتج يكون أعظم كثيراً مما يستطيع أي فنان إنجازه عندما لا يكون لديه تراث يعمل من خلاله.

لا أقول إن تقنيات البناء القديمة مناسبة تماماً للعصر الذي نعيش فيه، لكن على الأقل يمكننا الاستفادة منها بشكل جزئي، بدمجها مع التقنيات الحديثة لنحصل في النهاية على مبانٍ مناسبة وأقل في التكاليف».



الحديقة الثقافية للأطفال. لحسن فتحي

٢- المعماري الدكتور عبد الواحد الوكيل

معماري مصري تتلمذ على يد حسن فتحي، ولد في (٧ آب، عام ١٩٤٣م)، بحي جاردن سيتي وسط القاهرة، مصر. وهو مِنَ الذين استطاعوا أن يحققوا مكانة على مستوى العالم الإسلامي بأعمالهم المنتشرة حول العالم، التي حظيت بتقدير كثيرٍ من المنظمات المعمارية العالمية.

يتذكَّر الوكيل تجربة العمل مع حسن فتحي قائلاً: «أعمال حسن فتحي في قرية القرنة تمنحك الإحساس بأنك تستمع إلى موسيقا». يمضي الوكيل: «حسن فتحي كان مهتماً بعمارة الريف، ولذلك كان اهتمامه ببناء قرية القرنة للفلاحين».

سألته عن الأعمال التي يبنيها للمدينة ولكنه رد: «إذا وصلنا إلى حلٍّ لمشكلة الريف سنصل إلى حلٍّ لمشكلة المدينة، حسن فتحي كان مهتماً بالريف في حين نحن في الكلية كنا مهتمين بالمدينة ومن يصمم أطول عمارة».

قام عمل حسن فتحي على استخدام المواد الطبيعية المستمدة من البيئة مثل الطين الذي شيد به مباني قرية القرنة، وجاء استخدام الطين مغايراً للسائد في العمارة في ذلك الوقت. وقتها تساءل الوكيل عن سبب استخدام الطين، وكان لفتحي تفسير منطقي، إذ روى لتلميذه الوكيل أن الحرب العالمية الثانية أثّرت في نسبة الحديد والإسمنت الذي تستورده مصر من الخارج، وهنا توجّه فتحي إلى الصعيد حيث يبني أهالي المنطقة بيوتهم من الطين من دون أن يتأثروا بنقص الحديد أو الإسمنت... «كان حسن فتحي يفكر ببساطة وبعيداً عن العقد»، يسترسل الوكيل قائلاً: إنه قرر استيحاء أسلوب حسن فتحي في بناء فيلا في حي العجمي ولكن رد الفعل كان سلبياً، سواء من جامعة عين شمس حيث عمل الوكيل محاضراً أم من البلدية التي رفضت التصريح بالبناء. ولكن العمل مضى في المشروع وأنجزت «الفيلا» التي حصلت على جائزة «الآغا خان للعمارة» عام (١٩٨٠م).

بدايات عمل الوكيل في السعودية ميَّزها بناء قصر السليمان في حي الحمراء في جدة، الذي اختارته مجلة «إيه آي جورنال» الأمريكية المتخصصة في المعمار عام (١٩٧٣م) بوصفه أجمل مبنى في السعودية.

والفكرة الرئيسية في مشروع قصر السليمان تدعيم العمارة المحلية من خلال تطوير تصميمات تشجِّع الحرف التقليدية. ويتميز القصر الذي حصل على جائزة الآغا خان للتصميم

المعماري، باحتوائه على الملامح المعمارية العربية مثل الفناء الداخلي والمشربية والأبواب الخشبيــة المزخرفة. وقد اعتمد الوكيل لتحقيق ذلك على مواد البناء البيئية، وطرائق البناء التقليدية، وعلى الطاقات البشرية ومهارة الحرفيين.

يرى الوكيل أن المدن العربية تعيش كارثة حقيقية من ناحية المعمار، ويرى أن المهم في أي بنــاء أن يتفاعــل بشكل قوي مع البيئة حوله. ويضيف أن العمارة الإسلامية متنوعة بشكل بديع ومتناغم مع البيئة التي توجد فيها.



منزل حلاوة - فيلا من أعمال الوكيل

أمّا منزل حلاوة فيقع في منطقة العجمي التابعة لمحافظة الإسكندرية بدولة مصر، وهو عبارة عن مسكن صيفي لأسرة عصمت أحمد حلاوة، وهي أسرة تنتمي للطبقة عالية الدخل ومكونة من خمسة أفراد. يتكون المنزل من فراغات الاستقبال بالدور الأرضي بالإضافة إلى فــراغ إقامة الضيوف والخدمات والمناطق المظللة والحديقــة الأمامية والخلفية والجانبية والفناء الداخلي والدور الأرضي يضم ثلاثة فراغات للنوم إضافة إلى فراغ المعيشية.

اعتمــد الوكيل في تصميم هذا المنزل على نماذج الأبنيــة العربية والمصرية التقليدية. واستُفِيــد من الأساليب المعمارية المحلية مثل: الأفنية الداخلية لتوفير الخصوصية، وتبريد الهواء، واستخدام مواد محلية متوافرة.

المشــروع إجمالاً محاولــة جادة في البحث عــن الهوية باستخدام الأشكــال التقليدية. وتخطيــط الفنــاء، واستعمال القبــاب والأقبية والعقــود، واستخدام مواد محليــة، وتوفير المساحات، والاستخدام الأمثل للضوء من أجل بناء منزل يستوفي متطلبات العصر.

ويـــرى الوكيل أن ما يميـــز العمارة الإسلامية هو الروح وليس الشكل، فالشيء الذي يجمع المساكن النوبية الصغيرة والمباني اليمنية الشاهقة والمساجد التركية العظيمة تحت مسمى واحـــد «العمارة الإسلامية» هو روح الإسلام وليس التشكيـــل المعماري، فالأشكال المعمارية المختلفـــة ما هي إلا مفردات اللغـــة، أما كيفية وضع هذه المفردات معاً لتكون قِطَعاً شعرية، فهذه هي العمارة.

المباني عند الوكيل هي تعبير عن الهوية، ولذلك يرى أن الانقياد لأساليب العمارة الغربية هو ابتعاد عن الهوية العربية الإسلامية، فهو يؤمن بضرورة إحياء قيم العمارة الإسلامية، كما يؤمن بأهمية استخدام مواد البناء البيئية، وتقنيات البناء التقليدية مع تطويرها لتتناسب مع المتطلبات الحديثة.

يـــرى الوكيل أن الإنســـان يفقد هويته إذا عزل عن محيطه، فالهوية هي ما ميزت المباني ذات الطـــراز الإسلامي التي زخرت بهـــا شوارع القاهرة القديمة، ويرى أن القاهرة عانت من الاتجاه إلى بناء الفيلات المنفصلة والمفتوحة على الخارج.

باحثـون مـن بغداد

١- المعماري رفعة الجادرجي:

معمـــاري وفنان تشكيلي عراقي، ولد عـــام (١٩٢٦م) في مدينة بغداد، حصل على جائزة «آغا خان للعمارة» في عام (١٩٨٦م).

أدار رفعة الجادرجي مكتب الاستشاري العراقي الذي أسسه مع زملائه عبد الله إحسان كامـــل، وإحسان شيرزاد عام (١٩٥٢م)، الذي رفد الحركة المعمارية العراقية بتصاميم أثَّرت بدورها وتأثيرها حركة الإبداع المعماري العراقي، نذكر منها:

نصب الجندي المجهول العراقي عام (١٩٥٨م).

وقاعدة نصب الحرية عام (١٩٥٨م)، التي علق عليها الفنان جواد سليم نصب الحرية في ساحة التحرير ببغداد.

بناية البريد المركزي في السنك عام (١٩٧٠م).

مبنى اتحاد الصناعات الوطنية عام (١٩٦٦م).



مبنى الشناشيل من أعمال الجادرجي

مبنى مجلس الوزراء عام (١٩٧٥م) والمجمع العلمي العراقي عام (١٩٦٦م).

ولــه أعمال فنية أخرى كنصب الجندي المجهول الأول في الستينيّات من القرن العشرين في ساحة الفردوس.

إن رفعــة الجادرجي قد وصل بالعمارة التقليدية إلى المستوى الشكلي التجريدي، فأصبح ينظــر إليها كمنحوتة فنية لها خصائص تقليدية مجــردة حسب مفهومه، لكنه لم يتعامل مع الفراغ المعماري بتلك الخلفية التقليدية، فعندما نشاهد مساقطه الأفقية نجد أنها في كثير من الأحيان تكون مساقط أفقيّة مستوحاة من الحداثة.

للجادرجي كثير من الكتب حول العمارة، ومعظم كتاباته في التنظير المعماري، وقد حاول النظــر إلى التركيبة الاجتماعيــة- العمرانية في العالم العربي. مــن كتبه «شارع طه وهامر سيمث»، و«الأخيضر والقصر البلوري»، و«جدار بين ضفتين». وهو حالياً مقيم في لندن.

قــال البروفيسور مايكــل فيتزباترك، عميد كلية الهندسة في جامعــة كوفنتري في أثناء إعلانه اختيار لجنة التحكيم: «تعد محاولات رفعة الجادرجي في الجمع بين العمارة الإقليمية وتكنولوجيــا البناء الحديثــة من الإنجازات الأكثر فاعلية في الشــرق الأوسط، ومنها حصل على اعتراف عالمي بأنه أحد أهم المعماريين الذين طوّروا فكر العمارة الإقليمية في القرن العشريــن. إنَّ عمل رفعة الجادرجي الجــاد، وتفانيه، وحرفيته وأفكاره هي إرث قومي عظيم وإلهام للأجيال المعمارية الحالية واللاحقة».

وفــي تعليق مؤسس جائــزة تميّز، الأكاديمي قال: «نحن سعداء وفخــورون لأننا استطعنا الاحتفاء بمنجز رفعة الجادرجي، أحد أهم المعماريين والمنظرين في الشرق الأوسط، الذي استطاع من خلال أعماله وكتاباته إلهام أجيالٍ من المعماريين العراقيين والعرب.

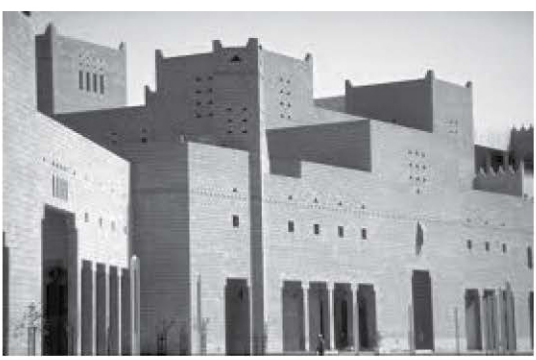
مــن المهم جــداً بالنسبة إلينا تسليــط الضوء علــى إنجازات وإسهامــات كل من رفعة الجادرجــي ومحمد مكية (نــال جائزة التميّز للإنجاز المعماري مــدى الحياة عام ٢٠١٤م)، لأنهمــا يمثلان الجيل الذهبي من المعماريــن والفنانين والمفكرين والمثقفين الذين أسسوا نواة المجتمع المدني الحديث في عراق القرن العشرين، الذي كان في مرحلة ما، بيئة ثقافية غنية بنتاجاتها الفكرية والفنية.

باحثون من عمّان

١- المعماري راسم بدران:

راســم بــدران معماري فلسطيني/ أردنــي، ولد في القدس عــام (١٩٤٥م). أحد أعلام العمــارة العربية المعاصرة، وأحد أبرز روّاد الفكر المعماري العربي المعاصر عربياً وعالمياً بما أسسه من خلال مدرسته الفكرية، وهو ابن الفنان الفلسطيني جمال بدران.

دأب ومنــذ عودته إلى عمّــان - بالأردن منذ أواخر السبعينيات على تبني التراث كإطار لطــرح مسألة الهويــة والتجديد، وعكست طروحاته الفكرية من خــلال مشروعاته المختلفة سعياً حثيثاً لطَرْق إشكالية الأصالة والمعاصرة ضمن إطار العمارة العربية الإسلامية. أعماله المعماريــة منتشرة في كثيرٍ من البلدان العربية، ومنها في الأردن والمملكة العربية السعودية



من أعمال المعماري راسم بدران

وقطر وسورية ولبنان. حصل على كثيرٍ من الجوائز منها جائزة الآغا خان للعمارة الإسلامية. وهو الآن رئيس هيئة دار العمران التي تتخذ من عمّان مقراً لها.

تقوم تصاميم بدران على مثلث أضلاعه هي: «الماضي، والحاضر، والمستقبل». فهو يدرس تاريخ الموقع، ويرنو إلى تطوره المستقبلي لكي يصل إلى الحاضر. يعبر من تراكمات الماضي متجهاً إلى المستقبل ليصل بأعماله إلى الآن، وهنا يدع الجوانب الاجتماعية والثقافية والبيئية تنساب في أعماله. وينطبق هذا على مباني الأسرة الواحدة (مبنى حنظل، عمان). ويبدو أن للشاعرية المكان الأول، التي يتسم بها في كل أعماله.

البناء التجميعي للمكعبات، وتدريجها وتداخلها هي أشكال تتردّد دائماً، لتضفي على المباني الكبيرة مثلاً نوعاً من التواضع، وتدخلها في محيطها ليتكامل معه، الاتصال البصري بين الفراغات أو المباني تسهّله الفتحات والممرات ومحاور للنظر. الأسطح والأدراج وانسياب الشوارع تخلق مساحات عامة وشبه عامة للالتقاء، فتدعو بذلك إلى المؤانسة في المكان. حساسيته للطبيعة ودورها تجد انعكاسها في تصاميمه بوضوح، إذ تستفيد التصاميم من حركة الشمس والريح لتؤمِّن محيطاً صحياً للسكن والساكن (المباني السكنية في وادي بو جميل، بيروت).

بداهة بدران في جمعه وموازنته بين التقاليد والحداثة تجعل أعماله فريدة، وتجعل منه فناناً أصيلاً ومعمارياً عربياً معاصراً وبارعاً، يضفي حيويةً على الأماكن التي يصممها ويعيد كتابة حكاياتها من جديد.

باحثون من جدة

١ - المعماري الدكتور سامي عنقاوي:

الدكتور سامي محسن عنقاوي، من مواليد مكة، معماري معروف على المستوى العربي والعالمي. حاصل على الدكتوراه في المعمار الحجازي الإسلامي من جامعة لندن (١٩٨٨م).

للدكتور عنقاوي فلسفة رائدة في المعمار تتلخّص في ضرورة الإبداع في أنماط العمارة الإسلامية التقليدية واستلهام أغراضها وجمالياتها في قوالب حديثة، وهو ضد التقليد الحاصل في العالم الإسلامي للعمارة النيويوركية، ويعدُّ في مذهبه هذا من أشد المتأثرين بفكر المعماري المصري العالمي حسن فتحي القائل بضرورة ارتباط العمارة ببيئة الإنسان. والدكتور عنقاوي محاضر سابق في متحف التراث والفنون التابع لجامعة هارفارد.


فناء منزل الشافعي

رمّم الدكتور عنقاوي وجَدَّد كثيـراً من العمارات التاريخية بالحجاز. مثل منـزل الشافعي، وهو منـزل تاريخي في مكة لصاحبه معالي الشيخ أحمد زكي يماني. كما جدّد صالة عرض المنتدى الواقعة في حارة المظلوم بجدة. كما تعدّ دارة العنقاوي الشخصيـة في جدة بحي الشاطئ؛ المكيّـة، التي أنشأها على أساس التراث الحجازي التقليدي، متحفاً مفتوحاً لزوار المدينة والسائحيـن. في الوقـت الذي أصبح طراز البنـاء الغربي هو الرائج في البلاد العربية.

التصميم والقطع النادرة في الداخـل تجعله أشبه بمتحف للتراث الحجازي والعربي في حين هو في واقع الأمر منزل خاص بالدكتور سامي عنقاوي الذي استعان بخبرته الطويلة في مجال المعمار الإسلامي ليخرج المنزل بهذا الشكل المبهر.

يطغى على المنزل طابع بناء المنازل القديمة في الحجاز التي تتميز (بالروشان) أو النوافذ الخشبيـة والنقوش الإسلامية والألوان الترابيـة الهادئة... يقول الدكتور سامي: «على الرغم مـن تأثري وعشقـي للتراث الحجازي العريق إلا أنني حاولـت أن أمزج معه البناء الإسلامي والعربي القديم بشكل عام، وكل تصميم أو قطعة في المنزل مستوحاة من ذلك الطراز لكنني فـي الواقـع أضفت إلى أغلبها رؤيتـي الخاصة، وطورتها قليلاً بحيـث تتوافق مع متطلباتنا اليـوم دون أن تفقد هويتها واجهة المنزل وصورة (للروشـان) أو النوافذ الخشبية التي تميز منازل الحجاز القديمـة... يقول الدكتور سامي: «راعيت في تصميم المنزل ألّا يكون الشكل هـو الأساس فحسب ولكـن حرصت بخبرتي في المعمار ووضع نصـب عيني أهمية التهوية ودخول أشعة الشمس لكل غرفـة في المنزل لذلك تلاحظون كثرة النوافذ... وكذلك المنزل لا يأخذ الشكل التقليدي المربع أو الجدار المستوي، ولكن هناك تفاوت وتعرجات مهمة جداً لعملية التهوية، يتميز بسقفه الزجاجي العالي والأقواس والنوافذ والشرفات الخشبية المزينة بالنباتـات الخضراء الجميلة، التي تزيد من حيويـة المكان. القاعة الرئيسية للمنزل تحتوي على مسبح داخلي مصمم بشكل يشبه حوائط الفسيفساء الشهيرة قديماً، ويحتوي على شلال تنهمـر مياهه مـن أحد جوانب القاعة بشكل خفيف يبعث الراحـة في النفس، ويقابله مكان للجلوس تتوسطه طاولة زجاجيـة موضوعة بداخل نافورة صغيرة مغطاة بالزجاج، ومصابيح

زجاجيـــة تتدلى من قبة خشبية عالية مزينة بالزجاج الملــون، ولون الحائط الذي يشبه لون الحوائـــط الطينيـــة القديمة. أما السقـــف فهو عبارة عن أعواد خشبيـــة يتدلى منها مصباح صغير، والملاحظ في هـــذا التصميم الطريقة الفنية التي تساعد على إنبعاث الضوء بشكل جميل.



واجهة المنزل بين التراث والحداثة

يعدّ الدكتور عنقاوي من أشهر الناشطين في مجال الحفاظ على الآثار الإسلامية المتبقية فـــي الحجاز، ومـــن أشد المعارضين لعمليات الإزالة والهدم التـــي طالت المئات من المواقع التاريخية الإسلامية في مكة والمدينة خصوصاً والحجاز عموماً، إمّا لأسباب مذهبية ضيقة، وإمّا لأسباب تجارية جشعة. وللدكتور أعمال وأقوال لا تتوقف عند هذا الشأن.

أبو الجيولوجيا السورية
الباحث الدكتور فواز الأزكي
الرحيل والإرث

سلوى صالح


فواز الأزكي

«حين رماني الآخرون بالحجارة... جمعتُ حجارتهم وبنيتُ متحفاً».

وعلى بوابة المتحف الأول من نوعه في سورية كتب الباحث الجيولوجي الدكتور «فواز الأزكي» العبارة المشهورة: «إن لم أزد شيئاً إلى الكون، فأنا زيادة عليه»، أما في مدخل المتحف فيقرأ الزائر تحت خارطة تضاريسية ثلاثية الأبعاد لسورية: «علمني الفلك أن الأرض أجمل الكواكب، وعلمتني الجيولوجيا أن سورية هي أجمل رقعة على الأرض»، ومن أقواله أيضاً: «إن أيَّ مساحة جغرافية في سورية مهما كانت صغيرة هي مهمة جيولوجياً، فسورية متحف جيولوجي كبير».

بهذه العبارات الجميلة اختصر الأزكي مسيرته العلمية الغنية بالأبحاث والدراسات والمكتشفات الجيولوجية ليخلص إلى القول: إن سورية هي الجيولوجيا الأجمل من بين كل جيولوجيا العالم. وحين زار الشاعر السوري العالمي «أدونيس» المتحف عام (٢٠٠٩م) وصفه في دفتر الزوار بأنه «بيت لقصائد الأرض ومبدعيها»، فيما قالت عالمة الآثار الفرنسية

جولييت باكو: «إن المتحف -مادة علمية- يضاهي أفخم المتاحف في أوروبا ويمتلك الروح التي لا يمتلكها أي منها».

الرحيل

في السادس والعشرين من أيار الماضي (٢٠١٩م) غيب الموت الباحث الدكتور فواز الأزكي «أبو الجيولوجيا» كما يحلو لأصدقائه أن يسموه، الأستاذ في جامعة تشرين باللاذقية تاركاً خلفه إرثاً حافلاً بالأبحاث والدراسات والمكتشفات، وبصمات علمية قيمة في مجال الجيولوجيا على مستوى سورية والوطن العربي.

غاب «الأزكي» حاملاً معه علماً واسعاً عن أرض بلاده، لكنه ترك خلفه كثيراً لمريدي العلم من بعده، ليبقى اسمه في ذاكرة كل زائر لمتحفه. ولم يحظ خبر وفاة الأزكي، مؤلف أول موسوعة جيولوجية عربية، بانتشار إعلامي يليق بإنجازات الباحث الذي كان يضع خبراته العلمية أمام الجميع وينفق من ماله الخاص على ذلك. وعلى الرغم من أن اختصاصه «الجيولوجيا» غير مطروق كثيراً إلّا أنه استطاع أن يكون قريباً من الناس ولاسيّما في المتحف الذي كان مقصداً للمختصين والزائرين.

شكّل شغف الراحل الأزكي بالمستحاثات هاجساً لتطوير اهتماماته أثمرت وبأدوات بسيطة عن اكتشاف الديناصور السوري في عام (٢٠٠١م) إذ اكتشف جنين الديناصور في قرية العامود بصلنفة، وبيضة الديناصور في قرية بسمالخ بريف منطقة جبلة، إضافة إلى اكتشاف وجمع كثيرٍ من نماذج المستحاثات. وإنشاء أول متحف جيولوجي في منزله بقرية قسمين بريف اللاذقية الشمالي، الذي جمع فيه أهم المكتشفات والمستحاثات التي تعود إلى ملايين السنين، وأقدم خريطة جيولوجية لسورية ومجسمات لديناصورات، فيما تعدّ ورقة الشجر المنطبعة على صخرة سورية عمرها (٨) ملايين سنة أبرز وأندر القطع في العالم.

كما أنشأ الراحل الأزكي في منزله أول مرصد فلكي باللاذقية يحتوي على أربعة تلسكوبات متطورة لمراقبة حركة النجوم والكواكب. ومن أهم مؤلفاته موسوعة جيولوجية عربية، وعدة كتب ودراسات منها: «جيولوجيا الحقل، والمسح الجيولوجي، والاستشعار عن بعد، والجيومورفولوجيا». أما في مجال الرواية فكتب ثلاث روايات هي: «أيام الثلج الأحمر، وعندما ينطق الحجر، وثمر الصفصاف».

رحل وفي جعبته كثير ليحكيه عن الجيولوجيا التي جسّدت شغفه الدائم منذ صغره، فقد أثارت معرفة أصل الأرض والصخور وتحولاتها فضول «الأزكي» ليبدأ رحلة طويلة من البحث مملوءة بالشغف والاندفاع نحو المعرفة دون تردد. وكان متقناً للغات الإنكليزية والفرنسية والرومانية بالإضافة إلى العربية.

والباحث الراحل من مواليد قرية قسمين بريف اللاذقية عام (١٩٥٩م)، ترك دراسة هندسة البترول في جامعة «البعث» بعد سنة واحدة ليدرس الهندسة الجيولوجية الجيوفيزيائية ويتخرج في جامعة بوخارست–رومانيا عام (١٩٨٥م)، ثم حصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة نفسها عام (١٩٩٥) في قسم الهيدروجيوفيزياء، ثم عمل مدرساً بجامعة تشرين لمادة الجيولوجيا الهندسية حتى وفاته.

حاز كثيراً من الجوائز منها جائزة سابا للجيوفيزياء عام (١٩٩٤م)، وميدالية الجمعية الجيوفيزياية الرومانية عام (١٩٩٥م).

ونظراً لأبحاثه واهتماماته انتخب رئيساً لمؤتمر التنوع «الجو حيوي» في رومانيا. وكان أستاذاً زائراً في جامعات بريطانيا، وحاصلاً على شهادة الزمالة البريطانية في الجيولوجيا، وعضو اتحاد الكتّاب العرب. ولديه سبعة أبحاث علمية منشورة. كما أعد برنامجاً تلفزيونياً من (٩٦) حلقة عام (٢٠١٢م) بعنوان «جيولوجية سورية».

ومن المؤتمرات الدولية التي شارك فيها: المؤتمر الأوروبي لفيزياء الأرض الذي انعقد في العاصمة النمساوية فيينا عام (١٩٩٥م)، ثم شارك عام (١٩٩٦م) بالمؤتمر الأوروبي للجيوفيزياء. وفي عام (٢٠٠٢م) حضر المؤتمر الدولي للمياه الذي انعقد في دبي، والمؤتمر الأوروبي للمستحاثات في رومانيا، ثم في عام (٢٠١٠م) شارك في مؤتمر اليونيسكو الدولي الرابع للجيوبارك الذي انعقد في ماليزيا، وكان عضواً في المؤتمر الدولي لكوكب الأرض الذي نظمته جمهورية مصر العربية في مدينة أسيوط، وبعدها بعام كان عضواً في المؤتمر الدولي الأول للجيوبارك في إفريقيا والعالم العربي الذي احتضنه المغرب. فضلاً عن مؤتمرات أخرى كثيرة ذات صلة بتخصصه.

وفي العام الماضي (٢٠١٨م) وعلى الرغم من تراجع العلاقات السورية– الأمريكية على خلفية تداعيات الأزمة، فإن اللجنة المنظمة للمؤتمر الدولي العشرين للجيولوجيا في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة اختارت العالم الجيولوجي السوري والباحث الفلكي الدكتور

فواز الأزكي عضواً في اللجنة العلمية للمؤتمر، وهذا بحد ذاته اعتراف عالمي ضمني بمدى كفاءة الخبرات العلمية السورية.

يتحدث عنه أحد الذين عرفوه عن قرب، فيقول: «إن من يرى سيارته يستغرب كيف يضع كل أمواله في المتحف، ويقبل أن يستقل سيارة قديمة كتلك وهو دكتور في الجامعة، لكنه كان يرد قائلاً: إن للسيارة دوراً محدداً هو أن تقلني من وإلى الجامعة، وغير ذلك أفضل أن أنفق المال في المكان الذي لن يذهب فيه سدى، وسيستفيد منه الجميع».

المتحف الجيولوجي

فكـرة المتحف شكلت هاجساً راوده منذ أيام الدراسـة الجامعية، إذ حوَّل جدران غرفته في بوخارست إلى متحف صغير للمستحاثات والكتب والخرائط، يزورها رفاقه في الجامعة، وبقي هذا الهاجس مسيطراً عليه حتى عام (٢٠٠١م) عندما خرج في أحد الأيام إلى منطقة صلنفـة شرق اللاذقية حاملاً حقيبتـه الجيولوجية كي يبحث عن مستحاثات وفلزات بهدف إغناء مخبره في كلية العلوم بجامعة تشرين.

وفي عام (٢٠٠٢م) بادر إلى تحويل بيته الوحيد في قريته «قسمين» إلى متحف ليكون أول متحف جيولوجي في سورية.



متحف الأزكي

وفي مقابلـة أجريتها معه عام (٢٠٠٨م) ونشَرَتْهـا مجلـة الزراعـة، يقـول الأزكي: بعد انتهائي مـن أعمـال التنقيب والبحث الجيولوجي فـي سلسلة الجبـال الساحلية التـي استغرقت سبع سنـوات صار بحوزتي مجموعـة مـن المكتشفـات مـن مختلف الأعمـار الجيولوجية وصخـورٌ من مختلف التشكيـلات الجيولوجية، وحفاظاً على هذه العينات وتلبية لطموحي القديم فكرت لماذا لا يكون في بلـدي سورية متحف جيولوجي أسوة بالبلـدان الأوروبيـة؟ وساعدتني في تنفيذ المتحف زوجتي الدكتورة عفاف سليمان

أستاذة الكيميـاء بجامعة تشرين والصديقان عبد الكريم العبد الله وعلي محرز ومجموعة من العمال.

يُقسَم المتحف إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول متحف الهواء الطلق: وتبلغ مساحته (١٥٠٠) متر مربع، ويحتوي على أكثر مـن ستيـن عينة صخرية ضخمة لجميـع الصخور الموجودة في سوريـة تبلغ أبعادها بين (٦٠ و٢٠٠ سم)، وأوزانها بين (٧٥ و١٥٠٠ كـغ)، وقد وضعت على كل عينة اسمها ومصدرها بالعربية والإنكليزية. وأحضرت الصخور من منطقة البدروسية ورأس البسيط وقسطل معاف وبانياس وسويدان وجبل قاسيون وحمص وهضبة حلب والرستن وصافيتا.

ويحتوي أيضاً على مجسمات للديناصورات بأبعادها الحقيقية: مجسم للديناصور العاشب، الذي سيطر على الأرض خلال دور الجوراسي من /١٤٠/ مليون سنة بطول (٢٣ م) وارتفاع (٦م)، واستغرق صنعه بشكل يدوي وفردي (٩٤) يوماً. ومجسم للديناصور اللاحم بطول (٥م) وارتفـاع (٣م)؛ الذي انقرض في نهاية دور الكريتاسي من /٦٥/ مليون سنة واستغرق صنعه (٤٥) يومـاً، ومجسـم للديناصور الطائر. ويحتوي أيضاً على مجسـم معدني للكرة الأرضية بقطر (٢٢٠ سم) استغـرق صنعه (١٨) يومـاً، ومجسم لبركان بقطر قاعدة (٤٥٠ سم) وقطر فوهة (١٢٠ سم) وارتفاع (٤م)، ويُدخَل إليه عبر بوابة مقتبسة من بوابة «أوغاريت»، ويحتوي في داخله على عينات بركانية من ستة براكين سورية من أعماق تزيد على (٣٠كم). ومجسـم آخر للبنية الداخلية للأرض، وخارطة تضاريسية لسوريـة ثلاثية الأبعاد بطول (٣٣٠ سم) وعرض (٣٣٠ سم).

وحسـب الباحث الأزكي فإن المتحف يجيب عن تسـاؤلات أبرزها كيف استطاع الإنسان السوري استخدام الصخور بشكل صحيح قبل (٤٠٠) عام. كما له طابع عالمي بسبب العينات النـادرة التي تشكـل وجوده، منها عينة «دكـن» بمصراعيها «الحالة النـادرة»، وعينة ثلاثية الفصوص بطول (١٤ سم)، وورقة شجر منطبعة بصخرة سورية عمرها (٨) مليون سنة تحلم بالحصول عليها أهم المتاحف العالمية، كما أن هناك عينات لعظام على صخور بركانية.

والقسم الثاني هو المتحف الداخلي وتبلغ مساحته (١٣٠) متراً مربعاً ويتكون من سبعة أركان:

١- ركن المستحاثات: البناء بشكل دائري تماماً وعلى سطحه مجسـم لنجم البحر (رمز للمستحاثات السورية)، ويحتـوي في داخله علـى جميع المستحاثات المكتشفة في سوريـة

ويحتوي على أكثر من (١٢٠) مستحاثة، وضعت ضمن صناديق خشبية نموذجية ذات واجهات زجاجية، وعلى كل صندوق هوية للمستحاثة، وعلى الجدران الداخلية رسوم تمثل بانوراما التطور «الباليوجغرافي» لسطح الأرض، وعلى السقف مجسمات للشمس وكواكبها بأبعادها النسبية.

٢- ركن الفلزات: بُنـي بشكل موشوري (وهو النظام البلوري للكوارتز) وعلى السطح كُتِبت بحجارة الكوارتز عبارة SiO_2 وهي الصيغة الكيميائية للكوارتز (رمز الفلزات السورية) وفي داخله أكثـر مـن (٨٠) منيرالاً /فلزاً/ تمثل جميع المنيـرالات الموجودة في سورية، وضعت ضمن صناديق نموذجية عليها هوية كل فلز. كمـا يضـم فلزات أُحضِرت من الخارج بوصفها عينـاتٍ جمعها في أثنـاء دراسته في رومانيا، بالإضافة إلى عينـات أخرى من روسيا وتركيا وبلغاريا وبولونيا وفرنسا، وقد نقلها على نفقته الشخصية.

٣- ركن الجيولوجيا الفطرية: بُنِيَ بشكل نصف كرة، ويحتوي على عينات تراثية سورية (أي كيف استخدم الإنسان السوري القديم الصخور بشكل صحيح دون أن يدرس علم الجيولوجيا)، ويحتوي على أوانٍ منزلية من الفخار وجرن من البازلت وباطوس، ومدحلة من الحجر الرملي وغيرها.

٤- ركن الثقب الكوني الأسود: وهو عبارة عن دهليز ذي سقف مقوس يصل بنا إلى الركن الخامس.

٥- ركن المغارة: صُمِّمَ اقتباساً من المغارات السورية بصواعدها ونوازلها.

٦- ركن الصخور: يحتوي على عينات نموذجية لجميع الصخور في سورية ضمن صناديق نموذجية، وعلى الجدار علقت أقدم خارطة جيولوجية لسورية عام (١٩٤٥م).

٧- مكتبة المتحف: تحتوي على أكثرمن /٧٠٠/ كتاب، أغلبها مراجع متخصصة في علم الجيولوجيا باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والروسية والرومانية. بالإضافة إلى عينات لجميع الخامات السورية.

ويضم المتحف ركناً للمختبر لفحص العينات وقصِّها. كما يحتوي على غرفة نوم للباحثين الزائرين.

وإيمانـاً من الراحل بأهمية البحث العلمي أوصى بعـدم استثمار متحفه مادياً، وتسخيره للعمـل العلمي، ووضعه تحت تصرف الطلاب والباحثيـن والمؤسسات التعليمية ويقول بهذا

الصدد: «جعلت الدخول إلى المتحف مجانياً فأنا قد أنشأته ببادرة ذاتية وطوعاً، وهو رسالة أقسمت بالوفاء لها، وهذا المتحف غير قابل للاستثمار، وأرفض تحويله إلى منشأة استثمارية، بل أطمح من خلاله أن أضيف صرحاً علمياً ثقافياً سياحياً لبلدي».

وكان الباحث الأزكي يطمح للارتقاء بالمتحف ليكون متميزاً على مستوى العالم، وزار المتحف حتى الآن مئات الآلاف من الناس من مختلف المستويات العلمية من بينها: معسكرات جيولوجية وطلابية، ومعسكر رواد الفلك في سورية، والمشاركون في ملتقى الإبداع للشباب العربي من (١٦) جامعة عربية، وطلاب من مؤسسات ومعاهد علمية مختلفة. يقول الأزكي: «زارني عالم جيولوجي أمريكي وعالمة يابانية وعالم هنغاري كانوا قد أتوا خصيصاً إلى هنا، كذلك عالمة آثار فرنسية سمعت عن متحفي فأصرت على المجيء وكتبت على دفتر الشرف: «لقد زرت متاحف الأرض من اليابان إلى أوروبا لكنني أوّل مرة أرى الحجر يتكلم»، طبعاً من عبارتها اقتبست عنوان كتابي (حين ينطق الحجر)، فيما قالت باحثة أخرى: «إن أهمية المتحف تكمن في خروجه عن إطار المتاحف العادية في العالم التي تكون ضمن المدن وضمن صالات مغلقة».

اكتشاف جنين الديناصور

في أثناء تجواله الحقلي كانت المفاجأة، اكتشف صخرة تعود إلى العصر الكريتاسي وقد انطبع عليها هيكل جنين ديناصور. كان حجم الاندهاش كبيراً لأن جميع المراجع الجيولوجية المحلية والدولية تخلو من ذكر أي مستحاثة فقارية في سلسلة الجبال الساحلية السورية، والسبب الثاني هو أن الباليوجيوغرافيا تنص على أن سلسلة الجبال الساحلية كانت مغمورة بمياه البحر في الزمن الكريتاسي، إذن ما العمل؟


من متحف الأزكي

عاد الباحث فوراً إلى منزله في اللاذقية، وغسلَ العينة جيداً، ثم راح يبحث في جميع المراجع والمجلات والدوريات المهتمة بمستحاثات الديناصور وبعد أكثر من (٤٨) ساعة من البحث المتواصل

والمراسلات مع البروفسور الروماني غريغيريسكو مكتشف بيضة الديناصور في رومانيا وأحد المراجع الأساس لمتحف التاريخ الطبيعي في باريس، توصل الأزكي إلى نتيجة شبه مؤكدة أن هذه المستحاثة تعود لجنين ديناصور لاحم من جنس تيراناصور ريكس، وفي تموز (٢٠٠٢م) شارك الباحث الأزكي في المؤتمر الدولي للمستحاثات الفقارية في مدينة هاتسيغ الرومانية وتقدم بورقة عمل تحت عنوان: «سورية كانت موطناً أو معبراً للديناصورات خلال الدور الكريتاسي».

لاقى البحث اهتماماً كبيراً من المشاركين، وأُرسلَت تهنئة من المؤتمر إلى رئاسة جامعة تشرين على هذا الاكتشاف.

الموسوعة الجيولوجية الكاملة

منذ أن كان طالباً جامعياً، كان هاجس الدكتور «الأزكي» إيجاد موسوعة جيولوجية بحتة، أسوة بالموسوعات العلمية لبقية الاختصاصات. وفور تخرجه في جامعة بوخارست عام (١٩٨٥م)، بدأ بالعمل على تأليف موسوعة جيولوجية، وبعد (١٨) عاماً من البحث المتواصل في المراجع والمجلات والدوريات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والرومانية وتحديث المعطيات عن طريق الإنترنت خلال السنوات الثلاث الأخيرة انتهى من تأليف الموسوعة، فأصدر في صيف (٢٠٠٣م) المجلد الأول ووعد القراء بإصدار مجلّدٍ كل عام بسبب وضعه المالي الذي لا يسمح له بطباعة أكثر من مجلد في العام الواحد، ولكن بسبب تعرضه لحادث سير مروّع لم يتمكن من الوفاء بوعده خلال الأعوام (٢٠٠٤ و٢٠٠٥م)، فأصدر في آب (٢٠٠٦م) «الموسوعة الجيولوجية الكاملة من الألف إلى الياء»، يبلغ عدد المصطلحات فيها /٣٢٧٠/ مصطلحاً في (٨٨٠) صفحة مرتبة ترتيباً معجمياً. مزودة بالرسوم والصور الملونة والشرح الكافي مع معانيها بالإنكليزية.

وتتكون الموسوعة العلمية الجيولوجية -التي تعدّ الأولى من نوعها باللغة العربية- من (٢٨) جزءاً، مرتبة ترتيباً معجمياً حسب الأبجدية العربية. فمثلاً يحتوي الجزء الأول على جميع المصطلحات التي تبدأ بحرف الألف، والجزء العاشر على جميع المصطلحات التي تبدأ بحرف الراء، والجزء الثامن والعشرون على المصطلحات التي تبدأ بحرف الياء وهكذا. وصِيْغَت بلغة عربية سليمة وسهلة كي تُقتَنَى بوصفها مرجعاً علميّاً وثقافيّاً وهي موجهة إلى جميع الطلاب والباحثين والمهتمين في مجالات: (الجيولوجيا، والجيوفيزياء، والجيوغرافيا،

والبتروكيمياء، والبيولوجيـا، والهندسة المدنية الهندسة الزراعية، وعلم البيئة، وعلم الفلك، والآثار، والاستشعار عن بعد).

وعــن الصعوبات التي واجهته في عمله، وإلى أين يريد الوصول قال في إحدى مقابلاته: لم أبدأ بعد... لا أقول ماذا سأفعل، حين أفعل أتحدث عما فعلت... فقبل الموسوعة كنت قد تعرضت لحادث مروّع عام (٢٠٠٥م) أدى إلى كسر تام في الجمجمة مما تسبب بتعطيل سبعة أعصاب. قال الأطباء حينها: إنني سأبقى (٢٤٠) يوماً من دون نطق أو سمع. لم أتخيل نفسي عاطلاً عن العمل فطلبت ورقاً أبيض وأقلاماً، وكتبت أول موسوعة جيولوجية في العالم ومن دون مراجع وأنا في العناية المشددة. واجهتني كثيرٌ من الصعوبات تجدونها في كتابي (حين ينطق الحجر) الذي يعدُّ تلخيصاً لسيرة آلامي وآمالي، لن أقول عنها صعوبات وإنما خيبات، لأنها من صنع بعضهم للأسف.

المرصد الفلكي

وفي عام (٢٠٠٤م) صمّم الدكتور الأزكي ونفّذ أول مرصد فلكي في اللاذقية على سطح بيتـه في قرية قسمين، ووضع فيه أربعة تلسكوبات متطوّرة أحدها من رومانيا لمراقبة حركة النجوم والكواكب. يتيح المرصد للزائر المسائي مراقبة قبة السماء السورية على مدار السنة. وقــال الأزكي عند افتتاحه: «لقد قمــت وبجهد شخصي مني باستقــدام عدد من المناظير بقدرات متنوعة إذ أراقب بأحدها القمر وبأخرى الكواكب، كما يوجد تلسكوب آخر مخصص لمراقبة النجوم، ومنذ هذه اللحظة سأخصص موعداً معيناً بشكل دوري يستطيع هواة الفلك القدوم واستخدام هذا المرصد مجاناً لمشاهدة الفضاء الخارجي».

رواية ثمر الصفصاف

يقــول الكاتــب الأزكي فــي تصريح صحفــي عند توقيع روايتــه الثالثــة والأخيرة «ثمر الصفصاف» اختــرت العنوان من قول للرئيس الروماني الراحــل نيكولاي تشاوشيسكو: «لن تدخــل البيريسترويكا رومانياً حتى يثمر الصفصاف»، ومن المعــروف أن نبات الصفصاف لا يثمر فأجبت في روايتي عن كيف يثمر الصفصاف، ولماذا سقطت الشيوعية في رومانيا.

البيريسترويكا تعنــي «إعادة الهيكلة»، وهي عبارة عن برنامــج للإصلاحات الاقتصادية أطلقه رئيس الاتحاد السوفييتي «ميخائيل غورباتشوف»، وتشير إلى إعادة بناء اقتصاد الاتحاد

السوفييتي. وأضاف الأزكي: «يتضمن العمل عدداً من الشخصيات الرومانية وبطلها سوري الأصل «يوسف» ذهب للدراسة في رومانيا وتتمحور القصة حول الأسباب الرئيسة لانهيار النظام الشيوعي والأخطاء التي كانت موجودة كفردية الحكم وديكتاتورية الرئيس وعدم احترام الرأي الآخر، وتتحدث الرواية في الوقت نفسه عن الحب والسياسة والحياة بشكل عام. كما تغطي الرواية كثيراً من الزوايا التي لم يكتب عنها الأدباء سابقاً، فقد دخلت في خلايا الرومانيين وأزقتهم، وأنصح الشباب بالاطلاع عليها لأنها تسلط الضوء على أسباب سقوط النظام الشيوعي في رومانيا».

رسالة الوداع

في أواخر عام (٢٠١٨م) أي قبل وفاته بعدة أشهر كتب الباحث الجيولوجي الراحل عن نفسه ما يلخص أبرز منجزاته على حسابه على فيسبوك في رسالةٍ لزوجته يقول فيها:

«إلى صديقتي الزوجة الدكتورة عفاف سليمان... بمناسبة اقتراب عمر مشوارنا المشترك من خمس قرنٍ... منذ أربعين عاماً... وفي طفولتي في المرحلة الابتدائية كتبت خاطرة على دفتري ما زلتُ أحتفظ بها حتى الآن: (ينقسم عالمنا الإنساني إلى عالمين: عالم لا يستطيع أن يقدم شيئاً إلى الكون مقابل الأوكسجين الذي يستهلكه سوى الاستخلاف، ومن واجب من ينتمي إلى هذا العالم أن يتزوج باكراً كي يستخلف أكبر عدد من الأبناء حرصاً على الحفاظ على النوع البشري... وعالم آخر يستطيع أن يقدم إبداعات أخرى كالعلم والفن والأدب والموسيقا تسهم في تطور المجتمع الإنساني، وعليه أن يكرس وقته وعمره لإبداعاته، وقد يعيق الزواج والاستخلاف تلك الابداعات، لذا من واجبه ألّا يتزوج). لكني تزوجت! وبعد خمس قرنٍ من زواجنا يا صديقتي الزوجة أقول لكِ: أعتذر عن خاطرتي التي كتبتها منذ أربعين عاماً... وأعلن بطلانها... لأنه بوجودك معي ازداد عطائي، بل إبداعاتي (إن صح التعبير):

في عام (١٩٩٧م) ألفتُ رواية أيام الثلج الأحمر، وفي عام (١٩٩٨م) ألفتُ كتاب الزلازل، وفي عام (١٩٩٩م) ألفتُ كتاب كسوف الشمس وخسوف القمر، وفي عام (٢٠٠١م) كنتُ المكتشف الأول للديناصور السوري، وفي عام (٢٠٠٢م) حولتُ بيتي إلى أول متحف جيولوجي في سورية، وفي عام (٢٠٠٣م) ألفتُ أول موسوعة جيولوجية عربية، وفي عام (٢٠٠٤م) أسستُ أول مرصد فلكي في اللاذقية، وفي عام (٢٠٠٥م) ألفتُ كتاب جيولوجيا الحقل، وفي

عـام (٢٠٠٦م) ألفتُ كتاب المسح الجيولوجي، وفي عام (٢٠٠٧م) ألفتُ كتاب الاستشعار عن بعـد، وفي عام (٢٠٠٨م) ألفتُ كتاب الجيومورفولوجيا، وفي عام (٢٠٠٩م) ألفتُ رواية «حين ينطـق الحجر»، وفي عام (٢٠١٠م) ألفتُ رواية ثمر الصفصاف، وفي عامي (٢٠١١-٢٠١٢م) بحـث حوض السن، وفي عام (٢٠١٣م) بحث تلوث نبع السن، وفي عام (٢٠١٤م) ألفتُ كتاب المعالجة الرقمية، وفي عام (٢٠١٥م) أصبحتُ أستاذاً زائراً في جامعات بريطانيا، وفي عام (٢٠١٦م) حصلتُ على شهادة الزمالة البريطانية في الجيولوجيا، وفي عام (٢٠١٧م) أصبحتُ عضو اتحاد الكتّاب العرب.

وقـد تُوِّجَ إخلاصك أيتهـا الصديقة الزوجة أنك أضفت إلى قائمـة أصدقائي صديقين جميليـن هما: الأدهـم بوداعته في كلية الصيدلـة، ويافا بحيويتها في كليـة طب الأسنان. كـل عام وأنت صديقتـي الزوجة، شكراً لرفاقيتك الرائعة فـي درب معاناتي، شكراً لتحملك فوضويتي العارمة: سهري وخمري ودخان سجائري وضجة رقصي وفقري وجوعي وأصدقائي وصديقاتي، لولاكِ لتلكأتُ في مسيري، لكني أعدك بالقادم الأجمل».

(٣١/١٠/ ٢٠١٨م)

ومـن إحـدى المقابـلات الصحفيـة نقتطف مـا قاله عـن تجربته الغنيـة في مجال الجيولوجيا:

«أسهـم المتحف فـي نقل الجيولوجيا من برجهـا التجريدي إلى قاعـدة الملموس، من المصطلـح الأكاديمي الغامض إلى الثقافـة، إذ كانت الجيولوجيا مصطلحـاً مبهماً لأغلب سكـان المنطقـة حتى بالنسبة إلـى الجامعيين، فمنهم من كان لديـه التباس بين الجغرافيا والجيولوجيا، وفي أحسن الحالات كانوا يقولون (مجرد حجارة).

المتحف حفز حتى الأطفال وعلّمهم ألّا ينظروا إلى الحجر على أنه جسمٌ صلب أصم، بل هـو كائن حي متحجر، فقد جاءني ذات يوم طفل بعمـر خمس سنوات يناديني من على باب المتحف فرحاً وبيده صخرة كروية قائلاً: أحضرت لك بيضة ديناصور متحجرة. كذلك حفز سكان المنطقة على الاعتناء بالتراث، فأهل قريتي كانوا قد رموا في حقولهم الرحى والجرار الفخاريـة لكن بعـد إنشاء المتحف بحثوا عنهـا وغسّلوها ووضعوها علـى شرفات منازلهم يفتخرون بها، فأدركت حينها أن الجيولوجيا بدأت تدخل الثقافة والبيوت».

كان الباحث الأزكي يخصص ثلاثة أيام في الأسبوع للمتحف، وكان يرافق طلابه أسبوعياً إلى البدروسية وكسب بوصفه مدرساً للجيولوجيا الحقلية، إضافة إلى إقامة مسير جيولوجي سنوي لطلابه لمسافة (٤٠ كم) من جامعة تشرين إلى قرية زغرين عند سد بلوران.

أمّا نصيحته للطلاب: إن كنت تريد من هذا الكون مالاً اذهب إلى التجارة، وإن كنت تريد خلفــاً تزوج من أربعة، وإن كنت تريد سلطة فالطريق معروفة، وجميع هذه الأشياء هي أرقام، لكــن إن كنت تريد أن تتعدى الرقم فابحث علمياً، ولتعلم يا عزيزي أن مسيرة البحث العلمي هي مسيرة شاقة وعلى حساب كثير كثير مما تحتاج إليه.

إن كانــت سعادتك أن تتعدى الرقم فأنت على حق. وبالنسبة إلي متحفي ليس رقماً وهذا يكفينـــي. ما نعلمه اليوم كنا نجهله بالأمس، فلنسلح عقولنا بالعلم لنعلم ما كنا نجهله. تحقيق الطموح ليس مستحيلاً، إنما يتطلب إرادة صلبة وصادقة، وستصل الرسالة في نهاية الأمر إذا وُجِدَ من يتابعها، وفي النهاية لاشيء يأتي من فراغ.

المراجع

(١)- موقع وكالة سانا.

(٢)- موقع قناة ART.

(٣)- موقع إذاعة سيوتنيك.

(٤)- مجلة الزراعة، العدد ٢٥.

(٥)- صفحة الباحث الراحل على الفيسبوك.

آفاق المعرفة

لغز نجم الشعرى اليمانية

فايز فوق العادة

يُعرَف نجم الشعرى اليمانية في أدبيات علم الفلك باسم سيريوس. إنه نجم أبيض مزرق. يتلألأ بكل ألوان قوس قزح. إنه أسطع النجوم في القبة السماوية يليه نجم كانوباس الذي يسطع بنصف سطوع سيريوس. تعني الكلمة سيريوس الساطع أو الحارق. يكافئ سطوعه الفعلي ثلاثة وعشرين ضعفاً سطوع الشمس. أمَّا قطره فيساوي مليونين وخمسمئة ألف كيلومتر. يمتلك سيريوس كتلة أكبر من كتلة الشمس بمرتين ونصف المرَّة وترتفع درجة حرارة سطحه إلى عشرة آلاف درجة مئوية. نذكر للمقارنة أن درجة حرارة سطح الشمس تبلغ ستة آلاف درجة مئوية. يجري التفاعل النووي الاندماجي في مركز سيريوس بدرجة حرارة عشرين مليون درجة مئوية. يقع سيريوس على مسافة ثماني سنوات ضوئية وسبعة بالعشرة من السنة الضوئية عن الشمس. السنة الضوئية وحدة لقياس المسافات الكونية تكافئ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة زمنية كاملة مرتحلاً بسرعته المعهودة ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية. تساوي السنة الضوئية نحو عشرة مليون مليون كيلومتر. يعني ذلك أن الضوء يقطع المسافة من سيريوس إلى الشمس في


نجم الشعرى اليمانية

ثماني سنوات زمنية وسبعة بالعشرة من السنة. إنه خامس أقرب نجم إلى الشمس. بعد مليون سنة يقترب النجم المعروف باسم غليزي (٧١٠) من الشمس حتى سنة ضوئية واحدة ليصبح الأقرب للشمس في ذلك الوقت. إن أفضل أوقات مشاهدة سيريوس هي بين شهرَيْ كانون الثاني وآذار. في غضون الألفي سنة الأخيرة غيَّر سيريوس موقعه الظاهري في القبة السماوية بمقدار مرة ونصف المرّة الامتداد الظاهري للقمر. ينتمي سيريوس إلى تيار متحرك من النجوم يدعوه الفلكيون تجمُّعاً مفتوحاً يضم نجوم الدب الأكبر عدا نجمَيْ الدب والقيد، ويبلغ تعداد النجوم فيه مئة وأربعين نجماً. تقع الشمس على التخوم الخارجية لهذا التجمع.

كان سيريوس النجم المقدس عند قدماء المصريين، وكان يعرف بنجم النيل أو نجم إيزيس كذلك بنجم أوزيريس. أيضاً دعاه المصريون القدماء النجم الأحمر وكان مصدراً للرهبة. كان شروقه الشمسي إبان مرحلة الانقلاب الصيفي من كل سنة مبشراً المصريين بفيضان النيل. وبصورة عامة بعد غياب أي نجم مدّة زمنية في وهج الشمس يشرق النجم أوّل مرة قبيل شروق الشمس مباشرة فيما يُعرَف بالشروق الشمسي لهذا النجم..

يبدو أنه في غضون ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد كان الشروق الشمسي لسيريوس يحدث في الخامس والعشرين من حزيران وذلك إثر غيابه في وهج الشمس مدّة سبعين يوماً. ومن الطريف أن نذكر أن مدّة الحداد في الثقافة المصرية القديمة كانت تمتد سبعين يوماً، وكان فيضان النيل هو بداية السنة الجديدة في مصر القديمة، ووفق المصريين القدماء كان فيضان النيل هو دموع إيزيس الحزينة على زوجها المقتول أوزيريس. هل ظهر سيريوس بلون أحمر بالنسبة إلى الراصدين القدماء؟

وصف عدد منهم مثل أراتوس وسيسيرو وهوراس وسينيكا النجم سيريوس بأنه نجم ناري أحمر. قارنه هوميروس في الإلياذة بدرع آخيل النحاسي وذكر البابليون أنه كان يشع كالنحاس. أشار بطليموس في السنة مئة وأربعين ميلادية إلى بعض النجوم الحمر مثل الدبران وسيريوس وقلب العقرب، أما الفلكي عبد الرحمن الصوفي فلم يصنف سيريوس نجماً أحمر في القرن العاشر الميلادي. راجع الفلكيون المعاصرون هذه المعلومات ودرسوا بدقة خصائص النجم المرافق لسيريوس والمعروف باسم «سيريوس ب» واستنتجوا أن هذا النجم ربما كان نجماً عملاقاً أحمر اللون منذ ألفي سنة. إن النجم «سيريوس ب» الآن هو في المرحلة التي يدعوها الفلكيون **القزم الأبيض**.

إن الانتقال من نجم عملاق أحمر إلى نجم قزم أبيض تلزم مدة لا تقل عن مئة ألف سنة وليس ألفي سنة فحسب. أيعقل أن يكون تطورٌ قد طرأ على الحساسية اللونية للعين البشرية بتنا بسببه لا نرى الحمرة كما كان يراها الأقدمون.

رأى الأقدمـــون نجومـــاً حمراء نراهـــا الآن صفراء، هل تطورت العيـــون بسرعة من زمن اليونـــان والرومان إلى زمن عبد الرحمن الصوفي؟ أدى وجود التلفاز في العقود الأخيرة إلى تغييـــر ملحوظ في مقدرات العيون على الرؤية. فقد زادت مقدرة العيون على رؤية التفاصيل وضَعُفَـــت مقدرتها على تمييـــز الأجسام البعيدة، لذا أخذ المخرجـــون العاملون في الأفلام والمسلسلات بتوظيف حيلٍ تصويرية أعقد، لأن العيون باتت تكشف تلك الحيل. على أيٍّ حال مازلنا نرى المريخ وقلب العقرب بلون أحمر تماماً كما كان يراهما الأقدمون.

تعـــادل كتلة «سيريوس ب» كتلـــة الشمس لكنه أخفت من الشمـــس بأربعمئة مرة، وتكافئ كثافته تسعين ألف ضعف كثافة الشمس، لذا فمن المحتمل أن يكون قد انتقل من نجم عملاق أحمر إلى قزم أبيض في مدّة زمنية قصيرة نسبياً لكنها أطول بكثير من ألفي سنة.

تذخـــر الأدبيات التاريخيـــة القديمة بمعلومات غيـــر مفسرة ترتبـــط بأطروحات كونية معاصـــرة. إن خير مثال لتلك المعلومات هو المحصلـــة الواسعة للمعارف الكونية التي تحتل مساحـــة واسعة من أساطيـــر شعب الدوغون الذي يقطن مالي في غرب إفريقيا. فقد سجلت الأساطيـــر المذكورة وجود نجم ثقيل يدور حـــول نجم سيريوس، إنه وصف دقيق للنجم الذي اكتشفه الفلكيون المعاصرون وأسموه «سيريوس ب».

«سيريوس ب» هو قزم أبيض أي نجمٌ انهار انهياراً ثقالياً شديداً، وغدت مادته متراصة على نحـــو فائق. تضيف أساطير الدوغون أن «سيريوس ب» يتحرك في مدار بيضوي مكملاً دورة واحدة حول سيريوس في خمسين سنة أرضية، وتؤكد الحسابات المعاصرة هذه الحقيقة.

تؤكـــد أساطير الدوغون أن «سيريوس ب» يدور حول نفسه مرة كل سنة أرضية، ولم يتأكد العلماء من هذا الأمر حتى الآن.

تتطرق أساطير الدوغون إلى استحالة أن يكون بمقدور كل البشر حتى لو وحدوا جهودهم أن يحملـــوا النجم موضع البحـــث. إنه نجم قوي وفق ما تذكره أساطيرهم، إنه النجم الأصغر علـــى الرغم من قوته. وواقـــع الأمر أنَّ «سيريوس ب» هو نجم خافـــت تستحيل رؤيته بالعين المجـــردة. رصد أوّل مرة في عـــام (١٨٦٢م) باستخدام أكبر مرصـــد فلكي في ذلك الوقت.

وصُوِّرَ «سيريوس ب» أول مرة في عام (١٩٧٠م). بدأ الفلكيون حديثهم عن الأقزام البيض في عـــام (١٩٢٠م)، وفي عام (١٩٢٨م) طرح نموذج نظري يفســـر الجذب الثقالي الشديد الذي يفرضه القزم الأبيض على جواره...

تتحـــدث أساطير الدوغون عن نجـــم ثالث يدور حول سيريوس، وتؤكـــد الأبحاث الفلكية التـــي جرت بدءاً من عام (١٩٩٥م) وجود هذا النجم الثالث، وسمي «سيريوس ج» ويدور حول سيريوس مرة كل ست سنوات أرضية.

كُشِـــفَ النقاب عن أساطيـــر الدوغون في عام (١٩٣١م) ولم تكن معروفة قبل ذلك. وتعود هـــذه الأساطير إلى أزمنة موغلة في القدم تتجاوز سبعـــة آلاف سنة، ولم يكن نجم سيريوس الموضـــوع الفلكي الوحيد الذي تضمنته أساطير الدوغون، فقد تطرقت الأساطير إلى القمر ووصفتـــه بأنه جافٌّ وميت أشبه بدم جاف ميت. كمـــا أثبتت وجود حلقات حول كوكب زحل، وأشارت أساطير الدوغون إلى حقيقة دوران الأرض وكواكب أخرى حول الشمس. كما عرفت أن الأرض تدور حول نفسها، وكنا نعلم أن النموذج القديم التاريخي الذي ساد عند كل الشعوب حتـــى قدوم كوبرنيكوســـ يصور الأرض مركـــزاً للكون حيث تدور الشمســـ والقمر ومختلف الأجســـام حولها. كما أشارت أساطيـــر الدوغون إلى أقمار المشتـــري الأربعة الرئيسة. فقد وصل عدد أقمار المشتري المعروفة حالياً إلى ثلاثة وستين قمراً، ويذهب بعض الفلكيين إلى أن أقمار المشتري هي في الأصل أربعة أقمار، أما الأقمار الأخرى فهي توابع عابرة يلتقطها المشتري في أطوار معينة من حركته ثم يعود ويحررها من قبضته في أطوار تالية. إنها مجرد كويكبات تائهة لا يثبت لها حال. وسَّعت أساطير الدوغون درب التبانة إلى تشكيل لولبي واسع من نجوم بعيدة عن الشمس. عرف الدوغون الدورة الدموية، وأن الغذاء يذهب إلى الدم، وأن للهواء دوراً في إنعاش الجسم.

يتناقل شعب الدوغون عبر أجياله المتتالية حكايات تفيد بأن سلالة متقدمة من الكائنات الحية تعيش على كوكب من توابع سيريوس قد بعثت برسلها في الماضي السحيق إلى الأرض، وأن هـــؤلاء قامـــوا بإطلاع أجداد الدوغون على كل المعلومـــات الفلكية التي كانت بحوزتهم، وقـــد أشار البابليون والمصريون القدماء إلى قـــدوم هؤلاء الرسل كما ادّعى موسيقار ألماني بـــأن هؤلاء الرسل أوحوا له بأعماله الموسيقيـــة. ووفق أساطير الدوغون أسَّسَ شعب نوموس حضارة على كوكب تابع لسيريوس، ثم أتت رسل النوموس إلى الأرض لتأسيس حضارة جديدة.

إن النوموس كائنات مائية أشبه بالدلافين، ويتحدث العلماء المعاصرون عن الذكاء المميز للدلافين على الأرض. كما نقرأ في أساطير السومريين أن كائناً مائياً أشبه بالدلفين كان يخرج من البحر كل صباح ليقوم بتعليم الرياضيات والفلك ثم يعود في المساء إلى الماء.

يفيدنا تاريخ الدوغون بأن مركبة كبيرة كانت تحلّق في الفضاء وأن مركبة صغيرة انفصلت عنها وهبطت على الأرض، وعندما ترجل نوموس من المركبة ذهب مباشرة إلى الماء. وفق الفلكيين المعاصرين إن بُعد كوكب نوموس عن سيريوس يناسب نشأة وارتقاء الحياة عليه. ويصف الدوغون شعب النوموس بأن لكل منهم قسماً أعلى مثل البشر وقسماً أسفل مثل الأسماك، ربما أسطورة حورية البحر قد انحدرت عن هذا الوصف.

تظهر بعض الآثار في اليابان أن زيارات لكائنات من جوار نجم سيريوس قد حدثت قبل آلاف السنوات. إن موضوع الزيارات التي قامت بها كائنات كونية مفترضة إلى الأرض من نجوم بعيدة في الماضي هو موضوع مفتوح للبحث، وهناك آثار قديمة تؤيد حدوث تلك الزيارات ولاسيما في أمريكا الجنوبية.

إن فرضية أن تكون الحياة على الأرض قد انتقلت من كواكب ونجوم بعيدة قد جذبت عدداً من العلماء والباحثين ومازالت تجذب مزيداً منهم بغية البحث عن أدلة تؤيدها.

المراجع

(1)-Burnham Celestial Handbook,Robert Burnham.Jr.,1978,Dover.

(2)- Mcgraw-Hill Encyclopedia of Astronomy,Sybil P.Parker,1998,Mcgraw-Hill.

(3)-Introduction to Modern Astrophysics, Carroll & Ostlie, 2007, Addison Wesley.

(4)- The Science of the Dogon, Laird Scranton,2006, Inner Traditions.

حقائق حول تبدلات المناخ

طوني باربوزا[1]
ترجمة: د. جميل ضاهر

بناءً على البيانات التي صدرت عن إدارة الفضاء والمركز الوطني للملاحة الجوية (NASA)، والإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوي (NOAA) بخصوص درجات الحرارة في العالم وذلك بتاريخ السادس من شباط لهذا العام (٢٠١٩م)، فقد تبيَّن أنّ السنوات الخمس الأخيرة كانت الأشد حرارة على الإطلاق.

في حين أنّ عام (٢٠١٨م) كان أكثر برودة من السنوات الثلاث السابقة، إلا أنّ الأرض لا تزال تشهد عامها الرابع الأكثر دفئاً منذ بدأ العلماء في الاحتفاظ بسجلات الطقس في عام (١٨٨٠م)، حسبما ذكرت الوكالة الفيدرالية. والاستقراءات المتكررة والمتلاحقة لهذه الوكالات تقول: إنّ حرق الوقود الأحفوري، وإزالة الغابات بالإضافة إلى كثير من الأنشطة البشرية أدى إلى إطلاق الغازات الدفيئة المحبوسة في الجو مُسَبِّبةً ارتفاعاً في درجة حرارة الكوكب.

وفي رأي لمدير مركز علوم المناخ في جامعة كاليفورنيا «أليكس هول»- ولم يكن واحداً من المقرّرين في الفريق الحكومي للتحليل- قال: لو أجرينا مقارنة بين الاختلافات الحرارية من عام إلى آخر عن طريق صورة مكبَّرة نلحظ اتجاهاً عامّاً يميل نحو التغيير المتسارع ونحن نشهد الآن المزيد من الاحترار الذي يحدث بشكلٍ أسرع.

وفق وكالة (NASA)، كان متوسط درجة حرارة الأرض في العام الماضي (١,٤٩) درجة فهرنهايت أعلى من مدّة خط الأساس بين (١٩٥١- ١٩٨٠م).

ووفــق تصنيفــات وكالة (NASA)، كــان العام الأكثر دفئاً هو عــام (٢٠١٦م)، يليه (٢٠١٧م) و(٢٠١٥م) و(٢٠١٨م) و(٢٠١٤م). وكانــت كــل هــذه السنوات الخمس دافئة بشكــل استثنائي، مع وجود فروق طفيفة فحسب كانت مدفوعة بالتغيرات الطبيعية في الطقس، بما في ذلك دورات باردة ودافئة بالتناوب، سببها يعود إلى ظاهرتين معروفتين بـ La Niña وEl Niño[٢].

قال عالم المناخ في وكالة NASA جافين شميدت الذي عمل على تحليل وكالة الفضاء: «نشهــد ارتفاعاً وهبوطــاً – سنوات أكثر دفئاً بعض الشيء وأكثر برودة قليلاً – لكن الاتجاه الأساســي طويل المدى واضح للغاية. إنها الاتجاهــات طويلة المدى التي تؤثر في الجليد، وفي شدة الجفاف، وفي موجات الحــرارة، وارتفاع مستوى سطح البحر وحرائق الغابات». وفي إشارة إلى هذه الآثار، قدّم تقريرُ الإدارةِ الوطنية للمحيطات والغلاف الجوي (NOAA) بالتفصيــل أربعــة عشرة كارثة مناخية فــي جميع أنحاء الولايات المتحــدة العام الماضي بخسائــر تتجاوز مليــار دولار. كانت الخسائر الإجمالية البالغــة (٩١) مليار دولار من تلك الكوارث رابع أكبر إجمالي في السجلات التي يعود تاريخها إلى عام (١٨٨٠م).

معظــم الأضرار نجمت عــن إعصاري فلورنس ومايكل، اللذيــن ضربا الولايات الجنوبية الشرقيــة، ومن حرائق غابات المناطق الغربية، بما في ذلك حريق المخيم الذي أودى بحياة



إعصار فلورانس

(٨٦) شخصاً، ودمّر أكثر من (١٣٩٠٠) منزل في بلدة باراديس في سييرا نيفادا(٣). هذا وقد خلصت (NOAA) إلى أن متوسط درجة حرارة سطح الأرض في عام (٢٠١٨م) كان (١,٤٢) درجة (فهرنهايت) وهذا الرقم أعلى من المتوسط في القرن العشرين بأكمله.

إنّ مزيجاً من الغازات الدفيئة المتصاعدة وظاهرة (El Niño) الخفيفة نوعاً ما والجارية في المحيط الهادي يعني أنه من المحتمل أن يكون عام (٢٠١٩م) أكثر سخونة من عام (٢٠١٨م). ولكنّ العلماء يرون أن ثمّة فرصةً مؤكدة بأنّ هذا العام سيكون الأسخن بين السنوات الخمس الماضية إلَّا إذا حدثَ أمرٌ مفاجئ يؤدي إلى تبريد الكوكب كانفجارٍ بركانيٍّ عملاق.

تقوم كل من (NOAA وNASA) بتحليل قياسات درجة الحرارة من آلاف المواقع حول العالم، بما في ذلك محطات الطقس على اليابسة والسفن والعوامات المنتشرة عبر محيطات العالم.

تستخدم الوكالتان (NASA وNOAA) كثيراً من تلك البيانات، لكنهما تُجريان تحليلات مستقلة مع وجود اختلافات طفيفة في الطرق التي تسفر عن تصنيفات مختلفة قليلاً.



انبعاثات الكربون

(NASA)، علــى سبيل المثال، صنفت عام (٢٠١٥م) علــى أنّه ثالثُ أكثرِ الأعوامِ دفئاً على الإطـــلاق، فـــي حين قالت (NOAA) إنه عـــام (٢٠١٧م). لكن الوكالتيـــن تتفقانِ كليّاً على التوجه نحو مزيدٍ من التسخين للكوكب...

صـــرّح علماء فيدراليون: إن درجات الحرارة في عام (٢٠١٨م) كانت أعلى من المتوسط في معظـــم أنحاء العالم، بما في ذلك معظم الولايات القاريّة. ترتفع درجة حرارة المنطقة القطبيـــة الشمالية بمعدل مرتين إلى ثلاث مرات عـــن المتوسط العالمي، وتواصل درجات الحرارة المرتفعة هذه دفع الانخفاض في الجليد البحري هناك.

بلـــغ متوسط حجم الجليد البحـــري السنوي (٤) ملايين ميل مربع في عام (٢٠١٨م)، وهو ثاني أصغر رقم في السجلات التي تعود إلى عام (١٩٧٩م)، حسبما ذكرت وكالة (NOAA).

هـــذه الملاحظات تتعارض مع تصريحات الرئيس ترامـــب التي تهاجم الإجماع العلمي علـــى تغيّر المناخ. لقد دفـــع الطقس البارد في أنحاء الغرب الأوسط والأجزاء الشرقية من الولايات المتحدة الأسبـــوع الماضي ترامب إلى توجيه نداء للاحتباس الحراري على موقع تويتر: «يرجى العودة بسرعة، نحن بحاجة إليك!».

يقـــول العلماء: إن هذه التصريحات تخلط بيـــن التغيرات الطبيعية قصيرة الأجل – أي الطقـــس – مع التغيرات طويلة الأجل فـــي المناخ التي يسببها النشاط البشري. في الواقع، هـــذا الاختـــلاف الطبيعي هو السبب في أن علمـــاء المناخ ينظرون في المقـــام الأول إلى اتجاهـــات درجـــات الحرارة على مدَدٍ زمنية طويلة، ولا يعطون أهميـــة كبيرة لسنةٍ حارةٍ أو باردة.

يقـــول «جيرالد ميهـــل»، العالم البارز فـــي المركز الوطني لبحـــوث الغلاف الجوي: «إن ظاهـــرة الاحتباس الحراري تتجلى بشكـــل متزايد في القياسات المحلية، إذ تتناقص السجـــلات اليومية لارتفاع درجات الحـــرارة بأكثر من ضعفي السجلات اليومية لدرجات الحرارة المنخفضة».

وأضاف «ميهل»، الذي لم يشارك في إعداد التقرير: «إذا لم يكن هناك ارتفاع في متوسط درجـــات الحرارة، فستكون هناك فرصـــة لوجود حد أقصى قياسي يومي أو انخفاض قياسي يومي».

ذكرَ «براين فان دير بروغ» في جريدة «لوس أنجلوس تايمز» أنّ راكب دراجة هوائية في العام الماضي مرّ بجانب لوحة رسائل في منطقة «كالفاري تشرتش في ويست هيلز - ولاية كاليفورنيـــا» التي أظهرت قراءة لدرجة الحـــرارة التي بلغت (١١٧) درجة فهرنهايت في (٦ تموز).

يعود سبب ارتفاع درجات الحرارة في جميع أنحاء الولايات المتحدة إلى ارتفاع درجات الحـــرارة في أثناء الليل وفي ساعات الصباح. وجد تحليـــل (NOAA) أن درجات الحرارة الدنيـــا خلال الليل ترتفع أكثر من درجات الحرارة القصـــوى بعد الظهر، وذلك تماشياً مع الاتجاهات التي لوحظت حتى الآن في هذا القرن.

يرى ديريك أرندت، رئيس الرقابة في المراكز الوطنية للمعلومات البيئية في (NOAA) بوجـــهٍ عـــام: «إنّ (درجة الحرارة) فـــي الأوقات الباردة من السنة لا تصـــل إلى الحد الذي اعتادت بلوغه، والأوقات الباردة من اليوم لا تصل إلى درجة البرودة التي اعتادت أن تصلها، والأماكن الأكثر برودة لا تصل إلى ما اعتادت الوصول إليه من البرودة».

تقاريـــر (NASA و NOAA) تتفق مع تحليلات غيرهما. يوم الأربعاء في السادس من شهـــر شباط، قالـــت المنظمة العالمية للأرصـــاد الجوية التابعة للأمـــم المتحدة ومكتب الأرصـــاد الجوية البريطانـــي أيضاً: إنَّ عام (٢٠١٨م) كان من بيـــن السنوات الأربع الأكثر حرارة. نشرت وكالة الأرصاد الجوية اليابانية وخدمة كوبرنيكوس لتغير المناخ في الاتحاد الأوروبـــي بالفعـــل تقارير خلصت إلى أن سنة (٢٠١٨م) كانـــت رابع سنة على الإطلاق من حيث ارتفاع الحرارة.

وحسب تحليل مستقل أصدرته شركة بيركلي إيرث الشهر الماضي، أن (٨٥٪) من سطح الأرض في عـــام (٢٠١٨م) كانت أكثر دفئـــاً من متوسط درجة حـــرارة الكوكب بين عامي (١٩٥١- ١٩٨٠). وفـــي الوقت نفسه، كان (٤,٢٪) فحسب من سطح الأرض أكثر برودة من تلك المرحلة الأساسية.

وفـــي العام الماضي، قال زيك هاوزفثر، عالـــم المناخ في منظمةٍ غير ربحية للأبحاث: إن (٢٩) دولة - بما في ذلك معظم أوروبا والشرق الأوسط - وقارة أنتاركتيكا شهدت أعلى سنواتها حرارة.

وعلــى الرغم من ذلك تجاهل ترامب تهديد تغيّر المنــاخ، وتقييماً تاريخياً أجرته (١٣) وكالــة فيدراليــة في الخريف الماضي، الذي أوضح أن تغيّر المنــاخ يلحق أضراراً متزايدة ببيئــة البلاد وصحتها واقتصادهــا. وقد أبدى ترامب عدم قناعته بذلك دون تقديم الدليل الذي يواجه به استنتاجات مئات علماء المناخ البارزين في البلاد.

حــذّر تقرير صدر فــي شهر تشرين الثاني من أن تغيّر المنــاخ سوف يتفاقم على مدار القــرن إن لم تحصل تخفيضات سريعة في الانبعاثــات. وبدلاً من ذلك، تعمل إدارة ترامب على كشف القواعد البيئية في عهد (الرئيس السابق) أوباما لمصلحة السياسات التي تسمح بمزيــد من انبعاثات الغازات الدفيئة من السيارات والشاحنات ومحطات الطاقة التي تعمل بالفحم.

كان من المقرر أصلاً إصدار تقارير درجات الحرارة العالمية لعام (٢٠١٨م) في منتصف كانــون الثاني، لكن أُخِّرَت لأن الإغلاق الجزئي الذي استمر (٣٥) يوماً منع علماء الحكومة من الانتهاء من حساباتهم.

تعهــد ترامب بالانسحاب مــن اتفاقية باريس لعام (٢٠١٥م) التــي أبرمتها (٢٠٠) دولة تقريبــاً، بما في ذلك الولايات المتحــدة. وقد كان هدف الاتفاقية الإبقاء على «أقل بكثير» مــن (٣,٦) درجة فهرنهايت على مستويات ما قبل الصناعة، وهي مدخلٌ يهدف إلى تفادي أشد الآثار تدميراً، التي لا رجعة فيها لتغيّر المناخ.

على الرغم من الجهود الدولية، فإن انبعاثات الاحتباس الحراري تتصاعد وتزداد.

بعد حالة من الاستقرار النسبي استمرت ثلاث سنوات، زادت انبعاثات الكربون العالمية بنسبة (١,٦٪) بين عامي (٢٠١٦- ٢٠١٧م)، ثم قفزت بنسبة إضافية قدرها (٢,٧٪) في عام (٢٠١٨م). كان ذلك حسب تقديرات لعلماء في جامعة ستانفورد (الأمريكية) وبعض معاهد الأبحــاث الأخرى. وقد قالوا فــي هذا الشأن: إن أحد الأسباب هــو الرغبة المستمرة في استخــدام النفط، وقد اتسعــت هذه الرغبة في كلٍّ من الولايات المتحدة وأوروبا، إذ اعتقد الباحثون أنّ استخدام النفط وصل إلى ذروته.

الهوامش

(١)- طوني بريوزا مراسل لمصلحة Science Now يغطي جودة الهواء والبيئة مع التركيز على جنوب كاليفورنيا.

(٢)- El Niño: دورة مناخية في المحيط الهادئ لها تأثير عالمي في أنماط الطقس. تبدأ الدورة عندما تتحول المياه الدافئة في المحيط الهادئ الغربي الاستوائي شرقاً على طول خط الاستواء باتجاه سواحل أمريكا الجنوبية.

La Niña : ظاهرة تبريد المياه في منطقة المحيط الهادئ الاستوائية التي تحدث على أزمنة غير منتظمة وترتبط بتغيرات واسعة النطاق في أنماط الطقس التي تكمل تلك الخاصة بظاهرة El Niño، لكنها أقل اتساعاً وأضراراً في آثارها.

(٣)- سييرا نيفادا: سلسلة جبال رئيسة في غرب أمريكا الشمالية، تمتد على طول الجانب الشرقي لولاية كاليفورنيا.

المصدر

(1)- Science Now.

الـــرأي . . .

وقفات حول العولمة

عبد اللطيف الأرناؤوط

يواجه المعنيّ بدراسة ظاهرة «العولمة» لوناً من الضياع إذا أراد أن يكوّن فكرة عن الدراسات التي نُشرت حولها، والمقالات التي احتلّت حيّزاً كبيراً من الصحف والمجلات، فإذا أخذ من بعض هذه المؤلفات والدراسات زاداً وجد نفسه أشدَّ ضياعاً بسبب تشعب موضوع العولمة، واحتدام الجدل حوله بين مؤيد ومعارض ومعتدل، ووجد نفسه ينساق دون أن يشفي غليله من الحقيقة.

كان القدماء يلتمسون حاجة القارئ إلى خلاصات موجزة في كل علم، فيكتبون للمبتدئ المختصرات التي تركّز على جوهر المسألة العلمية، فإذا درج في تحصيل مبادئ العلم انتقل إلى التوسع فيه خلال مصادره المفصّلة، ويبدو أننا اليوم أحوج ما نكون إلى هذا المنهج في تسجيل العلوم، بعد أن تعددت آفاقها ومجالاتها، واتسعت ميادين الاختصاص فيها.

قرأت كثيراً من الدراسات والمقالات حول العولمة، فخرجت من قراءاتي أشد تشككاً وجهلاً بحقيقتها، فهي في جوهرها ظاهرة كثر فيها القول، ولم يكن كل ما قيل فيها لوجه الحقيقة، فبعض الذين نظّروا لها يظهرونها وكأنها الخلاص للبشرية، وفي باطنها العذاب للشعوب التي

باب الرأي، هنا، منبر يعبّر فيه الكتّاب عن آرائهم، ولا يعبّر بالضرورة عن موقف المجلة أو إدارتها.

لـــم يتح لها أن تلحق بركــب الحضارة، وآخرون حملوا عليها بعنف ليستروا عجزهم عن اللحاق بهذا النظام العالمي الجديد، أو لينبهوا على أخطاره وهو طمس الهوية الذاتية للشعوب، ومسح تراثها، وتجريدها من مقوماتها لتغدو تابعاً لنظام عالمي جديد تتسوّده ثقافة القوي، وتطلعاته، وأطماعه، ورغبته في تحويل العالم إلى مجتمع بلا ولاء له إلاّ لهذه السيادة.

وقــد أتيح لـــي أن أطلع على كتاب عنوانه: «وقفات حول العولمــة» لمؤلفه الدكتور علي بن إبراهيم الحمــد النملة، وقد أضاف إلى العنوان (تهيئة الموارد البشرية)، وهي ذات دلالة، لأن العولمة تقوم على هذه الموارد وإعدادها للمشاركة في النظام العالمي.

والدكتور «علي النملة» مختص بالمعلومات من الجامعات الأمريكية، ومطّلع على الدراسات التـــي كتبت حول العولمة على الصعيدين العربي والعالمي، وهو في السعودية شخصية ثقافية وسياسيـــة مرموقـــة، فهو وزير سابــق وعضو في مجلســ الشورى، ومستشار بـــوزارة المالية، والاقتصاد الوطني السعودي، ومختص بالدراسات الاجتماعية.

يقـــول في المقدمة: «هذه وقفات عجلى حول موضوع مهـــم، تتجه إليه الأمم اليوم بصورة مندفعـــة، اصطلح الناس على تسميته بالعولمة، ودار نقاشـــ طويل وجادّ حول مفهومه، وأسفر عـــن رؤى مختلفة بيـــن مندفع ومتحفظ ومعتدل فيما إذا كان الموضـــوع واضح المعالم محدد المفهـــوم»، وميزة الكتاب أن المؤلف ركّز على المفاصـــل المهمة في موضوع العولمة وما أثير حولهـــا من نقاش، فسمح للقـــارئ أن يحيط بالنقاط الأساسية فيـــه، والمسائل الخلافية التي حددته، ويسمي هذه النقاط الأساسية التي وقف عندها وقفات يخص كلاً منها بصفحة أو أكثر بلا تشعب يشتت وحدة الموضوع، مما يسمح للقارئ بفهم أبعاد ظاهرة العولمة بوضوح، ويتمثل جوانبها الأساسية، ويدرك، أن كلاً من هذه الوقفات يصلح أن يكون موضوعاً خاصاً، يرتكز على البعد الثقافي للعولمة وأثرها في تهيئة الموارد البشرية للولوج فيها ... مع تعريف القارئ بأبرز المصادر والمراجع التي يمكن أن يعود إليها.

فـــي الوقفة الأولى: يحدد المؤلف هدفه من الدراســـة وهو السعي إلى إفهام المهتمين من قـــراء العولمة فهماً يخدمنا عرباً ومسلمين في المنطقـــة، ولا يقودنا إلى التخلي عن عقيدتنا وثقافتنـــا وتقاليدنا. ثم ينفذ إلى تعريف العولمة ومجالاتهـــا الثقافية والاتصالية والاقتصادية والسياسية، ولا يقف عند هذا التعريف المشكل للعولمة، وإنما يُحيل على بعض المصادر، إذ ثمّة تداخل واضطراب في تعريفِ المهتمين بها.

ويذهـب الباحـث «عبد الجليل كاظم الوالـي» في بحثه عن جدليـة العولمة بين الاختيار والرفض إلى أنه ليست هناك عولمـة حقيقية في مستوى انتقال قـوة العمل البشري بسبب القيـود التي تمارسها الدول الرأسمالية والعراقيل التي تضعها أمام هجرة قوى العمل البشري، كذلك الأمر بالنسبة إلى الدولة الواحدة.

يعرّف علماء الاقتصاد العولمة بأنها: «حركة تستهدف تحطيم الحدود الجغرافية والجمركية، وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كسوق كونية»، ويعلّق أحد المهتمين بالبعد الثقافي على هذا التعريـف، فيرى أن العولمة ليست آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم... وهناك من يرى فيها سيادة القوة لأنها تخدم مصالح الأقوياء، فهي فـي ظاهرها دعوة إلى المساواة بين الشعوب في نظام عالمي واحد، لكنها في الواقع أكذوبة يمارسها القوي على الضعيف، فهي منحازة لمصلحة الشركات الكبرى، ورأس المال العالمي.

إن العولمـة لم تنشـأ إلاّ في ظل سيطرة الاحتكارات العالمية الكبـرى، وسيادة الراساميل القويـة وقدرتها على التحكم فـي التجارة والاقتصاد العالمي، وفـي فرض الأنماط الثقافية والحضارية والعادات والتقاليد التي تتبدل مع تطور الإنتاج والثقافة التي يزعم منظرو العولمة أنهـا تراث عالمي مشتـرك في حين هي إفراز غربي يهيمن على الشعوب كلها، ويريد أن يلفّها تحـت عباءته، دون اعتراف بهوية هذه الشعوب أو احتـرام لمشاركاتها القيمة في بناء الثقافة والحضـارة، ويؤكد هذه الحقيقة مختصون شاركوا فـي «ندوة المنتدى العالمي» حول العولمة والتجارة العالمية، ويؤيدها الباحث «محمد الجوهري» في كتابه «العولمة والثقافة الإسلامية»، إلاّ أنـه يدعم أن للعولمة فوائـد للدول النامية، كما ظهرت دراسات معتدلة تحاول التوفيق بين العولمة الثقافية والتراث الإسلامي، وتدعو إلى التكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية، حلاًّ للوقوف في وجه العولمة بمفهومها الواسع.

❀ ❀ ❀

وفـي الوقفـة الثانية يركّز المؤلف علـى أن مصطلح العولمة قديم قِـدَم الحضارات التي سعـت للهيمنـة، فالاستعمار القديم أو الاحتـلال حاول عبر التاريخ فرضـ ثقافته واقتصاده وقيمـه على الشعوب المحتلة كما أشـار الباحث «كامل الشريف» في كتابـه «الشباب المسلم والتحديـات المعاصـرة»، إلاّ أنَّ هذه السياسـة قديماً لم تتمتع بقوة الرأسمـال العالمي اليوم وهيمنتـه، ولا كانـت الدول المحتلة تملك مـن أسباب القوة والتحكـم والانتشار ما يساعدها

علـى فرض سيادتها الثقافية والاقتصادية في مستوى قوة الغـرب المعاصرة، التي تقوم على هيمنـة الاقتصاد الرأسمالي العالمـي. وإنما تمثلت بمحاولات التبشيـر والاستشراق كأداتين لفرض القوي تسلطه على الضعيف، ولا ينفي أن العالم أصبح أكثر تواصلاً وأمسّ حاجة لتعاون عالمي في إطار شراكة عالمية عادلة يعترف فيها كل شعب بالآخر، ويحترم إسهامه الحضاري والثقافي وتراثه الإنساني، إذ لا سبيل إلى قطع هذا التأثر والتأثير أو العودة به إلى الوراء، لأن عصرنـا هو عصر التكتلات الكبرى التي تمسح بقوتها كل محاولة للضعفاء، في الحفاظ على البقاء أو صون الهوية الذاتية للشعوب الضعيفة.

وفي الوقفة الثالثة، يلتفت المؤلف إلى العولمة بمفهومها الاقتصادي بما في ذلك المنافسات الدولية وتنظيم الأرباح، إذ تتمّ ضغوط و«مناورات» لتخفيض كلفة العمل والاعتماد على التقنية فـي الإنتاج، وفي ذلك تهديد للقوى العاملة والشعـوب التي تعتمد عليها في الإنتاج ولا تملك وسائل الإنتاج الحديثة، فقد تطور مفهوم العمل حتى أصبح يعتمد على البحث العلمي والبيانات بوصفه جزءاً من عملية التدويل والعولمة، فالتماس أساليب جديدة في العمل والإنتاج دفع إلى المناداة بعمل لا يقابله أجرة ولا إنتاج محدود الكلفة عبر تطور الإنتاج في حين يرى آخرون أن قوة العمل تظل الركيزة الأساسية لكل إنتاج.

وفي الوقفة الرابعة: يشير المؤلف إلى رأي العالِمَيْن «هانز بيتر مارت، وهارالد شومان» في كتابهمـا : «فخ العولمة» إلى هيمنة مؤسسات العمل الكبرى كالشركات على الدول الكبرى، حتى أصبح من المتعذر معه أن تتحرر هذه الدول الكبرى من التوجه الذي رسمته هذه الشركات لها، ولاسيّمـا الولايات المتحدة، وهكذا وقعت هذه الدول في مصيدة اقتصادها التي تسيطر عليه الشركات، بمقدار ما تهدد هذه التروستات سلامة الأنظمة في العالم.

ويـرى الباحث «صالح العبود» أن العولمة اليوم نظام يهدد ويستهدف الهوية الإسلامية، كما يـرى الباحث «محمد أركون» في كتابه «قضايا فـي نقد العقل الديني»، أن العولمة تسعى إلى قلب جميع التراثات الثقافية والدينيـة والفلسفية والسياسية والقانونية التي أنجزتها الشعوب وعرفتها البشرية حتى الآن، وهي تشجع السوق الاستهلاكية التي جعلت البلدان النامية مسرحاً لاستغلالها وإفقار شعوبها، والسقوط في فخ الاستدانة منها لتظل خاضعة لرحمتها.

وفـي الوقفة الخامسـة، يشير المؤلف إلـى أن الموقف السلبي مـن العولمة الحديثة قد يكمـن وراءه عـدم الرضا عن المد الغربي، والسعي إلى تكوين تيـار معارض ضد توجه فكري

أجنبـــي كما يرى الباحث «المسدي» في كتابه «العولمة والعولمة المضادة»، وهو تيار يدعو إلى الانغـــلاق الكامل في مواجهة الانفتاح الكامـــل، ويسعى إلى بناء مؤسسات وطنية وقومية قادرة على مواجهة العولمة، والاستفادة من رياحها والتأثير فيها، والحفاظ على الخصوصية الثقافية التـــي تسعى شعوب أخرى لصونها في دفاعها عن حضارتها فـــي مواجهة تيار العولمة القادم من وراء البحار.

وفـــي الوقفة السادسة، ينقل المؤلف وجهة نظر الأمير سعود الفيصل في أن الفكر العربي انشغـــل بمهاجمة العولمة والتحذير منها بدلاً مـــن التفاعل الإيجابي معها، وتهرب من ممارسة النقـــد الذاتي والتحليل الموضوعي أو ارتمى في براثن اليأس والقنوط، والمبالغة في التماس الأعذار، وينبه الكاتب «الخضيري» إلى محاذير العولمة التي تتمثل بانعدام الخصوصية وشيوع العمومية، وبالتغرب والاغتراب عن الـــذات، وغياب الوعي والاستلاب من الداخل، وبالتراجع، والنكوص، والجمود، والنمطيـــة في إدارة العمل، وغيـــاب المبادرة وحريـــة التفكير، واتساع الفجوة الاجتماعية الاتصالية، وجمود الحراك الاجتماعية، والتنصل من المسؤوليات، والتبعية والاستسلام لقوى فوقية.

وفـــي الوقفـــة السابعة، يشير المؤلف إلـــى أن الدول النامية مقبلة علـــى مفهوم الاستثمار الأجنبـــي المباشر، إذ لا قدرة على الاكتفاء بالاستثمار المحلّي الذي يزحمه المستثمر الأجنبي بمـــا يملك من تقنيات ووسائط وعناصر مدربة، مما يفرض على الدول النامية العناية بتدريب أطرها البشرية لمواجهة الاستثمارات الوافدة.

ويضيف في الوقفة الثامنة إلى أن الحماسة الزائدة للعولمة بوصفها مخرجاً للتنمية تقتضي من الدول النامية التؤدة في اتخاذ القرارات، وقد تركت منظمة التجارة العالمية هامشاً للدول النامية لاتخاذ التدابير اللازمة لحماية القيم الدينية والخلقية والوطنية والتراث الثقافي التي تكـــون فتوحات كل أمـــة، ولا يتم ذلك إلاَّ بالرجوع إلى الأصول التـــي أفرزت هذه القيم كالدين واللغة والمعتقدات والعـــادات، والسعي لإصلاح منهجي لهيكل الاقتصاد العربي الذي يجب أن يكون شريكاً لا متلقياً وتابعاً، فالعولمة لا تقاوم بالرفض فحسب ويحسن التعامل معها بالحكمة والوعي.

ويؤكد المؤلف في وقفاته المتتالية أن الاتفاق على تطوير خبرات العاملين سيكون ذا مردود مربح، وإن الاعتماد على اليد العاملة الوافدة أوجد حالاً من التراخي والتواكل عند المواطنين

من أبناء دول الخليج العربي، ولوناً من البطالة المقنعة، وهناك توجهات للانفتاح على العولمة سيزيد من حدة البطالة في العالم، ويحدّ من الهجرة إلى الدول المتقدمة التي أصبحت عاجزة عن استيعاب المهاجرين. ويرى المؤلف أن دول الخليج تعاني بطالة بين الشبان يمكن الحد منها بتقديم فرص عمل للقوى الوطنية وتشجيعها، والاستفادة من جهود منظمتَيّ العمل الدولية والعربية في إسداء المشورة وتكوين الخبرة والتدريب بلا مزاحمة من التقنيات الحديثة التي تحدّ من فرص تشغيل العاملين.

كما يرى ضرورة توحيد حقوق العمل والتنمية، والحرية النقابية، والقضاء على أشكال العمل الجبري، وعمل الأطفال، والتمييز في الاستخدام والتوظيف ورصد الأبعاد الاجتماعية للعولمة.

كما يتحدّث عن حاجة دول الخليج إلى معلومات دقيقة عن سوق العمل، وحجم طالبيه من المواطنين ومستوى تأهيلهم، مما يؤثر في تطوير هذا السوق وتنميته، إذ يفتقر إلى الدقة في مفهوم البطالة الوطنية، وسن العمل في ضوء المتغيرات التربوية وطول أمد التعليم.

ويتناول مسألة توطين العمال في منطقة الخليج، ويتراجع عن حماسته السابقة للحكومة الإلكترونية التي تدعو إلى الاستغناء عن الموارد البشرية في إدارة الأعمال، والاعتماد على التكنولوجيا بديلاً لها حتى إنجاز العمل نفسه.

كما يؤكد أن التعليم والتدريب هما المقومان الأساسيان لتنمية الموارد البشرية، وأهمية العناية بالتعليم الفني والتدريب المهني وتوسيع قاعدتيهما في مختلف المستويات، ورفد التعليم الجامعي النظري بكليات تطبيقية، وربط التدريب بالتوظيف، وحث أصحاب الأعمال على منح الأولوية في التعيين لصاحب الخبرة، والتزام أخلاقيات العمل.

ويستعرض المؤلف التحديات التي تواجه منطقة الخليج في مجال إعداد العاملين وتدريبهم، ومنها: ارتفاع معدلات الأمية والبطالة ونقص العمالة، والمهارات التقنية المحدودة، وقلة البحث والتطوير، وتفضيل الأعمال الإدارية، وانعدام التعاون الإقليمي ومشاركة القطاع الخاص في التنمية، وأثر الروتين والبيروقراطية في الإنجاز، إضافة إلى التقاليد والعادات التي تؤثر في استغلال الطاقة البشرية، ويتناول ضرورة السعي إلى تحديد أوقات العمل في القطاع الخاص، وإعادة النظر في الأجور لتكون متقاربة للوافدين والمواطنين... ويؤكد أن الحق في العمل للمواطن أولاً إذا وجد وتوافرت فيه الكفاية.

❁ ❁ ❁

هــذه جولة في رحاب كتاب «وقفات حول العولمة، وتهيئة الموارد البشرية»، تأليف الدكتور علــي بن إبراهيم الحمد النملــة، وكنت أتمنى لو أنَّ المؤلف تناول مفهوم العولمة وألقى الضوء علــى هذه الظاهرة العالمية التي يبدو أنها ستبدل وجه عالمنا، وسيزداد في ظلها الأقوياء قوة والضعفاء ضعفاً، إن لم يبادروا إلى احتوائها قبل فوات الأوان.

إلاَّ أنَّ الكتــاب يتضمن فائدة كبرى في إجمال مشكــلات العولمة، ويغري القارئ بالمتابعة والتوســع، وإن كانــت القراءة لا تحل وحدهــا مشكلات الدول النامية، ولكنهــا تبصّر الأجيال القادمة ليكونوا أكثر اهتماماً وحذراً من الخطر الداهم.

❁ ❁ ❁

الفرديّة والانتماء بين التحوّل والثبات

د. وضحى يونس



في كتابه الجديد «الشعراء بين الفردية والانتماء» يرصد المؤلف الدكتور صلاح الدين يونس ظاهرة الفردية والانتماء منذ العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث عن طريق اختيار نماذج محددة منتخبة من كل عصر؛ إذ اختار الشعراء الأكثر تعبيراً عن الفردية وخصّ بالدراسة أبرز جماليات الفردية، وتجلياتها في الشعر العربي، وقد مهّد الكاتب بتحديد فكرته التي ينوي الدفاع عنها وهي أن الشعر خيالي بطبيعته، وواقعي بوظيفته دون أن يعني ذلك صراعهما إلى حدٍّ يجعل الشعر فاقداً لجماليته، ومهمته الأسمى في خوض غمار الوعي وتحصيل المعرفة.

وقف المؤلف أمام نموذجين متناقضين هما (الفردي) و(المنتمي) ويميّز الكاتب بين

مفهومين هما الفرديّ، والفرادة؛ فليس كلّ فردي فريداً، ولكنّ الفرادة تفضي إلى التفرّد، كما يفصل بين نوعين من الانتماء؛ المنتمي الذي يفكّك ويركّب، فيغني، والكمّي المنتمي الذي يراكم وحسب، فالفردي هو الأصيل، وهو الفذّ المتجه نحو المستقبل.

مجموعة من الشعراء بين قديم وحديث تخيّرهم الشاعر بموضوعية ومنهجية دون أن يسلم وباعترافه من تأثير المزاج الفردي الذي ألقى بظلّه على تخيّره ورؤيته ونقده؛ لكنّه سوّغ ذلك بأن الحديث عن المقيس يغني عن عديد المقيس.

توقف المؤلف عند شعراء تمثل تجاربهم مشروعات متفردة ولم يقدّم حولهم دراسة أدبيّة صرفة، بل اهتم أيضاً بتعالق الشعر مع زمنه، ومحيطه الاجتماعي لأنه يبحث في العلاقة بين التجربتين الاجتماعية والشعرية، مراعياً اللقاء بين الطرفين الذاتي والموضوعي؛ مولياً الاهتمام للجمع بين فنية الشعر، وعمق الفكر على النحو الذي نجده عند المتنبي مثلاً؛ إذ المكوّن الأهم في شخصيته هو المكّون الفكريّ والفلسفي الذي لم يتِح له على الرغم من معاصرته للفارابي ولقائه به في بلاط سيف الدولة أنْ يتعمّقَ كثيراً فيما حفر، ورمى الوصول إليه، إذ لم تتجاوز رؤاهُ مشاعرَه العاطفية، وشعورَه القوميّ الصادق على الرغم من قيام تجربته على العامل الذاتي الذي قاده إلى الانفصال كليّاً عن الأيدولوجيا السائدة في عصره:

ودهـرٌ ناسُـهُ ناسٌ صغارٌ
وإنْ كانت لهم جثثٌ ضخامُ
وما أنا بالعيشِ فيهم
ولكن معدنُ الذهب الرغام
أرانبُ غيرَ أنَّهم ملوكٌ
مُفتّحةٌ عيونُهم نيامُ

اتّبع المؤلف المنهج الجدليّ التاريخي على أساس من الوحدة والتغاير، والثابت والمتحول، فالكتابُ بحثٌ في المتحوّل من خلال القبض على أهمّ الأسس الإبداعية، وتقصٍّ لأهم مشكلاته في صراعه مع الأيديولوجيا، مع التركيز على التجربة الذاتية التي تهتم بالعالم الداخلي للإنسان الخلّاق المغيّر الذي يقدم إضافةً ورؤيا، لأن"الفرديةَ هي لحظةُ الحسم في العلاقة بين الشعور بالانتماء، والشعور بالتطور والتجاوز.

بدأ المؤلف نماذجه المتحوّلة بالمهلهل هو مفهوم البطل الصاعد وأخوه كليب الفرد الذي قتلته الجماعة؛ فكليب صاحب مشروع مخالف لأعراف البداوة بحثاً عن التحضّر، وقد عمل على إزاحة الترحّل وإحلال الاستقرار ولكنّ موته كان إيذاناً بأبشع صور البداوة؛ نقصد صورة الثـأر الذي لن ينتهي، وقد تحوّلت شخصيـة كليب من خلال شعر أخيه المهلهل إلى أسطورة حوّلـت شخصية المهلهل من خليع هامشي إلى مشروع زعيم ولكن للأسف زعيم ثأر ولا شيء غيره، وكانت تلك هي العودة إلى التيه بعد أن كانت رحلة أخيه كليب من التيه إلى الانتماء.

وقد قارنَ المؤلف بين شخصيتي المهلهل وطرفة بن العبد البطل الذي يقف على النقيض فهو الفرد الذي قتل الجماعة بتمرّدِه:

كـريـمٌ يـــروّي نـفـسَـه فـي حـيـاتـه

سـتـعـلـمُ إنْ مـتـنـا غـداً أيّـنـا الـصـدي

إذ شكّلـت شخصيـةُ طرفة الاجتماعيـة، والفكرية فرديّةً رافضـةً للانسياق مع التفكير الجمعـيّ، ومثله الشنفرى الأزدي الرافض لمجتمعه البـدوي بتناقضاته، وتراتبياته، الهارب إلى منأى في الأرض

وفـي الأرضِ مـنـأىً لـلكـريـمِ عـن الأذى

وفـيـهـا لِـمَـن خــافَ الـقِـلـى مـتـعـزّل

مـا أفسحَ المجالَ واسعاً أمام أسئلةٍ تتولّد، وتتدافع فهل الفرديّة هي الخصوصية؟ أو هل هي عنصر البقاء والقوة الانفعالية التي تخلق العمل الفني وتمنحه تماسكه الداخلي؟

الفرديّـةُ الآتية التي تشـدّ المؤلف إلى عالمِها هي فردية الكميت بـن زيد الأسدي التي تجسـدت في أنّه الحافز الحق للثـورة العباسية، والسبّاق إلى التحرّر، والتجديد، وعنده نجدُ تطوّراً فنيّاً، وفكريّاً منطلقاً من فكرة الاهتمام بالإنسان، ومصيره، فقد وجد الحلّ في الانسجام بين الإسلام والسلطـة، ورأى المثالية المطلقة في ورثة النبوة مرتبطة بالأصالة العربية؛ في شعره بناء مميَّـز، وتسلسلٌ فكريّ، واستدلال عقليّ، وجدلٌ منطقي وقد استطاع أن يوفّق بين العقـل والعاطفة، ويتميّز في الفقه، والخطابة، والجـدل، وحفظ القرآن ما دفع المؤلف إلى وصفه بالمؤسّس لشعر الاعتراض الممنهج على السلطة، وشاعر المبدأ، وشهيد الرأي.

يتوقف المؤلف عند فردية أبي نواس فهو في رأيه مفكّرٌ سبق زمنَه، وشاعُر أقالَ الشعراء، ومـؤرخ عزّز الانتماء، ورائدٌ في المعارضة السياسية؛ بـل مؤسسٌ لمنهجيتها، وشاعرٌ منقلبٌ

على المرجعيات المألوفة كلّها، وقد شكّل ظاهرةً إشكاليةً إذ اتهم بالشعوبية لاختياره النموذج الفارسـي؛ كما اتهم بالزندقـة والشِّرك لدعوته إلى نقد الدين والتفكّـر فيه، وبسبب تشيّعه العلني.

مع أبي نواس تتكشّف أهمية الشاعر الرؤيوي الذي يتبنى فكرة (المدينية) نمطاً للتفكير، والحياة بغية انفتاحِ العقل الجديد على المستقبل، وإحداث القطيعة مع الماضي البدوي، كان أبو نواس يطرح البدائل، فالحرية الفردية تحلّ مكان الجبرية الاجتماعية، والنموذج الفارسي الحضاري مكان النمط السكوني البدوي، وقد أورث أبو نواس هذا الشعر النقدي لأبي العلاء المعرّي دون أنّ ينجحَ الاثنان في إزاحةِ الثقلِ السلطوي، والفكريّ.

وقـد بحـث المؤلف عن نظيرِ هذه الأفكـار عند الفلاسفة الغربييـن ممّن قد دوّنوا في نتاجهـم مرحلة من تاريخ انقلابات العقل البشري كما عند أوغست كونت مُقَارَناً بابن خلدون إذ اعتمـد كونت البحث التجريبي في حين أهمل ابن خلدون النقد التاريخي وأكثر من ذلك، فقد وافق ابن خلدون الغزالي على أنّ الفلسفة شذوذٌ عن الدين. لكن الحقيقة هي أن الفلسفة التي وقـف ابن خلدون عقبة في طريقها كانت مبعث خطر على الشريعة، وبنية الدولة؛ هذه الفلسفـة المدفوعة والمسوَّغة سياسيّاً. ولكن هذا ما تمّت مواجهتُه في شعر أبي نواس؛ ففي مطوّلاته صـاغَ مفهوم الفرد النخبوي، ومفهـوم المؤسسة النخبوية فـي المجتمع المديني، وقد صاغ مفهـوم النخبة وحدّده بالفعل الحضاري، والدور الاجتماعي في المجتمع المديني المنشـود، ومفهـوم النخبة عنده لا يتعالق مـع السلطة أبداً، فالنخبة هـي المنقلبة عن كل الرواسخ في المجتمع، والدولة، والثقافة، أما المرأة في عالم أبي نواس فلم تعد متعة بدوية، بل دليلاً هادياً إلى العالم الجديد المقترح.

أمـا فرديـة المعرّي فتجسدت في الجمع بين الزهد والبناء فـي وقتٍ واحدٍ؛ فإذا قارنّاه على نحوِ ما فعل المؤلف بـ«طاغور» صاحب مقولة: (أنِر الزاوية التي أنت فيها)، ومقولة (إذا أغلقتـم كلّ أبواب الأخطاء فـإنَّ الحقيقة ستظلّ خارجاً). فإنّنا سنرى شبهاً كبيراً بين طاغور المسكـون بالقلـق المعرفي، والجمع بين عالمين؛ ماديّ، وروحـيّ؛ فالنقطةُ التي يلتقي فيها الشاعران هي أنّ الحرية الفردية هي البعد الإستراتيجي للحرية العامة.

إنّ نثريّـة المعرّي في «رسالة الغفران» أسّست لعقلٍ ناقدٍ يُميّزُ بين عالمين مختلفين هما عالم التصـور الديني للحياة، ومفهوم الآخرة، إذ يرى الدكتور صلاح أنّ «رسالة الغفران» في

عمقها اعتراضٌ على التصورات التوحيدية وضيق من الحياة العامة وما فيها من جهل وخمول وسكون واستسلام واستهانة بقدرات الإنسان؛ ما دفعه إلى تكوين فلسفة خاصة ذاتية وفردية، قوام القوة فيها إعلاء شأن العقل.

وعلى نحو تفرّد المعرّي بتشاؤمه تفرّد أيضاً بجرأته وصراحته في انتقاد الحياة السياسية والحياة الدينية:

يسوسون الأمور بغيرِ عقلٍ
وينفذُ أمرُهم ويُقال ساسة

❁ ❁ ❁

توهّمت يا مغرورُ أنّك ديّنٌ
عليّ يمين الله مالك دين
تسيرُ إلى البيتِ الحرام تنسّكاً
ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدينُ

أما أبو تمام فقد وصف المؤلف حلمَه، وطموحَه بمشروع الارتقاء بالشعر إلى الفلسفة، وكان ذلك نتيجة منطقية للمثاقفة العربية مع الشرق الفارسي والغرب اليوناني؛ المثاقفة التي أخذت منحى الصراع أكثر من مرة من خلال صراع الدخيل مع الأصيل، والمطبوع مع المصنوع، والنثر مع الشعر، والقديم مع المحدث، وهكذا إلى أن كانت نهاية الصراعات لقاء العقل مع العاطفة في مشروع الكتابة.

رسّخ أبو تمام البعد الإنساني للشخصية الفردية، وطوّره، وقارب به ذروة الحداثة الفكرية بعد أن فصّل في جزئياته السياسية، والاجتماعية، والثقافية معتمداً على العنصر العلمي والصياغة العقلية الجديدة للأفكار المألوفة، فهي أهم مكوّنات مذهبه الفني، وقد طمح أبو تمام إلى تجاوز النسب المحدود والانتماء الإنساني اللا محدود؛ ففي غرض المديح يؤسطر أبو تمام الممدوح بهدف تحقيق المعجزات على يديه، وتحويله إلى نموذج يُقتدَى، سواء أكان الممدوح مرثيّاً ميتاً، أم ممدوحاً حيّاً؛ فالحيّ يمارس بطولةً واقعيةً، والميت اكتملت بطولته بدفع حياتِه ثمناً في سبيلِ قضيته. يقولُ في مديحه للحسن بن وهب:

هُذّب في جنسه ونال المدى
بنفسه فهو وحده جنس

أحـــــرزَ آبــــــاؤه الـفـضـيـلـةَ مُـنْـذُ
تــفــرّسَــــتْ فــي عــروقِــهـا الـفـرس

فالفرديّةُ هي انتماءٌ جديدٌ واستحداث للنسب الإنساني الصاعد إلى الألوهية؛ لذلك يركّز على الإصلاح الذاتي، ويقدم فلسفة تقدّر الإنسان وتمنحه السعادة، والهداية، وتجعل الإنسان هو الوطن الحقيقي المنشود:

أطـــــلّ عـــلـى كـــلّ الآفـــــاق حـتـى
كــــأنّ الأرضـــــ فـــي عـيـنـيـه دار

والفرديــــة التمامية الفنية هي صياغة عقلية للشعر؛ فقـــد مثّل بشعره ذروة الانقطاع عن النمط الشعري الموروث، ولاسيّما على صعيد الممارسة اللغوية التي اتسمت بالغموض والتأمّل الفكري، وغير منتم للموروث الشعري، حتى طلل أبي تمام كان طللاً نفسيّاً لا طللاً جغرافياً، وعلى صعيد اللغة فقد مزج بين العقل والعاطفة، وبين الفكر والفن.

والذيــن شككوا بعروبته وطائيته واتهموه بالولاء تناسوا ما في شعره من دلائل على نزعته القومية ولم يفهموا ما قال وما دعا إليه من تقديس للبطولة وتذويب للفروق المذهبية، وصهر للمذاهـــب في بوتقة الأخوة الإنسانية، وإعلاء النســـب الأخلاقي، والانتماء إلى اللغة والشعر بدلاً من النسب الوالدي:

ومـــا لـــي ضـيـعـة إلّا الـمـطـايـا
وشــعْــر لا يُــبَـــاعُ ولا يُــعـــارُ

أمّا فردية الشاعر مهيار الديلمي فقد مثّلت في تراثنا شعريّة التوازن بين القومي والديني؛ فهـــو الشخصية الإشكالية في الإرث العربي الإسلامي إذ ترك المجوسية، وغالى في التشيّع، وكان يبتدع شعرَه قصصاً ثم ينظمه ويرويه شعراً، عُرِف باستعلائه السياسي العائد إلى التنازع العربـــي الفارسي على أساسين هما العرقي الحضاري والسياسي المذهبي؛ وحين يوازن بين فارسيتـــه وإسلامـــه كان يخرج من الأخص إلى الأعم فيعلي الإســـلام وقد نسي مهيار العرق كأساســ للتفوق وأخذ بالمبدأ وهو الإيمان، ولم يكن في رؤيته الجمالية للأنثى أيّ خصوصية ثقافية، وكان حضورها في شعره تقليدياً تغلب عليه الحسية.

فـــي فرديـــةٍ أخرى يدرس الدكتـــور يونس الشاعـــر أحمد شوقي ويضعه فـــي مكانةٍ بين الاستعـــلاء، والنخبوية، ويُقدّم قراءةً نقديّـــة لمطوّلته في المعلّم (٧٠) بيتاً يُبجّلُ فيها المعلّم، ويرفعه إلى مرتبة الرسول حتى أتى إبراهيم طوقان؛ فعارضه قائلاً:

ويكاد يفلقني الأمير بقوله:

قُمْ للمعلّم وفّهِ التبجيلا

لو جرّب التعليمَ شوقي مرّةً

لقضى الحياةَ شقاوةً وخمولا

ويقارن ذلك بموقف ابن خلدون من القضية التعليمية فيجد أنّ الاستبداد الأبوي التعليمي يُحيلُ الفردَ من كائنٍ نوعيّ إلى مخلوقٍ كمّي كما يجد أنّ ما طلبه هارون الرشيد من خلف الأحمر حول تأديب ابنه محمد الأمين هو مجموعة من الأوامر والنواهي لا ترقى إلى تحصيل المعرفة، ما يوقع ابن خلدون في ازدواجية المعايير، وقد وقع شوقي في التناقض نفسه حين كتب عن العمّال يطالبهم بإفناء عمرهم في الكدّ، والاكتساب، وإعمار الأرض؛ وهو المترف المنعم شاعر قصر الخديوي:

أيّها العمّال أفنوا الـ

ـعمر كدّاً واكتسابا

يفسّر الدكتور صلاح هذا التناقض بين سلوك شوقي وقوله إنّه ترف فكري تزامناً مع تأسيس الأممية الثانية من اتحاد عالمي للأحزاب الاشتراكية المعقود في باريس.

يرصد الدكتور يونس ثنائية اللغة والشعر عند الشاعر حافظ إبراهيم فقد كان داعية إصلاحيا اشتغل على اتجاهين مُهمّين، الأول: استحضار التاريخ الفرعوني الوثني في مواجهة الإمبراطورية الإنكليزية، والثاني: هو إحساس الشاعر غير المعلن بأنّ الإسلام جاء فاتحاً مستعلياً عن عقائد مصر ولغتها.

وأمّا أبو القاسم الشابي فقد كان الصوت الأكثر فرادة، والرؤيا الأكثر عمقاً، وبُعْداً؛ فقد انتقل في شعره من تتبّع أصداء الذات إلى قراءة الكون، ولم يخلُ بيتٌ شعريّ في ديوانه من فكرة الأمل، والإيمان بالمستقبل، والإنسان، ويرصد الدكتور يونس في فضائه الشعري أثراً للنزعة المغاربية في قصة حي بن يقظان لابن طفيل.

أمّا مطولة بدوي الجبل وهي أكثر من تسعين بيتاً، وقد كتبها في ذكرى أبي العلاء المعرّي:

الدّهر ملك العبقرية وحدها

لا ملكُ جبّارٍ ولا سفّاح

والـكـونُ فـي أسـراره وكـنـوزه
لـلـفـكـر لا لـلـوغـى ولا لـلـسـلاح

فقد كانت من أكثر المطولات الشعرية احتفاءً بالعبقرية، والجمال؛ جمعت جماليات الموقف الإنساني مع جماليات التعبير عنه، واستجمعت كثيراً من عناصر الحداثة التي تمنح الأدب خلوده الفني، وجدواه الواقعية كالتجديد، والمعاصرة، والأصالة وبذور التحول والتجاوز فشكّلت بذلك مع كثير من قصائد بدوي الجبل ذات الموضوع الوجداني وعياً إنسانياً فرديّاً يفضي إلى نوع من المغامرة الشجاعة التي تتوخى أهدافاً مغايرة لأهداف الجماعة.

كان القلق الوجودي شاغلاً مشتركاً لمفكّري النهضة وأدبائها في واقع لا يرضي الطموح والأحلام؛ فجمع بينهم الرفض؛ كلٌّ على طريقته، فكان خيار أمين الرّيحاني تجاوز شعرية النهضة بكتابة نثرية من مثل مقالته (أسباب تقهقر الشرق) وحصرها في ثلاثة أسباب كبرى هي الجهل، والكسل، والادّعاء؛ إذ لم يلتقِ الذاتي مع الموضوعي ليشكّلا القوة الحيوية اللازمة للكشف، والإبداع ما يُبقي الفكرَ أسيرَ الانفعال بعيداً عن محاكمة العقل.

كان الفن الأكثر استخداماً في مشروع النهضة هو الشعرُ بوصفه الوسيلة الأقدر على تعميم الأفكار، ونشرِها، وبسببٍ من ميلِ الذائقة العربية إليه على الرغم من أنّ كثيراً من شعر النهضة أقرب إلى النثر في جمله التقريرية، وأسلوبه الخطابي، وكل مكوناته التعبيرية؛ وكان ذلك تعليلاً خفيّاً مؤكّداً صلاحية النثر الأكثر قدرةً على حمل مشروع النهضة، الأمر الذي لم يستوعبه معظم الأدباء ولم يعملوا به.

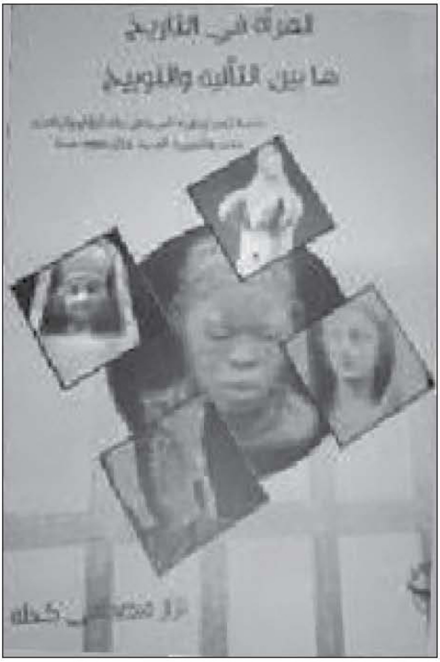
طرح المؤلف في هذا الكتاب الجدلية التي تحكم العلاقة بين الماضي والحاضر مع مراعاة التأثير في المستقبل ومراعاة العلاقة مع الآخر، ما يدفع الفرد العربي مُمَثلاً بالأديب دون تردد إلى إنقاذ نفسه وجمهوره من مأزق تكرار السابقين بحثاً عن جوهر الحداثة، وتحقيقاً لها فقد خلُص المؤلف إلى أنّ معظم نماذج الشعر العربي كانت ذات رسائل مسبقة الإعداد، والقراءة الجادة المتعمقة المتأملة ستكشف بسهولة أنّ أصحابها كانوا على مسافة واحدة من الفردية والانتماء، وأنّ الجنوح نحو الفردية ما زال حلماً عصيّ التحقيق على العرب مقارنة بالغرب الذي يعيش قلقاً أسرع من قلقنا بكثير نحو مرجعياته في حين تظل مرجعياتنا قيد الثبات المميت.

❁ ❁ ❁

قراءات

المرأة في التاريخ بين التأليه والتوبيخ

علي م. أمين



ما يــزال الباحث فــي التّاريخ نــزار كحلة يرفد المكتبة بكتبٍ مــن تأليفه، فبعد مجموعة مــن الدراسات التي سبــق إصدارها، وهي كلها دراسات تنتمي إلى التّاريخ، أسهم في إصدارات فرع سلمية لجمعية العاديات، وكان أكثر أعضاء الجمعيّة تأليفاً وكتابة فنشر كثيراً من الدّراسات في الدّوريات المختلفة.

وهذا الكتــاب الجديد بعنــوان «المرأة في التّاريــخ – بين التّأليــه والتّوبيخ»، وهو دراسة لأوضـــاع المرأة خلال عشرة آلاف سنة في بلاد الرّافدين وبلاد الشّام ومصر والجزيرة العربية. والكتــاب صادر عــن دار الباحث فــي سلمية، الطبعــة الأولــى عــام (٢٠١٩م)، وفيها (٥٠٠) صفحة من القطع الكبير.

يتألـف الكتاب مـن إهداء ومقدّمـة وتمهيد وعشـرة فصول، وخاتمة، وثبـت للمصادر والمراجع، ثم الفهرس.

بذل الكاتب جهداً كبيراً من أجل إنجاز هذا المؤلَّف المهم بدليل العدد الكبير من المراجع والمصادر التي رجع إليها منقّباً عن دور المرأة في التاريخ القديم.

في المقدمة بيّن مدى أهمية الموضوع وبأنّه يحتاج إلى فريق من الدارسين لإنجازه، يقول: لابد من تحرير الرجل وتوعيته لتُحرّر المرأة ولاسيّما في العصر الحديث.

وقد استخدم الكاتب في دراسته المنهج التاريخي الاستقصائي لرصد تطور أوضاع المرأة عبر التاريخ.

وفـي التمهيـد بيّن الباحث المدّة التي شملتها الدراسة، فهـي تمتد منذ (٨٠٠٠ ق.م إلى ٦١٠م). كمـا أورد تعريفاً للمرأة في اللغة، وبحث وجود الإنسان على سطح الأرض منذ وجود كائنات شبيهة بالإنسان ثم الأسترالوبيتك، ثم الإنسان الصانع منذ مليونين ونصف مليون عام، ثم الهوموراكتوس منذ مليون ونصف مليون عام، ثم النياندرتال، ثم انتقل إلى العصور القديمة منذ العصر الحجري القديم حتى النحاسي الذي تلاه فجر الحضارات منذ (٣٢٠٠ ق.م).

ويقـول إن المرأة مرّت بأدوار وأطوار كثيرة متقلبة تبعاً للظّروف المحيطة، فمن درجات التأليـه العالية تعود إلى الـوراء لتصبح في مرتبة خلف الرجل، ومـن هنا كان العنوان «بين التأليه والتوبيخ».

وفـي فصول الكتاب العشرة دَرَس المؤلف المراحـل التي مرّ بها الإنسان منذ الحضارة النطوفيـة واكتشاف الزراعـة (١٠٠٠٠– ٨٣٠٠ ق.م)، نسبة إلـى وادي النطوف بين القدس والخليـل الذي اكتشفت فيه أقدم آثار هذه المرحلة. وبذلـك تكون بلاد الشام مهد اكتشاف الزراعـة (قرية المريبـط على شط الفرات)، وتحدث عن دور المـرأة في هذه العملية، بعد أن كان الإنسان يعتمد علـى الصّيد والتقاط الثمار البرية. فأصبحت الزراعة مورداً جديداً، وأصبحت مقدسة كما كان الصّيد مقدساً. وكان من نتائج ذلك توافر الغذاء وتكاثف السكان. ويعـدد أدواراً أخرى للمرأة في تلك العصور السّحيقـة، إضافة إلى الولادة والتربية أصبحت صنـواً للأرض التي تعطي الغذاء، فظهرت الآلهة الأنثى إذ كـان المجتمع أموميّاً، واكتشفت الدّمى التي تمثل الربّة الأم منذ (٨٠٠٠– ٧٦٠٠ق. م).

فـي الفصل الثاني تحـدَّث عن التّحول الكبير في المجتمع فبـرز دور الرجل وأصبحت الأسـرة تتبع الرجل، وبدأت تظهر صناعات كثيـرة، وعرف الإنسان بناء البيوت من القرميد، وبقي دور المرأة مهمّاً. وبدأ ظهور الإله الذكر كأوزوريس.

فـي الفصل الثالث تحـدَّث عن المرأة العربية في بداية العصـور التاريخية منذ (٣٧٠٠ - ٣١٠٠ ق.م) فـي بلاد الرافدين، وظهور عبادة الأم الأرض (إلهة الزراعة)، وكذلك في بلاد الشام ومصر. وذكر كثيراً من النصوص التي تدلّ على دور المرأة في تسمية الآلهة.

وانتقـل إلى عصر سومر وأكاد فـي الفصل الرابع، فخصّص بحثاً للزواج المقدّس ضمّنه نصوصاً عن المرأة في إصلاحات أوركاجينا، ثم في التّشريعات السومرية، وشريعة أورنامو، وأشنونا العمورية.

وانتقـل إلى بابل في الفصل الخامس وتحدَّث عن تشريعات حمورابي، ثم في بابل الثانية (الكلدانية)، وفي مملكة آشـور، ليذكر الزواج عند الآشوريين. وذكر بعض الملكات العربيات (سميراميس وزاكوتو) وتحدث عن الزواج السياسي.

وفي الفصل السادس تحدث عن المرأة في مصر القديمة منذ اختراع الكتابة حتى (٣٣٢ ق.م)، وعن أهمية المرأة وعملها مع ذكر أسماء بعض الملكات وأدوارهن.

وتحـدث عن المرأة في شبه الجزيـرة العربية منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى ظهور الإسلام، وذلك في الفصل السابع، فذكر كثيراً من الملكات في ممالك اليمن ثم العصر الجاهلي وما قبله.

ثـم انتقل إلـى الحديث عن المرأة في بلاد الشام في الفصـل الثامن في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد في إيبلا وماري ومملكة يمحاض وألالاخ وفي أوغاريت وفي مملكة إيمار. ثـم في الألف الأول قبل الميلاد في دولـة الآراميين، وتطرَّق إلى تأسيس الملكة أليسّا لدولة قرطاج، وذلك في الفصل التاسع.

وفي الفصـل العاشر تحدَّث عن المرأة في ظل السيطـرة الأجنبية (الفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية)، فذكر عدداً من الملكات في بلاد الشام ومصر، وملكات حكمن روما، وملكات في دولة الحضر وتدمر والغساسنة والمناذرة.

وفـي الخاتمة يذكر بعض الاستنتاجات حول وضع المرأة سلباً أو إيجاباً، بحسب العصر، وذلك كما يلي:

- عبر مراحل التاريخ مرت أوضاع المرأة بمخطط بياني من العالي ثم انحدر تدريجياً.
- بيَّن قدرة المرأة العربية على قيادة الدول.
- بيّن قدرة المرأة على مزاحمة الرجل في كثير من المجالات.
- للمرأة أيادٍ بيضاء عبر التاريخ، فلم تكن عبئاً على الرجل.
- إذا أرادت المرأة التحرر فيجب أن تمتلك الإرادة، وعدم انتظار الرجل لتحريرها.
- أن تعتز بمكانتها امرأةً عبر التاريخ.
- وبيّن أن مدّةَ سيطرةِ المرأة على العالم هي الأطول عبر التاريخ.
- حكمنا على دور المرأة عبر التاريخ محكوم بعدة عوامل:

١- المدّة الزمنية التي تعيش فيها.

٢- الظروف السياسية السائدة.

٣- التيارات الفكرية والدينية.

٤- الوضع الفيزيولوجي للمرأة.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أهمية هذا الكتاب الذي يبحث موضوع المرأة عبر مدّة زمنية طويلة تمتد من (١٠٠٠٠) سنة قبل الميلاد وحتى (٦١٠) ميلادية، وهي مدّة حدثت فيها أحداث كثيرة وتطور العالم بشكل كبير خلالها، وكان للمرأة دور مهم في تطوير الحضارات. فالكِتّاب جدير بالقراءة، وهو مرجع مهم لدارسي التاريخ.

❁ ❁ ❁

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

الهاجس اللغوي



كتاب جديد يضيفه الدكتور «محمود أحمد السيِّد» إلى مؤلفاته الكثيرة في مجالات التربية والثقافة واللغة.

يتألف الكتاب الصادر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب، الذي يبحث في شؤون اللغة العربية وسبل تمكينها وتجديدها بما يتماشى مع مستجدات العصر واقتضاء الحاجة، من فصول ستة، تتوزعها (٢٧٢) صفحة، هي:

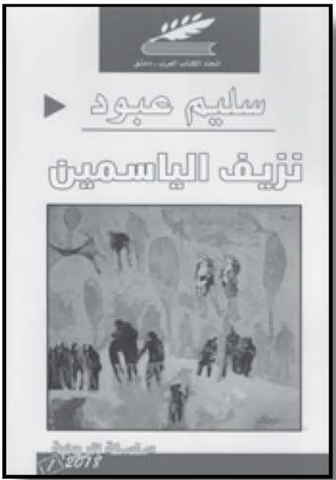
- الفصل الأول: الإشكال اللغوي.
- الفصل الثاني: الأداء اللغوي.
- الفصل الثالث: التجديد اللغوي.
- الفصل الرابع: التنسيق اللغوي.
- الفصل الخامس: التخطيط اللغوي.
- الفصل السادس: الأمن اللغوي.

يقول الكتاب في غلافه الأخير:

«غنـــيٌّ عن البيان أن أي لغـــة إنما تحيا بالاستعمال، وتموت بالإهمـــال، وأن شؤون لغتنا العربية والتحديات التي تواجهها في الاستعمال تشكل هاجساً لغوياً يهيمن على تفكيرنا.

وقد حاول هذا الكتاب أن يسلّط الأضواء على إشكالات اللغة العربية والأداء اللغوي على أرض الواقع، ومحـــاولات تجديد العربية وتيسيرها للارتقاء بهذا الواقع في ميادين النحو والبلاغة وإضافة دلالات جديدة لبعض الكلمات والعبارات وفي مجال تعليم اللغة وتعلّمها...».

نـزيـف اليـاسمين



في رواية «نزيف الياسمين» نتلمس حكاية عاشق اتخذت من الحدث السوري بأبعاده التاريخية والجغرافية والعاطفية موضوعها، من خلال الحراك الدرامي لشخصيات الرواية، وعبـــر تطور الأحـــداث العاطفية والاجتماعيـــة والوطنية، حيث يمكننـــا أن نقول إنهـــا الرواية التـــي تجعلنا نكتشف قلقنا وأوجاعنا وأحلامنا عبر تقنيات فنية نجح الكاتب في استثمارها وتوظيفها بلغة سردية قريبة من الشاعرية.

«نزيف الياسمين» رواية الكاتب «سليم عبود» الصادرة عام (٢٠١٨م)، هي الرواية الأولى في سلسلة الرواية التي ينشرها اتحاد الكتّاب العرب في دمشق.

تقـــع رواية «نزيف الياسمين» في (٢١) جـــزءاً اتخذت من أرقامها عناوين لها، وتتوزع على (٢٣٠) صفحة.

يقول الروائي سليم عبود في بدايات روايته «نزيف الياسمين»، على لسان «أم محمود» أحد أهم شخصيات الرواية ورواتها، واصفة بدايات تعرفها إلى زوجها:

«لفت انتباهي منـــذ اللحظة الأولى... بهدوئه، وطيبته... قرأت فـــي عينيه نقاء، وإيماناً، وهـــدوءاً... مال قلبي إليه... سبحان الله... شعرت بـــه، وكانت هي المرة الأولى التي ينتابني فيهـــا هـــذا الشعور، لم أسأله عن حالـــه، أو مذهبه، أو مدينته... عندمـــا يكون الحب، تموت الأسئلة في حدائق الحب...».

لواء الإسكندرونة والسياسة الاستعمارية



«لواء الإسكندرونة والسياسة الاستعمارية- من الاحتلال حتى فصله عن الدولة السورية: ١٩١٨- ١٩٣٩م»، لمؤلفه «د. عبد الرحمن البيطار». صدر حديثاً ضمن منشورات وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب. والكتاب دراسة وثائقية تتكون من مقدمة وخاتمة، ومتن بينهما يسرد قضية لواء الإسكندرونة السوري، منذ الخطوات الاستعمارية التمهيدية لفصله عن الجغرافيا الأم، وحتى سلخه وتسليمه من فرنسا للدولة التركية.

يقسم الكتاب إلى ثمانية فصول:

- الفصل الأول: مناطق لواء الإسكندرونة منذ احتلال الساحل الشامي (السوري) وحتى احتلال دمشق (١٩١٨- ١٩٢٠م).
- الفصل الثاني: سياسة الاحتلال الفرنسي حتى نهاية الثورة (١٩٢٠- ١٩٢٧م).
- الفصل الثالث: سياسة التجزئة الفرنسية في اللواء بعد الثورة (١٩٢٧- ١٩٣٦م).
- الفصل الرابع: لواء الإسكندرونة ومشروع المعاهدة الفرنسية السورية (١٩٣٦- ١٩٣٩م).
- الفصل الخامس: لواء الإسكندرونة بين مطلب تركيا والسياسة الدولية ودور الصهيونية.
- الفصل السادس: المواقف السورية من إعلان استقلال اللواء.
- الفصل السابع: إجراءات تنفيذ فصل اللواء والموقف السوري ودور الصهيونية.
- الفصل الثامن: تسليم لواء الإسكندرونة إلى دولة تركيا والمواقف المختلفة.

ومما ذكره المؤلف في مقدمته:

«يحاول هذا الكتاب تقديم عرض تاريخي موجز لمراحل وإجراءات السياسة الفرنسية والاستعمارية الدولية تجاه أمتنا، ولاسيما سورية، في عملية فصل لواء الإسكندرونة وسلخه التي تمت عام (١٩٣٩م). وبقيت قضية اللواء تذكّر بالسياسة الاستعمارية ونتائجها حتى الآن».

رحل النهار مبكراً

عن دار كنانة بدمشق عام (٢٠١٩م)، صدرت الرواية الأولى للأديبة والقاصة ضحى مهنا بعنوان «رحل النهار مبكراً» جزء أول، (٦٠٠) صفحة قطع متوسط...



رواية حافلة بالأحداث وحشد من الناس، وفيها شخصيات رئيسة وشخصيات ثانوية، وتنوع الشخصيات فيها يوازي تعدد الأصوات.

يوجد توازي أو توازن في شكل الرواية وتبويبها، كما يوجد تناظر في المكان بين باريس ودمشق وما بينهما.

رواية واقعية تقول أشياء كثيرة على لسان شخصياتها وحكاياتهم، فيها كما في الحياة، حب وعلاقات إنسانية وتعاطف إنساني عابر للأطر القومية والدينية والاجتماعية، كما فيها وحشية وقسوة وأقنعة ونفاق...

وعلى الرغم من تعدد أنماط الشخصيات وتنوعها على المستوى الاجتماعي والثقافي، إلا أن العنصر السائد هو النساء في هذه الرواية، ولغتها السردية منحت هذه المساحة الواسعة للنسوية، حالةً قلقة بالمعنى الوجودي والواقعي. إنه عمل جريء تقدّمه السيدة ضحى، وتؤكد من خلاله حضورها في خارطة الرواية السورية والعربية.

ترياق



«ترياق» هو عنوان كتاب يضم نصوصاً أدبيةً للمؤلفة «ألوان معروف»، وقد صدر مؤخراً عن الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق، ضمن سلسلة «إبداعات شابة».

جدير بالذكر أن الكاتبة «ألوان» صُنِّفت أصغر قاصة على مستوى الوطن العربي في عام (٢٠٠٥م)، وقد صدرت لها مجموعة قصصية للأطفال تحت عنوان «هذا هو السؤال».

من عنوانات نصوص كتاب «ترياق»:

(تحت بيارق الهوى، وعبق من الذاكرة، وقارعة طريق، وجرم صغير، وكانت أنثى، وإلى الوراء، ويقظة الموت، وذات صلاة، وفيلسوف، ووسادة، وبرعم، وأضحية، ووجود، ورمل).

وفيما يأتي مقطع من نصّ بعنوان «التحدّي»:

«أيها الموت أيها الفراغ العنيد...
يا من يصارع البقاء
ستتحطم
سيهزمك منّا شيء يوماً ما
ربما آلامنا ولربما آمالنا... ولربما!
سنخطّ تاريخ حبّنا على اسمكَ
سنكتب اسمنا بالرّماد... سنكتبه بورق تشرين
سنحفره بما دمرته من كل شيء
سندونه بفحم ما أحرقتهُ
سنكتب بدم كلّ من اعتصرته بصخور جبالك القاسية».

حارس الفلّة البنفسجية



بين يدي القـرّاء مجموعة قصصيـة جديدة للقاص «مفيـد عيسى أحمد» عنوانها «حارس الفلة البنفسجية». صدرت المجموعـة عن الهيئة العامـة السورية للكتاب، وصمم غلافها «عبد الله القصير».

تقـع المجموعـة فـي (١٤) صفحـة و(١٠) قصص قصيرة، هـي:

(ثلاثـة حقول وأربعة براعم، وما يشبه انعدام الحس، والغنـاء بألسنـة مبتـورة، كلمة من ثلاثـة أحرف، نظرة ضارعـة حزينة، ووجيب الأرض، ويونس في تونس... في بحر مالـح، ولا يطيقون الانتظار، وصـورة أخيرة لحياة مضت، وحارس الفلّة البنفسجية).

من القصة الأولى في المجموعة نقتطف:

«بدت وكأنها خرجت من أحد الأفلام المصرية الكلاسيكية، فتاة بجمال شرقي كل ما فيه فاتر، ذلك الفتور الذي يضمر دفئاً لا مناص من أن يطفح في وقت ما، وظرف ما.

بعـد انتهاء العرض تحينت فرصة للحديث معها، وقفت فـي الزاوية التي عليها أن تخرج إليها من الكواليس، نظرت إليها وجهاً لوجه وقلت لها:

- أديت دوراً جميلاً على قصره...

- شكراً هذا من لطفك.

ردّت وهي ترفع نظرها إليَّ وهمّت أن تمضي، لكنها توقفت وكأنه خطر لها أمرٌ ما».

مجموعـة قصص «حارس الفلّة البنفسجية» لمؤلّفها «مفيـد عيسى أحمد» تقدّم لنا على طريقتها مقطعاً أُفقياً في مشكلات حياتنا المعيشة، وآخر عمقيّاً لأصداء تلك المشكلات في نفوسنا، وتشدنا إليها في هذا وذلك بلغة منسابة وأُسلوب شائق.

ورق لا يحترق



مجموعة شعرية جديدة تصدرها الهيئة العامة السورية للكتـاب هذا العـام (٢٠١٩م)، ضمـن سلسلتهـا الشهرية «إبداعات شابة». عنوان المجموعة «ورق لا يحترق وقصائد أُخرى»، ومؤلفتها «حنان مراد».

يقول الشاعر «عصام ترشحاني» في تقديم المجموعة:

«والشاعرة حنان مراد فـي مجموعتها «ورق لا يحترق» نراهـا تعيش بكل تفاصيلهـا وبكل مصادفاتهـا ومعاناتها وحرائقها منطلقة من الذات إلـى جوهر الوجود بفلسفتها الخاصة، ولذلك نرى أن موضوعاتها تتنوع وتتجذر لتتحدّى، ومحور قصائدها يدور حول الحب والأمل والغضب والوعي بـأن هذا العالم غريب عن الإنسان، على أنها لا تفقد الثقة بالحياة وفي مستقبل الإنسان».

تصدر «حنان مراد» مهاد أشعارها من نفس مفعمة بأحاسيسها وذات مثقلة بأسرار الوجود. فتنظر إلى كل من وما حولها بعين المحبة واهبة حبيبها كل ما تملك.

من أجواء المجموعة:

«وأظلُّ... أنا...

كونك... قمرك وشمسك

حب... بلا قاعدة.... بلا تفسير
صوت لصمتك... صدىً لنبضك
طيف يعوم في مخيلتك
أرسم طفولتي فيك
أُغرق وقارك بحمامة حلمي
وأغرق معك...»

أحبك يا وعل الجبال



مجموعة قصص جديدة بالعنوان أعلاه، رأت النور حديثاً، للأديبة «هدى وسوف». المجموعة من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، تقع في (١٣٦) صفحة وتضم (١٦) قصة قصيرة نذكر منها:

(تفاصيل صغيرة للزعل والرضاء، وثمة ذئاب في الأسفل، وقبل أن تشرق الشمس، وأنا والثلج وماريبل، والرسالة بعد انتظار، ووجبة غداء، وصداً، وحيرة، واشتياق).

أكثر قصص المجموعة تنهل موضوعاتها ومفرداتها ومغازيها من واقع الطبقة الأكثر فقراً في مجتمعنا، أمّا أسلوب القصّ فلا يخرج عمّا عرف عن الكاتبة في سائر رواياتها وقصصها، من بساطة المفردات وسلاسة العبارة ودقة التعبير وسلامة اللغة.

نقتبس من إحدى قصص المجموعة:

«كان يحلو له أن يمازحني أحياناً، أن يستفزني، وهو يعرف اعتراضي على تلك المفردة، التي تتعلق بالقهوة، فيقول متعمداً: تعالي نمارس احتساء القهوة، وأقول له بانفعال: مجد هذه المفردة لا تستخدم هنا، فكان يضحك، ويتابع: لكنني أحب استخدامها معكِ.

فيما بعد أعجبتني المفردة وأحببتها، لأنّني أُحب مجداً وأحب كل ما يصدر عنه».

عالم سعيد مسحور



صدر للدكتور غالب خلايلي الكتاب الساخر الخامس «عالم سعيد مسحور»، وفيه خمسون مقالة ساخرة، تشغل ١٩٢ صفحة، نقرأ من عناوناتها: «سياحة حربية، تمسحة فكرية، الدكتور لا يحب المضاد، منطق اللا منطق، مفاجآت الثلاثين من شباط، صابون العرب...».

وقد صدّرها الكاتب بمقولتين للكاتب الإيرلندي الساخر جورج برنارد شو:

- «استطاعتِ الإنسانيّة أنْ تحقِّقَ العظمةَ والجمالَ والحقيقةَ والمعرفةَ والفضيلةَ والحبَّ الأزليّ، ولكن على الورقِ فقط».

- «الإنسان هو الحيوانُ الوحيدُ الذي يثيرُ رعبي، بينما لا يُشَكِّل الضِّرغامُ الشّبعانُ أيّ أذىً؛ فليستْ لديهِ أيّ مذاهبَ أو طوائفَ أو أحزاب».

وقد تحدث فيه الكاتب عن كثيرٍ من الظواهر الاجتماعية وعن آلامها بأسلوب ساخر، متمثّلاً مقولة الكاتب مارك توين: «إن مصدر الفكاهة الخفي، ليس الفرح وإنما الألم».

من ذلك ما جاء في مقالته «سعادتنا غامرة... وسعادتهم عابرة»:

«... في الغرب يا ويلاه يولد المرء المسكين ليجد من عوامل الاستقرار كل ما يمكن أن يخطر على البال... وينام ملء جفونه لا يقلقه شيء، اللهم سوى القلق نفسه، هذه التي تسبب الأرق وتعكّر المزاج، لكنّها سرعان ما تغيب، إذ يذهب القلق بشأن قلّته، ويسير النهر في مجراه الطبيعي لا يعكر صفوه شيء...

وعندنا والحمد لله في السراء والضراء زوابع تعصف بالجبال، ومع ذلك فإن سعادة بني جلدتنا الروحانيين المحظوظين كما أسلفت غامرة لا تبارحهم ولا تترك ديارهم والسبب الرئيس هو استقرار القلق عندهم، فهو يأكلهم من المهد إلى اللحد. يحدث هذا منذ زمن طويل غابر، لكنه استبدّ بهم مؤخراً في ربيعٍ مغشوشٍ أتاهم على ظهور الدواب...».

❁ ❁ ❁

صدى المعرفة

إعداد: ريما محمود

رحيل الأديبة توني موريسون (١٩٣١-٢٠١٩م)

أوّل أمريكية سمراء تنال نوبل



وُلِدت كلوي أردَليا وفورد في أوهايو، وكبرت في وسط فقير وكثير الثقافات، وفي الثانية عشرة من عمرها اختارت اسم «أنتونيا» نسبة إلى القديس «أنتوني» ثم اختصره أصدقاؤها في الجامعة إلى توني، ونظراً إلى اهتمامها المبكر بالقراءة الأدبية وقراءتها لأعمال جين أوستن وتولستوي في عمر مبكِّر جداً، قررت دراسة الأدب الإنكليزي، ولكنها لم تدرك حجم التمييز العنصري إلا عام (١٩٤٩م) عند التحاقها بجامعة «هاورد يونيفرسيتي» الملقّبة «هارفرد السوداء»، في واشنطن.

وفي عام (١٩٥٣م)، انتقلت إلى دراسة الماجستير في جامعة كورنيل، واختارت موضوع الاغتراب، بعد تخرجها عملت في التدريس في جامعة هاورد، كما تزوجت في عام (١٩٥٨م) وأنجبت طفلين.

عملت محررة في دار نشر «راندوم هاوس» في نيويورك عام (١٩٦٣م)، وفي سنوات عملها محررة بدأت حياتها الروائية فعلياً، ففي عام (١٩٧٠م) نشرت روايتها الأولى «العين الأكثر زرقة»، وكان لعملها هذا

أثر كبير في تنمية بعض اهتماماتها وقناعاتها اللاحقة، فعملت على نشر أنطولوجيات للكتّاب الأفارقة من أمثال وول سوينكا وغينو أتشيبي. كما سعت إلى تقديم الكتّاب السود إلى سوق الكتاب العالمي.

وتتالت أعمالها الأدبية: سولا عام (١٩٧٣م)، نشيد سليمان عام (١٩٧٧م) الذي كان مفتتح سلسلة من الروايات التاريخية عن تجربة الأمريكيين السود، وهو ما لفت الانتباه إلى موهبة موريسون وتوّج بجائزة نقّاد الكتاب الوطني، طفل القطران عام (١٩٨١م)، محبوبة عام (١٩٨٧م) وفازت هذه الرواية بجائــزة بوليتزر عن فئة الأعمال الخيالية عام (١٩٨٨م)، وترجمت إلى العربية والفرنسية والإسبانية والألمانيــة والإيطالية، جاز عــام (١٩٩٢م)، فردوس عام (١٩٩٧م)، حب عــام (٢٠٠٣م)، شفقة عام (٢٠٠٨م)، وطــن عام (٢٠١٢م)، ليكن الرب في عون هذه الطفلة عام (٢٠١٥م)، وعملت على تحرير مذكرات الملاكم الأمريكي محمد علي كلاي.

وفي عام (١٩٩٣م) نالت موريسون جائزة نوبل للآداب، وقالت في محاضرة تكريمها بجائزة نوبل: إن الســرد لم يكن مجرد ترفيــه بالنسبة إليها، بل «**هو فــي اعتقادي إحدى الطرائق الرئيســية التي نستوعب بها المعرفة**».

وفــي مقابلة مــع صحيفة الأوبزرفر قالت عن تكريمها هذا: «شعــرت بأنّني مُمَثلة، شعرت بأنّني أمريكية، شعرت بأنّني أوهايوية، شعرت بأنّني أكثر سواداً من أي وقت مضى، شعرت بأنّني امرأة أكثر من أي وقت مضى».

نالــت موريسون جوائز عدة منها: مرتبة الأستاذية من جامعة برنستون وميدالية القلم وجائزة سول بيلو للإنجاز الروائي، ووسام جوقة الشرف الفرنسي في عام (٢٠١٠م)، ووسام الحرية الرئاسي عام (٢٠١٢م).

واعتمــدت في رواياتها علــى تقنية تعدد الأصوات الأدبية، وتشابك فــي أدبها الواقع المؤلم مع الأساطيــر السحريــة والخرافات، ولهــذا شُبّهت بمدرســة الروائيين اللاتينيين مــن كتّاب الواقعية السحرية.

وعلى الرغم من غزارة كتبها ومقالتها المؤثرة المتخصصة في قضايا العرق، وفضلاً عن كتابتها للأغانــي والمسرحيات أيضاً، فإنّ روايتها «محبوبــة» ظلت أكثر أعمالها شهرة، وقد حُوِّلت إلى عمل سينمائي من بطولة أوبرا وينفري وداني غلوفر.

وكانت تقول: «**أتمنى الكتابة عن السود من دون القول إنهم سود، تماماً مثلما يكتب البيض عن البيض**».

أصــدرت خمسة كتــب للأطفال بالتعاون مع ابنها الأصغر سليد، وهــو رسام وموسيقي، توفي جراء إصابته بسرطان البنكرياس في عام (٢٠١٠م). وكانت حينها تعمل في روايتها «وطن» فتوقفت عن الكتابة فيها إثر وفاته، ثم تمكنت من العودة إلى الكتابة وإكمال رواية «وطن» لأن ذلك ما كان يرغب فيه.

ظهرت في الحياة العامة وفي الحملات الانتخابية لتدعم المرشحين الديمقراطيين ضد خصومهم الجمهوريين، وعدّت وصول ترامب للبيت الأبيض مؤشراً على عدم تعافي الولايات المتحدة من العنصرية.

وعرفت موريسون بمواقفها المناهضة للعنصرية، ووصفت إسرائيل في رسالة وقّعت عليها عام (٢٠٠٦م) مع كتّاب آخرين، بأنها «دولة فصل عنصري»، ونددت الرسالة بالإبادة الجماعية التي ترتكبها إسرائيل في حق الفلسطينيين، مؤكدة أن العدوان الإسرائيلي احتلال غير شرعي.

وفي مقابلة لها قالت: «**أنا لا أكتب انتقاماً من العنصرية، بل لتغيير اللغة إلى لغة لا تنتقص من الناس**».

إيقاع الحياة

فريق فني سوري بإشراف الفنان موفق مخول، حوّل بقايا نفايات صناعية إلى لوحات جدارية، وأنجز لوحته الأولى «إيقاع الحياة» عام (٢٠٠١م) (طولها ١٨٥ متراً وارتفاعها بين ٤ – ٥ أمتار)، ونفّذها على جدار مدرسة «بسام حمشو- مركز الفنون التربوي التشكيلي» مجموعة من الفنانين: ليال نصرالله وناصر نبعة وعلي سليمان ورجاء وصفاء وبي. وقد استخدموا بقايا النفايات كالسيراميك والزجاجات الفارغة والصحون والفناجين والقطع المعدنية المختلفة. وقال مخول (صاحب فكرة المشروع): «**اللوحة لا تحمل عنواناً معيناً، وإنما تتضمن زخارف وفناً معاصراً حديثاً تفرضه طبيعة البقايا المستخدمة لتزيين الجدران والمباني وإضفاء اللون عليها**».

وبيّن الفنان السوري أن الهدف من ذلك هو التخلّص من هذه البقايا من خلال تزيين بعض جدران المدارس بألوان مختلفة، وتعليم الأطفال كيفية الاستفادة من البقايا الصناعية وتحويلها إلى قيمة جمالية فنية ترفع لديها ذائقتهم البصرية، مؤكداً أن اللوحة لا تكون بالضرورة في المنزل فحسب، وإنما يمكن أن تكون في الشارع أيضاً.

وأوضح مخول أن إدراك الناس لأهمية هذا العمل وجمالياته دفعت أعداداً كبيرة منهم إلى التعاون مع الفنانين وتزويدهم بجزء من المواد المستخدمة.

وأشار إلى سعيه لتكرار هذا الأسلوب على كل مدارس دمشق، ولاسيّما ذات الجدران المطلة على الحدائق والساحات والشوارع العامة.

«لوحة إيقاع الحياة ٢» أُنجِزَت عام (٢٠١٤)، (طولها ٢٠٠ متر وارتفاعها ٤أمتار)، تعكس فناً تشكيلياً بصرياً، وتبعث الحياة والطاقة في روح مَنْ يراها على جدران مدرسة «نهلة زيدان» بمنطقة المزة في دمشق، هذه الجدارية دخلت موسوعة غينيس للأرقام القياسية بوصفها أكبر جدارية مصنوعة من المواد المعاد تدويرها في العالم.

العمل بإشراف الفنان التشكيلي موفق مخول إلى جانب التشكيليِّين رجاء وبي، وعلي سليمان، وصفاء وبي، وحذيفة العطري، وناصر نبعة، بالإضافة إلى فريق مساعد يتألف من عدنان العبدالله، ومحمود السبيني، وحسين مصطفى.

وأوضح مخول: «**أن تصميم العمل يعتمد على البقايا البيئية التالفة أو المنزلية المقاومة للطبيعة التي لا تتلف مع مرور الزمن، وتجميعها بطريقة بفن الفسيفساء الذي تُشتَهر به مدينة دمشق، وتثبيته بمادة الإسمنت المقاومة لتأثير عوامل المناخ والزمن، ما يرفع من عمر الجدارية إلى ما يزيد عن ٧٥ عاماً**».



جدارية إيقاع الحياة ١



جدارية إيقاع الحياة ٢



جدارية إسمنت ولون

وشدَّد مخول على أن هذه اللوحة لا تحمل أي أهداف سياسية، وأنها كُتبت تحت اسم الحب، فالفن لا يمكن أن يُسيّس قائلاً: «**رغم الدمار والرصاص أبحث عن جدار أكتُب عليه أنني أحبك يا وطني**».

وفي عام (٢٠١٦) انتهى فريق إيقاع الحياة من إنجاز لوحته الجدارية الثالثة «إسمنت ولون»، لوحة إسمنتية مزينة لجدار «المتحف المدرسي للعلوم بدمشق التابع لوزارة التربية»، إضافة إلى إعداد مكتبة بالقرب من المتحف في قبو مدرسة عبد القادر أرناؤوط، تضم أكثر من أربعين ألف كتاب قديم جُمِعَت من مكتبات مدارس دمشق.

وعن اللوحة قال مخول في تصريح لـ «سانا»: «**ساحة اللوحة الجدارية تبلغ ثلاثمئة متر مربع وهي مصنوعة من الإسمنت الأسود مع بقايا سيراميك بسيط لتطعيم العمل باللون**» مبيناً أن الغاية من هذا العمل إظهار القيمة الفنية للإسمنت لأنّه مادة غير محببة لدى بعضهم والتعرف إليها بشكل جديد، ومن ثمَّ حثهم على الابتكار واستخدام المواد من حولهم لصناعة الجمال.

وتابع: «**تضمن العمل موضوعات لها علاقة بالمجهول البصري الذي نبحث عنه، وفيها تجريد وحروف عربية وزخرفة وكتل تحمل تكوينات بصرية**» ، ويعدّه أوّل عمل جداري إسمنتي فيه تشكيل بصري رافقته تكوينات إسمنتية.

أمـا عـن المكتبة فقال مخـول: «تضم المكتبـة نحو أربعيـن ألف كتاب من كـل الموضوعات والاختصاصات، عُمّر بعضها يعود إلى عام (١٨٥٠م) جُمِعَت من مكتبات مدارس دمشق بهدف حفظ هـذا التراث الثقافي، وإعطاء فرصة لمحبي القراءة والثقافـة للاطّلاع عليها» لافتاً إلى أن المكتبة تحتوي على قاعات للمطالعة وهي تابعة لمديرية تربية دمشق.

الإبداع لا وقت له

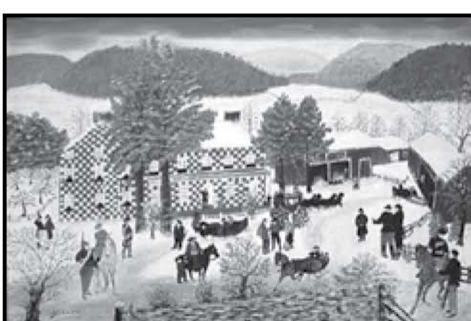
ولدت **آنا ماري روبرتسون والمعروفة بـ «الجدة موسز»** في (١٨٦٠/٩/٧م) في مزرعة قريبة من مدينة نيويورك الأمريكية، وتزوجت في السابعة والعشرين من عمرها، وكانت مبدعة في بيتها، وزيَّنته بأعمال التطريز والخياطة.

سيـدة ريفيـة بسيطة، أحبَّت الرسم منذ طفولتها لكن مجتمعهـا الريفي وظروف الحياة منعتها. وعملـت في الحقل مع زوجها، وبعد وفاته عملت مع أبنائها الصغار، كرَّست حياتها لعائلتها وعملها، وفي عامها الخامس والسبعين لم تعد تستطيع العمل في الحقل بسبب مرض المفاصل ومعه ظهرت موهبتها.

رسمـت لوحة وقدمتها إلى ساعي البريد هدية له بمناسبـة عيد الميلاد، ووجدت أن الوقت قد حان لتفعل ما كانت تريده منذ كانت شابة صغيرة.

تتالت لوحات **الجدة موسز**، وكانت تهدي لوحاتها إلى الأقارب والمعارف ثم أصبحت تبيع، ومن ثم أصبحت تبيع اللوحة الصغيرة مقابل دولارين، أمَّا اللوحة الكبيرة فكانت بثلاثة دولارات.

وتعـدّدت قصصـ شهرة لوحات الجدة موسز، ولكن هذه القصصـ اشتركت بأن شخصاً أعجب بلوحاتهـا، وعرض لها لوحة في مزاد نيويورك لتباع بـ(١٥٠ ألف دولار)، ومن هنا بدأت شهرة الجدة موسز وكانت في الثمانينيات من العمر.



من لوحات الجدة موسز

امتـازت لوحاتهـا ببساطتهـا وطبيعتهـا، ولاسيّما التي تعكس الشتـاء الأمريكي، وبدأت الطوابـع الأمريكية وبطاقـات المعايدة تحمل صـوراً مـن لوحاتهـا التـي عكسـت الطبيعة الأمريكية والاحتفالات الشعبية، وازداد الاهتمام الإعلامي بها، وأصبحت معارض لوحاتها تجذب أعداداً غير مسبوقة من محبي الفن والمهتمين بمعرفة المزيد عنها، وبـدأ المعجبون يدفعون


هاري ترومان يكرم الجدة موسز

من ثمانية إلى عشرة آلاف دولار في لوحة الرسم الواحدة لها، كما حصلت في عام (١٩٤٩م) على جائزة من الرئيس الأمريكي هاري ترومان تقديراً لإسهاماتها في إثراء الفنون. وفي عام (١٩٥٢م) نشرت مذكراتها وقصتها في كتاب خاص.

توفيت الجدة موسز في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الأول لعام (١٩٦١م) عن عمر ناهز مئة عام وعامٍ ووصلت عدد رسوماتها إلى ألف وخمسمئة لوحة فنية.

في أيلول (٢٠٠٦م) بيعت لوحة للجدة موسز مقابل (١,٢) مليون دولار، وهو أعلى سعر للوحة من لوحاتها، توجَد لوحاتها حالياً في متحف اللوفر بباريس وبلازا في نيويورك.

أراد محافظ ولاية نيويورك «نيلسون روكيفيلر» الاحتفال بالجدة موسز في عيد ميلادها المئة، فأطلق على السابع من أيلول «يوم الجدة موسز».

وقال عنها الرئيس جون كينيدي: «**إنها مثال محبوب من الأمريكيين، والحيوية في لوحاتها أعادت النضارة إلى مشهد الحياة الأمريكية**».

فنّانون يبتكرون ألواناً

ظهرت أنواع عدة من الفنون الجديدة، فلم يعد يقتصر الفن على اللوحات الفنية المرسومة بالريشة والألوان أو تلك اللوحات المنحوتة، ولكن حالياً اللوحات أصبحت بالقماش وقطع الورق المقطعة والجرائد...


من أعمال إيان بيري

الفنان البريطاني إيان بيري، يخلق أعمالاً فنية باستخدام الجينز القديم، وبدايته كانت عندما طلبت منه والدته أن يقوم بتنظيف خزانته ليفاجأ بكمية كبيرة من «بناطيل» الجينز البالية، فكان التخلص منها صعباً، وبعد نحو ثمانية عشر شهراً بدأ يجرب تشكيل لوحات فنية من خلال أقمشة هذه البناطيل، ليتحوَّل بعد ذلك بفنه نحو العالمية وتصبح طريقته منحى فنياً جديداً، يطلق عليه Denimu Art (فن الرسم بأقمشة الجينز أو فن الجينز) تأثر به كثيرٌ من الفنانين حول العالم.

تفـــرغ بيري للفن واستقال من وظيفته في مجال الإعلانــات، وسرعان ما تمكن من بيع كثيرٍ من أعماله بمبالغ طائلة وشارك في كثيرٍ من المعارض الفنية العالمية.

يقـــدّم بيري في اللوحات والبورتريهــات مشاهد من الحياة العامة مملــوءة بكثير من التفاصيل الدقيقـــة، واعتمد بيري على الجينز في كل لوحاته، لأنه يرى أن تلك الخامة هي الأكثر سيطرة على الحياة العصرية حالياً...

ويقول بيري عبر موقعه: «**كل هذه اللوحات هي من الجينز فحسب، لم أرسم ولو خطاً واحداً عليها، لم أغير في الخامات أي شيء، مباشرة أقطع قماش الجينز بالأزرق ودرجاته فحسب، وبعض الأسود والرمادي، وأخوض عالماً من الدرجات المختلفة لكل ذلك، لأحاكي الظلال في اللوحات، وأنجز ما ترونه**».

الفنان المصري محمد مصطفى مهندس معماريٌّ استخدم ورق الجرائد والمجلات لرسم شخصياته دون ريشة أو فرشاة أو قلم وكانت أولى لوحاته في عام (٢٠٠٧) لجيفارا واستغرقت أربعة أيام.


من أعمال محمد مصطفى

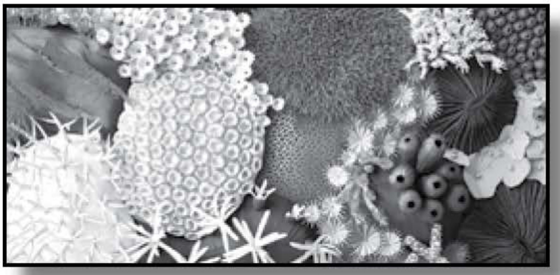
شارك فـــي كثير من المعارض، ولم يتعارض عمله مع هوايته الفنية إذا قال في حـــوار معه: «أعمل مهندساً معماريـــاً، وأعتقد أن العالَميّن ليسا بعيدين بعضهما عن بعضٍ، فأنا استفدت من دراستي للهندسة كثيراً في كيفية ضبط أبعاد اللوحة وموازنتها».

خطـــوات تنفيذ اللوحة التي تستغرق من أسبـــوع إلى خمسة عشر يوماً لا تبدأ فحسب من اختيار الألوان التي تتناسب مع اللوحة من المجلات ولكنها تبدأ من خطوة مبكرة قليـــلاً إذ يقول: «كل يوم أحرص على شراء الجرائد، يندهشـــ البائع حين آخذ أربع نسخ من العـــدد نفسه ويتخيل أني أكتب في هذه الجرائد أو كتبوا عني فيها، أمَّا المجلات أجمعها من أقاربي».

خلال هذه السنوات يقترب رصيد محمد إلى خمسين لوحة غالبيتها بورتريهات لشخصيات معروفة: أحمد زويل، وجيفارا، ومارلين مونرو، وعمر المختار، وهشام الجخ...


من أعمال جين بيركينز

الفنانـــة البريطانية جين بيركينـــز عملت ممرضة مدّة سبعة عشر عاماً حتـــى قررت اتخاذ طريق الفن وفي عـــام (٢٠٠٦م) حصلت على شهادة في مجـــال «الفن والتصميم من المواد المعاد تدويرها»، وكان أول عمل فني لها هو صنع صورة بوساطة دبابيس معاد تدويرها، والآن هي تعيد تدوير ما تعثر عليـــه من مواد؛ فأعمالها تتكون من أشياء عدة، كالأزرار، والخرز، والألعاب، وقطـــع الليجو، وأي قطـــع بلاستيكية علـــى وجه الخصوصـــ، وقد أعادت استنســـاخ اللوحات الشهيرة كالموناليزا والفتـــاة ذات القرط اللؤلؤي وأيضاً بعض الوجوه الشهيرة كـ«آينشتاين والملكة إليزابيت ونلسون مانديلا».



من أعمال ملي هيبوليتي

الفنان الفرنسي ميلي هيبوليتي استخدم قطع الورق الملون في لوحته، وفي تصريحات خاصة قال على موقع «بورد باندا»: «**استخدمت الورق الملون في رسم لوحة للشعاب المرجانية النادرة، وقد استغرق عمل هذه اللوحة أربعة أشهر، والهدف من هذه اللوحة هو إرسال رسالة للعالم بأهمية إعادة تدوير الأشياء التي من بينها الورق، ويمكن أن يفكر كل فرد في طرائق جديدة لإعادة استخدام الورق**».



منحوتة بيكاسو «رأس الثور»

تبنى كثير من الفنانين التشكيليين إعادة التدوير، وحولوا نفايات عديمة القيمة ومهددة للبيئة إلى قطع فنية وجمالية؛ وإعادة التدوير في الفن أو استعمال المواد التي لا قيمة لها، أو المواد غير النبيلة كما يسميها بعضهم، ليست وليدة الوقت الراهن فنرى أن بابلو بيكاسو من الفنانين الذين أعادوا التدوير في أعمالهم فاستعمل الجرائد القديمة والخشب في بعض أعماله، كما أنجز لوحة «الحلم» بالزيت على قطعة كرتون، ومنحوتته «رأس الثور» استخدم لإنجازها مقوداً وكرسي دراجة.

وبذلك تكون المدارس الفنية التي أعلنت تمردها على السائد في الفن كالتكعيبية والدادائية والسريالية قد لجأ فنانوها إلى إعادة تدوير ما يُستَعمل في الحياة اليومية، فجنحوا إلى الإقناع بأنه في الإمكان جمع عناصر غير متجانسة طبيعياً للحصول على نتائج منطقية ومذهلة في الأعمال الفنية، وهي طريقة تبنوها لتحرير الفن مما هو تقليدي ومزيف حسب رأيهم.

ظهرت حركة إعادة التدوير في إيطاليا سنة (١٩٦٠م)، وسمي الفن الناتج عنها «الفن الفقير»، ويرى النقّاد أن كلمة الفقير تدل على المواد الأولية المهملة، أما الأعمال الفنية الناتجة عن هذه المواد فلها قيمتها الجمالية.

أمَّا فن إعادة التدوير مع الفنانين المعاصرين فقد تمردوا من خلاله على السائد، وحاولوا التعبير عن الرفض الأكيد لما تتعرض له الطبيعة من عنف ناتج عن النفايات، وأسهموا في نشر الوعي للحفاظ عليها بطرائق جمالية، كما جنحوا للمغايرة والتجديد في أعمالهم.

دينو بوتزاتي

الكلب الذي رأى...

ترجمة: حسين رفعت فرغل

اختيار وتقديم: ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

دينو بوتزاتي

(١٩٠٦- ١٩٧٢م)

يحتل الكاتب الإيطالي دينو بوتزاتي مكانة مرموقة وحضوراً مقدراً عند الكتّاب والنقّاد، لما تتمتع به أعماله من عمق، وحالات قلق مؤثرة. بوتزاتي موهبة عظيمة، عمل في الصحافة وكتب الشعر والقصة والرواية والمسرحية ومارس الرسم أيضاً. اشتهر بقصصه ذات النكهة الأدبية الواقعية والرمزية العالية وبالروح المتهكمة التي تتوارى خلف الألم والمفارقات الحياتية والسيكولوجية.

من أشهر رواياته: «صحراء التتار» صدرت ترجمتها الأولى في مصر منذ عقود مضت، وأعماله بخصوصيتها وبأجوائها المفزعة أو الموحشة تذكر بالكاتب التشيكي فرانز كافكا.

وترجمت لبوتزاتي مختارات من قصصه ونشرت في مصر وسورية.

وقصته هذه من قصصه المشهورة وعنوانها الأصلي هو «الكلب الذي رأى الرب» وهي قصة تعبر تعبيراً مناسباً عن أسلوب دينو بوتزاتي، وتقدم جانباً من أجوائه

الذهنية، يتحدث فيها عن الفقر والاغتراب والجحود والنكران الذي يلف العالم من خلال سكان هذه القرية التي يتحدث عنها بوتزاتي. القصة اخترناها من مختارات قصصية لدينو بوتزاتي، ترجمة رفعت فرغل، سلسلة الإبداع العالمي، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٤م.

— ١ —

بســوء نية خالصة ترك العجوز «سبيريتو»، صاحب مخبز بلدة «تيس» تركةً ليرثها ابن أخيه «ديفينديننتي سابوري» بشرط واحد: أنه مدة خمس سنوات، وكل صباح، كان عليه أن يوزّع على الفقــراء، وفي مكان عام، خمسين كيلو غراماً من الخبز الطــازج. إن فكرة قيام ابن أخيه الذي يعد من أوائل غير المؤمنين السبابين في بلد المحرومين، بما يسمى بفعل الخير على مرأى من الناس، إن هذه الفكرة لا بد قد دفعت العم حتى قبل أن يموت إلى كثير من الضحكات الخفية.

كان «ديفينديننتي»، وهو الوريث الوحيد، قد عمل في المخبز منذ أن كان صبياً، لم يشك أبــداً في أنَّ ممتلكات «سبيريتو» سوف تــؤول إليه عن استحقاق تقريباً. أغاظه هذا الشرط، ولكــن ما العمل؟ أيلقي بكل خيــرات الله تلك، بما فيها المخبز؟ تماشــى مع هذا آخذاً في تسديــد اللعنات. أما عن المكان العام فقد اختار أقل الأماكــن رؤية: مدخل الفناء الصغير الذي كان ينفرج خلف المخبز. وهنا كان يظهر كل صباح باكر وهو يزن الخبز المقرر (نصّ الوصيــة). ويكوّمه في سلة كبيرة ثم يوزّعه على شرذمة شرهة من الفقراء، وهو يقرن العطية بالشتائــم والمزح غير المحتشمة في حق العم الراحل. خمسون كيلو في اليوم! كان يبدو له غبياً ولا أخلاقياً.

أمــا مراقب تنفيذ الوصيــة. وهو مسجّل العقود «ستيفولو» فكان نــادراً ما يحضر في تلك الساعــة المبكــرة، ليستمتع بالمنظر. كان وجــوده على كل حال غير ذي معنــى. فما من أحد يستطيــع أن يراقــب أمانة تنفيذ شرط الوصية خير من المتسوّليــن أنفسهم. على كل حال فقد انتهــى «ديفينديننتي» إلى تدبير حل جزئي. كانت السلّــة الكبيرة التي يكدّس فيها نصف قنطار الخبــز، توضع بجوار الحائط. وفي الخفاء فتــح «سابوري» بها باباً صغيراً لا يستطيع أحد أن يكتشفــه متــى أغلق. كان قد اعتاد أن يرحــل، بعدما يبدأ التوزيع بنفسه، تــاركاً زوجته وأحد الصبية لإتمام العمل، وكان يقول: إن المخبز والمحل في حاجة إليه. لكنه في الحقيقة كان يسارع إلى المخزن ويصعد فوق أحد المقاعد ويفتح في صمت طاقة إحدى النوافذ الصغيرة على حافة أرضية الفناء وقد وضعت السلة أمامها، ثم يفتح باب القش الصغير ويسلب من قاع السلة أكثر

ما أمكن من الخبز. هكذا كان مستوى السلة يهبط بسرعة. ولكن كيف يمكن للفقراء أن يدركوا؟ فمع السرعة التي كان يتم بها تسليم الخبز، كان منطقياً أن تفرغ السلة توّاً.

في الأيام الأولى كان أصدقاء «ديفيندينتي» يتعمّدون تقديم المنبه كي يذهبوا لرؤيته وهو في وظيفتــه الجديدة. كانوا يقفون في مجموعات صغيرة عند باب الفناء يراقبونه هازلين. «فليكافئك الله!» «إيه هل تعد لنفسك مكاناً في النعيم؟ شاطر يا رجلنا المحسن» هكذا كانت تأتي تعليقاتهم. فــكان يجيبهم قائلاً: «على روح تلك الرمة» وهــو يلقي بالخبز وسط حشد المساكين المتقيّحين الذين كانوا يقتنصونه وهو في الهواء. وكان يبتسم ساخراً وهو يتذكّر الحيلة الجميلة جداً التي بها يغدر بأولئك التعساء وكذلك بروح عمه الراحل.

-٢-

فــي الصيف نفســه، جاء الناسك العجوز «سيلفيسترو»، لما علم أن الله وجوداً قليلاً في تلك البلدة، ليقيم على مقربة منها. كانت توجد على بعد نحو عشرة كيلو مترات من «تيس» فوق أحد التــلال المنعزلة أطلال كنيسة قديمة: أحجار أكثــر منها أي شيء آخر، هنا أقام «سيلفيسترو» فقد وجد ماء في نبع قريب، وأخذ ينام في ركن تحميه بقية من قبة، ويأكل حشائش وخروباً، وفي النهار غالباً ما كان يصعد ليسجد عند القمة فوق صخرة ضخمة يتأمل الرب.

مــن عل كان يميز منــازل «تيس» وأسقف بعض المنازل القريبــة المهجورة من بينها أطراف «فوســا»، «أندرون» و«ليمينــا»، لكنه عبثاً انتظر أن يظهر أحد. كانــت صلواته الحارة تصعد إلى السماء من أجل أرواح هؤلاء الخطاة دون نتيجة. لكن «سيلفيسترو» مع ذلك كان مستمراً في التعبد إلــى البارئ، فينهج الأصوام، ويتناجى، عندما يكون حزيناً، مع الطيور. لم يحضر أي إنسان. في ليلة لمح -وهذا حقيقي- اثنان من الصبية يرقبانه من بعد. ناداهما بمحبة. لكنهما هربا.

-٣-

لكــن في أثنــاء الليل، وفي اتجاه الكنيســة المهجورة، بدأ فلاحو المنطقــة يلحظون أنواراً غريبــة. كان يبدو كحريق الغابة لكن الوميض كان أبيض وكان يخفق بطلاوة. وذات مساء ذهب فريجيميــكا ذلك الذي يعمل في القمينة يدفعه الفضول للاستطــلاع، لكن عطباً أصاب دراجته البخاريــة في منتصف الطريق. من يدري لماذا، لم يخاطر باستكمال المسير على قدميه، عندما

عاد قال إنَّ هالة من النور كانت تشع من تل الناسك، وإنَّه لم يكن نور نار أو مصباح، بلا صعوبة استخلص الفلاحون أن ذلك هو نور الله.

حتــى من «تيس» كان يظهر انعكاســ النور في بعض الليالي لكن مجيء الناسك، وأعاجيبه، ثم أنواره الليلية غاصت في لامبالاة أهل البلدة المعهودة نحو كل ما يتعلق بالدين ولو من بعيد. لــو حدث أن جــاء هذا الحديث، فإنهم كانوا يتكلمون عنه كما لــو كانت واقعة معروفة منذ وقت بعيــد، وما كانوا يصرون على إيجاد تفسيرات، وأصبحت جملة «الناسك يشعل النيران» جارية الاستعمال كقولهم: «هذه الليلة ستمطر أو ستهب الريح.

أما أن هذه اللامبالاة الشديدة كانت نابعة عن شعور مخلص فقد أكدت ذلك الوحدة التي ترك فيها «سيلفيسترو» فإن فكرة الذهاب إليه للحج كانت سوف تبدو قمة الملهاة.

— ٤ —

ذات صباح حينما كان «ديفيندينتي سابوري» يقوم بتوزيع الخبز على الفقراء دلف كلب إلى الفناء. كان في مظهره حيواناً ضالاً، فيه شيء من السمنة ذا شعر كثيف، ووجه أليف. ينسل من بين المتسولين المنتظرين، يصل إلى السلة، يلتقط رغيفاً وينصرف بطيئاً بطيئاً. ليس كلص، بل كشخص جاء يأخذ مما له.

يصيح «ديفيندينتي» وهو يبحث عن اسم للكلب: «إيه يا فيدو»، تعالَ يا حيوان يا قبيح، «ويقفز لملاحقتــه. كثيرون هم هؤلاء المتسولين. لم يبق، الآن، إلا الكلاب!» لكن الحيوان قد صار بعيداً عن مرماه.

المنظر نفسه في اليوم التالي: الكلب نفسه، المناورة نفسها، هذه المرة يلاحق الحيوان حتى الطريق، يقذفه بالحجارة دون أن يصيبه.

الجميــل أن السرقة كانت تتم في ميعادها تماماً كل صبــاح. عجيب مكر الكلب في اختيار اللحظــة المناسبة، مناسبة بحيث لم تكن لديه أيّ حاجة إلى العجلة... والحجارة المقذوفة وراءه مــا تصــل أبداً إلى الهدف. وتنفجر في كل مرة ضحكة جماعيــة حمقاء من لمة الدهماء، ويجن جنون الفرَّان.

وهــاج «ديفيندينتي» كحيوان، وفي اليوم التالي تربصــ عند عتبة الفناء، مختبئاً وراء ضلفة الباب وفي يده هراوة. لا فائدة. ربما يختلط بزحام الفقراء، الذين يستمتعون باللعبة ولذا لم يكن لديهم من سبب لخيانته، فيدخل الكلب ويخرج دون أن يمسه أذى.

«إيــه، حتى اليوم عملها» يعلنها أحد الشحاذين المتوقفيــن بالطريق. فيسأله «ديفيندينتي» وهو يقفز من مخبئه: أين؟ أين؟ يشير البائس ضاحكاً وهو يتلذذ بغضب الفرّان: «انظر كيف يهرب!».

لــم يهرب الكلب في الحقيقة بأيٍّ طريقة: إنما هو يبتعــد آخذاً الرغيف بين أسنانه بخطوات مسترخية وهادئة كخطوات من له ضمير مرتاح.

هــل يغض طرفه؟ لا. فإن «ديفيندينتي» لا يحتمل هذه الدعابات. ولأنه لم يستطع أن يضيق عليه الخناق في الفناء، ففي الفرصة القادمة السانحة سوف يطارد الكلب في الشارع. فمن الجائز كذلك ألا يكــون الكلب ضالاً تماماً، ربما له مــأوى ثابت، أو له صاحب يستطيع أن يطلب منه تعويضاً أما هكــذا فإنه لا يمكنــه أن يستمر بالتأكيد في الأيام الأخيرة. تأخر «سابوري» في النزول إلى المخزن كي يرقب ذلك الحيوان القميء وهكذا استردَّ خبزاً أقل بكثير من المعتاد: إنها نقود تضيع.

حتــى محاولة عقاب الحيوان برغيف مسموم، وضع على الأرض عند باب الفناء، لم يحالفها التوفيق. شمه الكلب لحظة، واستأنف طريقه فوراً نحو السلة: هكذا على الأقل قال الشهود.

-٥-

لكي يتقن الأمر فقد كمن «ديفيندينتي سابوري» تحت إحدى البوابات، في الجانب الآخر من الطريق ومعه الدراجة وبندقية الصيد: الدراجة كي يطارد الحيوان، والبندقية ليقتله إذا وجد أنه بــلا صاحب يسأله التعويض. كان يؤلمه فحسب تذكُّره أن السلة ذاك الصباح ستفرغ عن بكرة أبيها لمصلحة الفقراء.

مــن أي مــكان وبأيِّ طريقة أتى الكلب؟ حقاً إنه لسر. لم ينجــح الفرّان في أن يلحظ مقدمه، مــع أنه بقي مفتوح العينين. لحظة فيمــا بعد يخرج رابط الجأش، والرغيف بين أسنانه وأصداء ضحــكات عالية تصل من الفناء. انتظــر «ديفيندينتي» أن يبتعد الحيــوان بعض الشيء، حتى لا يشعر به، ثم قفز على كرسي الدراجة واقتفى أثره.

كان الفــرّان ينتظر، كاحتمال أوّل، أن يتوقــف الكلب بعد قليل ليلتهم الرغيف، لكن الكلب لم يتوقف. كان قد تخيل أيضاً أنه، بعد خطوات قليلة، سوف يعرج على باب أحد المنازل. غير أنه لــم يفعل. كان الكلب يهرول، ورغيفه بين أسنانه، بحذاء الحوائط بخطوة منتظمة دون أن يتوقف ليتشمَّــم، أو ليبوِّل، أو ليستطلع بفضول الكلاب المعهود. أين إذن سيقف؟ كان «سـابوري» ينظر إلى السماء الرمادية. لو سقط المطر فليس هناك ما يدعو للاندهاش.

عبــرا ميدان «سانت أنييزى»، ثم مرا على المدارس الابتدائية، ومحطة سكة الحديد، والمغسل العمومي. كانا حينئذ عند أطراف البلدة. تركا أخيراً الملعب الرياضي أيضاً وراء ظهريهما وتوغلا في الحقول. منذ أن خرج من الفناء. لم يلتفت الكلب وراءه أبداً. ربما كان لا يدري أنه مراقب.

الآن عليــه أن يهجــر الأمل في أن للحيوان صاحباً يمكنه أن يتحمــل نتيجة أفعاله. إنه إذن كلــب ضال، واحد من تلك الحيوانات التي تغير على حظائر الفلاحين، فتسرق الدجاج، وتعض العجول، وترعب العجائز ثم ينتهي بها الأمر إلى المدينة لتنشر بها الأمراض القذرة.

ربمــا كان الحل الوحيد هو أن يرميه بالرصاصــ. ولكن كي يرميه بالرصاص عليه أن يقف وينــزل من على الدراجة، وينزع البندقية من على كتفه. وفي هــذا الكفاية حتى يصبح الحيوان خارج مرمى النيران وإن لم يسرع الخطا. فاستأنف «سابوري» المتابعة.

-٦-

ظلا في مسيرهما، ها هي ذي الغابات تلوح. عرَّج الكلب إلى طريق جانبي ثم إلى آخر أكثر ضيقاً لكنه ملس وسلس.

كم من طريق قاما باجتيازه؟ ربما ثمانية أو تسعة كيلو مترات. ولماذا لم يتوقف الكلب ليأكل؟ ماذا ينتظر؟ أو أنه يحمل الرغيف إلى أحد ما؟ وما إنْ ازدادت الأرض انحداراً حتى اتجه الكلب أخيراً إلى درب صغير، لم تعد الدراجة بقادرة على التقدُّم. لحسن الحظ فإن الحيوان كذلك أبطأ الخطا قليلاً نظراً لحدة ميل الأرض. قفز «ديفيندينتي»، من فوق الدراجة واستأنف المتابعة على قدميه. لكن الكلب أخذ يبتعد عنه شيئاً فشيئاً.

ولمــا ناله التعب شرع في إطلاق قذيفــة وعندئذ رأى على قمة منحدر قاحل، صخرة كبيرة: وفــوق الصخرة رجل ساجد. حينئــذ عاد إلى ذهنه الناسك والأنوار الليلية وكل تلك الخزعبلات المضحكة. يهرول الكلب في استسلام صاعداً على المرعي الهزيل.

توقــف «ديفيندينتي» والبندقية ما زالت في يده، على مقربة خمسين متراً. رأى الراهب يقطع صلاته، ويهبط من فوق الصخرة برشاقة فريدة نحو الكلب الذي كان يهز ذيله واضعاً له الرغيف عنــد قدميه. أخذ الناسك الرغيف من الأرض، وقطع كســرة منه ووضعها في خرج يحمله فوق عنقه، والباقي أعاده إلى الكلب مع ابتسامة.

كان الناســك ذا جسم هزيل لكنه صحيح وشديد، مرتدياً رداء الرهبان، تبدو على وجهه أمارات خفة الظل، لا يعوزها شيء من المكر الصبياني. حينئذ تقدم الفرّان عازماً على أن يثبت حقوقه.

«مرحباً بك يا أخي» هكذا عاجله «سيلفيسترو» عندما رآه يقترب. «ما الذي جاء بك إلى هذه الناحية؟ هل أنت في رحلة صيد؟».

فأجابه «سابوري» بخشونة: «الحقيقة كان في نيتي اصطياد... اصطياد حيوان قميء بالذات، حيث إنَّه كل يوم...».

قاطعه العجوز: «آه، أهو أنت؟ أهو أنت الذي يبعث لي كل يوم بهذا الرغيف الطيب؟... إنه خبز للسادة هذا... ترف لم أكن أعرف أنني أستحقه!...».

«طيب؟ أتحدَّى أنه طيب! طازج خارج من الفرن... حرفتي وأنا أعرفها، يا سيدي العزيز... لكنه لم يجهز من أجل السرقة!».

أحنى «سيلفيسترو» رأسه وهو يحملق في الحشائش. ثم قال في شيء من الحزن: «فهمت. لك حق في شكواك، لكنني لم أكن أعلم هذا يعني أن «جاليوني» لن يذهب بعد الآن إلى البلدة... سوف أبقيه هنا معي باستمرار... فينبغي ألا يكون لدى الكلب أيضاً ما يؤنب ضميره... لن يذهب بعد الآن، إنني أعدك».

قال الفرَّان وقد هدأ بعض الشيء: «أوه جميل، ما دام الأمر كذلك، يستطيع الكلب أن يأتي. هناك موضوع وصية لعينة، فإنني مجبر أن أرمي كل يوم خمسين كيلو من الخبز للفقراء على أن أهبها، لأولئك اللقطاء الذين لا ضيعة لهم ولا حرفة... حتى لو وصل رغيف إلى هنا فوق... فقير زيادة أو نقصان...».

- «إن الله سوف يكافئك خيراً، يا أخي... وصية أم لا، أنت تقوم بفعل الخير».
- «سوف أكون أكثر سروراً لو لم أفعله».
- «إنني أدرك لماذا تتكلم هكذا... إنكم تتَّسمون يا بني الإنسان بنوع من أنواع الخجل... إنكم تهتمون بأن تظهروا بأسوأ مما أنتم عليه، هكذا تسير الدنيا!».

أمَّا الشتائم التي أعدها «ديفيندينتي» بداخله فلا تخرج، سواء بفعل الارتباك أم ضياع الرجاء فإنه يفشل في أن يغضب. إن فكرة أنه الأوّل والأوحد في البلدة كلها الذي قرب الناسك من نفسه تملؤه غروراً.

نعم، أخذ يفكر، الناسك هو الناسك: ليس ثمة نفع تحصل عليه منه. ومع ذلك فمن يستطلع الغيب؟ لو أقام هو صداقة سرية مع «سيلفيسترو» فمن يدري أنها لن تعود عليه بمنفعة يوماً ما... يتخيَّل مثلاً أن يأتي العجوز بمعجزة، فيولع به عامة الشعب، ويصل من المدينة الكبيرة مطارنة وأساقفة، وتنظم الاحتفالات، والمواكب، والأعياد الدينية، أما هو، «ديفيندينتي سابوري»

صفـــي «القديس الجديد» الذي تحسده كل البلدة، فيتقلد منصـــب العمودية على سبيل المثال. لم لا في نهاية الأمر.

قـــال «سيلفيسترو» عندئذ: «ما أجمل بندقيتك هذه» وبحركة لا تخلو من رقة نزعها منه بيده. فـــي هذه اللحظة، ولا يدري «ديفينديتي» لمـــاذا، تنطلق قذيفة تهز الوادي. ولا تفلت البندقية مع ذلك من يد الناسك.

قـــال له الآخر: «ألا تخـــاف من التجول بالبندقية محشوة» فنظر إليـــه الفرّان بارتياب قائلاً: «أظنني لم أعد صبياً».

استأنف «سيلفيسترو» الحديث فوراً وهو يعيد إليه البندقية «هل صحيح أنه ليس بمستحيل أن تجد مكاناً، يوم الأحد، في كنيسة «تيس»؟ لقد سمعت أنها غير مزدحمة».

«إنهـــا خاليـــة كراحة اليد» قالها الفـــرّان برضا كامل، ثم صحح كلامه قائـــلاً: «إننا قلة نحن المتمسكين!».

– «وفي القداس، كم تكونون عادة في القداس؟ أنت وكم غيرك».

«أستطيع أن أقول نحو ثلاثين في أيام الآحاد الطيبة، وبلغ الخمسين في عيد الميلاد».

– «قل لي، في «تيس» أو يسبون الدين في يسر؟».

– «تباً إن لم أك أرسلهم! العماد والميرون، والمناولة الأولى يرجوهم أحدٌ حتى يسبوا الدين».

ينظر إليه الناسك ويهز رأسه:

«إذن فيمكننا القول، إن إيمانهم بالله قليل».

«قليل؟» يستطرد «ديفينديتي» هازئاً بينه وبين نفسه ثم يقول: «كلهم كفرة...».

– «وأبناؤك؟ أفترسل أبناءك إلى الكنيسة بانتظام...».

– «تباً إن لم أك أرسلهم! العماد والميرون، والمناولة الأولى والثانية».

– «حقيقي؟ حتى الثانية».

– «حتى الثانية، معلوم. ابني الأصغر كان...» لكنه توقف لشكِّه في أنه بالغ في القول.

– «إنـــك إذن أب مثالي» قالهـــا الناسك بصرامة (لكنه لماذا يبتســـم هكذا؟). «عد لزيارتي، يا أخي. والآن اذهب في رعاية الرب» ويأتي بإشارة وكأنه يباركه.

تأخذ «ديفينديتي» المفاجأة، لا يدري بماذا يجيب. وقبل أن يدرك ما يفعل، أومأ برأسه قليلاً راسماً علامة الصليب. لحسن الحظ لم يكن هناك من شاهد باستثناء الكلب.

-٧-

كان الحلــف السري مع الناسك شيئاً جميــلاً، ولكنه بالقدر الذي كان يتوه عنده الفرَّان في أحلامــه بأن يصل إلى العمودية فحسب. كان عليه في الواقــع أن يفتح عينيه جيداً. فإن توزيع الخبــز على الفقراء قلل من شأنه فــي أعين أهل بلده حتى إن كان الذنب ذنبه. لو أنهم حضروا الآن وعرفوا أنه قام برسم علامة الصليب! حمداً للسماء، لا يبدو أن أحداً تنبه لرحلته، ولا حتى صبيان المخبز. ولكن، هل هو فعلاً متأكد؟ وكيف يعالج مسألة الكلب؟ لم يكن ليستطيع أن يمنع عنه الرغيف اليومي بشكل يحفظ مكانته. وما كان يستطيع أن يقدمه تحت أنظار الشحاذين وإلا صاغوا منه أسطورة.

لذلــك ففي اليوم التالي، وقبل أن تبزغ الشمس، اتخــذ «ديفيندينتي» مكانه بالقرب من أحد المنــازل على الطريــق المؤدي إلى التلال. وما إن ظهر «جاليونــي» حتى ناداه بصفارة. تعرف عليها الكلب واقترب منه، عندئذ سحبه الفرَّان، وهو ممسك الرغيف بيده، إلى كوخ خشبي صغير بجوار المخبز كان يُستَخدَم مخزناً للخشب. هنا، وتحت إحدى الأرائك وضع الرغيف، كي يرشد الكلب أن عليه في المستقبل أن يسحب طعامه من هنا.

فعــلاً جاء الكلب «جاليونــي»، في اليوم التالي، كي يأخذ الرغيف مــن تحت الأريكة المتفق عليها، ولم يره «ديفيندينتي» ولم يره المتسولون.

كان الفرَّان يذهب كل يوم ليضع الرغيف في الكوخ الخشبي الصغير قبل أن تشرق الشمس. وكذلك الحال والخريف الآن يتقدم وأصبح النهار أقصر، كان كلب الناسك يتوه في ظلال أضواء الغســق الصباحية الخافتــة. وأصبح «ديفيندينتي سابوري» هكذا هادئــاً بما فيه الكفاية وكان يمكنه أن يتفرغ لاسترداد الخبز المخصص للفقراء من خلال باب السلة السري.

-٨-

مــرت الأسابيع والشهور إلى أن حلّ الشتاء بأزهــار الصقيع على النوافذ، بالمداخن تنفث دخانهــا طوال اليوم، بالناس متدثرين، ببعض العصافير الصغيرة صعقها بزوغ الصباح أسفل السياج وبدثار الجليد الخفيف على التلال.

فــي ليلة ثلجية ساطعة النجوم. هناك ناحيــة الشمال، في اتجاه الكنيسة القديمة المهجورة، لوحظــت أنــوار عظيمة بيضاء، أنوار لم يشهد أحد مثلها مــن قبل. حاق «بتيس» نوع من أنواع

الهــول. أناســ يقفزون من الفراش، مصاريـــع النوافذ تفتح، نداءات من بيــت لآخر، وجلبة في الطرقات. ثم عندما فهموا أنها واحدة من أنوار «سيلفيسترو» المعهودة، وأنها ليست سوى نور الله جـــاء لتحية الناسك، فإن الرجال والنساء أوصدوا النوافذ ودخلوا مرة أخرى تحت الأغطية الدافئة، قانطين بعض الشيء، وهم يلعنون الهول الزائف.

في اليوم التالي انتشر بتثاقل خبر مجهول المصدر أن «سيلفيسترو» العجوز قد مات بالليل متجمداً من البرد.

-٩-

وحيــث إن دفن الموتى إجباري بقوة القانون. فقد ذهب اللحـــاد، وأحد البنائين، واثنان من الفعلـــة كي يواروا الناسك التراب، واصطحبهم «دون طابيـــه» قمُّص كنيسة البلدة الذي كان قد فضَّـــل دائماً أن يتجاهل وجود الناســـك داخل حدود أبرشيته. وضع صندوق الموتى فوق عربة يجرها حمار صغير.

وجـــد الخمسة «سيلفيستـــرو» مستلقياً فوق الجليد، وذراعاه علـــى هيئة الصليب، الجفنان مسبلان، في وضع القديسين تماماً، وبجواره جلس الكلب «جاليوني» يبكي.

وضـــع الجثمان في الصندوق، ثم تليت الصلوات، وأقبـــروه بالمكان، تحت القبة الباقية من الكنيسة. فوق المدفن وضع من الخشب. ثم عاد «دون طابيه» مع الآخرين، تاركين الكلب متكوِّماً فوق المقبرة. في البلدة لم يسألهم أحد تفسيراً.

لـــم يظهر الكلب ثانية. ففي الصباح التالي، عندما ذهب «ديفيندينتي» ليضع الرغيف المعتاد تحت الأريكة، وجد رغيف اليوم السابق ما زال باقياً. وكان الخبز ما زال هناك، في الأيام التالية أكثر جموداً بعض الشيء وكان النمل قد بدأ بالفعل يحفر فيه الخنادق والأنفاق. ومع مرور الأيام بلا جدوى، توقف «سابوري» أيضاً عن التفكير في ذلك.

-١٠-

لكـــن بعد مضي أسبوعين وفي حين يلعب «سابوري» الورق مع المعلم «لوتشوفي» والفارس «برنارديســـ» فـــي مقهى «تشينيو» إذ بشـــاب، يمعن النظر إلى الشـــارع، فيصيح: «ياه، الكلب ياه!».

يفزع «ديفينديتني» وينقل بصره في سرعة. إن كلباً قبيحاً وهزيلاً يتقدَّم في الشارع، يترنح مــن جانب لآخر وكأن رأسه مصاب بدوار! إنــه على وشك الموت جوعاً، إن كلب الناسك -كما يذكره سابوري- أسمن وأكثر حيوية بالتأكيد. لكن من يدري ما يؤول إليه حيوان بعد أسبوعين مــن الصوم. ولــدى الفرَّان انطباع بأنه يعرفه. ربما استسلم الكلب للجوع بعد أن ظل مدة يبكي فوق المقبرة فترك سيده ونزل يبحث عن طعام في البلدة.

«قريباً سوف تصعد روحه» هكذا يقول «ديفينديتني» متضاحكاً ليظهر عدم اكتراثه.

عندئذ يقول «لوتشوني» بابتسامة مريبة وهو يلم مروحة أوراق اللعب: «أرجو ألا يكون هو ذاته».

– «هو من؟».

فيستأنف «لوتشوني» كلامه قائلاً: «أرجو ألا يكون كلب الناسك .

يتحمســ بطريقة غريبة الفارس «برناردیس» بطــيء الفهم: «لكنني رأيت ذلك الكلب من قبل. إنني رأيته بالذات في هذه الناحية، ألم يكن ملكاً لك من قبل يا «ديفينديتني»؟».

–«ملك لي؟ وكيف يتسنى أن يكون لي؟».

يؤكد «برناردیس» قائلاً: «أرجو ألا أكون مخطئاً لكن يبدو لي أنني رأيته ناحية مخبزك».

فيحســ «سابوري» بعض الارتيــاح ويقول: إيه... يتجول هناك كثيــر من الكلاب، ومع ذلك يجوز، لكنني بالتأكيد لا أذكر».

فيؤكــد «لوتشونــي» برأسه في جدية، كما لو كان يكلِّم نفسه. ثم يضيف: «نعم، نعم لا بد أن يكون هو كلب الناسك».

فيسألــه الفــران وهو يحاول الضحك: «ثم ولماذا...؟ ثم ولمــاذا لا بد أن يكون ذلك هو كلب الناسك بالذات؟».

«معقول، فاهم؟ الهزال معقول، أحسبها. لقد بقي أياماً عدة فوق المقبرة، هكذا تفعل الكلاب دائماً... ثم واتته الشهية... وها هو في البلدة...».

يسكــت الفرَّان. ف حين الحيــوان يجوب بنظره من حوله ويحملــق لحظة، من خلال زجاج المقهى، في الرجال الثلاثة الجالسين. يتمخَّض الخباز.

يقــول الفارس «برناردیس»: «نعم إنني رأيته من قبل، أكثر من مرة رأيته، بالذات ناحيتك» ثم ينظر إلى «سابوري».

يقول الفرَّان: «جائز، جائز، أنا لا أذكر...».

ويقول «لوتشوني» بابتسامة ماكرة: «كلب كهذا لا أحتفظ به عندي ولو في مقابل ذهب الدنيا كله».

فيسأله «برنارديس» مفزوعاً: «مسعور؟ هل تعتقد أنه مسعورٌ؟».

– «أي مسعور! بالنسبة إليّ، لا يعطيني أي أمان كلب كهذا... كلب رأى الله!».

– «ماذا تعني بأنه رأى الله؟».

– «ألم يكن كلب الناسك؟ ألم يكن معه عندما كانت تسطع تلك الأنوار؟ أعتقد أن الجميع يعرفون ماذا كانت هذه الأنوار! والكلب ألم يكن معه؟ أتريد أن تقول إنه لم يرها؟ أتريد أن تقول إنه كان نائماً في حضور منظر كهذا؟» ويضحك في استمتاع.

ويعود الفارس قائلاً: «هراء! من يدري ماذا كانت تلك الأنوار. أما من شيء غير الله! متى هذه الليلة ظهرت...؟».

فيقول «ديفينديتي» بأمل واهٍ: «أتقول هذه الليلة؟».

– «بعيني رأسي رأيتها. لم تكن قوية كالمرات السابقة. لكنها ظهرت بوضوح».

– «لكن أمتأكد أنت؟ هذه الليلة؟».

– الليلة تباً لك. هي الأنوار السابقة نفسها... أتريد أن تقول: إن الله موجود هذه الليلة؟

أما وجه «لوتشوني» فيبتسم بمكر فائق: «ومن قال لك. من قال لك: إنَّ الأنوار هذه الليلة لم تكن من أجله؟».

– «من أجل مَنْ؟».

– «من أجل الكلب. طبعاً، ربما هذه المرة بدلاً من الله نفسه كان الناسك، قد نزل من النعيم. رآه متوقفاً على قبره، فقال لنفسه: ويح كلبي المسكين... ومن ثم نزل ليقول له أنْ يكفَّ عن التفكير فيه، فقد بكّاه بما فيه الكفاية، وأن عليه أن يذهب ليبحث عن شريحة لحم مشوي!».

فيصرّ الفارس «برناديس» قائلاً: «وما رأيكم في أنه كلب من هنا، أقسم إنّي قد رأيته يجوب حول المخبز».

– ١١ –

يعود «ديفينديتي» إلى البيت برأس مشوش. يا له من أمر سخيف كلما حاول أن يقنع ذاته أن ذلك مستحيل، ذهب به الاعتقاد أنه فعلاً كلب الناسك. لا يوجد ما يشغل البال، بالتأكيد. لكن أعليه الآن أن يستمر في تقديم الرغيف إليه كل يوم؟ يفكر: لو أنني منعت عنه الزاد. فإنه سوف يعود إلى سرقة الرغيف في الفناء، ساعتها كيف أتصرف؟ أأطرده بالركل؟ أطرد كلباً رأى الله، شئت أم لم أشأ؟ وماذا أعرف أنا عن هذه الأسرار؟

إنهـا ليست بالأشياء البسيطة. أوّل كل شيء: هل ظهـرت حقيقة روح الناسك لـ «جاليوني» الليلة السابقة؟ وماذا عساه قال له؟ هل سحره بطريقة ما؟ ربما أن الكلب يفهم الآن لغة الإنسان. مَـنْ يدري، في يوم أو آخـر ربما شرع هو أيضاً في الكلام. ينبغـي أن ننتظر كل شيء عندما يتدخل الله في الأمور، كم من أشياء تحكي! أما هو «ديفيندينتي» فقد سبق له أن كان محلاً لكثير من التهكم. فكم وكم لو أنهم عرفوا الآن أن لديه هذه المخاوف.

ذهـب «سابـوري»، قبل أن يدخل البيت، ليلقي نظرة على الكـوخ الخشبي الصغير. لم يكن رغيف الخمسة عشر يوماً الماضية موجوداً تحت الأريكة. هل حضر الكلب إذن، وحمله بما فيه من نمل وكل شيء؟

-١٢-

لكـن في اليوم التالـي لم يحضر الكلب ليأخـذ الرغيف، وكذلك لم يحضـر في الصباح الثالـث. كان هذا ما يتمنـاه «ديفيندينتي». لقد مات «سيلفيستـرو» وبموته قد انتهى كل وهم فـي إمكانية استغلالـه لصداقته. أما فيما يتعلق بالكلب، فالأفضـل أن يبقى بعيداً. ومع ذلك فعندمـا كان الفرّان يرى مرة أخرى رغيف الخبز ينتظـر وحيداً في الكوخ المهجور فإنه كان يحس بالإحباط.

ازدادت خيبـة أمله عندما رأى «جاليوني» بعد مضي ثلاثـة أيام أخرى. كان الكلب بادي الضيـق يغـدو في الميدان بهوائه البـارد، ولم يعد يبدو أنه ذلك الـذي ظهر من خلال زجاج المقهى. كان الآن جيد الاستقامة على قدميه، لم يعد يترنح، كان ما زال نحيفاً نعم لكن شعره صـار أكثر كثافة وأذناه مستقيمتيـن، وذيله جيد الانتصاب، من الذي أطعمه؟ نظر «سابوري» فيمـا حوله. كان الناس يسيرون في لا مبالاة، كما لو أن الكلب لم يوجد. وقبل منتصف النهار وضـع الفرّان رغيفاً جديـداً طازجاً مع شريحة من الجبن، تحت الأريكة المعهودة، لكن الكلب لم يظهر.

من يوم ليوم أصبح «جاليوني» أكثر تألقاً، أضحى شعره ناعماً وكثيفاً كشعر كلاب السادة. لا بد أن أحداً يعتني به، وربما كثيرون في الوقت نفسه، كلٌّ دون علم الآخر. لأهداف خفية. ربما كانوا يخشون الكلب الذي رأى أشياء كثيرة، ربما أرادوا أن يشتروا رضاء الله بثمن بخس دون أن يعرِّضـوا أنفسهم لسخرية أهل البلدة. أو بلا موارية أكان لكل «تيس التفكير نفسه؟ وعندما

يأتـــي المسـاء، فهل كان كل بيت يحـــاول في الظلام أن يستميل الحيــوان إليه ليرضيه بأكلات فاخرة؟

ربمـــا من أجل ذلك لم يعد «جاليوني» يأتي لأخذ الرغيف، ربما كان لديه اليوم ما هو أفضل. ومـــا كان أحد يتكلم عن ذلك قط، حتـــى إنْ أثير موضوع الناسك ولو بالمصادفة، فإنهم يسعون إلى إنهائه فوراً. كانت الأبصار تزوغ عندما يظهر الكلب في الطريق، كما لو كان كلباً من الكلاب الضالة التي تنتشر في كل بلاد الدنيا. وفي صمت كان «سابوري» يغتاظ كشخص واتته هو أولاً فكـرة عبقرية، ثم أدرك أن الآخرين -وهم أكثر جرأة منه- استحوذوا عليها في الخفاء، وأعدوا أنفسهم لكسب ميزات لا يستحقونها.

-١٣-

سواء أكان «جاليوني» قد رأى الله أم لا، فهو بالتأكيد كلب الأفنية، الحوانيت، المطابخ، يمكث دقائق كثيرة بلا حراك وهو يلاحظ الناس. ثم يغدو صامتاً.

مـــاذا كان يختفي وراء هاتين العينين الطيبتين والحزينتيـــن؟ من المحتمل جداً أن تكون قد حلـــت بهما صورة البارئ. فماذا تركت بهما؟ أيـــد مرتعشة كانت تقدم للحيوان شطائر الحلوى وأفخـــاذ الدجـــاج. كان «جاليوني» المتخم يحملـــق في عيني الرجل، كأنه يريـــد أن يستكشف تفكيره. فكان الرجل يخرج من الحجرة، لعدم قدرته على المقاومة. وفي «تيس» لا تتناول الكلاب النزقة والضالة سوى ضربات العصي والركلات. أما مع هذا فلا أحد يجرؤ.

شيئـــاً فشيئاً أحس سكان «تيســـ» أنهم مأخوذون داخل نوع ما من المؤامرة لكن لم تواتهم شجاعة الإفصاح عنها. كان الأصدقاء القدامى يحملقون في عيون بعضهم بعضاً، باحثين عبثاً عن اعتراف صامت، كل يأمل أن يجد شريكاً. لكن من ذا الذي عليه أن يبدأ بالكلام؟ «لوتشوني» فحسب، هو الذي كان يتطرق إلى الموضوع بثبات وبلا تحفظ: «ياه! ها هو كلبنا الحاذق القميء الذي رأى الله!» كان يصرخ بذلك بوقاحة عند ظهور «جاليوني». ويضحك من طرف ثغره محملقاً في تتابع الأشخاص المحيطين به بنظرات موحية. وغالباً ما كان الآخرون يتصرفون كما لو أنهم لـــم يفهموا. ويسألون عن تفسيرات شاردة، يهزون رؤوسهم في رثاء، قائلين: «أي حكايات! لكنه أمر مضحـــك! خزعبلات نسوة». السكوت، أو أسوأ منه الانضمام إلى ضحكات المعلم كلاهما كان يمكـــن أن يورطهم. فكانوا ينهـــون الأمر كمزحة طائشة. أما لـــو كان الفارس «برنارديس»

موجــوداً، فلا بد أن تجيء إجابتـــه دائماً هكذا: «أي كلب ناسك هذا. أقول لكم إنه كلب من هنا، منذ سنوات وهو يجوب في «تيس»، كنت أراه في كل الأيام المقدسة يتجوَّل ناحية المخبز!».

-١٤-

ذات يــوم نزل «ديفيندينتي» إلــى المخزن ليجري عملية استرداد الخبــز المعهود، رفع سياج النافذة، استعــداداً لفتح باب سلة الخبز. في الفناء كانت تتعالى في الخارج، صيحات المتسولين المنتظرين، وصوتا زوجته والصبي اللذين كانا يحاولان أن يحافظا على انتظام الطابور. خلصت يد «سابوري» الخبيرة المزلاق، فتح الباب، بدأ الخبز في الانزلاق بسرعة في إحدى الزكائب. في تلك الأثناء، وفي عتمة المخزن، رأى بطرف عينه شيئاً أسود يتحرَّك. التفت منتفضاً. لقد كان الكلب.

كان «جاليونـــي» الواقف على باب المخزن يرقب المنظر بهدوء وقور. وعلى الرغم من الضوء الخافت كانت عينا الكلب فسفوريتين. تسمر «سابوري» كحجر.

«جاليوني، جاليوني» هكذا بدأ يتلعثم بنغمة مهدهدة ومدللة. «تعالَ، يا «جاليوني»، يا طيب... تعال هنا، خذ! «ورمى إليه رغيفاً. لكن الكلب لم ينظر إليه. استدار ببطء، متجهاً إلى السلم، كما لو أنه اكتفى بما رأى.

وما إنْ صار الخباز وحيداً، حتى انفجر بلعنات مريعة.

-١٥-

كلـــب رأى الله، وشمَّ عطره. من يدري أي أســـرار تعلَّمها. والرجال ينظرون بعضهم إلى بعضٍ باحثيـــن عن سند، لكن أحداً لا يتكلم. أحدهم يشرع أخيـــراً في فتح فاه ويتساءل: «وإن كانت هيَ فكرة من وحي خيالي، وإن كان الآخرون لا يفكرون فيها أبداً؟». وعندئذ يتظاهر بأن شيئاً لم يكن.

ينتقل «جاليوني» بعـــدم تكلف عجيب من مكان إلى آخر، ويدخل الحانات، والحظائر، عندما لا يتوقع أحد حضوره، هو يكون هناك في أحد الأركان، بلا حراك، يسدد النظرات بعينيه ويتشمم بأنفه.حتـــى في الليل، عندما تنام كل الكلاب الأخرى، فإن ظله يظهر فجأة على الحائط الأبيض، بخطواته المميزة المتمايلة ذات الطابع الريفي بشكل ما. أليس له منزل؟ ألا يملك مأوى؟

لم يعد الرجال يشعرون أنهم وحدهم، حتى وهم في المنزل بأبواب موصدة. يرهفون السمع دائمـــاً: لحفيف على الحشائش، بالخارج، لوقع أقدام حـــذر خفيف فوق حصى الشارع، لنباح

بعيــد. «بوك بوك بوك» هكذا يفعل «جاليونـــي» بصوت مميز. ليس غضبان، ولا هائجاً، ومع هذا فإنه يدوي في البلدة كلها.

«حسنــاً، لا عليك، ربمــا أخطأت أنا الحســاب» يقولها السمسار بعــد أن تشاجر بغضب مــع زوجته من أجل فلسين. «الغرض، هذه المرة سوف أدعهــا تمر بسلام. إنما المرة القادمة فلتمضــ...» «يعلنها «فريجيميكا» ذلك الذي يعمل بالقمين، وهــو يتراجع فجأة عن طرد العامل. «علــى العموم هي سيدة عزيزة عظيمة...» هكذا بلا توقع تنهــي السيدة «بيرانتسه» حديثها مع المدرِّســة، على عكــس ما كانت قد قالته في البداية، في حق زوجة العمدة. بوك بوك ينبح الكلب الضــال، وربما ينبح لكلب آخر، أو لظل، أو لفراشـــة، أو للقمر. ولكن لا يستبعد أن يكون نباحه لسبــب مرئي، وكان الشر الإنساني قد وصل إليه من خلال الجدران، أو الشوارع، أو الحقول. لدى سماع النداء، الأجش. ويعدل السكارى المطرودون من الحانة وضعهم.

يظهــر «جاليوني» دونما انتظار في حجرة المحاســب «فيديريتش» الذي يقوم بكتابة خطاب مــن دون توقيع ليبلغ سيده، صاحــب مصنع المكرونة، أن كاتب الحسابات «روسي» له علاقات مع عناصر إرهابية، «أيها المحاسب، أي شيء تكتب؟» العينان الوديعتان تقولان هذا. يشير إليه «فيديريتش» برقة إلى الباب. «هيا، أيها الجميل، أخرج، أخرج!» ولا يجرؤ على أن ينطق بالشتائم التي تعتمل في قلبه. ثم يرهف السمع على الباب حتى يتأكد من أن الحيوان قد انصرف، ثم في حيطة أكبر يقذف بالخطاب في النار.

يظهــر، بالمصادفة البحتة، على أعتاب السلم الخشبي المــؤدي إلى شقة «فلورا» الحسناء الخليعــة. الوقت متأخر من الليــل، لكن السلالم تقوقع تحت قدمي «جويدو»، البستاني، وهو أب لخمســة أبناء. ثم تتلألأ عينان في الظلام. «لكنــه ليس هنا، يا خبر!» يقولها الرجل بصوت عالٍ حتى يسمع الحيوان، وكأنه بالفعل غاضب من اللبس. «في الظلام دائماً ما يحدث الخطأ... ليس هذا منزل مسجل العقود!» وينزل مرة أخرى بسرعة.

أو يسمــع نباحه الرخيم، همهمة شجية، على سبيل اللــوم، في حين ينفذ «بينين» و«جونفا» ليــلاً إلى مخزن موقع العمل، وقد وضعا أيديهما على دراجتين. «توني»، هناك أحد قادم يهمس «بينيــن» في شك مطلق. فيقول «جونفا»: «يبدو لي كذلــك. الأفضل أن نهرب». وينزلقان خارجاً دون أن يفعلا شيئاً.

أو يبعث بنبحة طويلة، لها طابع الشكوى، تماماً تحت أسوار المخبز في الساعة المضبوطة، بعــد أن يتم «ديفينديتي» تلك المرة إغلاق الأبواب والبوابــات خلفه، ويهبط إلى المخزن لينهب

خبــز الفقراء مــن السلة في أثناء التوزيع في الصباح. ويضغط الفران عندئذ على أسنانه، كيف تأتّــى لكلــب السوء ذلك أن يعرف؟ ويهم برفع كتفيه، ولكن الشكــوك تواتيه توّاً: لو بلغ جاليوني عنــه بطريقة ما، فإن الميراث كله سيذهــب هباء. يصعد «ديفيندينتي» ثانية إلى الدكان والجوال الفارغ مطوي تحت إبطه.

إلــى متى تستمر الملاحقــة؟ ألن يذهب الكلب أبداً؟ ولو ظل في البلــدة، فكم سنة يمكنه أن يعيش؟ أفلا توجد طريقة للتخلص منه؟

-١٦-

مــا حدث أنه، بعد قــرون من الإهمال، بدأت كنيسة الأبرشية فــي الازدحام من جديد. وفي يــوم الأحد تلتقي الصديقات القديمات بالقداس. كل لديها حجتها الجاهزة: «أتعرفين ماذا أقول لــك؟ إنه مع هذا البرد فإن المكان الأوحد الــذي يمكن أن تحتمي به جيداً هو الكنيسة. فإن لها حوائط سميكة، هذه هي المسألة أن الحرارة التي اختزنتها في الصيف تبعثها الآن... خارجاً!» وتقــول أخرى: «رجل مبارك هو القمص هنا»، دون طابيه... لقد وعدني ببذور «التريديسكانسيا» اليابانيــة. أتعرفينها، تلك الصفراء الجميلــة؟... لكن لا حيلة معه... لو أنني لم أحضر قليلاً إلى الكنيســة، ومع صلابتــه، فسوف يتظاهر بالنسيان... «وتقول أخــرى أيضاً»: أتفهمين يا سيدة «أرمينيــا»؟ أريــد أن أعمل مفرشاً من «الدانتيل» كذلك الذي هنــاك، فوق مذبح القلب المقدس. لا أستطيــع أن آخذه إلــى المنزل لأقلده. لا بد لي أن آتي هنا لأتدارســه... إيه إنه ليس بالأمر السهــل! «كل واحــدة كانت تنصت، وتبتســم لتسويغات الصديقات، وكل مــا يشغلها أن تبدو حجتها معقولة بما فيه الكفاية ثم تتهامسن كالتلميذات الصغيرات قائلات: «إن «دون طابيه» ينظر إلينا!» وتركّزن في كتاب القداس.

لــم تحضــر واحدة بلا عذر. السيدة «أرمليندا»، على سبيــل المثال لم تجد آخر غير عازف أرغن الكنيســة، كي يقوم بتعليم الغناء لطفلتها، المولعة بالموسيقا، وقد حضرت الآن لتسمعها فــي أنشودة المانيفيكات(١). وقد واعــدت الكواءة والدتها في الكنيســة، لأن زوجها لا يريد أن يراهــا بالبيت. حتى زوجة الدكتور: فقد حدث منذ دقائق قليلة، وبالضبط في الميدان، أن تعثرت قدمهــا في الأرض فالتوت، وقد دخلت كي تمكث بعض الوقت جالسة. وفي آخر رواقَي الكنيسة الجانبيين بالقرب من أماكن الاعتراف التي كساها التراب بلون رمادي، حيث كانت الظلال أكثر

كثافــة، كان يقــف هناك بعض الرجال كالأعمدة. وكان «دون طابيــه» من المنبر ينظر فيما حوله مندهشاً، لا يستطيع أن يجد الكلمات.

فــي تلك الأثناء كان «جاليوني» ممدداً في الشمس على العتبة العليا أمام باب الكنيسة: كان يبــدو وقد أعطى نفسه راحة يستحقها. عنــد الخروج من القداس ودون أن يحرك شعرة واحدة كان يتفرَّســ في كل هؤلاء الناس، تنزلق النســاء من الباب، تبتعد كل واحدة في جهة، لم تتكرم إحداهــن بإلقاء نظرة عليه، لكنهن طالما لم يبلغن الناصية فكــن يشعرن بنظراته على ظهورهن كسنين من الحديد.

-١٧-

كان ظــل أيّ يكلــب يكفي لأن يجعل من يراه يقفز قفزة فجائيــة لمجرد أنه يشبه «جاليوني» شبهــاً طفيفاً. قلق هــي الحياة حيثما يوجد أناســ قليلون، في السوق، فــي النزهة المسائية، لا يتخلــف ذو الأربع أبداً. ويبدو أنه كان يستمتع باللامبالاة المطلقة لهؤلاء، الذين ما إن ينفردوا بــه سراً حتى ينــادوه بأكثر الأسمــاء دلالاً، ويقدِّموا إليه الحلوى والفطائــر. «إيه أين نحن من الأوقات الجميلة التي ولَّت!» يعتاد الآن أن يقولها الرجال، هكذا، بشكل عام، دون تحديد السبب، ومــا من أحد إلا يفهمها فوراً. الأوقات الجميلة -يقصــدون أن يقولوا بها دون إفصاح- عندما كانــوا يستطيعون عمل ما يتراءى لهم من موبقات، فيتبادلون الكلمات عند اللزوم، ويذهبون إلى الفلاحــات في الحقول، ويا حبذا لــو امتدت أيديهم لسرقة الأشياء التافهة، ويوم الأحد يلازمون الفراش حتى منتصف النهار. الآن يستخدم أصحاب الحوانيت ورقاً رقيقاً ويزنزن ميزاناً عادلاً، لــم تعد السيدة تضــرب الخادمة، حزم «كارميني سبوزيتو» الذي يعمــل في وكالة الرهائن كل أمتعتــه لينتقل إلى المدينة، يمكث الرقيــب أول «فيناريللو» ممدداً في الشمس على الأريكة أمام نقطــة الشرطة، وهو يموت من الملل، ويتســاءل عما إذا كل اللصوص قد ماتوا. يعطيهم المذاق الجميل، ولم يعد أحد يسب الدين بطريقة عاتية كذي قبل، ذلك السبب الذي كان يعطيهم المذاق الجميل، لم يعد أحد يسب الدين إلا في الحقول الواسعة وبكثير من التحفظ، وبعد القيام بتفتيش دقيق كي لا يكون هناك كلب مختبئ خلف الأسوار النباتية.

لكــن من يجرؤ على التمرد؟ من لديــه الشجاعة أن يتناول «جاليونــي» عدة ركلات أو يقدِّم لــه شريحة لحم مزودة بالزرنيخ كمــا يتمنى الجميع سراً؟ ولا يمكنهــم حتى أن يكون رجاءهم

فـــي العناية الإلهية، لأن العناية الإلهية، كما يدل المنطق، وهـــي بالتأكيد تؤيد جانب «جاليوني» فليعتمدوا على المصادفة.

مصادفة ليلة عاصفة ذات برق وصواعق، إذ تبدو وكأنها نهاية العالم. لكن الفرَّان «ديفيندينتي سابـــوري» كان يتمتع بقوة سمع الأرنب البري فلم يمنعـــه دوي الرعد أن يتبين جلبة غير عادية أسفل في الفناء، لا بد أنهم اللصوص.

يقفز من السرير، يلتقط البندقية في الظلام وينظر إلى السفل خلال أسيجة مصراع النافذة، بـــدا له أن رأى شخصين، يحومان كي يفتحا باب المخـــزن، وعلى بريق صاعقة يرى كذلك في منتصف الفناء كلباً ضخماً مائلاً إلى السواد لا يهتز تحت وابل الأمطار. لابد أنه هو، الملعون، ربما جاء ليردع الوغدين.

يهمـــس في سريرته بسباب غليظ، يحشـــو البندقية، يفتح مصراع النافذة ببطء، بالقدر الذي يسمح بإبراز ماسورة البندقية، ينتظر ضوء برق جديد ويصوب ناحية الكلب.

تختلط الطلقة الأولى تماماً مع إحدى الرعدات. «أمسك حرامي! أمسك حرامي» بدأ الفرَّان فـــي الصياح، يعاود حشو البندقيـــة، يطلق مرة أخرى طلقاً طائشاً فـــي الظلام، يسمع وقع خطـــوات مكدودة تبتعد، ثم أصواتاً في كل المنزل، طرقـــات أبواب: جرت الزوجة، والأطفال، والصبيـــة مفزوعين. «يا سيد ديفيندينتي» هكذا نـــادى عليه صوت من الفناء «انظر لقد قتلت كلباً!».

الخطأ في هذا العالم أمر محتمل، ولا سيما في ليلة كهذه، لكن يبدو أنه هو تماماً «جاليوني» يستلقـــي بلا حراك في بركة مـــاء: لقد اخترقت رصاصة جبهته. أردته جثة هامدة. لا يفرد حتى أرجله. لكن «ديفيندينتي» لا يذهب حتى ليراه. يهبط ليتأكد أنهم لم يحطموا باب المخزن، وما إنْ وجد أنهم لم يحطموه، فقد حيًّا الجميع بتحية المساء ولاذ تحت أغطية الفراش. «أخيراً» يقولها لنفسه وهو يستعد لنوم هانئ ولكنه لم يعد يستطيع النوم.

-١٨-

في الصباح وما زال الظلام سائداً حمل صبيان الكلب الميت وذهبا لدفنه في أحد الحقول. لـــم يجرؤ «ديفيندينتي» أن يأمرهم بالسكوت: فلربما ساورهم الشك. لكنه بحث عن طريقة تجعل الأمر يمر بسلام دون مزيد من الثرثرة.

مَنْ الذي كشف الأمر؟ في المساء، أدرك الفرَّان توّاً، في المقهى أن الجميع يتفرَّسونه: لكنهم سرعان ما يعاودون سحب نظراتهم وكأنهم لا يريدون جذب انتباهه.

سأله الفارس «برنارديس» فجأة، بعد التحيات المعتادة: «أطلقنا النار، إيه، هذه الليلة؟ معركة ضخمة هيه، هذا المساء، في المخبز؟».

أجاب «ديفيندينتي» دون أن يعطي للأمر أهمية: «مَنْ يدري مَنْ كانوا؟ كانوا يريدون كسر باب المخزن، هؤلاء الملاعين، لصوص تافهون. أطلقت رصاصتين طائشتين فلاذوا بالفرار».

سأله عندئذ «لوتشوني» بنغمته التلميحية: «طائشتين؟ ولماذا لم تطلق عليهم الرصاص مادام كان بإمكانك؟».

–«في ذلك الظلام!» ماذا كنت تريدني أن أرى! لقد سمعت خربشة بأسفل عند الباب فأطلقت النار بالخارج كيفما اتفق».

–«وهكذا... وهكذا أرسلت إلى العالم الآخر حيواناً مسكيناً لم يفعل أي شر».

قال الفران وكأنه مهموم: «آه، فعلاً، لقد أصبت كلباً. مَنْ يدري كيف دخل؟ عندي لا توجد كلاب».

ران صمت. كان الجميع ينظرون إليه. تحرك «تريفاليا» بائع الأدوات المكتبية، نحو الباب قاصداً الخروج. «حسناً، مساء الخير، يا سادة». ثم قال ضاغطاً على مقاطع الكلم عن قصد: «مساء الخير أنت أيضاً يا سيد سابوري!».

فأجاب الفرَّان قائلاً: «احتراماتي»، وأدار له كتفيه. ماذا كان يقصد أن يقول ذلك الأحمق؟ هل يدينونه مثلاً، لأنه قتل كلب الناسك؟ بدلاً من أن يكونوا شاكرين له الجميل. لقد خلصهم من كابوس. والآن يلوون أنوفهم. ما الذي ألم بهم؟ لماذا لا يكونون صرحاء ولو مرة واحدة.

حاول «برنارديس» أن يشرح بطريقة غير مناسبة تماماً:

«أرأيت يا ديفيندينتي»؟ أن بعضهم يقول إنه كان من الأفضل لو لم تقتل ذلك الحيوان».

–«ولماذا؟ هل فعلتها مثلاً عن عمد؟».

–«عن عمد أو غير عمد، فاهم؟». «يقولون: إنه كان كلب الناسك، ويقولون الآن إنّه كان من الأفضل لو تُرِك وشأنه، يقولون إنه سيجلب لنا الشؤم... وأنت تعرف كيف يكون كلام الناس!».

–«وماذا أعرف أنا عن كلاب النسَّاك؟ ومسيح المسيح، أيريدون محاكمتي وما هم إلا بلهاء!» وحاول أن يضحك.

تكلم «لوتشوني» قائلاً: «اهدؤوا، اهدؤوا، يا إخواننا... مَنْ قال إنه كان كلب الناسك؟ مَنْ ذا الذي أشاع تلك الخرافة!».

قال «ديفينديتي»: «إيه، إذا كانوا هم لا يعرفون!» ورفع كتفيه.

تدخل الفارس قائلاً: «يقول ذلك أولئك الذين شاهدوه هذا الصباح حينما كانوا يدفنونه... ويقولون إنه هو تماماً، ببقعة من الشعر الأبيض في أعلى الأذن اليسرى».

-«والباقي أسود؟».

-«نعم، أسود» هكذا أجاب أحد الحاضرين.

-«وهل هو ضخم بدرجة ملحوظة؟ وبذيل كالفرشاة؟».

-«بالضبط».

-«أتريدون أن تقولوا إنه كلب الناسك؟».

-«نعم، كلب الناسك».

«إذن، فانظروا إليه هناك، ها هو كلبكم!» قال ذلك «لوتشوني» وهو يشير إلى الشارع: «إنه أكثر حيوية، وصحة عن ذي قبل!».

شحب لون «ديفينديتي» وصار كتمثال من الجص. كان «جاليوني» يتقدم بخطواته المتمايلة في الشارع، توقف لحظة كي ينظر إلى الرجال خلال زجاج المقهى، ثم استأنف طريقه هادئاً.

-١٩-

لماذا أصبح لدى المتسولين الآن انطباع بأنهم يحصلون على خبز أكثر من المعتاد في الصباح؟ لماذا ترن الآن صناديق الصدقات، التي ظلّت لسنوات وسنوات خاوية بلا عملة؟ لماذا يذهب الأطفال الآن إلى المدرسة مسرورين، بعد أن كانوا معاندين؟ لماذا يبقى العنب فوق أشجاره حتى وقت جمعه دون أن يسلب؟ لماذا يعودوا يقذفون الحصى والقثاء الفاسدة على ظهر «ماتينو» الأحدب؟ لماذا هذه الأشياء وأشياء أخرى كثيرة؟ لن يعترف أحد، فإن سكان «تيس» قرويون متحررون لن تسمعوا قولة الحق من أفواههم. إنهم يخشون كلباً، لا أنْ يعضّهم، يخشون ببساطة أن يسيء الكلب الحكم عليهم.

كظم «ديفينديتي» غيظه. وكان ذلك عبودية. حتى في الليل كان لا يستطيع التنفس. وجود الله يا له من عبء لمن لا يريده. ولم يكن الله هنا أسطورة غير مؤكدة، لم يكن وجوده مقصوراً

علـــى الكنيسة بين الشموع والبخور، لكنه كان يدور هنا وهنا في البيوت، ينقله، لو أمكن القول، كلـــب. جزء صغير جداً من البارئ، نفحـــة واهية، تحللت «جاليوني» ومن خلال عيني «جاليوني» كان يرى. ويحكم ومن دون الحساب.

متـــى يشيخ هذا الكلب؟ لو أنـــه فَقَدَ قواه على الأقل، وبقي هادئاً في أحد الأركان. لو أقعدته السنون، فلن يستطيع بعد أن يسبب هذا الضيق.

ومرت السنون فعلاً، كانت الكنيسة ممتلئة حتى في أيام العمل، لم تعد الفتيات يسرن بطول الأروقـــة، بعد منتصف الليل، يضحكـــن في مجون مع الجنود. استبـــدال «ديفيندينتي» بالسلة القديمـــة، التي تفككت من الاستخـــدام، أخرى جديدة عازفاً عن فتح الباب السري الصغير فيها (فلم تعد لديه الشجاعة أن ينتزع خبز الفقراء، طالما أن «جاليوني» ما زال يتجول. وينعس الآن الرقيب الأول «فيناريللو» على عتبة نقطة الشرطة، غاطساً في مقعد من الخيزران.

مرت السنون وشاخ الكلب «جاليوني»، كان يمشي ببطء متزايد يوماً بعد يوم، وبخطوة متثاقلة بشـــكل كبير إلى أن أصيب ذات يوم بنوع من أنواع الشلل في مفصليه الخلفيَّيْن ولم يعد قادراً على المشي.

لسوء الحظ ألمَّ به الحادث في الميدان. حينما كان في غفوة فوق السور بجانب الكنيسة الذي تنحـــدر الأرض من تحته انحداراً شديداً، وتقطعه الطرق والأزقة حتى النهر. كان الوضع مميزاً من الناحية الصحية فكان يمكن للحيوان أن يقضي حاجته الضرورية أسفل السور، نحو طريق الحشائش الوعر دون أن يتسبب في قذارة السور أو الميدان. لكنه كان مكاناً مكشوفاً، معرضاً للرياح ودون واق من المطر.

حتـــى هذه المرة كان طبيعياً ألا يظهر أحد ما لاحظه علـــى الكلب الذي كان يبعث بتأوهاته، وهو يرتعش كله، فلم تكن إصابة كلب ضال بمرض بالمنظر الطيب... أحسّ الحاضرون الذين فهموا مـــن معاناته الأليمة ما ألم به، أحسوا بخفقة في القلب، وانتعشت نفوسهم بآمال جديدة. ثانية ولو لمتر واحد. ذلك أفضل، فمن يمكنه أن يقدم له طعاماً تحت أعين الجميع؟ من هو أوّل من سيجسر على الاعتـــراف بعلاقته السرية بالحيوان؟ من هو أول من سيعرض نفسه للاستهزاء؟ من هنا بزغ الأمل في أن «جاليوني» قد يموت جوعاً.

قبل العشاء تنزه الرجال كالمعتاد بطول رصيف الميدان وهم يتكلمون في موضوعات غير ذات بال مثل مساعدة طبيب الأسنان الجديد، الصيد، أسعار خراطيش البنادق، آخر فيلم وصل البلدة. وكانوا يحفون بستراتهم خطم الكلب، الذي كان يتدلى أسفل السور قليلاً. كانت النظرات تمضي

فوق الكلب القعيد وهي تتأمل بطريقة آلية المنظر العظيم للنهر، وهو على هذا القدر من الجمال عند الغروب. نحو الثامنة أتت بعض السحب الكبيرة من الشمال، فبدأ المطر وأمسى الميدان خالياً.

لكــن في عمق الليل. تحت المطر اللحوح، ها هــي أشباح تنسل بطول المنازل كما لو كانت ذاهبة لمؤامرة آثمة. إنها تتجه منحنية ومتلصصة في قفزات سريعة نحو الميدان وهنا تتلاشى في ظلمــات الأروقة والردهات، وهي تتطلع إلى الفرصة المناسبــة. المصابيح في هذه الساعة تبعث بضوء خافت، وهي تترك مناطق فسيحة من الظلام. كم عدد الأشباح؟ ربما عشرات. تحمل للكلــب طعاماً ولكن كل واحــد قد يفعل أي شيء حتى لا يتعرف عليه أحد. الكلب لا ينام: بحذاء الســور، في مقابل خلفية الوادي السوداء هناك نقطتــان فسفوريتان خضراوان، ومن آن لآخر تتردد في الميدان ولولة شاكية قصيرة.

إنها مناورة طويلة. وأخيراً يجازف أحدهم في الوصول إلى الكلب بوجه ملثم بمنديل، وبغطاء رأســ راكبــي الدراجات وقد أنزل جيداً على الجبهة. لا يخرج أحــد من الظلمات ليتعرف عليه، فكلهم يخشون على أنفسهم كثيراً.

كانــت شخوص مجهولة تضع شيئــاً ما على سور الكنيسة، واحد تلــو الآخر، على أوقات متباعدة، تفادياً للقاء. وتتوقف التأوهات.

في الصباح وجد «جاليوني» راقداً تحت غطاء لا ينفذ منه الماء. وعلى السور، بجواره، كانت تتكدس كل خيرات الله: خبز، جبن، شرائح اللحم، بل وعاء كبير مملوء باللبن.

-٢٠-

عندما شل الكلب، اعتقدت البلدة أنه يمكنها أن تتنفس لكنه كان وهماً لم يستمر طويلاً. فمن طــرف الســور كانت عينا الحيوان تهيمان على جزء كبير مــن المساكن، على الأقل كان نصف «تيس» بأكمله يقع تحت طائلته. ومن يمكنه أن يعرف مدى حدة نظراته؟ وحتى إلى منازل أطراف البلــدة المتوارية عن مراقبة «جاليوني»، كان صوتــه يصل. والآن كيف يستعيدون عادات أزمنة ولّــت؟ كان ذلك يعني أن يعترفوا بأن الحياة قد تغيرت بسبب الكلب، وأن يعترفوا بطريقة شائنة بالســر الغيبي الذي كتموه بحــذر فائق طوال سنوات. إن «ديفيندينتي» نفسه، الذي كان مخبزه بعيــداً عن مجال نظر الحيوان، لم يعد لسبابه الشهيــر للدين، ولم يعد يحاول أن يقوم بعمليات استرداد الخبز من نافذة المخزن الصغيرة.

بــل كان «جاليوني» يأكل أكثر من ذي قبل. ويسمن كخنزير لأنه لم يعد يقوم بأي حركة. من يــدري كــم سيعيش؟ مع بدايات البرد تجدد الأمل في أن ينفــق. وعلى الرغم من أن الكلب كان مدثراً بالقماش المشمع، لكنه كان عرضة للرياح، وكان معرضاً باستمرار لأن يصاب بنزلة برد حادة.

ولكــن حتى هذه المرة حطم الماكر «لوتشونــي»كل وهم. وذات مساء، في المطعم، قال وهو يســرد قصة من قصص الصيد، إنه منذ سنــوات كثيرة مضت، أصيب كلب الصيد الخاص به بالسعار، لأنه أمضى ليلة تحت الجليد، واضطر أن يقتله بطلقة بندقية، وإن قلبه يبكي عليه حتى الآن كلما تذكره.

وقــال الفارســ «برنادريس» على عادته في تناول الموضوعات غيــر المقبولة: «وذلك الكلب القبيــح، ذلك الكلب القبيح المصاب بالشلل، فوق سور الكنيسة، الذي يستمر بعض الأغبياء في تقديم الطعام له».

قال «ديفيندينتي»: «فليصبح مسعوراً! فهو على كل حال لم يعد قادراً على الحركة!».

أجاب «لوتشوني» قائلاً: «ومن قال لك ذلك؟ السعار يضاعف قوى الجسم. لن أتعجب لو بدأ يقفز كتيس بَرِّيٍّ!».

ظل «برناردیس» حائراً: «حسناً، وإذن».

قال «لوتشوني»: «آه بالنسبة إليّ، فأنا لا يهمني، إنني أحمل دائماً معي صديقاً أميناً. وأخرج من جيبه مسدساً ثقيلاً.

فقــال «برناردیس»: «أنت! أنت! أنت الــذي لا أولاد لك! لو أن لديك ثلاثة أطفال مثلي، فتأكد أنك كنت ستهتم».

قــال المعلــم: «لقد قلت لك ما في جعبتي. فكروا أنتم الآن فــي الأمر». وأخذ يلمع على كمه ماسورة المسدس.

-٢١-

كــم سنــة مرت إذن منذ موت الناســك؟ ثلاث، أربع، خمس، من ذا الــذي يتذكر؟ في أوائل تشريــن الثاني كان القفص الخشبي لإيــواء الكلب جاهزاً تقريباً. كانــوا قد تحدثوا عنه حتى فــي المجلس البلدي، بكلمات مقتضبــة لأن الموضوع ليس على قدر كبير من الأهمية. ودون أن

يتقــدم أحد بالاقتراح الأبسط جــدّاً وهو أن يعدم الكلب أو أن ينقله إلى مكان آخر. كلّف النجار «ستيفانــو» بصنع مضجع الكلب بحيث يمكن تثبيته فوق السور، وأن يدهن باللون الأحمر حتى لا يتنافــر مــع لون واجهة الكنيسة، المبنية كلها من الطــوب الأحمر الفاقع. «يا له من عار، يا له مــن غباء!» كان الجميع يقولون ذلك لإظهار أنها فكرة الآخرين. إذن فإن الخوف من الكلب الذي رأى الله لم يعد سرّاً؟

لكــن القفص لن تقوم له قائمة أبــداً. ففي أوائل تشرين الثاني فــي حين يمر صبي الفرّان بالميدان ليذهب إلى العمل في الرابعة صباحاً كعادته، يلحظ أسفل السور شيئاً أسود لا يتحرك. يقترب منه، يلمسه، ينطلق جرياً إلى المخبز.

سأله «ديفينديتي» عندما رآه يدخل لاهثاً: «وما الذي يحدث الآن؟».

فتمتم الصبي لاهثاً: «لقد مات! لقد مات!».

-«مَنْ الذي مات؟».

-«كلب النحس ذاك... لقد وجدته مطروحاً على الأرض، لقد كان جامداً الصخر».

-٢٢-

هــل تنفّسوا الصعداء؟ هل استسلموا للمرح المجنون؟ لقد مضى أخيراً ذلك الجزء المتعب مــن الله، هذا حق، لكن ذلك كان بعــد فوات الأوان. كيف يعودون إلى الوراء؟ كيف يبدؤون ثانية مــن جيــد؟ في تلك السنين كان الشباب قد اكتسبوا عادات مختلفة. بعد كل شيء أصبح قداس الأحد ترويحاً. وحتى سب الدين، من يعرف كيف أنه يعطي الآن صوتاً مبالغاً فيه ومزيفاً. كانوا قد توقعوا إذن خلاصاً عظيماً وعلى العكس فإن شيئاً لم يتم.

ثم لو أنهم رجعوا لممارسة عاداتهم الحرة الأولى أليس معنى ذلك أنهم يعترفون بكل شيء؟ بعد كل هذه المعاناة من أجل إخفاء عارهم هل يكشفونه الآن تحت الشمس؟ إنه بلد غيَّر أسلوب حياته احتراماً لكلب. يا له من أمر يبعث على الضحك حتى فيما وراء الحدود.

ومــع ذلك: أين يدفن الحيوان؟ في الحديقة العامــة. لا، لا، أبداً في قلب البلدة لن يدفن، لقد امتــلأ كأس الناس منه بما فيه الكفاية. أفي البالوعة؟ نظر الرجال بعضهم إلى بعضٍ، ولم يجرؤ أحــد على أن يبدي رأيه. فقال أمين مجلس البلدة مخلصهم من الارتباك: «لم يرد عن ذلك شيء فــي اللوائح». أيحرقونه في القمين؟ ولو تسبب ذلك فــي العدوى؟ يدفنونه إذن في الحقول، هذا

هـــو الحل الصائب، ولكن في أي حقل؟ من ذا الذي يوافق؟ ها هم قد بدؤوا النزاع، لا أحد يريد الكلب الميت في حدود أملاكه.

وماذا لو دفن بالقرب من الناسك؟

يغلــق صنــدوق صغير على الكلب الذي رأى الله ثم يشحن على عربة ترحل به صوب التلال الصغيــرة. كان يوم أحد فيتذرع كثيرون بحجة الذهـــاب في نزهة. تتبع الصندوق ست أو سبع عربـــات محمَّلــة بالرجال والنساء، ويجتهد الناس أن يبــدوا مسرورين. ولكن على الرغم من أن الشمس ساطعة، فإن الحقول الرازحة تحت البرد، والأشجار الجرداء لا تسر الناظرين.

يصلـــون إلى التل الصغير، ينزلون مـــن العربان، ويتجهون مترجلين نحـــو أطلال الكنيسة القديمة. ويجري الأطفال أمامهم.

سمع صوت ينادي من هناك من عل. «ماما! ماما! بسرعة! تعالوا وانظروا!».

يسرعـــون الخطا، ويصلون إلى قبـــر «سيلفيسترو». منذ يوم الجنازة البعيد ذاك لم يعد أحد إلى هناك. عند أقدام الصليب الخشبي وفوق مدفن الناسك بالضبط، يرقد هيكل عظمي صغير. الجليـــد، والرياح والأمطار أتت عليه تمامـــاً، جعلته هزيلاً وأبيض مثقبـــاً كالمنخل. إنه الهيكل العظمي لكلب.

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)– وردت بالنصـــ باللاتينية Magnificat وهي تلـــك الأنشودة المنسوبة إلى ملاك العذراء في مناسبة زيارة القديســـة اليصابـــات. وتغني للعـــذراء وتبدأ بهذه الكلمـــة Magnificat... ويمكـــن أن تترجم كذلك بكلمة التعظيم:

فقالت مريم تعظم نفيس الرب «هكذا تبدأ الأنشودة».

«L'anima mia magnifica il Signore»

(لوقا ١/٤٦–٥٥).